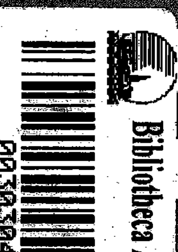
جامعة تونس
سلسلة التاريخ

كلية الآداب
منوبة

التليلي العجيلي

الطرق الصوّفية و الاستعمار الفرنسي بالبلاد التّونسية (1881 ـ 1939)









جامعـــة تونـــس I

كليـــة الآداب بمنوبـــة

سلسلة : التاريخ

مجلـد : 2

التليلي العجيلي

الطرق الصوفيّة والإستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية

(1881 - 1939)

منشورات كلية الآداب بمنـــوبة

1992

هذا الكتاب هو النص الكامل للرّسالة التي اعددتها تحت اشراف الدكتور رشاد الإمام لنيل دكتوراه المرحلة الثالثة، وقد نوقشت بكلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس يوم 23 جوان 1987.

ر د م ك 8-61-900-9973

إلى زوجتي وأبنائـــــي
الذين أخذ هذا العمل الكثير من وقتي
على حسابهم



فهرس المحتويـــــات

الفصل الثالث : علاقات الطرق الصوفية بالاستعمار الفرنسي

تقـديــــم

يسعدني أن أستـجيب إلى طلب الأستاذ التّليلي العجيلي بتـقديم كتابه: **الطرق الصّوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التّونسية (1881 ـ 1939)**، وهو التأليف الذي يكفي وحده أن يكشف لقارئه أمريْن هامّين:

الأوّل مدى قدرة المـؤلّف على الإحاطة بموضوع هام والثّاني مدى صـعوبة هذا الموضوع: فهو هام باعتبار تفرّد الكاتب بالاهتمام بقضايا بقيت بمنأى عن اهتمامات معـظم المؤرّخين وذلك رغم صلتهـا الوثيقـة بمقوّمـات حيـاة المجتـمعـات المغاربـية خاصّة، والمجتمعات العربية الاسلامية عامّة.

فلقـد تصـدّى الأستـاذ العـجيلـي بكلّ شجـاعـة لأحد هـذه المجالات الهـامّة والمعقّدة، ولم يكتف بحلّ مـعظم رموزها وخفـاياها، بل أضاف اكتشـافات هامّة وقيّمة في حلّ اشكاليّات عديدة لم تحظ بالدّرس والتدقيق المتعمّقيْن سابقا.

أمّا الأمـر الثّاني الذي وضّحـه المؤلّف للقـارئ فـهـو صـعـوبة تناول مـثل هذا الموضوع بالدّرس والتّحلـيل المعمّقيْن خـاصّة لصبغـته الدّينية الحسّاسة، وذلك لما تستوْجبه مثل هذه المواضيع ليس فقط من جرأة على مستوى الطّرح، وإنّما خاصّة لمـــا تتطلّبه من سعة اطّلاع وقدرة على فهم مختلف جوانبها.

ذلك أنّ الأمر يتعلّق بسيـر وممارسات ومواقف أشخاص نافذين لما يتـمتعون به من صـبغـة دينيـة، ومـا يحضـون به من تقـدير واحـترام في الـذّاكرة الجـمـاعيـة لمجتمعاتنا.

لذلك فـإنّه لا تخفى عـلى أحد صـعـوبة التصـدّي لكتـابة تاريخ مـثل هذه الفئات الدّينية وخاصّة فيما يتعلّق بعلاقاتها ومواقفها من الاستعمار الفرنسي سواء

عند انتصاب الحماية الفرنسية على البلاد التّونسية، أو خلال الثّلث الأوّل من القرن العشرين، وهو أمر بلقي مسؤولية جسيمة على المؤرّخ فيما يخصّ تحاليله واستنتاجاته وأحكامه.

غير أنّنا لا نحيد عن الصّواب إذا قرّرنا أن الأستاذ التليلي العجيلي تناول الموضوع من موقع العارف المتبصّر، المتجرّد من الأفكار المسبّقة، والأحكام الجاهزة، عمدته في جمع معلومات هذه الدّراسة ـ بالدّرجة الأولى ـ المصادر الأصليّة المخطوطة، وعلى رأسها وثائق الأرشيف الوطني التّونسي حيث بالخصوص السّلسلة د - المتعلّقة بالمسائل الدّينية عمومًا وبالطرق الصّوفية خصوصًا ـ والتي تتضمّن معلومات هامّة جدًّا تستغلّ بصفة كلّية وشاملة لأوّل مرّة من طرف الباحثين.

هذا إلى جانب الإطّلاع على مختلف الوثائق الأصلية والمخطوطة الموجودة في خزائن الوثائق بالبلاد الفرنسية وخاصّة بباريس في أرشيفات كلّ من وزارتيْ الحرب بفانسان والخارجية بالكي دورساي، وهي وثائق تستغلّ ـ بدورها لأوّل مرّة من طرف الدّارسين.

هذا بالاضافة - طبعا ـ إلى العديد من المصادر الأصلية الأخرى المخطوطة والمنشورة باللّغتين العربية والفرنسية، وكذلك المراجع الثّانوية من دراسات وبحوث وغيرها.

لقد أمكن للأستاذ العجيلي بفضل الموضوعية التي التزم بها، والمنهجية التي توخّاها وكذلك احاطته بمختلف جوانب الموضوع أن يفي هذه الدّراسة حقّها في مختلف فصولها ومحاورها

إنّ صدور مثل هذا العمل عن مختصّ في التّاريخ بالذّات أمر يستحق التّنويه، خاصّة وأنّه فتح مجالات اهتمام متميّزة تتجاوز إطار التّاريخ السّياسي والاقتصادي اللّذيْن تمحورتْ حولهما أغلب البحوث التّاريخية في السّابق.

وما يدعّم ما ذهبنا إليه ظهور توجّه جديد لبعض الباحثين الجامعيين الشبّان إلى مثل هذه المواضيع التي كان لي كأستاذ مشرف على هذه الأطروحة، وللأستاذ

العجـيلي الفضل في أسبقـية إثارتها والتّركيـز على ضرورة التّأليف فيـها، وقد أمكن للأستاذ العـجيلي نشر العديد من البحوث والمقـالات في مثل هذه المواضيع الهـامّة منـذ نيْله سنة 1987 لشـهادة التـعمّق في البـحث بملاحظة حسن جـدّا، وانتدابـه في نفس السّنة للتدريس ـ في مـجال اخـتصاصـه ـ بقسم التّاريخ بكـلية الأداب بمنّوبة.

كلّ ذلك يبرهن على قـدرات الأستاذ العجـيلي الممتازة في البحث والـتقصّي، وهي خصـال تجعلنا نعلّق عليه الآمـال في إضاءة العديـد من جوانب تاريخ بلادنا في الفترتيْن الحديثة والمعاصرة.

تونس في 8 جويلية 1992

الدكتور رشاد الإمام
أستاذ بكلّية العلوم الانسانية والاجتماعية
جامعة تونس الأولى



مفتاح الرّمــوز العربيــــة

خزينة الوثائق التونسية: وهي الوثائق المحفوظة في الوزارة الأولى بالقصبة.

المرجع السابق: الذي ذكر سابقا.

نفس المصدر: المصدر الذي ذكر قبل ذلك مباشرة.

[ ] الكلمات الواردة ضمن حاصرتين أضفتهما ربطًا للمعنى أو توضيحا وتعريفا ببعض المصطلحات الواردة في النصّ.

(كذا): بمعنى هكذا وردت اللّفظة في الأصل وبقيت بدون إصلاح لما قد تدلّ عليه من معاني بصورتها تلك.

(لاط): مكان الطبع غير معروف.

(لات): تاريخ الطبع غير معروف.

ط: طبعـــة

س: سلسلة، ترجمت بها الكلمة الفرنسية Série

ت: توفّي

صـــد: صندوق، ترجمت بها الكلمة الفرنسية Carton

مـل: ملف، ترجمت بها الكلمة الفرنسية Dossier

* **ملاحظـــة**: جميع التّواريخ المذكورة في هذه الدراسة ميلادية

مفتاح الرّمـــوز الفرنسيـــة

A.G.T	: Archives du Gouvernement Tunisien.
A.M.G	: Archives du Ministère de la Guerre, Château de Vincennes (Paris).
A.M.A.E.F	: Archives du Ministère des Affaires Etrangères Françaises (Quai d'Orsay; Paris).
R.G	: Résident Général de la République Française en Tunisie.
C.C	: Contrôleur Civil.
C	: Carton.
d	: Dossier.
f	: folio.
t	: tome.
C.p	: Série correspondances politiques
C.N.U.D.S.T	: Centre National Universitaire de Documentation Scientifique et Technique (Tunis)
C.D.N	: Centre de Documentation Nationale

مقدّمـــــــــة

تستـمد مـواضيع بعض البحـوث قيـمتهـا من جمـعها بين الأهمـية والتـجديد، فالأهمـية تكون من حـيث معـالجة تلك المواضـيع لقضـايا تمسّ اهتمام الـعديد من النّاس وطرحها لمسائل تشدّ انتباههــــم.

وأما التجديد فـيتمثّل في كونها حاولت سبـق غيرها من المواضيع في اثارة تلك القضايا، وتسليط الأضواء عليها، ومحاولـة إعطائها الحجم الذي تستحقه، فيكون لها ـ بذلك ـ الفـضل في طرق مجالات ظلت في معظمـها بكرا، ولعل هذه بعض مميّزات بحثنا هذا:

الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية: 1881 ـ 1939.

لماذا اخترنا هذا العنوان بالتحديد؟

ان ذلك يعود أساسا الى أسباب موضوعية من أهمها:

* ان المتأمل في تاريخ البلاد التونسية المعـاصر عامة، وتاريخ الحركة الوطنية خاصة يلاحظ ان جلّ الكتـابات والتآليف غلب عليها الاهتـمام بالناحية السيـاسية، في حين ظلت التجمّعـات الاجتماعية والمهـنية والمؤسسات الدينية في حاجـة أكيدة الى المزيد من الأضواء.

* ان الطّرق الصـوفـيـة ـــ من حـيث وجودهـا وتنظيـمهـا ـــ سـابقـة لظهـور الأحزاب السـياسية في بلادنـا في الفترة التي ندرسهـا، لذلك كان لابدّ من معـرفة دورها في حركة التـحرير التونسيـة واعطائها حجمهـا الحقيقي في المقـاومة الوطنية للمستعمر.

* ان الدّين ـ وهو أهمّ مقـومات مجتـمعاتنا العـربية الاسلاميـة ـ من المسائل الحيوية والحسّاسة في حـياة أمّتنا وبلادنا فكان لابدّ من تسليط الأضواء على الصور والأشكال التي ظهر بهـا في عصور انحطاط أمـتنا، لذلك حاولت معرفـة الأساليب والمجالات والأوجه التي عـملت السّلط الاستعمـارية على توظيفه فـيها، والمواقف والممارسات الرسمية التي كرستها باسمه.

لهذه الاعـتبارات وغـيرها، كان هذا البـحث محاولة للـكشف على وجه من

أوجه النشاطات والممارسات في تلك المجالات في فترة هامة من تاريخ تونس والتنبيه لمسائل لا تزال في حاجة الى الاضاءة والتّصحيح.

وقد حدّد هذا البحث ــ زمنيا ــ بسنة 1881 تاريخ دخول الاستعمار الفرنسي الى البلاد التونسية وانتصاب الحماية، وتحوّل الباي وحاشيته الى سلطة شكليّة.

أمّا سنة 1939 فهي ــ على مستوى الطرق الصّوفية في بلادنا ــ تاريخ انعقاد المؤتمر الطرقي الذي ــ كما سنرى ــ جاء كمحاولة لعرقلة النشاط الوطني بعد أن أخذت الأحزاب السياسية زمام المبادرة العملية على مستوى أوسع الجماهير، منافسة بذلك الطرق الصوفية، وساحبة من تحتها بساط نفوذها على معظم اتباعها، ومسجّلة بالتالي ــ بداية تقلّص شأنها.

كما مثّلت تلك السنة انتهاء دورة من تاريخ بلادنا وانطلاق أخرى ثانية بعد الحرب العالمية الثانية، وهذه الدورة الثّانية تميّزت ببداية تقلّص القوى التقليدية كالطرق الصّوفية التي كانت مهيمنة طيلة القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى، وقابل تلك الوضعية تجذّر القوى السياسية الجديدة واتّساع نفوذها على أغلب فئات المجتمع التّونسي.

لقد تطلّب منّا انجاز هذا البحث الاعتماد بالدرجة الأولى على الوثائق الموجودة في خزينة البلاد التونسية بالوزارة الأولى، وكذلك مركز التوثيق القومي والمركز القومي الجامعي للتوثيق العلمي والتقني.

كما تمّ إثراء البحث والتوسّع فيه باطّلاعنا على وثائق أرشيف كل من وزارة الخارجية الفرنسية (الكي دورسي) ووزارة الحرب (قصر فانسان) بباريس.

هذا الى جانب الاعتماد على مراجع متنوعة وتكميلية كالكتب المطبوعة والبحوث وأطروحات منشورة وغير منشورة وكذلك المقالات الواردة في العديد من الدّوريات، بالاضافة الى مسح شمل العديد من الصحف المحلية والأجنبية باللغتين العربية والفرنسية في فترات مختلفة لها علاقة مباشرة بأحداث هامة جدّت بالبلاد التّونسية في الفترة التي شملها البحث.

لقد وفّرت لنا هذه المصادر المختلفة معلومات غطّت معظم جوانب هذا الموضوع، ومكّنتنا من صياغتها في أربعة فصول خصّصت أوّلها لتقديم لمحة موجزة حول نشأة التصوّف في الاسلام وذلك بالتعرّض الى أهمّ مراحل تطوّره، ومميّزاته ومؤسّساته، وأنهيته بالتّعريف بأهمّ الطرق الصوفية بالايّالة التّونسية

والتي لها علاقة بالبحث ابتداءً من دخولها وحلولها بتونس، وانتهاءً بتوضيح أنواعها ومختلف مواردها مبرزا بذلك قيمتها وشأنها اقتصاديا واجتماعيا.

أمّا الفصل الثاني فقد خصّصته للحديث عن الأسس التي بنت عليها السّلط الاستعمارية سياستها تجاه الطرق الصوفية فوضّحت تلك الأسس والوسائل التي اعتمدتها في كل ذلك للوصول الى الأهداف التي رسمتها مسبّقا.

أما الفصل الثالث فقد ركّزت الاهتمام فيه على علاقات بعض الطرق الصوفية بالسّلط الاستعمارية في الايّالة: فبيّنت مواقفها من دخول الاستعمار، ومن تواجده بالبلاد بعد استقراره فيها، ثم مواقفها من السياسة التي توخاها المستعمر في المجالين الاجتماعي والاقتصادي، وكذلك من عدة أحداث مختلفة عرفتها البلاد طيلة الفترة التي شملها البحث

أمّا الفصل الرابع والأخير فقد خصّصته للحديث عن أهم المظاهر والعلامات الدّالة على بداية ضعف الطّرق الصّوفية، محاولا تحديد الأسباب المفسّرة لذلك سواء منها تلك التي تعود بالنّظر الى الطرق نفسها أو تلك التي تخرج على نطاقها، وأنهيت البحث بتسجيل أهم الاستنتاجات التي أمكنني الخروج بها من دراستي لهذا الموضوع.

أرجو أن أكون قد وفّقت في الالمام والإحاطة بمعظم جوانب هذا البحث الهام وأعطيتها ما تستحقّه من الاهتمام والتّوضيح، وأن أكون قد أسهمت ــ بهذه المساهمة المتواضعة ــ في إضاءة جوانب ومسائل ظلّت في أغلبها غير محلّ اهتمام من طرف العديد من الباحثين.

الفصــل الأول

الطّـرق الصّوفيــة فــي البــلاد التّونسيّــة



ان الحديث عن الطرق الصّوفية وما قامت به سلبا أو إيجابا طيلة الثماني والخمسين سنة الأولى من دخول الاستعمار الفرنسي للبلاد التّونسية، يتطلب تقديم لمحة عن تاريخ التصوّف في الاسلام، باعتبار أنّ هذه الطرق الصوفية التي سيشملها هذا البحث هي امتداد له.

I ـ التصوّف في الاسـلام :

1) نشأتـه :

التصوّف ظاهرة دينية، ومفهوم معيّن للاسلام، عرفه التاريخ الاسلامي، قوامه فلسفة روحيّة ترتكز على الذّكر، والاعتكاف وفق أساليب تربوية مُرهقة للنفس لحملها على الطاعة حتى تزكو وترتقي الى مراتب عليا من الايمان.

ولئن ذهب بعض المتصوّفة الى أن كبار الصحافة وحتى التّابعين كانوا من أهل التصوّف ـ ليُثبتوا أنه ليس دخيلا على الاسلام ـ فإن الرّاجح أنه نشأ في مطلع عصر الدولة العبّاسية، ليس فقط لاتّساع الفتوحات، وركون المسلمين الى حياة التّرف والبذخ ممّا ولّد نفورا من تلك الحياة المادية والاتّجاه نحو الزهد والانقطاع للعبادة (1) وانّما كذلك لأسباب أخرى أهمّها :

* امتزاج المسلمين بأجناس ممن أسلم من البلاد الشرقيّة، وهم أناس حديثو العهد بالاسلام، مع ما يحملونه من رواسب حضارية ـ هندية وفارسية ـ جعلت النّاحية السلوكيّة وحتى العقائدية ـ لديهم غير منطبعة كليا بطابع الاسلام، في فترة تقلّص فيها عدد ذلك النّمط الرّائع من الصّحابة، وحتى من التّابعين الذين نكّلت بالبعض منهم الدولة العباسية.

انّ الاستبداد السياسي وعجز الكثيرين عن التصدّي له، دفع البعض الى مؤاثرة السّلامة باللّجوء الى العزلة والانزواء، والتفرّغ لاصلاح النفس وهجرة المجتمع الفاسد، والتّركيز على التأمل والملاحظة، حتى تشفّ النفس وتصل درجة الاشراق.

---

1) الأزهر بن أحمد الكسراوي، الطرق الصّوفية بصفاقس، مواردها الاقتصادية ومعالمها الأثرية خلال القرنين الثاني عشر هجري ـ الثّامن والتّاسع عشر ميلادي، شهادة التعمّق في البحث، مخطوطة، 2ج، كلّية الآداب والعلوم الانسانية بتونس، 1984، ج 1، ص 16.

الا أنّ التفكير الصوفي - رغم هذه الأسباب الداخلية للعالم الاسلامي - يجد ــ على ما يبدو ــ أسسه في عقائد واردة من اليونان والهند أساسا، لها فلسفة في الحياة، تقوم على قهر النّفس وكبتها، وتحقير الدّنيا وذمّها والزهد فيها، ممّا جعل البعض يرْجع أصل كلمة «صوفية» الى الصّوف الذي كان لباس العبّاد والزهّاد، ولكنّهم «لم يختصّوا بلبس الصّوف، [وهناك] من قال. . أنه من الصّفا، [ولكن] اشتقاق الصّوفي من الصّفا بعيد في مقتضى اللّغة» (2) على حدّ قول القشيري.

وبقطع النظر عن أصل كلمة «صوفي»، فإن التصوّف سلوك في الحياة ذُو مضامين فكرية تغلّب الجانب الرّوحي على الجانب المادّي، وقد ظهر في المشرق الاسلامي في المائة الأولى والثانية للهجرة، أين لقي معارضة كبيرة من طرف أهل السنّة لغلوّ معتنقيه في الدّين، وهذا أدّى الى العديد من المقاضاة.

لقد كان لكلّ ذلك صداه في المغرب، وخاصة في تونس ــ محور بحثنا ــ والتي «ترتبط بغيرها من الأقاليم ارتباطا عضويا، يلحقها فيه ما يلحق غيرها من تطورات، ويهبّ عليها ما يهبّ على بعض تلك الأقاليم من تيّارات، يساعدها على ذلك ويهيّئها له توسّط موقعها بين الأقاليم الاسلامية، فكانت ممرّا لمختلف التيّارات الدّينية والمذهبية. . .، فما ظهر على ساحة الوجود تيّار. . . في المشرق أو في المغرب أو بالأندلس، إلا كان له صداه وتأثيره في تونس. . .» (3).

لقد كانت تونس مَعْبرا للعائدين من المشرق والذّاهبين إليه: من حجيج وتجّار وطلبة علم، تونسيّين كانوا أو جزائريين أو مغاربة أو أندلسيين، ممّا أهّلها لأن تواكب الحركة الدينية في مختلف مراحل تطورها.

من هذا المنطلق، عرفت بلادنا التصوّف وهو لا يزال في مرحلته الأولى المتمثّلة في الزّهد والورع، وقد تجلّى ذلك في العديد من الرّجالات أمثال عبدالخالق القتّات الذي عاش في القيروان في القرن الثاني للهجرة زمن الدولة الأغلبيّة، والبهلول بن راشد الذي رحل الى المشرق، وأخذ الموطّأ عن مالك، ورجع الى

---

2) أبوالقاسم عبدالكريم هوازن القشيري، الرسالة القشيْرية في علم التصرّف، القاهرة، مطبعة محمد علي صبيح، 1972/1392، ص 217.

3) عبدالجليل الميساوي، «زوايا الوسط الغربي ودورها الاجتماعي»، مجلة الحياة الثقافية، تونس، وزارة الشؤون الثقافية والأخبار، السنة 7، العدد 21، (ماي جوان 1982)، ص 55 ــ 69، ص 56.

«القيروان، فعلّم الناس العلم والزّهد، فكان القتّات من تلامـذته» (4).

كمـا نلمس آثارا ــ كـذلك ــ للزّهد بجهـة نابل حـيث يوجد «قـوم متـعبّدون، تخلّوا عن الـدنيـا، وسكنوا [جـبل آدار (5)] مع الوحـوش، لبـاسهم البـردي، وعيـشهم من نبات الأرض، ومن صيـد البحر، والدّعـوة من أكثرهـم مُستـجابة، وهذا الجبل مـعروف بالتزام هـؤلاء فيه منذ فـتحت افريقـية. . .» (6)، ويبدو أن هؤلاء الزهاد هم الذين كـانوا يعـمّرون الرباطات ويحـرسون الثّغـور، باعـتبـار أن المرابطة ضـرب من الجهـاد، علمـا وأن أوّل رباط أسّس بالبـلاد التونسـيّة هو رباط المنستير سنة 796.

كما تعدّد بناء القصور، وهي رباطات مزوّدة بمنارات للاستكشاف والتي لا تزال بعض بقاياها قائمة لحدّ الآن على السّواحل الافـريقيّة، وكلّها من التّحصينات التي قامت بها دولة بني الأغلب حماية للسّواحل الاسلامية.

لقد كـانت تلك المؤسّسـات عامرة بـالعلماء والصـالحين الذين يقومـون فيـها بكل أنواع العـبـادات ويحـرسون ـ في نفس الـوقت ـ حدود البـلاد من الغـارات الخارجية.

إلا أن الدولة الفاطميّة ـ الشيعيّة المذهب ـ أهملت تلك الرباطات، وأفرغتها من مـحـتواهـا بأن جرّدت المرابطين (المقـيمـين بالرباطات) من السّلاح وكل وسـائل القوّة، خشية مـنهم، اذ كانوا ينكرون عليها عقيدتها، ويقـاومون دعوتها، وبذلك وقع تحوّل كامل في مفـهوم المرابطة التي بفقدانها لمؤسّساتهـا وأمكنَتها صارت تعني إهمال الجـهاد، والرّكون الى الذّكـر والاعتزال، مما يوضّح الانتـقّال من الزّهد الى التصوّف.

2) تطـــــــوّره

لئن بدأ التصوّف في المائة الأولى والثّانيـة للهجرة في شكل زهد وورع تمثّل في أفراد مـعيّنين، فإنّه لم يـلبث أن صار مذهبـا قائما علـى أركان، مدعّمـة بنصوص مـؤوّلة من القرآن والحـديث يسمّى «علـم الباطن»، وقـد تجسّد في أبي الفـيض

---

4) محمد البهلي النيّال، الحقيقة التّاريخيّة للتصوّف الإسلامي، تونس، النّجاح، 1965، ص 43

5) حول بعض الأماكن المذكورة في هده الدّراسة، أنظر الخريطة بالملحق رقم 1، ص 269.

6) النيّال، المرجع السابق، ص 43.

ثوبان بن ابراهيم المشهور بذي النّون المصـــري (ت. 958)، ورابعة العدويّة (ت. 801) وغيرهما، وهو منحى لقي مناهضة شديد ة أدّت الى اتّهام أبي الغيث بن حسين المنصور الحلاّج بالزّندقة، والى قتله سنة 922.

الا أن ذلك لم يحد من تطور التصوّف وانتشاره في المائة الثالثة للهجرة، حيث أخذ البعض يدوّن أقوال أولائك المشائخ، ويسجّل مناقبهم، ويعدّد كراماتهم، ممّا مهّد ـ أساسا ـ لتدوين علم التصوّف، فظهرت العديد من المصنّفات **ككتاب اللّمع** للسرّاج الطّوسي، **وقوت القلوب** لأبي طالب المكّي، كما دوّن السّلمي تراجمهم في **الطبقات**، و«انتهى التأليف الأصيل برسالة **القشيري**. . . وما جاءبعد هؤلاء ليس إلا شرحًا. . . أما الغزالي فلم يظهر في التصوّف بكتابه الإحيَاء إلاّ بعد ما نضج التصوّف واستكمل، فتناوله سهلا ميسرًا. . .» (7).

ولم يكن المغرب العربي وخاصة تونس، بعيدة عن هذا التحوّل في تاريخ التصوّف، اذ يبدو أنّه كان معروفا بهذا الاسم في القيروان زمن الإمام سحنون (ت. 858) وتولّيه قضاء افريقية (847 ـ 854)، حيث استعان «بالصوفية» في ردّ بعض المظالم (8). كما يظهر أيضا في مسجد الدّمـــنة (9) الذي أسّسه في أوّل القرن الثالث للهجرة أبو محمد الانصاري، وقد سمّي كذلك بمسجد السّبت، لأنه كان له ميعاد «يجتمع فيه العبّاد كلّ سبت أسوة بزيارته صلّى الله عليه وسلم لمسجد قبا كل سبت» (10)، وهو احتماع أنكره عليهم البعض كيحيى بن عمر (ت 903) «الذي كان يرى هدم المسحد أنفع من وجوده، وألّف كتابا في بدعة مسجد السبت، فتصدّى له الصوفية لإذايته، ومشاغبته في حلقات دروســـه» (11).

لكن رغم ردود الفعل هذه، فإنّ الصّوفيّة في المغرب، وبالخصوص في البلاد التونسية لم تلق نفس المعارضة التي لقيتها في المشرق، وقد يعود ذلك الى اعتدالها، وخاصة الى تمكينها من نشاطها من قبل السّلط السياسية الحاكمة في

---

7) النيّال، نفس المرجع، ص 109.

8) أنظر دور الصّوفية في تحرير ما سباه أحد قوّاد سي الأعلب في النيّال، نفس المرجع، ص 143.

9) حول مسجد الدّمنة أنظر حسن حسني عبدالوهّاب، «الطبّ العربي في افريقيّة»، مجلة الفكر، تونس، الشركة التونسية لفنون الرّسم، السنة 3، العدد 1 (جويلية 1958)، ص 7 ـ 16

10) النيّال، المرجع السّابق، ص 8.

11) نفس المرجع، ص 153

العهديْن الموحّدي والحفصي، ممّا جعل المغرب يشهد انتشاراً سريعا للتصوّف الذي مهّد له بإبطال دور الرباطات، فتحوّل المرابطون شيئا فشيئا من الزّهد الى التصوّف، همّهم الذّكر والعبادة في عُزلة وانزواء.

من ذلك أن رباط المنستير تحوّل الى «أوّل زاوية بعد مسجد السّبت، قامت فيه حلقات الذّكر الجماعي، مع الضرب على الصّدر حتى الاغماء، وصار كمدرسة لتخريج الشّيوخ وتأسيس الزّوايا في عدّة جهات» (12).

من خلال هذا نتبيّن أن التصوّف ازدهر في شمال افريقيا عامة، وتونس خاصة منذ القرن الحادي عشر للميلاد، حيث ظهر العديد من رجالاته كأبي مدْين شعيْب(13)، وأبي الحسن الشاذلي (14)، ومنهما تكاثرت الطرق وتفرّعت عن بعضها البعض.

انّ هذا التّمكين للصّوفية يعود الى حدّ كبير الى السّلط السياسيّة كالدولة الحفصية التي شجعت على انتشارها لما قامت به من تحفيظ للقرآن الكريم، والحثّ على القيام بالفروض الدّينيّة، الى جانب إعانة الفقراء والمحتاجين، وهي مهام اجتماعية كانت حكومات ذلك العهد عاجزة على القيام بها.

وتواصل دعم السّلط السياسية للطرق الصّوفية خشية نفوذها ـ وخاصة احتواءً لها ـ مع الوجود العثماني، حيث كثر بناء الزوايا، وتحبيس العقارات، واستمرّ الأمر كذلك مع الحسينيين «الذين اعترفوا بالطرق الصّوفية قانونيا، وتمّ وضعها اداريا تحت اشراف رئيس عام يسمّى شيخ مشائخ »(15) طريقة ما.

---

12) نفس المرجع، ص 166 ـ 167

13) أبو مدْين شعيب، أصله من اشبيليّة، ولد سنة 1116، غادرها الى طنجة، فسبته فمرّاكش ثم فاس. أخذ الطريقة عن عبدالقادر الجيلاني (ت. 1164)، وعند رجوعه استقرّ ببْجاية حيث ذاع ذكره، وتُعرف طريقته بالطريقة المدنية، توفّي سنة 1197، حول ترجمته أنظر محمد بن محمد مخلوف، شجرة النّور الزّكية في طبقات المالكية، القاهرة، المطبعة السّلفية، 1929، ص 164

14) أبو الحسن الشّاذلي، أصله من المغرب الأقصى، بعْد ادائه لفريضة الحجّ بالصّوفية وعنهم أخذ الطريقة، وبرجوعه التقى ـ قرب تَطْوان ـ بالشيخ محمد عبدالسلام بن مَشيْش الذي أشار عليه بالتوجّه الى تونس فاستقرّ بشاذلة وهي قرية كانت جوار زاوية سيدي علي الحطّاب ومنها تردّد على مدينة تونس حيث رابط بالمغارة الموجودة بجبل الزلاّج، له تصانيف عديدة في الفقه وغيره، أنظر ترجمته في مخلوف، المرجع السّابق، ص 272.

15) الكسراوي، المرجع السابق، ج 1، ص 19.

ومن مظاهر اعتراف الحسينيين بالطرق، وتقديرهم لمشائخها، انّ حمودة باشا (ت. 1814) كان من أتباع الطريقة القادرية والمساهمين في بناء زاويتها بمنزل بوزلفة (16).

كما أنه في حربه مع الجزائر وبالتّحديد في واقعة سراط التي انتصرت فيها جيوشه، كان ضمن الحملة «جماعة من المشهورين بالفضل والصّلاح، كالشيخ أبي الحسن علي بن صالح أحد أعيان الصالحين بالكاف، وزاويته مشهورة به، وأبي المحاسن علي المازغني (ت. 1841)، والشيخ... يوسف بوحجر...، والشيخ عبدالملك الحمادي (ت.1840)، وغيرهم...» (17)، ولبلاء هذا الأخير في تلك المعركة طلب له الوزير يوسف صاحب الطابع (ت.1815) أرضا من هنشير سليانة أقيمت عليها زاوية له.

انّ هذه التّسهيلات التي لقيتها الطرق من قبل السّلط السّياسيّة في تونس، دفعت المشائخ الى تجميع الأتباع وتأسيس مراكز عرفت بالزّوايا لتربية المريدين تربية خاصة.

3) مميّزاته :

لم يلبث التصوّف ـ الذي بدأ في مرحلته الأولى كسلوك فردي ـ أن أصبح متمثّلا في جماعات تربط بينها علاقات وطيدة، تنظّم الحياة بين مختلف الأطراف المكوّنة لها، وفق خصائص تميّزها عن بقيّة التجمّعات البشرية الأخرى وتتمثّل في:

أ ـ ولاية الشيخ:

تنبع أهميّة هذا المنصب في بحثنا ـ من المنزلة التي يحتلّها في التفكير الصّوفي، ومن مكانته المرموقة لدى الأتباع، حيث عمل الاستعمار على احتوائه وتوظيفه طبقا لمصالحه.

---

16) أنظر اللمحة التاريخية عن الطريقة القادرية، ص 39 ـ 42.

17) أحمد ابن أبي الصياف، اتحاف أهل الزّمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافيّة والأخبار، تونس، المطبعة الرسميّة للبلاد التونسية، 1964، 8 ج، ج 3، ص 45.

ذلك أنّ قول الصّوفية بوجود مراتب ومقامات يوجب على السّالك تزكية نفسه وتطهيرها باتباع وسائل معيّنة كالأوراد والأذكار والتّسابيح تحت نظر الشيخ الذي هو قدوة المريد ومرشده في كل مراحل ترقّيه، لأن «المريد يحتاج الى شيخ أو أستاذ يقتدي به لا محالة. . .، إذ أن سبيل الدّين غامض، وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة، فمن لم يكن له شيخ يهديه قادة الشيطان الى طريقه. . .»! (18).

إنّ الشّيخ الذي له هذه المنزلة يستمدّ نفوذه ــ حسب الصّوفية ــ من علمه ومعرفته باللهّ، والبركة التي أصبح مالكا لها والتي أهّلته للاستمداد منه، إذ أنّ «الاستمداد من الشيخ هو استمداد من النّبي صلّى الله عليه وسلم، لأن الشيخ الصادق نائب عنه»! (19).

وبهذه الهالة القدسيّة التي أضفاها المشائخ على أنفسهم، أصبحت لهم سلطة ونفوذ على النّاس الذين اعتقدوا فيهم الصلاح والتميّز بخصوصيات روحيّة ليست موجودة عند غيرهم، فحاكوا حولهم الأساطير، ونسجوا القصص التي لعب فيها الخيال دوراً كبيراً، فغدت ضربا من الخوارق و«الفتوحات الربّانية».

غير أن نفوذ بعض مشائخ الطرق الصّوفيّة لم يكن دائما مستمدا من وسائل مشروعة، وانّما يحصلون عليه ــ أحيانا ــ بالتّرهيب وتهديد النّاس في «صحّة أبدانهم، أو ضدّ عائلاتهم وثرواتهم، كعقم النّساء، واتلاف المحاصيل، ممّا يجبر السّجذ والبسطاء على الانصياع اليهم»(20) خوفا من بطشهم، خاصة وأن من المشائخ من «يدّعي أنّ له بركة يقدر بها على قتل الأنفس ان شاءَ، وهبة الرزق أو استرجاعه، وشفاء المرضى، واستسقاء المطر، بل فيهم من يدّعي استحالة الجنين الذكر أنثى، والأنثى ذكرًا. . .»! (21).

ان هذه الوسائل وغيرها، مكّنت مشائخ الطرق من السّيطرة على عامّة النّاس

---

18) أبوحامد الغزالي، إحياء علوم الدّين،(لا ط.)، دار احياء الكتب العربية، 4 ج، (لات)، ج3، ص73.

19) محمود عبدالحليم، المدرسة الشّاذلية الحديثة وإمامها أبو الحسن الشّاذلي، القاهرة، دار النّصر للطباعة، (لات.)، ص 387.

20) MERAD (A.), Le **Réformisme Musulman en Algérie, 1925-1940, essai d'histoire religieuse et sociale,** France, Mouton, 1967, p 70.

21) خزينة الوثائق التّونسية، رسالة من أهالي الهمامة الى الوزير الأكبر خليل بوحاجب، بتاريخ 1928/4/4، س. د، صد 106، مل. 2.

وحتّى خاصّتهم سيطرة وصلت أحيانا حدّ الطاعة العمياء والتي تجسّمت بالخصوص في علاقة هؤلاء المشائخ بمريديهم.

ب ــ طاعة المريد:

تعتبر الطاعة أهمّ ركن في علاقة المريد بشيخه، وهو المستوى الذي راهنت عليه السّلط الاستعمارية في تعاملها من المشائخ لاحتوائهم وتوظيفهم، حتى تكسب من ورائهم ـ كما سنرى في هذا البحث ـ الأتباع الذين لا يعصون لهم أمرا.

وانطلاقا من المهمّة التي يضطلع بها الشيخ في التفكير الصّوفي كانت له سلطة مطلقة على المريدين تمليها عليهم التعاليم والمبادئ الصّوفيّة، وتكرّسها على مستوى الفرد بتربية خاصّة تقوم أساسا على:

* إجلال الشّيخ وتقديسه والمبالغة في محبّته، إذ «أنّ عمدة الأدب مع الشّيخ هو المحبّة له، فمن لم يبالغ في محبّة شيخه ــ بحيث يؤثره على جميع شهواته ــ لا يفلح في الطريق» (22)، وهي محبّة تقتضي أن «يحبّ الأشياء من أجله، ويكرهها من أجله، كما هو الشّأن في محبّة ربّنا عزّ وجلّ...»! (23).

* طاعته المطلقة باعتباره أعرف النّاس وأعلمهم بسواء السّبيل، لذلك كان على المريد أن يتمسّك بشيخه «تمسّك الأعمى على شاطئ النّهر بالقائد، بحيث يفوّض أمره إليه بالكلّيّة، ولا يخالفه في ورده ولا صدره...، وليعلم أن نفعه في خطأ شيخه لو أخطأ أكثر من نفعه في صواب نفسه لو أصاب...»! (24)، فصارت ــ بذلك ــ طاعة الشّيخ مقياسا ودليلا على الترقّي إذ «مادام المريد تحت حكم أستاذ، فترقّيه دائم...»! (25).

كما أن من مقتضيات تلك الطاعة التّصديق الكامل للشّيخ فيما يصدر عنه، لأن «من شرط المحبّ لشيخه أن يصمّ أذنيه عن سماع كلام أحد في الطريق غير

---

22) عبدالوهاب الشّعراني، الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصّوفية، حقّقه وقدّم له طه عبدالباقي سرور، القاهرة، المكتبة العلمية، ط 1، 1962، ص 167.

23) نفس المصدر، ص 169.

24) الغزالي، المصدر السّابق، ج 3، ص 73.

25) الشّعراني، المصدر السّابق، ص 191

شيخه، فلا يقبل عذل عاذل حتى لو قام أهل مصر كلّهم في صعيد واحد لم يقدروا أن ينفّروه من شيخه. . . » (26) !.

وبهذه المفاهيم، جُبل الأتباع على أحادية المتلقّي، والتّسليم المطلق بصحّة ما يصدر عن شيخهم الذي هو ــ دائما ــ في نظرهم على صواب وغيره على خطأ، فنتج عن ذلك رفض لكل حوار، وإقصاء لكل رأي مخالف، وتمكّن المشائخ من الاستحواذ الكامل على شخصيّة المريد الذي جعلته «الآداب الصّوفية» ــ بين يدي شيخه «كالميّت بين يدي مغسّله، لا كلام ولا حركة ولا يقدر أن ينطق بين يديه من هيبته، ولا يدخل ولا يخرج، ولا يخالط أحدا، ولا يشتغل بعلم، و لا قرآن، ولا ذكر إلا بإذنه. . . »! (27).

وبهذه الوسائل أصبح المريد رهين أوامر الشّيخ الذي لا يرفض له قولا، ولا يعترض له على أمر، فاستغلّ المشائخ نفوذهم ذلك في التحكّم والتصرّف في أتباعهم ــ كما سنرى في هذا البحث ــ ليس وفق هَوَاهُــمْ فحسب، بل وفق ما تُمليه عليهم السّلط الاستعمارية.

لقد زاد المشائخ في إحكام سيطرتهم على الأتباع بحملهم على ملازمتهم في حلقات الذّكر المطالبين باستدامته «حتى تسقط حركة اللّسان، وتكون الكلمة كأنّها جارية على اللّسان من غير تحريك، ثمّ لا يزال يواظب عليه حتى يسقط الأثر عن اللّسان وتبقى صورة اللّفظ في القلب، ثم لا يزال كذلك حتى تمّحي عن القلب حروف اللّفظ وصورته وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب، حاضرة معه، غالبة عليه. . . »! (28).

كلّ ذلك حسب آداب وشروط محدّدة ومفصّلة كالوضوء، واستقبال القبلة، واغماض العينين، والانقطاع عن الدنيا! (29).

إنّ تلك التربية الصّوفية فضلا عمّا تسبّبت فيه من ذوبان شخصية المريد أمام شيخه، قد عمّقت في الأتباع التّواكل والانصراف الكلّي عمّا يحدث في حياتهم

26) نفس المصدر، ص 168.

27) نفس المصدر، ص 189.

28) الغزالي، المصدر السّابق، ج 3، ص 75.

29) أنظر تلك الآداب في الشّعراني، المصدر السابق، ص 34 وما بعدها.

العامة، ويمسّهم مباشرة، وهو اتجاه يخدم السّلط الاستعمارية التي باركت ذلك التوجّه علما وانّ تلك العقلية قد تمّت صياغتها في مؤسسات عملت على ترسيخها في الأتباع الذين غدوا مجسّمين لها خاصة في الفترة التي ندرسها.

4) مؤسّساته:

لم يعرف المجتمع الاسلامي في فترته الأولى سوى مؤسّسة المسجد الذي لم يكن فقط مكانا للعبادة، بل كذلك للتعلّم والتّشاور وأخذ القرارات، ورغم وجود الزّهد في تلك الفترة، فإنّ الصحابة اعتكفوا في المساجد أو في منازلهم.

وبظهور الرّباطات وانتشارها على الحدود الاسلامية، انتدب المسلمون لأداء فريضة الجهاد بالمساهمة في حراسة الثّغور، فصارت الرّباطات عبارة عن ثكنات حدوديّة يتفقّه فيها المرابط الى جانب دوره العسكري.

وبتعطيل دور الرّباطات زمن الفاطميين تشتّت المعتصمون بها، واتّجهوا داخل البلاد «يبحثون لأنفسهم عن أماكن للخلوة، والعبادة في المدن والقرى، والبوادي، ممّا اضطرّ ــ في مرحلة لاحقة ــ من اشتهر منهم بعلمه وصلاحه ــ أن يقيم لنفسه مركزا في المدينة أو القرية... لاستقبال المريدين وتعليمهم العلوم الدينية...» (30)، وبدخول العالم الإسلامي مرحلة جديدة ظهرت مؤسّسات لا عهد للمسلمين بها من قبل.

أ ــ أنواعها : وتتمثّل أساسا في:

ــ الزّاوية (31):

تعتبر مؤسّسة محدثة في المجتمع الاسلامي، وتعني مكان العزلة والإنزواء للعبّاد والصّالحين، وقد لعبت ــ في المرحلة الأولى من حياتها ــ دوراً اجتماعيا هامّا تمثّل بالخصوص في تحفيظ القرآن، وإيواء طلبة العلم، وتوفير المبيت لعابري

30) الميساوي، المقال السّابق، ص 56.

31) حول مفهوم الزاوية ودورها في التاريخ الاسلامي أنظر LEVI - PROVENÇAL (E.), "Zawiya" L'Encyclopédie de l'Islam, Paris, Leyde, E.J. Brill, t. IV-2, 1934, p. 1289, 1290.

السّبيل، ولما مات مؤسّسوها دفنوا فيها، وأقيمت قباب على قبورهم التي أصبحت محلّ تقديس واعتقاد وزيارات من قبل السكّان.

لقد أدّى موت المؤسّسين الى انحراف تلك الزّوايا عن دورها الأصلي، فصارت مقصدا لالتماس البركة وطلب المنفعة، بتقديم العطايا والهدايا، وإقامة الحضرات مع ما يصاحب ذلك من أعمال الشعوذة والخوارق. ففقدت بذلك دورها الاجتماعي خاصّة بعد أن صارت ـ عن طريق الوراثة ـ تحت مسؤولية أفراد لا نصيب لهم من الصّلاح الا اسمه حوّلوها الى مقرّ طرق صوفيّة يمارسون فيها نشاطاتهم ويتمعّشون من مداخيلها.

ـ الطّريقة (32) :

تجد مبرّر وجودها في الفلسفة الصّوفيّة التي تقسّم العقيدة الاسلاميّة الى ظاهر وباطن أي شريعة وحقيقة: فالشّريعة هي «الباب الذي يدخل منه الجميع، والحقيقة هي التي لا يصل إليها إلاّ المصطفون الأخيار...، وكثيرا ما يشبّهون الشّريعة والحقيقة...، بالدّائرة ومركزها...، فالطّريقة إذًا هي الخطّ الذّاهب من محيط الدّائرة الى المركز، وكلّ نقطة على محيط الدّائرة هي مبدأ الخطّ، وهذه الخطوط ـ التي لا تُحصى وتنتهي كلّها الى المركز ـ هي طرق مختلفة...، فمهما اختلفت فالهدف واحد، لأنه لا وجود إلاّ لمركز واحد... وحقيقة واحدة...» (33).

فالطريقة بهذا المفهوم هي طريق خاص بنوع من النّاس، يتميّزون عن غيرهم برؤية معيّنة في المنهج اللاّزم اتباعه للوصول للحقيقة المطلقة عبر مراحل ومقامات محدّدة، تجتهد كلّ طريقة في استقائها من منابع ومصادر تعتقد أنّها يقينيّة.

وانطلاقا من هذا المفهوم، كانت كلّ طريقة صوفية تعتمد ـ للتّدليل على صحّتها وشرعيّتها ـ على سلسلة من الصّالحين والأعلام تتّصل دائما بالرّسول صلى الله عليه وسلم، الذي بدوره ـ حسب الطرق ـ تلقّى أوراد الطريقة

32) حول مفهوم الطريقة أنظر: MASSIGNON (L.), "Tarika", l'Encyclopédie de l'Islam, t. IV-2, pp. 700 - 750.

33) محمود عبدالحليم، المرجع السابق، ص 324 ـ 325.

وأذكارها وتعاليمها عن جبريل عليه السلام عن ربّ العزة جلّ جلاله، والرسول صلّى اللّه عليه وسلّم بدوره لقّنها لعلي ابن أبي طالب رضي اللّه عنه، وعلي لقّنها لعمر بن الخطّاب فأبي بكر الصدّيق، وهو ما تذهب إليه سلسلة الطريقة القادريّة(34).

أما الطّريقة الشّاذليّة فتتّصل بعلي بن أبي طالب رضي اللّه عنه لا عن طريق عمر وأبي بكر، وانّما عن طريق الحسن البصري (35)، شأنها في ذلك شأن الطّريقة التّيجانيّة مع ما في ذلك من اختلاف (36)، في حين تتّصل الطّريقة الخلواتيّة بعلي بن أبي طالب عن طريق ابنيْه الحسن والحسيْن (37).

فواضح أنّ الطّرق الصّوفيّة ــ وان اختلفت في ترتيب أفراد سلسلتها ــ تنتهي كلّها الى الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم باعتباره مصدرا من مصادر التّشريع الإسلامي.

على أنّ ما تجدر الإشارة إليه، هو أنّه ليست كلّ زاوية حتما مقرّا لطريقة صوفيّة، إذ هناك زوايا ظلّ دورها مقتصرا على إشاعة تحفيظ القرآن وتقديم خدمات اجتماعيّة متنوّعة، وهذه الزّوايا وان كانت كثيرة وموجودة في مختلف أنحاء الإيّالة (38) فإنّها لا تعنينا في هذا البحث الذي مداره الزّوايا التي صارت مقرّا ومحلاّ لطرق صوفيّة تقيم فيها نشاطاتها وفق أساليب معيّنة، وتحت إمرة هيكلة وتنظيم محدّدين.

ب ــ هيكلتها:

خضعت المؤسّسات الطّرقية إلى نظام هرمي يتكوّن من إطارات مختلفة المراتب، وتتكوّن أساسا ــ حسب وظيفتها ــ من:

ــ الشّيخ: يعتبر أهم إطار في الطّريقة الصّوفية له صلة وثيقة بهذا البحث، ويستمدّ نفوذه من مكانته الدّينيّة، باعتباره العارف باللّه، والقادر على تربيّة النّفوس بتشخيص عللها، وتحديد علاجها، فهو بتلك الصّفات الحاوي لكل أصناف العلوم، والمالك للكرامات، وكلّ مقوّمات الولاية والصّلاح.

34) RINN (L.), **Marabouts et Khouans, étude sur l'Islam en Algérie**, Alger, Imprimerie Adolphe Jourdan, 1899; p 180.

35) **Ibid**; p 216

36) أنظر الطرق الأصلية، ص 39 - 45

37) RINN; **op. Cit.**, p.293

38) أنظر قائمتها في خزينة الوثائق التونسية، س. د ، صد. 97، مل. ، 3

وحتّى يكسب بعض مشائخ الطّرق مزيداً من الشّرعية والنّفوذ الرّوحي على النّاس، استمدّوا نفوذهم من النّسب الشّريف: من ذلك أنّ أفراد عائلة الزّاوية القادرية بالقصور ـ بجهة الكاف ـ ينسبون أنفسهم الى آل بيت النّبي صلّى الله عليه وسلّم (39).

كما أنّ الحوسين بن ابراهيم ـ شيخ القادريّة بقفصة ـ «يرتدي العمامة الخضراء التي عرف بها المنحدرون من سلالة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم»(40) ـ الذي يذهب البشير ابن حمده شمّام الشريف شيخ الطّريقة العيساويّة بسيدي الصّوردو ـ الى أن نسبه يتّصل به (41).

ولكن رغم الصّلاح والتّقوى، والانتساب الى الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وغيرها من الصّفات التي من المفروض أن تجعل من مشائخ الطرق قدوة تتّبع، ومثالا يحتذى، فإنّ البعض منهم قد ارتكب عدّة أمور مخلّة بدورهم الدّيني، ومتنافية ومكانتهم: من ذلك أنّ شيخ طريقة سيدي أبي علي النّفطي بزاوية سيدي بومنارة بالكاف ـ العدل علاّلة بن الطاهر ـ نُسب اليه «سوء السّيرة، وتعاطي الفجور والمسكّرات. . .، وهي أمور أكّدها عامل الكاف بعد مكاتبته في الأمر. . .، وقد تعلّقت به نازلة لدى المجلس العدلي بالكاف، وصدر عليه الحكم فيها بالسّجن لمدّة شهر» (42)، في حين ملك محمد الكبير ـ شيخ القادريّة بنفطة ـ نساء سودانيات تصرّف فيهن «كما يتصرّف الشّاري في الثياب، وقد أضرّ [بهنّ] بالضرب هو وزوجته وأبناؤه. . .، وكلّ يوم يزيد في ضربهنّ بالصبّاط، واذا تكلّمت احداهنّ يقولون لها انّك مشريّة بالدّراهم، حكمك كحكم الحيوان . .»!(43).

أما مصطفى حفيد شيخ القادرية بالكاف فقد «ارتكب أموراً مستهجنة ومخلّة بالكرامة، ممّا حمّل أرباب السّلطة على التحرّج من أعماله، وإنهاء أمره إلى المحاكم ذات النّظر، كما أنّ والده، تبرّأ منه، وأبعده عنه» (44).

---

39) نفس المصدر، محمد العربي الأزهر الشّريف الى الورير الأكبر، س. د، صد. 102، مل. 2.

40) A.G.T , Le chef du bureau des Affaires indigenes au R.G. le 10/2/1932, D 111 - 11

41) خزينة الوثائق التونسية، البشير بن حمدة شمّام الى الورير الأكبر، س د، صد 126، مل. 17

42) نفس المصدر، معروض، مؤرّخ في 1930/1/27، س. د.، صد. 155، مل. 7.

43) نفس المصدر، مبروكة ومباركة وعافية وخديجة السّودانيات من برّ العبيد الى المراقب المدني بتورر، بتاريخ 22 ذي القعدة 1907/1325، س. د.، صد. 106، مل. 4.

44) نفس المصدر، مكتوب وزيري بتاريخ 1933/2/2، س. د، صد. 102. مل. 3

وبقطع النّظر عن مدى صحّة هذه الممارسات ــ التي قد يكون البعض منها مجرّد تهم لا أساس لها من الصحّة ــ فإنّه قد ثبت استغلال بعضهم لنفوذهم الرّوحي والأدبي في غير ما جُعل له، ممّا تسبّب لهم في عقوبات مختلفة شملت الحاج محمد بن عثمان الكوكي ــ شيخ القادرية بعبيدة (الكاف) الذي استعمل إجازته في الطريقة للتجوّل قصد ابتزاز أموال بسطاء العقول، فاستدعاه عامل الكاف وتسلّمها منه (45).

«كما صدر الإذن العلي بتأخير العدل علالة ــ السّابق الذكر ــ عن خطّة العدالة عام 1927، وتأخيره [أيضا] عن خطّة مشيخة الزّاوية» (46)، في حين وقع عزل مصطفى قدّور ــ السّابق الذّكر ــ عن خطّة النّيابة عن والده في مشيخة زاويتي القادريّة بالكاف وتونس (47).

إنّ هذه الأمثلة ــ فضلا على أنّها تهمّ بعض المشائخ ــ ليس المقصود من الاستشهاد بها الحطّ من قيمتهم وتشويههم، وإنّما توضيح خطر وصول بعض الأفراد الى رتبة المشيخة ــ دون أن يكونوا أهلا لها، وهو أمر عملت السّلط الإستعمارية ــ كما سنرى في هذا البحث ــ على الإستفادة منه.

ــ المقــدّم: هو ممثّل شيخ الطريقة في إحدى زواياه، ويتولّى هذه الخطّة عادة بأمر علي بعد حصوله على «اجازة» وهي عبارة عن تفويض له من الشّيخ في ممارسة مهامه لدى أتباع الطريقة بالزاوية التي التحق بها، حيث تعرّف بالمقدّم، وتحدّد سلسلة الطريقة وذكرها، وأسلوب تلقينه للأتباع.

وينتهي نصّ الإجازة ــ عادة ــ بنصح الأتباع بالتّقوى، وبطاعة المقدّم في مهمته، وهي معاني نجدها ــ على سبيل المثال لا الحصر ــ في إجازة أحمد العزوزي بن عبدالملك ــ شيخ الطّريقة الرحمانيّة بسليانة ــ للمقدّم محمد العوني الخلصي (48)، وكذلك في إجازة علي بن عيسى ــ شيخ نفس الطريقة بالكاف للمقدّم عثمان الجندوبي النّغموشي (49).

---

45) نفس المصدر، عامل الكاف الى الوزير الأكبر، بتاريخ 1919/3/11، س، د، صد. 102، مل. 9.

46) نفس المصدر، معروض وزيري مؤرخ في 1930/1/27، س. د، صد. 155، مل. 7.

47) نفس المصدر مكتوب وزيري بتاريخ 1933/2/2، س. د، صد. 102، مل. 3.

48) نفس المصدر، س د، صد97، مل. 3

49) نفس المصدر.

من خلال كل ما سبق، نتبيّن أنّ الطّرق الصّوفيّة أصبحت تمثّل تجمّعا بشريا له مقوّماته الفكرية، والإداريّة، وقوّة بشرية واقتصادية لها أهميّتها في حياة المسلمين عامتهم وحتّى خاصتهم، وهي لئن نشأت خارج البلاد التّونسيّة، فإنّها لم تلبث أن وصلت اليها، شأنها في ذلك شأن بقيّة بلدان العالم الإسلامي.

II- لمحة تاريخية عن الطرق الصوفية بالبلاد التونسية

إن الطّرق الصّوفية بالبلاد التونسيّة - في الفترة التي ندرسها - كثيرة غير أنّ ما يهمّنا منها - في هذا البحث - تلك التي تعاملت مع الاستعمار الفرنسي سلبا أو إيجابا، وهي وان كانت قليلة العدد - نسبيا - فسنركّز عليها الحديث في هذه اللّمحة التّاريخية، مع إشارات موجزة إلى الطرق الأقلّ أهميّة.

1) تاريخها:

إنّ المتأمّل في هذه الطرق الصّوفيّة يدرك أنها مقسّمة - من حيث نشأتها الى نوعين:

أ - الطرق الأصلية ونقصد بها تلك التي تولّدت عنها طرق جديدة وهي:

*** الطريقة القادريّة:** تعتبر من أهمّ الطّرق بالنّسبة الى بحثنا، لما لها من المواقف والممارسات التي سنتناولها بالدّرس المعمّق في الفصول القادمة، وقد سمّيت بالقادريّة نسبة الى مؤسّسها الأول عبدالقادر الجيلاني (50)، والبارز في تاريخها دخولها البلاد التّونسيّة مبكّرا.

ذلك أن أبا مدين شُعيب بعد أخذها عن مؤسّسها مرّ - عند رجوعه - بتونس حيث التقى ببعض مشائخها، فتمتّنت العلاقة بينهم حتى صار بعضهم يزوره في بجاية، وهذا يجعلنا نذهب الى «أن الطّريقة القادرية من أقدم الطرق الصوفية بالبلاد التونسية» (51).

لكن رغم ذلك ظلّت بدون زاوية حتى ظهور الشّيخ محمد الإمام المنزلي

---

50) عبدالقادر الجيلاني: ولد سنة 1097 بجيلان بالعراق. قدم بغداد حيث تفقّه وسمع الحديث من عدّة علماء. تصدّر للتّدريس والفتوى، ثم صار يُقصد بالزّيارة حيث أخذ عنه العديدون الطّريقة. صنّف عدّة مؤلّفات في الأصول والفروع، وله عدّة أوراد وأدعيّة في التوسّل. حول ترجمته أنظر: مخلوف، المرجع السابق، ص 164، محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، بيروت، دار المعرفة، ط 3، مجلد 3، ص 281.

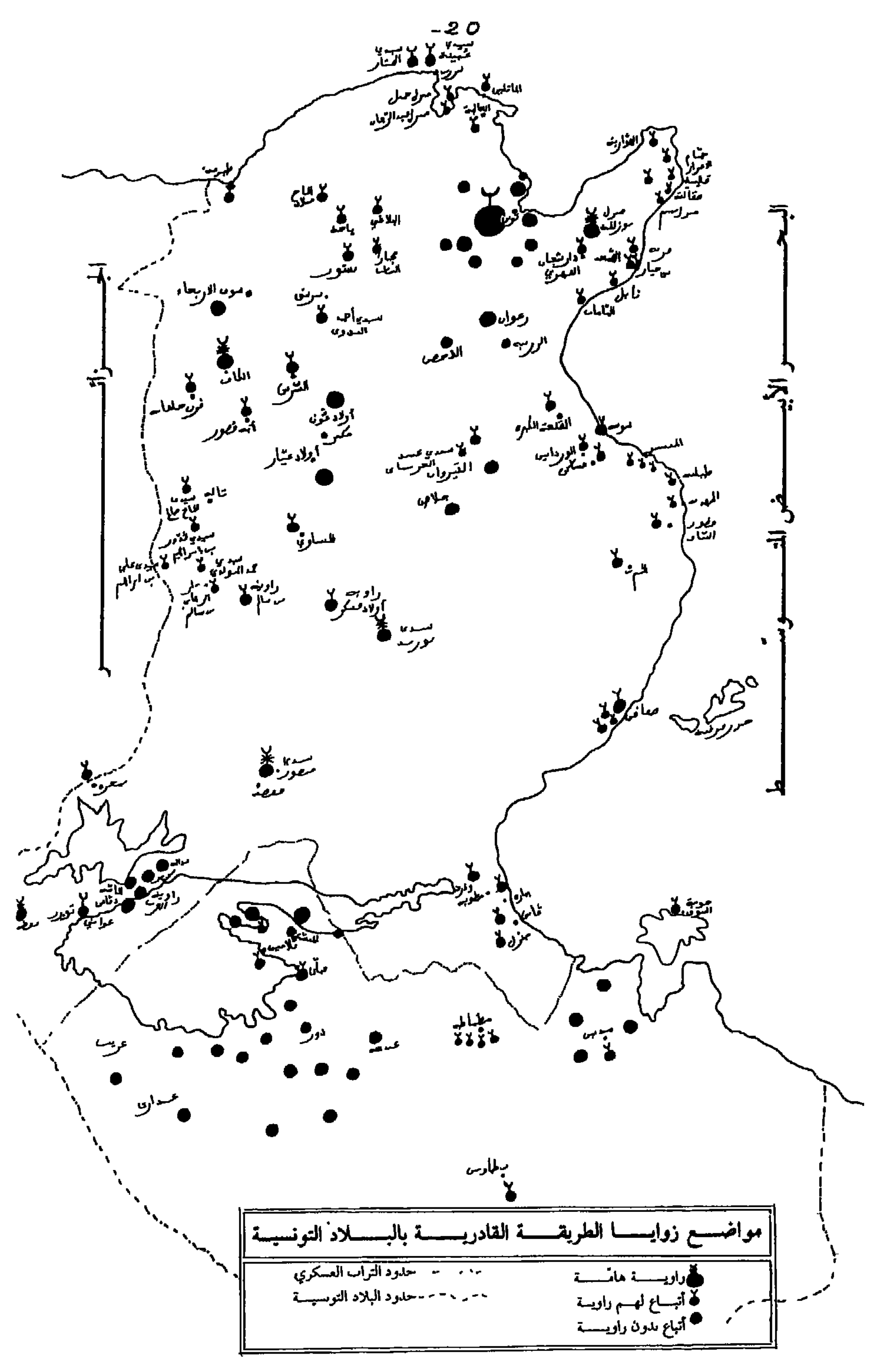
51) النيّال، المرجع السّابق، ص 321.

(ت. 1832) الذي أتمّ أوّل زاوية لها بمنزل بوزلفة بمعونة حمّودة باشا الذي اعتُبر من أوائل أتباعها.

على أنّ هذه الطريقة لم تلبث أن انتشرت في الإيّالة، فشملت معظم أنحائها (أنظر الخريطة)، حيث كان لها أتباع عديدون وصل عددهم سنة 1925 إلى 117.681 كما يبيّنه الجدول التّالي (52).

المراقبة	عدد الزوايا	العدد الجملي للأتباع
بنزرت	6	663
تونس	38	1 821
زغوان	2	172
قرنبالية	14	1 154
طبرقة	1	6.001
سوق الإربعاء	-	1.012
تبرسق	1	26 001
باجة	2	5000
الكاف	4	5.911
سوسة	11	484
مكثر	-	729
القيروان	2	12 508
تالة	7	42.036
صفاقس	5	120
قفصة	2	5000
توزر	3	1 593
قابس	4	408
جربة	1	61
مطماطة	4	74
مدنين	1	983
تطاوين	1	4 505
قبلّي	-	1 435
المجموع	**109**	**117.681**

(52) A.G.T., Confrérie mère des Kadna, p 14, D 97 - 3.



وثيقة مترجمة عن الفرنسية، خزينة الوثائق التونسية، س. د، صد. 97، مل. 3

إنّ هذه الأرقام تبرز أهميّة القاعدة الشّعبية التي تتمتّع بها هذه الطريقة في البلاد، ممّا يوضّح وزنها ونفوذها الذي عمل الإستعمار الفرنسي ـ كما سنرى ـ على توظيفه لخدمة أغراضه، علما وأنّ نفوذها المادّي والرّوحي تتقاسمه ثلاثة مراكز أساسية وهي:

* زاويتها بمنزل بوزلفة: تمارس نفوذها خاصّة على مناطق الشّمال الشّرقي من البلاد إلى الحدود الطرابلسية، حتى أنّ زوايا القادرية بجربة وقابس، وصفاقس كانت تعود إليها بالنّظر (53).

* زاويتها بالكاف: يشعّ نفوذها على كامل الشّمال الغربي من البلاد التّونسيّة إلى مقاطعة قسنطينة، وجزء كبير من مقاطعة الجزائر (54)، حيث تمارس نفوذها على أولاد بوغانم (55) وشارن، والزّغالة، وماجر، والفراشيش، وأولاد مومن والنّمامشة (56)، وصولاً الى سوق الاربعاء، وطبرقة وبنزرت في الشّمال.

* زاويتها بتوزر: رغم أنّ قادرية الجريد وليدة قادرية منزل بوزلفة، فإنّها انفصلت عنها، وأصبح لها نفوذ على أقصى الجنوب التّونسي والجزائري، وصولا الى غدامس وعين صالح (57)، هذا إلى جانب زوايا قادرية أخرى مستقلّة عن المراكز الثلاثة توجد كلها بالحاضرة (58).

---

53) DEPONT (O.) et COPPOLANI (S.), Les **Confréries religieuses musulmanes en Algerie**; Alger, Adolphe Jourdan, 1897, p. 305.

54) **Ibid.**

55) حول القبائل والعروش الوارد ذكرها في هذه الدراسة، أنظر الخريطة بالملحق رقم 2، ص 271.

56) **A.G.T.**, Confréne mère des Kadria, p. 4, D 97 - 3.

57) DEPONT et COPPOLANI; **Op. cit.**, p. 307.

58) **Ibid.** ,p. 310.

ـ الطريقة التّيجانيّـــة (59)

تنسب الى مؤسّسها سيدي أحمد التّيجاني (60)، الذي تنقّل في الصحراء لنشر طريقته ثمّ التجأ إلى فاس حيث اجتمع به الشيخ ابراهيم الرياحي (61) أثناء سفرته إلى المغرب الأقصى سنة 1803 ـ 1804 لجلب الميرة (62) فتأثّر به، وكان «بذلك أوّل من تلقّى الطريقة التّيجانية بحاضرة تونس، وتعلّق بها، ونشرها»

59) اعتبرنا الطّريقة التّيجانيّة طريقة أصليّة، باعتبار أن أحمد التيجاني تلقى أسرارها مباشرة من الرّسول صلى الله عليه وسلّم يـقظة لا منامًا على حدّ قول بعـضهم (النيّال، المرجع السابق، ص 327)، حتى أن البعض سمّاها بالطريقـة «المحمـدية» (أنظر هيفـاء الامـام، «مقـارنة بين مؤسسي الطرق الصّوفية التالية: التيـجانية، السنوسية، والمهديّة» المجلّة التاريخية المغربية، تونس مطبعـة الاتحاد العام التونسي للشغل، عدد 4 (جويلية 1975)، ص 122 ـ 123). لذلك أجمع أتبـاعها «على أنّه ليس لها سند مـثل بقيّة الطرق الصّوفيّة، كـما أنها ليـست متأثرة بأية طريقـة من الطرق التي كانت سائدة في عصرها» (الكسراوي، المرجع السابق، ص 311). لكن يذهب البعض الى أنّ مؤسّسها أحمد التّيجاني كان مـعجبا بمحمد الكردي (ت. 1780) ـ شيخ الطّريقة الحـفناوية بمصر ـ والذي التقى به عند سفره للحجّ، حيث يعتبـر الأب الرّوحي له، وقد أمره بتأسيس طريقة، ولعلّ هذا ما دفع بالبعض الى القول بأنّها متفرّعة عن الطريقة الخلواتية، أنظر: DEPONT et COPPOLANI, op. Cit, p 421, de même MARTIN (B G.), "Les Tijanis et leurs adversaires· développements récents de l'Islam au Ghana et au Togo" in · Les **Ordres mystiques dans l'Islam; cheminements et situation actuelle,** Belgique, l'Imprimerie Orientaliste, Leuven, (Décembre 1985), p. 283.

60) أحمـد التّيجـاني، ولد سنة 1737 ـ 1738، رحل سـنة 1758 الى فـاس، ثم تلمـسان حـيث درس الحديث والتفسير وغيرهما حجّ سنة 1773 حيث التقى بالعديد من رجالات التصوّف. لطريقته أتباع كثـيرون يتـغالون فيـه الى حدّ يفـوق الوصف. توفي سنة 1814 ودفن بفاس، حـول ترجمـته أنظر مـخلوف، المرجع السـابق، ص 178 و379، وكـذلك MARGOLIOUTH "Tidjaniya", **l'Encyclopédie de l'Islam,** t. IV-2, p 784-785.

61) ابراهيم الرياحـي، ولد بتستـور سنة 1756. التـحق بالحاضـرة للتعلّم. تولّى عـدّة مناصب، كـما أرسل في عدة مـهام ديبلوماسية. له العـديد من المصنّفات. توفي سنة 1850. حول ترجمته أنظر: عمر بن علي الرّيـاحي، تعطير النّواحي بترجمة سيدي إبراهيم الرّياحـي، تونـس مطبـعة بكّار، 1904، 2 ج، ابن أبي الضـيـاف المصـدر السّابق، ج 7. ص 73 ـ 82، مـخلوف، المرجع السابق، 386 ـ 389، محمـد النّيفر، عنوان الأريب عـمّا نشـأ بالمملكـة التّونسيـة من عالم أديب، تونس، المطبعـة التّونسية، ط 1، 1936، 2 ج، ج 2، ص 67 ـ 69، محـمود إلياس، ابراهيم الرّياحي مـفكّرا وأديبا، شهـادة الكفاءة في البـحث، مخطوطة، تونس، الجـامـعة التّونسية 1978، ص 18.

62) ابن أبي الضّياف، المصدر السّابق، ج 3، ص 39.

وأقام أورادها ووظائفها»(63)، وكانت زاويته ـــ قرب حوانيت عاشور ـــ أول زاوية للطّريقة بالبلاد التونسية (64).

ورغم انطلاق هذه الطّريقة من الحاضرة، فإنها سرعان ما انتشرت في معظم أنحاء البلاد، حتى بلغ عدد أتباعها ـــ كما يوضّح الجدول التّالي ـــ 16.094 سنة 1925 (65).

المراقبة	عدد الزّوايا	العدد الجملي للأتباع
بنزرت	2	293
تونس	6	501
قرنبالية	1	51
مجاز الباب	1	201
سوق الإربعاء	1	22
باجة	-	400
الكاف	1	1.015
سوسة	3	123
تالة	-	5 350
القيروان	2	1.578
قفصة	-	500
توزر	3	555
قابس	3	406
مدنين	1	68
تطاوين	-	5.031
المجموع	**24**	**16 094**

لئن يوضّح هذا الجدول تواجد الطّريقة التيجانيّة خاصّة في الوسط

63) محمد السّنوسي، مسامرات الظّريف بحسن التّعريف، تاريخ فقهاء الدّولة الحسينية بتونس المحميّة، تونس، (لات.)، ج 1، ص 160.

64) A.G.T. , Confrérie mère des Tidjania, p 5, D 97 - 3

65) Ibid

والجنوب، فيبدو أنّ عدد أتباعها شـهد تراجعًا كبيرًا، إذ تقلّص من 40.000 سنة 1891 (66) الى 16.094 سنة 1925.

لكنّها تبقى ــ رغم ذلك ــ طريقة هامّة بالنّسبة إلى بحثنا هذا وخاصة زاويتها ببُوعرادة المعـروفة بزاوية سيـدي صالح التّيجـاني، والتي تأسّست فيـما بين 1856 و1964 (67).

ب ــ الطرق الفرعيّـــــــة:

لئن قـصرنا الحـديث ــ في الطرق الأصليّة ــ علـى طريقتين فـقط لعـلاقـتـهـما المباشـرة بموضوع البحث، وغـضضنا الطرف عن البقـيّة رغـم كثرتهـا، فإنّ القليل منها (الطرق الأصليّة) تفرّعت عنه طرق ثانويّة تجد اختلافها ــ عن الطريقة الأمّ ــ في الاسم تبعا لمؤسّسها، في حين أنّ المبادئ تكاد تكون واحدة.

ومن هذا المنطلق يمكن تقسيم الطرق الفرعيّة الى قسمين:

* الطرق المتفرّعة عن القادريّـــــة:

ليست القادرية من أقدم الطّرق الصّوفية بالبلاد التّونسيّة فحسب، بل انّها تعتبر ــ على الأقل عـدديا ــ الـطريقـة التي تفـرّعت عنهـا جلّ الطرق الفـرعيّة بالبـلاد التّونسية كما يوضّح ذلك الرسم الموالي، وتتمثّل تلك الطرق في:

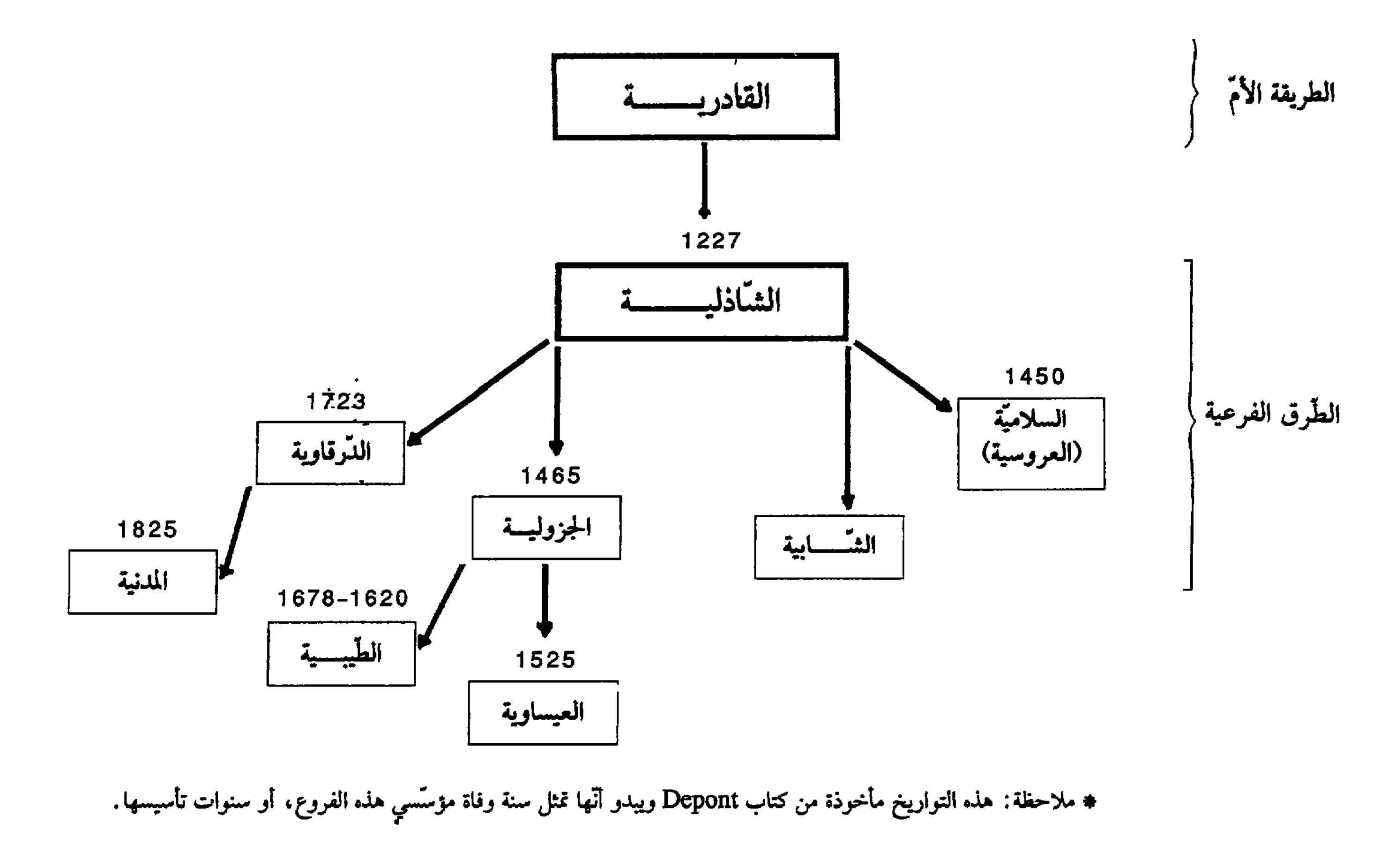
ــ الطريقة الشاذلية:

لئن حـافظ أبوالحـسـن علي بن عـمّار الشّايب المنزلي ــ الـذي أدخل الطريقـة القادرية الى الايالة من المشرق ــ على اسم الطريقة الأمّ، حيث أنشأ زاويتهـــــا الأولى بمعـيّة الشيـخ محـمد الامـام المنزلي، فـإن أبا الحـسن الشّاذلي ــ الذي أدخل الطريقة القادرية الى الايالة من الغرب ــ قـد أعطاها اسمه، علما وأن ذلك لم يمنع القادرية من الانتشار، إذ تعتبـر الطريقة الشّاذلية ــ المتولّدة عن القادرية ــ الطريقة الأمّ الثانية لجلّ الطرق الفرعـية التي وجدت بالايالة، والتي رغم تعدّدها، سنقتصر على تلك التي لها علاقة مباشرة بموضوع بحثنا وهي:

---

66) A. M. A. E. F., Note datée de Mars 1891, Protectorat Tunisie, 1er versement C 1218, Ordres religieux musulmans, 1888 - 1911

67) A.G.T, Confrérie mère des Tidjania, p. 8, D 97 - 3.



* ملاحظة: هذه التواريخ مأخوذة من كتاب Depont ويبدو أنّها تمثل سنة وفاة مؤسّسي هذه الفروع، أو سنوات تأسيسها.

ـ الطريقة المدنيـــــة :

تولّدت عن الدرقـاوية (68) المتفـرّعة بدورها عن الشّاذلـية، وقد سـمّيت بالمدنيّة نسبة الى مؤســسها ظافر المدني (69) الذي خلفه ابنـه محمـد ظافر المدني (70)، فأسّس عدّة زوايا خاصة بطرابلس الغرب، كما زار تونس وأسّس زاوية الشّيخ أبي عبدالله بصفاقس.

وقد توطّدت علاقته بالسلطان عبدالحميد (حكم 1876 ـ 1909) الذي قرّبه منه بعد أن أصبح من أتباع الطريقة، وبني له زاوية بالآستانة من ما له الخاص.

على أن الطريقة المدنية لم يكن لها بالايالة أتباع عديدون كما يوضّح ذلك الجدول التّالي لسنة 1925 (71).

المراقبة	عدد الزّوايا	العدد الجملي للأتباع
بنزرت	-	41
تونس	2	52
زغوان	1	7
مكثر	1	12
القيروان	1	201
صفاقس	1	150
قابس	-	22
المجموع	**6**	**485**

68) الدرقاوية، فرع من فروع القادرية، تنسب الى مؤسّسهـا العربي بن أحمد الدرقاوي من قبيلة زرْدل بالمغرب الأقصىٰ، والذي أخـذ على عاتقه إتمام ما شرع فيـه شيخه أبي الحسن علي بن عبـدالرحمان من تصحـيح للطريقة الشّاذليـة. توفّي سنة 1723. أنظر: DEPONT et COPPOLANI, op. cit, p.170.

69) ظافر المدني، درس بالمدينة، ثم ساح في الأرض حتى انتـهى الى المغرب الأقصى أين التقى بالشيخ الدّرقاوي، فـأخذ عنه الطريقـة وتوجّه لنشرها بالمشـرق. توفّي سنة 1852 تقريبا حول تـرجمته أنظر مخلوف، المرجع السّابق، ص 383.

70) محمد ظافر المدني أخذ عن والده، وخلفه في الطريقة. تجوّل في عدة أقطار، ثم سافر الى الاستانة أين كـانت له حظوة عند السلطـان عبـدالحمـيد. له عـدّة مؤلّفـات وأوراد. توفي سنة 1909. أنظر مخلوف، المرجع السّابق، ص 411.

71) A.G.T., Confrérie des Madania, D 97 - 3.

يوضّح الجدول ضعف عـدد أتباع الطريقة بالبلاد التّونسيـة، وقد يعود ذلك الى علاقة شيخـها بالسّلطان عبدالحميد، الأمر الذي جعل السلط الإسـتعمارية تتوجّس منها خيفـة للدّور الذي يمكن لها أن تلعبه في نشر فكرة الجامـعة الاسلاميّة (72)، فضيّقت الخناق عـلى تحرّكات أتباعهـا في إطار سياستـها الراميّة الي تطويـق الطرق المناوئة لها (73).

الا أنه رغم قلّة أهميّة هذه الطريقة بالايالة فإنها تعتـبر هامة بالنّسبة إلى موضوع بحثنا، للمواقف التي كانت لها من بعض القضايا.

ـ الطريقة الشّابيـــــة:

لئن ذهب كل من ديبون Depont وكـوبولاني Coppolani الى أنّ الطريـقـة الشّابية متفـرّعة عن الطّريقة النّاصريّة (74) ـ التي انحدر منها أحـمد بن مخلوف (ت. 1492) الذي كلّف بنشرهاـ بتونس حيثـ استقرّ بالشّابة (75) ـ، فإن السيد علي الشابي اعتـبر أن ما كتبـاه ـ «جاء ـ متّسما ـ بـالخلط والاضطراب، لأنهما لم يعتمدا فيه على مصادر موثّقة...، باعتبار أنّ الشّيخ محمد بن ناصر توفّي... سنة 1669، ومعنى هـذا أنه توفّي بعد وفاة ابن مـخلوف بما لا يقلّ عن 182 سنة...» (76) ،وهو ما لا يمكن القـول بـــه.

72) الجامعـة الاسلامية: تهـدف الى تحقيق رابطة سيـاسية تجمع المسلمـين على صعيد العـقيدة الموحّدة، أساسـها تعـاليم القرآن والسنّة، بقطع النظر عن لغـاتهم، وأجناسهم ومـواطنهم، حتى يقـفوا صـفا واحدا في وجه الأطماع الأوروبية، حول تاريخها وأهدافها أنظر:
STODDARD (L.) **Le nouveau monde de l'Islam**, traduit de l'anglais, Paris, Payot, 1923, pp. 47 - 86, SANHOURY, **Le Califat: son évolution vers une société des Nations Orientales**, Paris, Geuthner, 1926, pp. 504 - 513.

73) أنظر العوامل المفسّرة لاختلاف عدد الأتباع بين الطرق في حديثنا عن ممتلكاتها المنقولة، ص 62 وما بعدها

74) الطريقة النّاصرية، طريقة صوفيّة متفرعة عن الشاذليّة، أسسها محمد ابن أحمد بن ناصر الدرعي أحد المجدّدين للطريقة الأمّ. حـصّل العلوم في فاس ومصر، ثم عاد الى مسـقط رأسه حيث أسّس زاوية بوادي درعه لنشر العلم والطريقة. توفّي سنة 1669 تقريبا، أنظر: DEPONT et COPPOLANI, **op. cit.**, p. 278.

75) **Ibid.**, p. 481

76) علي الشـابّي، العارف بالله أحمد بن مـخلوف الشّابي وفلسفته الصّوفـية، تونس، الدّار التّونسـيـة للنّشر، 1979، ص 17 و28.

وبقطـــع النّظر عن أن الطـريقة الشّابيــة انحـدرت مـن الطريقــة الناصـريّة أو لم تنحـدر، فـإنها «مـتـفرّعـة عـــن الشّاذلـيّة، شأنهـا في ذلك شـأن كـثيـر من الطرق. . .» (٧٧)، وقد شتّتـها الأتراك لوقوفهـا ضدّ التدخّل العثـماني، ولم تبرز للوجـود من جديد إلا بعد مـدة في الجريد تحت اسم «بيت الشـريعة» (٧٨)، حيث لم يكن لـها أتباع إلاّ في نفطة، وتوزر خـاصة، لكن رغم ذلك كـانت لهذه الطريقة عدة مواقف من بعض القضايا التي لها علاقة بموضوع بحثنا هذا.

* الطرق المتفرّعة عن غير القادرية:

ونقصد بها تلك التي تفرّعت عن طريقة أمّ غير القادريّـــة.

ذلك أنّ هناك طرق أخـــرى أصليـة أوجـدت لهـا طرقـا فـرعـيّة بالايّالة كالطريقة الخلواتيّة (٧٩) التي تولّدت عنها الطرق التالية:

77) نفس المرجع، ص 82، هامش 4

78) بيت الشريـعة: أسّست في عهـد الشّيخ علي بن محـمد المسـعودي الشّابي (ت. 1663)، حيث رتّب فيهـا دروسًا قارّة في مختلف الفنـون. وقد استمرّت في إشـعاعها حتى المتصف الثّاني من القرن التـاسع عشـر ميلادي، أنظـر الشابي، المقال السـابق، ص 9 و113، وكـذلك، الشّابي، «مصادر جديدة لدراسة تاريخ الشّابية»، المجلّة التاريخية المغربية، عدد 14/13 (جانفي 1979)، ص 55 ـ 81، ص 78.

79) الطريقة الخلواتيّة، تستمد تسميّتها مـن مؤسّسها الفعلي عمر الخلْواتي أحد الصّالحين، الذي عاش في عزلة تامة وفي خلوة فرديّة، توفي سنة 1398 بقيْصريّة بسوريا، أنظـر:
A.G.T., Confréne des Khelouatya Hafnaouıa, D 97-3; de même RINN; **op.cit.**, p. 290-291; DEPONT et COPPOLANI, **op. cit.** p. 162.

1398

الخلواتيّة

1735

البكريّة

1767

الحفناويّة

1793

الرحمانيّة

* ملاحظة : هذه التّواريخ تمثّل تاريخ وفاة مؤسّسي هذه الطرق

إنّ هذه الطرق المتفرّعة عن الخلواتيّة لا نجد ضمنها إلا طريقة واحدة تتعلّق أساسًا بموضوع هذا البحث، وهي الطريقة الرحمانيّة آخر ما تفرّع عن الطريقة الأمّ.

إنّ انحدار الطريقة الرّحمانيّة عن الخلواتيّة يبدو واضحا في إجازات بعض مقدّميها والتي أشارت الى سلسلة الطريقة.

تستمدّ هذه الطريقة اسمها من مؤسّسها محمد بن عبدالرحمان (80)، الذي تعلّم قليلا بالجزائر، ثم ذهب للحجّ حيث التقى — في مصر — بالشّيخ محمد سالم الحفناوي (ت. 1767)، وبعد إتمام لدراسته عاد الى الجزائر حوالي سنة 1770 لنشر الطريقة التي دخلت الايّالة التّونسية من منفذيْن:

— أوّلهما الكاف: حيث أسّس يوسف بوحجر — أحد أتباع سيدي عبدالرحمان السّابق الذّكر — زاوية رحمانيّة لم تلبث أن صارت بمثابة الزّاوية الأم للطريقة بالبلاد فيما بين 1821 و1843، تشعّ وتمارس نفوذها على أغلب جهات الشّمال الغربي أين كانت تعدّ حوالي 3000 من الأتباع سنة 1896 (81).

انّ زاوية الطريقة الرّحمانية بالكاف تعتبر بالنّسبة الى هذا البحث من أهمّ زوايا الطريقة نظرًا لما كان لها من مواقف سنركّز عليها الحديث في الفصول القادمة، وكذلك الشّأن بالنّسبة لبعض زواياها بالشّمال الغربي كزاوية سيدي عبدالملك بسليانة، وزاوية سيدي صالح بعين الصّابون التي تأسست سنة 1845.

— ثانيهما نفطة: ذلك أنه بعد احتلال الفرنسيين لجهة بسكرة بالجزائر سنة 1843، غادرها الشيخ محمد بن عزّوز شيخ الطريقة الرحمانية بها واستقرّ بنفطة أين أسّس زاوية رحمانيّة لم تلبث أن صار لها نفوذ على الوسط والوسط الغربي، ممّا حدّ من نفوذ زاوية الكاف، علما وانّ إشعاع زاوية الرحمانيّة بالجريد

---

80) DEPONT et COPPOLANI, op.cit., p 382

81) A.G.T., Confrérie Rahmanya au Kef, renseignements fournis par le C.C. du Kef, Le 13/5/1896, D 97 - 3.

وصل أوجه زمن شيخها مصطفى ابن عزّوز (82).

لقد تعدّدت في عهده الزّوايا التّابعة له، وأهمّ ما يتعلّق منها بموضوع بحثنا زاوية سيدي أحمد الزّاير التي تأسّست سنة 1847 في كدية الحلفاء، وزاوية الشيخ مبارك (ت. 1865) التي تأسّست بتالة سنة 1860، وزاوية سيدي عبدالملك بهنشير الشطّ (سليانة) التي أسّسها ابنه حسونة - شيخ الرحمانيّة بأولاد عون - وذلك في أفريل من سنة 1911.

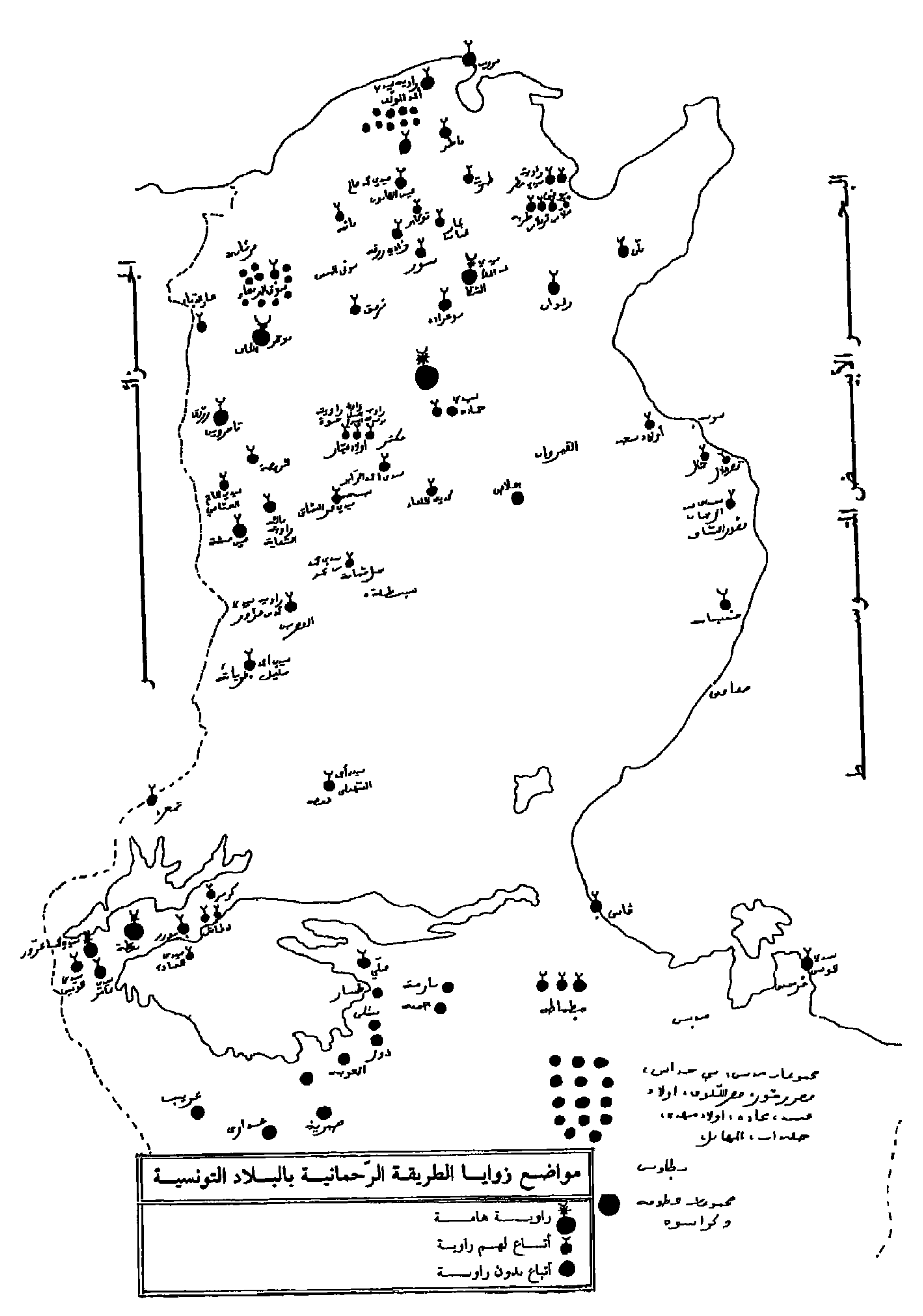
وبالتّالي فإن الطّريقة الرحمانيّة — إحدى الطرق التي لها علاقة بهذا البحث — كانت تعدّ سنة 1925 حوالي 114.761 تابعا موزّعين على أغلب الجهات (أنظر الخريطة) كما يوضّح الجدول التّالي (83) :

---

82) مصطفى بن عزّوز، دخل القطر التّونسي حيث بثّ الطريقة الرحمانيّة وأسّس زاوية له في نفطة وكان أحمد باي يعظّم شأنه، ويجلّه، واجتمع به غير مرّة وقد لعب دورًا أساسيًا في إخماد ثورة علي بن غذاهم لاغتراره بالأمان الذي أعطاه له الباي ووزيره خزندار. توفّي سنة 1866، أنظر ترجمته في، مخلوف، المرجع السّابق، ص 391، ابن أبي الصياف، المصدر السّابق، ج 8، ص142 — 143.

83) A.G.T., Confrérie des Rahmanya, D 97 - 3.

المراقبة	عدد الزّوايا	العدد الجملي للأتباع
بنزرت	4	2.562
تونس	6	5.251
زغوان	1	1 002
مجاز الباب	3	1 661
طبرقة	-	4.500
سوق الإربعاء	-	3 711
تبرسق	1	11.001
باجة	1	3.201
الكاف	2	6 567
سوسة	4	177
تالة	8	53 063
مكثر	5	3 934
صفاقس	1	20
القيروان	5	4 016
قفصة	1	·2 105
توزر	7	2 112
قابس	1	21
جهة جرجيس	1	61
جهة مطماطة	3	234
جهة مدنين	-	4.172
جهة تطاوين	-	3.514
جهة قبلّي	1	1 267
قيادة تاجروين	1	609
المجموع	**56**	**114 761**



وثيقة مترجمة عن الفرنسية، خزينة الوثائق التونسية، س. د، صد 97، مل. 3.

2) خصائصها ومواردها:

للطرق الصّوفية خصائص تربوية وموارد اقتصادية جعلت منها قوّة هامّة في البلاد عمل الاستعمار الفرنسي ـ كما سيأتي في هذا البحث ـ على الاستفادة منها واستغلالها.

أ) خصائصها:

سعيا منها لتربيّة أتباعها وتهذيبهم روحيا بتركيّة أنفسهم، والسموّ بها نحو مثل عليا، وضعت الطرق الصوفية أورادًا وأذكارًا وأدعيّة رتّبتها حسب أوقات معيّنة في شكل دورات روحيّة جماعية أو فرديّة، يتولّى المريد خلالها تكْرار عدد معيّن من الهَيْلَلَة (هي قول لا اله الا اللّه) والاستغفار، والتّسبيح والصّلاة على النّبي صلّى اللّه عليه وسلم في فترات مختلفة من اليوم واللّيْلة.

ولئن حجّرت بعض الطرق الصّوفيّة كالسّنوسيّة (84) استعمال أي نوع من آلات الطرب أثناء الذكر، فإن طرقا أخرى أباحتها، ممّا ساهم في إيجاد حالة من الوجد تخرج بأصحابها عن الاحساس بواقعهم.

ذلك أنّ الترنّم بتلك الأذكار والأوراد، وفْق نغمة موسيقيّة معيّنة، مصحوبة بالضرب على آلات الطار والبندير، والنّغرات حسب نسق يتزايد أحيانا وينقص أخرى، يؤدّي الى حالة من الاهتزاز، والوجْد عند أفراد الحضرة الذين يصلون

---

84) السنوسيّة: طريقة صوفيّة تُنسب الى مؤسّسها محمد بن علني السّنوسي الحرائري الأصل رار المغرب وتونس، وطرابلس، ومصر والحجاز، حيث أقام له راوية في حبل أبي قُبيْس، ثم رجع الى برقة وأسّس راوية البيضاء بالحبل الأخضر التي لم يلبث أن عادرها الى واحة حَغْبُوب أين توفّي سنة 1855. وتميّز طريقته حاصّة بعدائها للاستعمار، وسعيها الى توحيد المسلمين للوقوف في وجهه، كما كانت خاليّة من بعض الممارسات التي تقع في حضرات بعض الطرق الأخرى أنظر «السّنوسي»، حريدة الصّواب، توس، المطبعة التونسية بهج سوق البلاط، السة 2، ليوم 1911/10/27، ص 3، هيفاء، المرجع السابق، ص 123، وكذلك،

A G.T., Note sur les Snoussia en Tunisie, D 97-3; de meme RINN, **op.cit**, p 502, ANDRE (F.); **Contribution a l'étude des Confréries religieuses musulmanes;** Alger, Maison des Livres, 1956, p. 71 - 72

الى درجة لا يتمالكون فيها عن الإتيان بأعمال تبْدو مستحيلة على الانسان العادي.

من ذلك أن أتباع طريقة سيدي أبي علي النّفطي (85) «يبْهرون المتفرّجين بوضعهم لألسنة النّار في مواضع مختلفة من أجسامهم دون أن يحترقوا» (86).

أمّا أتباع الطريقة السّلاّمية (87) فإنهم يمسّون المناجل المحامّاة (88)، ويشعلون «بقايا من الحلفاء يضعونها ملتهبة تحت ملابسهم، ثم يخرجونها دون أن تحترق ثيابهم أو جلودهم»! (89).

وتصل هذه الأعمال قمّتها مع أتباع الطّريقة العيساويّة (90) الذين يضربون «أنفسهم بالمدي في حالة الغيْبوبة، ويأكلون الزجاج، ويقبضون على الحديد المحمّى ويزدردون الأفاعي» (91).

كلّ ذلك تأسّيًا بمؤسّس طريقتهم الذي ــ كما تقول الأسطورة ــ لمّا اشتدّ الجوع بأتباعه ــ بعد أن طلب منه سلطان مكناس مغادرة المدينة ــ أمرهم بأن يقتاتوا بما يجدونه أمامهم كالحجارة والأفاعي، التي ما أن يضعوها في أفواههم حتى تستحيل الى طعام لذيذ (92) على ما يقولون.

---

85) أبوعلي النّفطي. ولد بنفطة، وكان من المتحمّسين لمذهب أهل السنّة المنكرين على غيرهم من الفرق كالخوارج الذين ألّف في الردّ عليهم توفي سنة 1213، أنظر · النيال، المرجع السابق، ص 213، وكذلك RINN, op. cit, p 120.

86) DEPONT et COPPOLANI, op. cit P 160

87) السّلاّمية. تنسب الى مؤسّسها سيدي عبدالسّلام الأسمر، من مواليد فاس ساح في البلاد الافريقية أسّس زاوية له بزليطن بطرابلس سنة 1537، أنظر مخلوف، المرجع السابق، ص 318.

88) A.G.T, Sellamya à Souk - el - arbaâ, p 2, D 97 - 3

89) Ibid, Sellamya à Kairouan, p. 2, D 97 - 3

90) العيساويّة. طريقة صوفيّة أسّسها محمد بن عيسى أصيل مكناس، والذي بعد حجّه انتمى الى الطريقة الشاذليّة، الا أنّه بعد رجوعه أنشأ طريقة حملت اسمه. دخلت البلاد التّونسيّة مند القرن السّادس عشر للميلاد، حيث لم تلبث ان انتشرت بسرعة، فصارت لها سنة 1925، 144 زاوية و534 37 من الأتباع. أنظر · RINN, op. Cit, p. 269

91) النيّال، المرجع السابق، صد 336

92) A.G.T, Confrérie mère des Aissaoua, p 1; D 97 - 3

إنّ هذه الأعمال ـ فضلا على أنها تصعب على الانسان العادي ـ قد ساهمت في فقدان الأتباع لوعيهم والشّعور بواقعهم، وهي ممارسات شجّعها الإستعمار الفرنسي لصرف اهتمامات المريدين عنه، وتوجيهها إلى مجالات أخرى، حتّى يتفرّغ هو لتنفيذ مخطّطاته دون أن يجد من يقف في سبيله، الأمر الذي يكشف عن الدور السّلبي الذي لعبته بعض الطّرق تجاه أتباعها، وتجاه ما يتطلبه واقع البلاد آنذاك.

ب ـ مواردهـــا:

تنبع أهميّة وعلاقةموارد الطرق الصوفيّة بموضوع هذا البحث من ضرورة توضيح القوّة الاقتصاديّة التي كانت تتمتّع بها، والتي كانت وراء نفوذها على أتباعها، وهو نفوذ عمل الإستعمار الفرنسي على الإستفادة منه كما سيأتي في هذا البحث. على أنّ المتأمّل في هذه الموارد لا يتبيّن تنوّعها فحسب، بل يفاجأ بضخامتها، وتتمثّل أساسًا فـي:

* المتلكات العقارية: تتكوّن من البساتين، والأجنّة والأراضي الزراعيّة المتأتّية في أغلبها من الوقْف.

والوقْف تحبيس عقارات على أطراف معيّنة بمقتضى عقْد التّحبيس الذي ينصّ على الأوجه التي تنفق فيها موارد العقارات المحبّسة.

ولئن كان هذا النّظام قديما، فإنّه قد بلغ أوجه خاصة في القرن الثّامن عشر للميلاد، حيث «عمّت الأحباس الخاصّة والعامّة جهات الشّمال، والسّاحل، والوسط والجريد، خاصّة وأنّ السّلطة السّياسية آنذاك قد شجّعت على ذلك...» (93).

ومن هذا المنطلق حُبّست عدّة عقارات على الزّوايا التي أصبحت لها أملاك هامّة تدرّ عليها مداخيل ضخْمة، وتتمثّل في:

ـ **الأشجار المثمرة:** وتبرز بصفة خاصة في الجنوب مثلا حيث تحتلّ زاويّة القادريّة بتوزر صدارة «الصّنف الثّاني من كبار الملاّكين هناك...، إذ كانت تملك

---

(93) فتحي المرزوقي، بعض المؤسسات الدينيّة ومكانتها الاقتصاديّة بتونس في القرن الثامن عشر، شهادة الكفاءة في البحث، مخطوطة، كليّة الآداب والعلوم الانسانيّة، تونس، 1984 ، ص 6

في النّصف الثاني من القرن التّاسع عشر ميلادي 1127 نخلة» (94)

إنّ هذه الملكيّات تتأتّى أيضا للزّوايا عن طريق السّلطة التي تشتري لها البعض منها تقرّبا وكسبا لشيوخها.

من ذلك «شراء سانية ابن عثمان التّوزري للفضل البركة مصطفى بن عزّوز» (95)، كما أنّ الإمكانيات المالية الهامّة لبعض الطّرق مكّنت مشائخها من شراء العديد من الأجنّة بها أعداد كبيرة من النّخيل كانت بالنّسبة للبعض منهم ــ في النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر ــ على النّحو التّالي (96) :

أصحاب النّخيل	دقلة	مطلق
أحمد التّيجاني ومحمّد العيد	327	7.151
بو علي النفطي بتوزر	-	1 307
مصطفى بن عزّوز بتوزر	675	4 289

أما بالنّسبة الى الطّريقة القادرية بالجريد فإنّها كانت تملك أربعة أجنّة بنفطة، واثنين بتوزر، وجميع سواني الحامّة التي لها مدخول سنوي يقدر بـ 10.300 فرنك بالاضافة الى أجنّة محبّسة على زاويتها هناك بنفطة (97).

94) محمد الطيّب ابن النّوري، الوضع الاقتصادي والاجتماعي في توزر خلال النّصف الثّاني من القرن التاسع عشر، 1856 ــ 1880، شهادة الكفاءة، مخطوطة، كليّة الآداب والعلوم الانسانية، تونس، سبتمبر 1977، ص 29 ــ 30.

95) نفس المرجع، ص 45

96) نفس المرجع والصفحة.

97) أنظر الملحق رقم 3، ص 273

إنّ هذه الأمثلة توضّح بجلاء القوّة الاقتصاديّة التي كانت لبعض الطّرق في البلاد التّونسية.

ـ الأراضي الزراعيّة

تبدو موزّعة على مختلف أنحاء البلاد، وخاصّة الشّمال والوسط الغربيّين منها، حيث كانت بعض الطّرق تملك مساحات شاسعة غالبا ما تستغلّها بصفة مباشرة عن طريق الخمّاسة، أو ما يسمّون بالخدّام (Les domestiques) الذين يمثّلون يدًا عاملة قارّة فوق ممتلكاتها، حيث يقومون بأغلب الأعمال الفلاحيّة.

لقد تفاوتت مساحة هذا النّوع من الممتلكات باختلاف أهميّة الطريقة:

من ذلك أنّ زاويتيْ القادريّة بأولاد عسكر لهما مساحة سقويّة تتراوح بين 300 و400 هكتار مسقيّة بمياه وادي الحطب، كما تملكان أراضي بالقصرين(98).

أمّا زاوية سيدي صالح التّيجانيّة ببوعرادة فلها هنشير قدّرت مساحته بـ 500 هكتار، في حين يعتبر شيخ زاوية القادريّة بالكاف ـ التي لها علاقة هامّة بموضوع البحث ـ من أكبر الملاّكين العقّاريين بالجهة، إذ تتكوّن «ثروته من ستّة هناشير جعلته من أصحاب الملايين» (99).

* الممتلكات المنقولة:

تتمثّل في رؤوس الأموال المتجمّعة لدى مشائخ الطرق والمتأتّية لهم من عدّة أوجه أهمّها:

ـ الزّيارات: وهي تحوّل النّاس الى الزّوايا مرّتين في السّنة ـ بصفة رسمية ـ، أولى في الرّبيع وثانية في الخريف، حاملين معهم أعطيات نقدًا وعينًا، فكانت بذلك مناسبة مكّنت العديد من مشائخ الطرق من جمع أموال طائلة زادت في نفوذهم على أتباعهم، مما دفع بالسّلط الاستعماريّة الى تحجيرها إضعافًا للطّرق (100).

---

98) A.G.T., Confrerie mère des Kadrıa, p. 10; D 97 - 3

99) Ibid; p. 7

100) أنظر الأسباب الدّاخلية لضعف الطرق الصوفيّة في الفصل الرّابع، ص 257-261

ـ الإعانــــــات: وتتمثّل في مبالغ مالية تدفع في شكل جرايات دوريّة تخصّ بعض الزّوايا، ويعود تاريخ سنّها إلى الدّولة الحسينيّة، وترمي هذه الإعانات ـــ التي أقرّتها السّلط الاستعماريّة ـ إلى احتواء بعض الطرق وتوظيفهـــــــا.

وبالتّالي فإنّ مختلف هذه الموارد جعلت الطرق الصّوفيّة تحصل ـ سنويّا ـ على مداخيل هامّة ومتنوّعة ومختلفة كما يبيّن ذلك الجدول التّالي (101).

إسم الطريقة	قيمة العقّارات التي تملكها الطرق بحساب الفرنك	الدّخل السنوي لعقارات الطرق بحساب الفرنك	الدّخل السنوي المتأتي من الزيارات بحساب الفرنك	مجموع الدّخل السنوي بحساب الفرنك
القادريّة	2 000.000	44 000	120.000	164 000
الرّحمانيّة	3 875.000	93 000	97 000	190.000
العيساويّة	840 000	16 800	56 310	73.110
التّيجانيّة	1 191.500	23 830	24.000	47 830
السّلاميّة	556 400	39.626	62.445	102.071
سيدي بو	380 000	7.600	24 570	32.170
الشّاذليّة	455 000	9.100	31 270	40 370
المدنيّة	-	-	5.000	5 000

رغم إقرارنا بأنّ هذه الأرقام ليست الاّ تقريبيّة، ولا تعكس بالضّرورة القاعدة المادية الصّحيحة للطرق في الايّالة (102)، فإنها تعطينا فكرة ـــ ولو نسبيّة ـــ عن أهميتها الاقتصادية، كما توضّح التفاوت في الثّروة بين مختلف الطرق الصّوفيّة: ذلك أن الطريقة الرّحمانية تحتلّ ـ من حيث مجموع الدّخل السّنوي ـ

(101 A.G.T., Tableau récapitulatif, ressources des confréries religieuses musulmanes en Tunisie d'après les renseignements officiels fournis en 1924-25 par les C.C. et les bureaux militaires des affaires indigènes, D 97-3.

انظر الملحق رقم 4، ص 275.

(102 أنظر تقييمنا للدّراسات والاحصائيات التي قامت بها السّلط الاستعمارية لمعرفة الواقع الطرقي، ص 83 - 85.

المرتبة الأولى، تليها الطريقة القادرية، ثم الطريقة السّلاّمية.

فإلى أيّ شيء يعود هذا التّفاوت في الثّروة بين الطرق الصّوفيّة في الايّالة؟ هل يفسّر بكثرة عدد الأتباع بالنّسبة لكلّ طريقة، أم بنوعيّة هؤلاء الأتباع ووضعيتهم الإجتماعيّة؟

أو أنّ ذلك التّفاوت يعود الى اختلاف موارد الطّرق وتنوّعها، وخاصّة توزّعها الجغرافي في البلاد التونسيّة؟

إنّ اختلاف الموارد وتنوّعها له أهميّته في تفاوت ثروات الطرق، وهو ما يبدو واضحا بالنّسبة للطريقة الرّحمانيّة التي تحتلّ المرتبة الأولى من حيث الثّروة تبعا لتعدّد عقاراتها والتي يقدّر دخلها السّنوي بـ 93.000 فرنك، بالإضافة الى 97.000 فرنك تتأتّى لها من الزيارات.

الاّ أنّ حجم العقارات التي تملكها مختلف الطرق ليس العامل المحدّد والمفسّر للتّفاوت بينها في الثّروة: من ذلك أنّ قيمة عقارات الطريقة السّلاّمية ــ مثلا ــ والتي تقدّر بنصف قيمة عقارات التّيجانيّة ــ لها دخل سنوي يفوق دخل هذه الأخيرة بأكثر من مرّة ونصف، ويفوق الدّخل السّنوي للطريقة العيساوية.

فإلى أيّ شيء يعود انعدام التّطابق النّسبي بين قيمة العقارات التي تملكها الطرق وبين الدخل السّنوي المتأتّي منها؟

إنّ ذلك قد يفسّر بعاملين:

أوّلهما: نوعيّة العقار خاصة بالنّسبة للأراضي الزّراعيّة من حيث الخصوبة، وبالتّالي أهميّة الإنتاج كمّا وكيفًا تبعا للتوزّع الجغرافي لتلك الأراضي في البلاد التّونسية.

ذلك أنّ الطرق التي لها أراض في مناطق الوسط والوسط الغربي وحتّى بعض جهات الشمال الغربي كالكاف تخضع لعوامل مناخية قاسيّة كثيراً ما تتسبّب في الحيلولة دون تحقيق إنتاج هام أو حتّى اتلافه..

وهو ما يصدق مثلا على تالة التي عرفت فترات مناخيّة صعبه جدّا تميّزت بنزول الثّلوج وهبوب البرد القارص (103). وكذلك الشّأن بالنّسبة لجهة

103) أنظر ذلك في حديثنا عن أسباب ثورة الفراشيش في الفصل الثالث، ص 158 - 163.

مكثر والكاف وتبرسق، وهي عوامل لا تؤثّر سلبا على الانتاج فحسب بل تتلف جانبا هامّا من الثروة الحيوانيّة.

أمّا الطرق التي لها عقارات في مناطق تتمتّع بمعطيات مناخيّة ملائمة كالشّمال والشّمال الشرقي والسّواحل الشرقية من البلاد التونسيّة، فلا شكّ ان مردودها السّنوي سيكون أفضل من الصّنف السّابق الذّكر، ليس تبعًا للظّروف المناخيّة فحسب، بل كذلك تبعًا لنوعيّة التربة الأكثر فقرًا في الوسط والوسط الغربي، وهو ما يؤدّي – عادة – الى ترك مساحات شاسعة بورًا.

ثانيهما: الاختلاف في وسائل الإنتاج وطرقه، ليس بين منطقة وأخرى وانّما – كذلك – تبعًا للطريقة التي تعود لها تلك العقارات بالنّظر من حيث «الخدّام» الذين يتولّون استغلال واستثمار أراضي الزّاوية، وكذلك من حيث وسائل وأدوات العمل المعتمدة في كل مراحل الأعمال الفلاحيّة.

كما أنّ ذلك التّفاوت في الثّروة بين مختلف الطرق قد يعود الى الأتباع من حيث عددهم وتوزّعهم الجغرافي، وكذلك وضعيتهم الاجتماعية.

ذلك أنّ الزّيارات تعتبر أهمّ مورد للطرق يفوق مردودها السّنوي الدخل السّنوي للعقارات، ممّا يوضّح أهميّة الأتباع في التّفاوت في الثّروة بين الطرق.

ولئن كان عدد الأتباع – من حيث الكثرة أو القلّة – لا يؤثّر على المبالغ السّنوية المتأتّية لمختلف الطرق من الزّيارات بالنّسبة إلى جلّ الطّرق، فإنّ بعضها – رغم قلّة عدد أتباعها بالنّسبة إلى غيرها – لها مدخول سنوي متأتّي من الزيارات يفوق البعض الآخر: من ذلك – مثلا – أنّ الطريقة السّلاّمية – التي يقدّر عدد أتباعها (489 12) بثلث عدد أتباع الطريقة العيساوية (37.534) – لها دخل سنوي متأتّي من الزّيارات (62.445 فرنكا) يفوق مدخول العيساوية (56.310 فرنكات) والتّيجانية (24.000 فرنك).

فما هي الأسباب المفسّرة لهذا التّفاوت في المدخول السّنوي للطرق من الزّيارات ان لم يكن عدد الأتباع هو المحدّد؟

إنّ الوضعيّة الاجتماعية للأتباع تفسّر الى حدّ ما ذلك التّفاوت، إذ نجد أن بعض الطّرق ممثّلة بصفة واضحة في الفئات المّيسورة أساسًا، ممّا يوفّر لها موارد ماليّة هامّة.

من ذلك أن السّلاّمية ــ مثلا ــ لها اتباع كثيرون ضمن فئة التجّار في نفزاوة والذين يتردّدون سنويّا على السّودان (104).

أمّا في الوطن القبلي فينتمي كلّهم الى فئة الفلاّحين، في حين نجدهم ــ في القيروان ــ ضمن التجّار والصناعيّين، وفي صفاقس ضمن العدول (105).

أمّا بالنّسبة الى الطريقة القادرية، فيتكوّن أغلب أتباعها بزاوية نفطة من الأشراف (106)، وكذلك الشأن بالنّسبة إلى زاوية سيدي الحسناوي الواقعة في سفح جبل مغيلة ــ في ماجر ــ ، والتي تضمّ بين أتباعها مجموعة من الأعيان (107).

هذا في حين يتكوّن أتباع الطريقة الرّحمانيّة في صفاقس من العائلات الغنيّة كعائلات النّوري، والشّعبوني، والشّرفي، والزّريبي والكرّاي (108)، علما وأنّ الغنَى «يشمل كامل فئاتها (صفاقس) لكنّه أكثر عند بعض العائلات كعائلة النّوري والسّلامي والجلّولي» (109).

أمّا الطريقة الشّاذلية فينتمي إليها تقريبًا ثلاثة أرباع سكان مدينة تونس(110)، علما وأنّ العائلات الكبيرة بها تنتمي إليها عادة (111).

(104 A.G.T., Renseignements sur les Zaouias et les personnages religieux, fournis par le C.C. de Bizerte le 20/4/1896, D 97 - 3.

(105 **Ibid.**, Confrérie des Sellamya, D 97 - 3

(106 **Ibid**, Confrérie - mère des Kadria, p. 5. D 97 - 3

(107 **Ibid**, p. 11

(108 A.M.A.E F., le Vice - Consul de Sfax au R.G, le 14/8/1888, Protectorat Tunisie, 1er versement. ..

(109 ZOUARI (A.) **Les relations commerciales entre Sfax et le Levant aux XVIII et XIX siècles,:** Thèse de doctorat de 3ème cycle; (dactylographièe) Université de Provence, 1977, p. 316.

(110 MAHJOUBI (A.), **Les Origines du Mouvement National en Tunisie 1904 -1934**, Tunisie, publication de l'Université de Tunis, Faculté des lettres, 1982, p 131

(111 **A.G.T.**, Tableau récapitulatif, ressources des Confréries religieuses musulames en Tunisie...

فهذا الاختلاف في نوعيّة الأتباع يؤثّر ـ لا شكّ ـ على حجم المبالغ السّنوية المتأتّية للطرق من الزّيارات، ويفسّر بالتّالي التّفاوت في الثّراء بينها:

فالطريقة الشّاذلية يفوق دخلها السّنوي من الزّيارات (31.270 فرنكا) دخل الطريقة التّيجانية (24.000 فرنك) رغم أنّ عدد أتباع هذه الأخيرة يفوق عدد أتباع الأولى بحوالي ثلاثة مرّات.

فمن خلال كلّ هذا نتبيّن أنّ الطرق الصّوفية في البلاد التّونسية كانت تمثّل قوّة اقتصاديّة قُدّرت المبالغ الجملية المتأتّية إليها من الزّيارات بـ 493.740 فرنكا، في حين قدّر دخلها السّنوي من العقارات التي تملكها بحوالي 368.466 فرنكا، هذا بالإضافة إلى المداخيل السّنوية للعقارات التي يملكها المشائخ، وذلك كلّه سنة 1925.

كما تمثّل تلك الطرق أيضا قوّة بشرية للنّفوذ الذي تمارسه على حوالي 306.937 من الأتباع سنة 1925 (112)، وهو ما يمثّل تقريبا سدس سكان البلاد الذين بلغ عددهم ـ 1.890.000 حسب تعداد 1921(113)، علمًا وأنّ عدد الأتباع يختلف تبعًا للطرق وللمناطق، كما يوضّح ذلك الجدول التّالي لسنة 1925:

112) اعتبر الكسراوي ان هذا العدد يعود الى سنة 1890/1308 (المرجع السابق، ج 1، الجدول ص 20)، في حين أنه يعود الى سنة 1925، أنظر الملحق رقم 4، ص 275

113) KASSAB (A.), **Histoire de la Tunisie, l'époque contemporaine**, Tunis, S T D, 1976, p 200

أسماء	السواحل									الجنوب					
الطرق	سرت	تونس	قرنالية	سوسة	جرجيس	صفاقس	قابس	جربة	مع السواحل	قفصة	توزر	مدنين	قبلي	تطاوين	مع الجنوب
القادرية	6[illegible]3	1821	1154	484	-	120	408	61	**4.711**	5000	1593	983	1435	4505	**13 516**
الرحمانية	2 562	5 251	-	177	61	20	21	-	**8.092**	2105	2112	4172	1267	3514	**13.170**
العيساوية (114)	2 174	485	7.895	5.559	-	2730	-	-	**17.843**	4000	-	-	-	-	**4000**
التيجانية	293	501	51	123	-	-	406	-	**1374**	500	555	68	-	5 031	**6 154**
السلامية (115)	365	1012	475	2077	119	370	915	273	**5 606**	2002	100	116	341	16	**3 475**
سيدي بو علي النفطي	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
الشاذلية (116)	-	50	100	-	-	25	-	25	**200**	-	-	-	-	-	-
المدنية	41	52	-	-	-	150	22		**265**	-	-	-	-	-	-
المجموع			9.675			3445	1772		**38.091**	13.607				13 066	**40.315**
النسبة المائوية (117)									**%12**						**%14**

114) A.G.T. , Confrérie des Aïssaoua, p.5, D 97-3

115) **Ibid.** Confrérie des Sellamya, D 97-3

116) **Ibid.** Confrérie des Chadelya, 8-10, D 97-3

117) بالنسبة لمجموع العدد الجملي للأتباع على مستوى كامل البلاد

التوزيع الجهوي لأتباع الطرق في البلاد التونسيّة سنة 1925 - تتمّة -

أسماء الطرق	الشمال الغربي						الوسط والوسط الغربي			العدد الجملي للأتباع على مستوى كامل البلاد
	سوق الأربعاء	طبرقة	باجة	مكثر	الكاف	مج الشمال الغربي	القيروان	تالة	المجموع	
القادرية	1012	-	5000	729	5911	12.652	12 508	42.036	54.544	117 681
الرحمانيّة	3.711	4.500	3.201	3 934	6 567	21 913	4 016	53 063	57 079	114 761
العيساويّة	-	-	2 000	-	3.031	5.031	-	-	-	37.534
التيجانيّة	22	-	400	-	1015	1 437	1578	5.350	6 928	16 094
السلاميّة	-	-	-	-	-	-	455	3.400	3.855	12.489
سيدي بو علي النفطي	-	-	-	-	-	-	-	-	-	2,457
الشاذليّة	131	-	-	20	-	151	102	-	102	627
المدنيّة	-	-	-	12	-	12	201	-	201	485
المجموع					16 524	41 184	18860	103 843	122 721	306 937
النسبة المائويّة(118)						%15			%38	

* ملاحظة : أنجز هذا الجدول انطلاقا من الأرقام الواردة في الجداول بالصفحات السّابقة بالإضافة إلى المصادر المذكورة بالهوامش 114، 115 و 116

يبرز هذا الجدول أمرين هامّين :

ــ أوّلهما : تفاوت عدد الأتباع بين الطرق، حيث تعتبر الطريقة القادريّة أهمّ طريقة في البلاد تليها الطريقة الرّحمانيّة ثم العيساويّة، في حين نجد أقل

118) بالنسبة لمجموع العدد الجملي للأتباع على مستوى كامل البلاد

عدد للأتباع لدى الطريقة المدنية، بينما الطريقة السّنوسيّة ليست ممثّلة ــ حسب هذا الإحصاء ــ في الايّالــــة.

فإلى أيّ شيء يُعْزى هذا التفاوت بيْـن الطرق في عدد الأتباع؟

إنّ ذلك يعود الى عدّة عوامل من أهمّهـــــا:

* حُظوة الطريقة وقوّة إشـعاعها: ذلك أنّ الطرق التي تنتـسب الى مـؤسّسين مشهورين على مـستوى العالم الاسلامي تنتشر بسـهولة بين النّاس للرّصيد الدّيني والمعنوي الذي تتمتّع به لدى الرّأي العام الاسلامي، كالطريقة القادريّة التي طبّقت شهرة مؤسّسها الأوّل ــ سيدي عبدالقادر ــ الآفاق.

* مـساندة السّلـطة وتدعيـمـها لطرق دون أخـرى: ذلك أنّ مـوقف السّلط السـياسـيّة من النّشاط الطرقي يعـتبـر - الى حدّ مـا - محـدّدًا لمجاله وبالتّالي لـعدد أتباعه.

فانتماء حمّودة باشا ــ مثلا ــ الى الطريقة القادرية ومساهمته في بناء زاويتها الأولى في البلاد بمنزل بوزلفـة أكسب تلك الطريقة اعـترافًا من السلطة السياسـية وسمح لها ــ ضمنيا ــ بالنّشاط، وبالتّالي كسب مزيد من الأتباع.

أمّا في الفتـرة التي ندرسها فـإنّ السياسة الإسـتعمـارية التي تقوم على تطويق الطرق المناهضـة لها وفـسح المجال أمام المواليـة لها قـد ساعـدت - الى حدّ مــا - بعض الطرق على توسيع قاعدتهـــا.

وهو مـا يمكن قوله بالنّسبة لـسيـدي قدّور ــ شـيخ قادريّة الكاف الذي كـان يشـمل نفوذه كـامل الشمـال الغـربي والوسط والوسط الغربي حـيث 67.196 من الأتباع، وهو ما يمثّل أكثر من 60٪ من أتباع الطريقة القادرية بالبلاد التّونسية سنة 1925 (117.681، أنظر الجـــــدول).

وفي المقابل، فـإنّ الطرق الخطيرة أو التي تبدو كذلك، تخـضع لمراقبة دقـيقة وتضييـقات تحدّمن نشـاطهـا ان لم تعـدمـه على الاطلاق، وهو مـا يصـدق على الطريقة المدنية والطريقة السّنوسيّة.

فبـالنسـبة الى الأولى يعـود حذر السلطات الاسـتعـمارية منهـا الى علاقة شيخـها محمـد ظافر بالسلطان عبدالحميد كـما سبق ذكره، ومـا يمكن لها أن تلعبه في نشـر فكرة الجامـعة الاسـلاميّة، خـاصّة اذا علمنا أن زاويتـها الأمّ توجد بطرابلس الغرب المحاذية لتونس.

ولعلّ التوجّس من تلك الطريقة، وتبعيّتها للسّلطان العثماني هو الذي دفع الوزير الأكبر الى رفض عرض الشيخ ظافر — القاضي بتعيين ابن أخيه شيخًا على أتباع الطريقة المدنيّة بتونس — على الباي، لا لشيء «إلاّ لتلقّيه الأوامر من الخارج» (119).

أمّا بالنسبة الى الثّانية، فإنّ موقفها من الاستعمار، واعلانها للجهاد المقدّس ضدّ الذين استباحوا أرض الاسلام، بالاضافة الى ما اعتقدته فرنسا من دعم السّنوسيّة للمقاومة في الجنوب (120)، فرض على السّلط الاستعماريّة في تونس انتهاج سياسة خاصّة تجاهها تمثّلت في :

* الرّقابة الشديدة على تحرّكات أتباع الطريقة السنوسيّة، ومطالبة المراقبين المدنيين — باستمرار — بالعمل على كشفهم واحصائهم في مناطقهم (121)، الأمر الذي قد يكون حال دون انتشار الطّريقة، بل ودفع أتباعها — ان وجدوا — الى التكتّم والتّستّر، ممّا جعل من الصعب على السّلط التعرّف عليهم وضبط عددهم الحقيقي.

* قرار السّلط الاستعماريّة بعدم السماح ببناء أيّة زاوية تابعة للطريقة السنوسيّة، وطرد كل داعي أجنبي لها يشتبه في أمره (122).

من ذلك أنّه يوم 4 جوان 1869 وصلت قافلة من فزّان الى تطاوين، ومنها الى قابس، ومن ضمن الوافدين معها المسمّى حسن علي — أحد الأتباع السّنوسيين، والذي توقّف في المطويّة والحامّة، وبشيمة، وبير الغرب ودوز، حيث أوضح للأهالي الأوضاع المتردّية التي يعيشون فيها تحت هيمنة فرنسا بالمقارنة مع وضعيّة أولائك الذين يحيَوْن تحت نفوذ الباب العالي، والذين لا يدفعون الاّ

(119 A.G.T., Note (sans date), p. 3, D 97 - 3

(120 أنطر حديثنا — في الفصل الثالث — عن المقاومة الوطنية للاستعمار بالجنوب التوسي ودور الطرق فيها

(121 أنطر ردود بعض المراقبين المدنيّين على ذلك، مثلا:

A.M.A E.F, le C C. et Vice - Consul de France à Maktar au R G, le 20/6/1888, Protectorat Tunisie 1er versement

(122 Ibid, la direction politique au Ministère des Affaires etrangères a Paris le 16/4/1890, N S 127, Culte musulman, sectes religieuses, vol 1, (Fevrier 1886 Juillet 1891), F 84 verso

ضريبة واحدة. . . ، كما قام أيضا ــ بتحـديد مواقع ينابيع المياه بالجهة، فتمّ إيقافه بدوز يوم 25 جوان (123)، ويوم 28 جويلية سلّم الى المراقب المدني بقابس الذي قام بترحيله في نفس اليوم الى طرابلس (124).

إلاّ أنّ إجراء طرد دعاة السّنوسية قد عرفته البلاد حتى قبل دخول الاستعمار البها: من ذلك أن أحـد المغاربة دخلها سنة 1876 لنشر مبادئ الطريقة السّنوسيّة، «فتمكّن من تكوين مجـموعة حوله من ضمنها الشيخ أحمـد التبرسقي ــ المدرّس بجامع الزيتونة ــ ، الى جانب عدد كبيـر من الطلبة حيث وقعت الدعوة الى فتح باب الاجتهاد. غير أنّ سيدي محمد معاوية ــ شيخ الاسلام [آنذاك] ــ ذعر من نتائج تلك الـدعوة، وحصل من خير الدين (ت. 1889) على الإذن بـطرده من الايّالة بعـد أن مكّن من مبلغ مـالي من حكومـة الباي، ومنذ ذلك الحين لم يعـد أحد يجرأ على نشر السّنوسيّة بالايّالـة» (125).

تلك هي إذًا بعـض الأسـبـاب التي تفسّر قلّة أتبـاع الطـريقـ ، المدنيّة والسّنوسية بالايالـــة.

ــ ثانيهما تفاوت عدد الأتباع بين الطّرق حسب الجهات، ذلك أنّ حوالي 40٪ من أتباع الطرق بالايّالـة يوجـدون بالوسط والوسط الغربـي (122.721) من جملة (306.937)، يضاف اليهم 15٪ (41.184) بالشّمال الغربي ، وبـذلك تستأثر هذه المناطق بأكثر من ثلثيْ الأتباع تقريبا.

وفي هذه الجهـات من البلاد التّونسيـة تتبـوّأ مراقبة تـالة المرتبة الأولى من حيث عدد أتباع الطرق، اذ تحتوي على 103.843 منهم، وهو ما يمثّل تقريبا ثلث العدد الجـملي للأتباع على مستـوى البلاد سنة 1925، تليها مراقـبة القـيروان (18.860)، ثمّ الكاف (16.524).

وفي المقـابل فإن نسـبة الأتبـاع بالسّواحل لا تتعـدّى 12٪ من العدد الجـملي للأتباع في نفس التّاريخ، علمًا وأن أضعف عدد للأتباع بهذه المناطق سجّل بقابس (1.772) وصفاقس (3.445).

---

123) A.G.T., le Commandant de la division d'Occupation de la Tunisisie au Délégué à la Résidence générale, le 13/7/1896, D 179 - 2

124) Ibid., le 4/8/1896.

125) خزينة الوثائق التونسية، س. د، صد 97، مل 3

فما هي الأسباب المفسّرة لهذا التّوزيع الجغرافي المتفاوت لأتباع الطرق الصّوفية بالبلاد التّونسية؟.

ان رواج الطرق في مناطق الشّمال الغربي والوسط والوسط الغربي من الايّالة، وكسبها للآلاف من الأتباع خلافا للمناطق السّاحليّة يعود إلى عدّة أسباب من أهمّها:

* تأثير الوسط الطبيعي: فمناطق الشّمال الغربي وخاصّة الوسط الغربي تخضع لمناخ شديد القساوة، متميّزا بنزول الثلوج طيلة أيام متتالية، وهبوب الرياح الباردة، وانخفاض درجات الحرارة الى ما تحت الصّفر، مع ما ينجرّ عن ذلك من اتلاف للمحاصيل وإبادة للثروة الحيوانية.

الى كلّ هذا يضاف فقر التّربة وتوالي بعض الكوار ث الطبيعيّة كالبرد وزحف الجراد، وهبوب رياح السّموم، علما وأن فلاحة الأرض وتربية الماشية تعتبر المصدر الأساسي لحياة سكان تلك المناطق.

فهذه المعطيات الطبيعية القاسية من شأنها أن تجعل النفس البشريّة ذات شفافية دينيّة قوامها طلب الاحتماء واللّجوء ـ زمن الكوارث والأزمات ـ الى من يُلاذ إليْه طمعا في تفْريج الكرب، واحتماءً من المكاره.

وبذلك ساهمت المعطيات الطبيعيّة في صياغة نفسيات وعقليات قابلة للطرق الصّوفيّة التي تشكّل أورادها ـ بما فيها من تسابيح واستغفار وصلوات على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وغيرها من المحتويات الرّوحيّة ـ ضربا من الحصانة، واستجابة منطقيّة لنفسية مهْزُوزة.

إلى هذا يضاف ـ بطبيعة الحال ـ الجهل الذي يسود سكان تلك المناطق، والذي يمثّل حقلا خصبا لتقبّل المبادئ الطرقيّة ظنّا أنّها من الدّين إن لم نقل هي الدّين بالنّسبة لهم.

فلا عجب إذًا ـ في هذا الاطار الطبيعي ـ أن تجد الطرق الصّوفية مجالا فسيحا لانتشارها، وتزايد عدد أتباعها، حتّى أنّ مراقبة تالة ـ وحدها ـ كانت تعدّ سنة 1925 ـ 42.036 من أتباع الطريقة القادريّة، وهو ما يفوق العدد الجملي لأتباعها بالسّواحل والجنوب والشمال الغربي معًا (أنظر جدول التوزيع الجغرافي لأتباع الطرق)، وكذلك الشأن بالنسبة لعدد أتباع الطريقة الرّحمانيّة بها.

وهو ما يبيّن ـ بجلاء ـ التّطابق الواضح بين المُعْطَى المناخي الطبيعي

والمُعْطَى الطُّرُقِي الرّوحي.

هذا مع العلم أن عـدد أتباع القادريّة وخـاصة الرّحـمانيّة بتالة قـد يكون وقع تضخيمه عن قـصد من طرف السّلط الاستعمـارية لتبرهن عـن الخطر الذي يهدّد المعمّرين الذين تغلغلوا في تلك المناطق، وخـاصة لتحميل تلك الطريقـة مسؤوليّة ثورة تالة التي اندلعت سنة 1906.

وممّا يؤكد مـا ذهبنا إليه أنّ عدد أتبـاع الطرق الصّوفيّة ـ التي لهـا علاقـة بهذا البحث والماثلة بالجدول السّابق ـ بمراقبة تالة بلغ 103.843 سنة1925، في حين أن عدد سكّانـها قُدّر بـ95.900 نسمة سنـة1911(126) وبـ108.000 سنـة1931(127)

وحـتّى ان سلّمنا بأنّ «المسـلمين كلّهم ــ بـدْواً وحـضـراً ــ ينتـمـون الى طريقة. . .، وأحيانا الى عدّة طرق في نفس الوقت. . .» (128)، فإنّ عدد الأتباع يبقى مرتفعا جدّاً بالنّسبة الى عدد السكان علما وأنّ الطريقة التّيجانيّة ــ مثلا ــ لا تسـمح لأتباعـها أن يكونوا ينتـمـون ــ في نفس الوقت ــ الى طرق أخرى، فـلا تقبل انتماءهم إليها إلاّ اذا انسحبوا من التزاماتهم السّابقـــة.

أمّا الخـروج من الطريقة التّيـجانيّة، والانضـمام الى أخـرى فيُعـتبـر ـ بالنّسبة إليـها ـ ردّة (129)، ولعلّ هذا ما يفسّر قلّة عدد أتبـاعها بالمقارنة مع الطرق الأخرى.

كما أن ظهور الطريـقة السّنوسيّة وانتشارها السريع في وسط افـريقيا ــ المجال التاريخي والحيوي للطريقة التّيجانية ــ ، ومواقفها الصّلبة من الاستعمار ــ عكس التّيجانيّة ــ ، بالاضـافة الى مواقفها الأخـيرة من ثورة الجنوب التونسي (130) ــ

---

126) TIMOUMI (H.), **Paysannerie tribale et capitalisme Colonial, (l'exemple du Centre - Ouest Tunisien; 1881 - 1930)**, thèse pour le doctorat du 3ème cycle, (dactylographiée), Université de Nice, 1974 - 1975, p. 93.

127) **Ibid.**, p. 457.

128) GANIAGE (J.), **Les Origines du protectorat Français en Tunisie (1861- 1881)**; Paris , P.U.F., 1959, p. 164 - 165.

129) **A.G.T.**, Congrégation des Tidjanya, p. 11, D 97 - 3.

130) أنظر ذلك في حـديثنا ــ في الفـصل الثـالث ــ عن المقـاومـة الوطنيـة بالجنوب التـونسي لدخـول الاستعمار الفرنسي، ص 141 ـ 149

قد يكون وراء تقلّص عدد أتباعها الذي مرّ من 40.000 سنة 1891 الى 16.094 سنة 1925.

وما اعلان التيجانيّة «العداوتها المفتوحة للسّنوسيّة، ومحاربتها لها أيْنما وجــــدت» (131) إلاّ اعتراف منها بخطورتها عليها ومنافستها لها.

* الوسط الاجتماعي: وفي المقابل فإنّ الطرق الصوفية باستثناء البعض منها ليس لهـا أتباع كـثيـرون في المناطق الواقعـة على السّواحل الشّرقـيّة للبلاد خـاصّة بالنسبة للطريقة القادريّة التي تعتـبر زاويتها بمنزل بوزلفة أوّل زاوية قادريّة بالايالة. ويعود ذلك الى الوضع الاقتصادي والتّركيبة الاجتماعيّة لسكّان هذه المناطق: ذلك أن سكّان المدن الساحليّة لا ترتبط حـياتهم أساسًا بالعوامل الطبيـعيّة ـ شأن سكّان مناطق الوسط والوسط الـغربي ـ وإنّمـا تعـتـمد على بعض الحـرف وخـاصّة على التّجارة وما تتطلّبه من عـلاقات واتّصالات وتفتّح على الخارج (132)، وما ينجرّ عن ذلك من اختلاط بأجناس مختلفة أثّرت على نمط حياة السكان.

هذا بالاضـافة الى أنّ حـياة المدينة، وما تفرضه على سكّانـها من جهد يومي ـ تتوقّف عليه حيـاتهم ـ «تجعل هؤلاء غير مستعدّين لأن يسـهموا مشائخ الطرق من عملياتهم التجاريّة» (133).

الى هذا يضـاف وجود نُخبـة مثـقّفة بهـذه المناطق تبعـا للتنقّلات والعـلاقات الاجتمـاعية التي يفرضهـا نمط الحياة هناك، ممّا جعل المبادئ الطرقـيّة لا تلقى اقبالاً بنفس الحجم الذي نجده في مناطق الوسط والوسط الغربي.

ويمكن الاستشهاد في هذا المجال بموقف المثقفين في مدينة تونس ممّا يأتيه اتباع الطريقة العيساويّة مثلا (134)، ممّا يكشف أهميّة العامل الـثقافي ودور التّعليم في

---

131) A.G.T., Note sur les Senoussia en Tunisie, p 2, D 97 - 3.

132) CHERIF (M.H.) "Les réactions citadines à l'occupation Française de la Tunisie en 1881 et leurs limites", Réactions à l'Occupation Française de la Tunisie en 1881, **Actes du 1er séminaire sur l'histoire du Mouvement National (29,30 et 31 Mai 1981)**, Sidi Bou-Saïd, Tunisie, Imprimerie Officielle de la République Tunisienne pp 227 - 238; p.228

133) DEPONT et COPPOLANI, **op. Cit.**, p. 212.

134) A.G.T., Confrérie des Rahmanya, p. 6, D 97 - 3.

الحدّ من نفوذ الطرق (135). لقد قلّلت كل هذه العوامل من رواج الطرق في الأوساط الحضرية، حيث تبدو نفسيّة الحضر أقلّ تقبّل لها في الفترة التي ندرسها، فضلّ عدد الأتباع ضعيفا ـــ بصفة عامة ـــ بالمقارنة مع الجهات الأخرى رغم كثرة الزّوايا التي لا شكّ أنّا تمثّل وسيلة استقطاب وتربية طُرقيّة في نفس الوقت.

ذلك أنّ سوسة ـــ مثلا ـــ رغم وجود احدى عشرة زاوية قادريّة بها لا تعدّ سوى 484 من الأتباع.

أما صفاقس فتعدّ خمسة زوايا قادرية و120 فقط من الأتباع، في حين تحتوي القيروان على زاويتين للطريقة القادريّة فقط، لكن مقابل 12.508 من الأتباع، بينما يصل عددهم في ماجر والفراشيش الى 42.000 مقابل سبعة زوايا، كل ذلك سنة 1925.

فهذه المعطيات وإن كانت توضّح أنّه لا علاقة بين عدد الزّوايا وعدد الأتباع، فإنّها قد تشير إلى صعوبة استقطاب الحضر رغم وفرة المؤسّسات الطّرقيّة عكس مناطق الشمال الغربي والوسط الغربي والوسط حيث كثرة الأتباع وقلّة الزّوايا، وربّما انعدامها أحيانا كما هو الشأن بالنّسبة لتالة حيث 5.350 من أتباع الطريقة التّيجانيّة بدون زاوية (136)، وهي نفس الحالة بالنّسبة إلى 500 من أتباع الطريقة القادريّة بقيادة جلاص (137).

هل يمكن انطلاقا من كلّ هذا القول بأنّ الطّرقيّة ظاهرة ريفيّة أكثر منها حضريّة؟

رغم أن الأرقام المتعلّقة بعدد أتباع مختلف الطرق والواردة في الجداول الرّسمية ـــ السّابقة الذكر ـــ تتعلّق بعددهم داخل كل مراقبة دون تصنيفهم حسب الوسط ـــ ريف أو مدينة ـــ، فإنّ الأرياف ـــ على ما يبدو ـــ تمثّل الوسط الأكثر ملاءمة لانتشار الطرق الصّوفية، في حين شكّل الوسط الحضري الاطار الملائم لنشأة الأحزاب السّياسية التي استفادت ـــ لا شكّ ـــ من أخطاء الطرق الصّوفيّة، وبالتّالي من بداية فقدانها لنفوذها منذ نهاية الثّلث الأوّل من القرن العشرين.

---

135) أنظر ذلك في حدثنا ـــ في الفصل الرّابع ـــ عن الأسباب الداخلية لضعف الطرق الصوفية، ص 257 ـ 261

136) A.G.T, Congregation des Tidjania, p 8, D 97 - 3

137) Ibid, Confrérie mère des Kadria, p. 13, D 97 - 3

على أنّ ما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد أيضا قلّة الأتباع بالنّسبة لكلّ الطرق تقريبا ــ في جربة، وهو ما يمكن أن يفسّر كذلك بطبيعة سكانها المسلمين الذين يتّبع ثلاثة أخماسهم الوهبية (138) التي تنكر الطرقيّة وتعتبرها بدعة لابدّ من القضاء عليها (139)، هذا بالاضافة الى كثرة الخوارج الكثيرين هناك أيضا (140).

كما يُعزى ذلك ــ أيضا ــ الى طبيعة نمط عيش أهلها، الذي تعتبر التّجارة من أهمّ مقوماته، وهذه الأخيرة بما تتطلّبه من تنقّلات دائمة ومستمرّة، وبما تفرضه على أصحابها من تفرّغ ــ يكاد يكون كُليّا ــ تجعل السّكان لا همّ لهم وشغلهم الشّاغل إبرام صفقاتهم، وإنماء أرباحهم.

فلا يجدون ــ تبعا لكلّ ذلك ــ مجالا للتفرّغ للطرق، وما يتطلّبه الانتماء إليها من حضور مستمرّ للحضرات، ومُداومة على الأوراد اليوميّة.

وخلاصة القول أنّ هذه الرّكيزة الإقتصادية والبشرية للطرق الصّوفيّة في البلاد التونسيّة ــ في الفترة التي ندرسها ــ جعلتها تكاد تمثّل دولة داخل الدّولة، لها كل المؤهلات للتحرّك والفاعليّة، الأمر الذي أثار الخوف والحذر منها لدى السّلط الاستعماريّة، فعملت على توظيفها لصالحها خشية أن تقف ضدّها، فسلكت تجاهها سياسة متميّزة.

138) Ibid., Marabouts (familles et groupement maraboutiques de la régence de Tunisie), D 97 - 3.

139) حول موقف الوهابية من الطرقيّة أنظر، التليلي العجيلي، الوهّابية والبلاد التّونسية زمن حمّوده باشا، شهادة الكفاءة في البحث، مخطوطة، تونس، كلّية الاداب والعلوم الانسانية، أكتوبر 1983، ص 101 و 102.

140) A.G.T., Marabouts (familles et groupements....)

الفصـل الثّـانــي

السّياسة الإستعماريّة
تجاه الطرق الصّوفيّة



إن المتأمل في علاقات الطرق الصّوفية ـ في البلاد التونسية ـ بالاستعمار الفرنسي، وتعاملها معه سلبا أو إيجابا، لا يستطيع أن يجد مبرّرات لذلك ـ إلا في السياسة الاستعماريّة التي كرّستها حكومة الاحتلال تجاه الطرق.

ذلك أنّ تلك السياسة ـ بالاضافة الى طبيعة الفكر الطرقي ومصالح رموزه ـ حدّدت ـ إلى حدّ ما ـ مواقف عدّة طرق بالايالة من العديد من القضايا التي جدّت بها خلال الفترة التي ندرسها. لذلك كان لا بدّ من التعرّف على تلك السّياسة الإستعمارية من حيث أسسها ومميّزاتها.

I ـ أسس السّياسة الإستعمارية ووسائلها:

1) أسسها

يبدو أنّ السياسة الإستعمارية تجاه الطرق ـ في الفترة الأولى ـ قد اعتمدت على أسس غير مستمدّة من واقع البلاد وإنّما من خارجها، وذلك من رصيد التّجربة بالجزائر، والفكرة المسبّقة التي لبعض رموز الإستعمار تجاه المسلمين.

أ - تجربة الجزائر :

إنّ الواقع الطّرقي بالجزائر قد حدّد ـ الى حدّ كبير ـ ملامح السّياسة الإستعمارية لفرنسا تجاه الطّرق الصّوفية بالبلاد التّونسية.

ذلك أن صمود بعض الطرق، وقيادتها للعديد من الثّورات بالجزائر، جعل فرنسا تتوجّس خيفة من أن تلقى من الطرق التّونسية، نفس ما لقيته من مثيلاتها بالجزائر، والتي ـ وان هادن البعض منها الاستعمار الفرنسي، وكرّس نفوذه الرّوحي لخدمته كالطريقة التّيجانية مثلاً (1) ـ، فإنّ البعض منها كان وراء العديد من الثورات التي عرفتها الجزائر طيلة الخمسين سنة الأولى من استعمارها، كالطّريقة القادرية وخاصة الرّحمانية

---

1) حول مواقف التيجانية من الاستعمار الفرنسي بالجزائر، أنظر، مراسل: «اعترافات خطيرة، صاحب السجّادة الكبرى يلقي بين يدي فرنسا خطبة الاخلاص»، مجلّة الفتح، القاهرة، المطبعة السّلفية، عدد 257 لسنة 1930، ص 1 ـ 3، وكذلك RINN, Op. Cit., p. 427.

وبالتالي فإنّ فرنسا ظلّت حتى قبيل احتلالها لتونس، في صراع مع بعض الطرق خاصّة على الحدود بين البلدين، الأمر الذي أدّى الى لجوء بعض الزّعمات الطّرقيّة الجزائريّة الى تونس، حيث أسّست زوايا لها.

ونذكر منها على سبيل المثال ابراهيم بن أحمد الكبير- مؤسّس زاوية القادرية بنفطة و«الذي بدأ - منذ سنة 1830 - معارضا للإستعمار الفرنسي بالجزائر»(2)، ومحمد بن عزّوز الذي وصل الى نفطة أيضا، وغيرهما من قادة بعض الثورات بالجزائر، ممّا جعل السّلط الاستعمارية بها تسلّط ضغوطات وتهديدات على باي تونس، وتطالبه بالقبض على الثوار الجزائريين الملتجئين الى الايّالة (3).

كلّ هذه المؤثّرات، جعلت الإستعمار الفرنسي يأخذ بعين الاعتبار — في سياسته تجاه الطرق الصّوفية بالبلاد التّونسية — ما صدر عن البعض منها بالجزائر، فسلك حيالها سياسة اعتمدت التّمكين للطرق الموالية له، والتضييق على التي تناهضه.

ب — الفكرة المسبّقة:

إن المتأمّل في معظم الكتابات والدراسات التي قام بها بعض المختصّين وبعض المكلّفين من قبل السّلط الإستعمارية حول الطرق يتبيّن — تقريبا — اتفاقها حول خطورة الطرق على المصالح الإستعماريّة.

وهذه المعاني نجدها خاصة في كتاب مارسيل سيميان الذي طبع سنة 1910، حيث أوضح أنّ تلك «الجمعيات الدّينية غالبا ما تتحوّل إلى وكر للثّورة ضدّ الأجنبي، وضدّ الرّومي المدنّس لأرض الاسلام» (4)!!، وبالتّالي فإنّ «الزّاوية — على حدّ قوله — لم تعد فقط مكانا لتعليم القرآن الكريم. . .، بل أصبحت وكرًا

---

2) A.G.T., Confréne mère des Kadria, p. 4, D 97 - 3

3) محمد المرزوقي، صراع مع الحماية. تونس، دار الكتب الشرقية، 1973، ص 62 و63، وكذلك BOUAZIZ (Y.), "Dawr Tunıs Fi daın harakat attahrir aldȷazairıyatı wa mawkif aldȷzaırıyına min htılalıha ama 1881", **Actes du 1er Séminaire d'histoire du Mouvement National, Réactions à l'Occupation Française de la Tunisie en 1881....**, pp. 107 - 122, p. 118 - 119.

4) SIMIAN (M.), **Les Confréries Islamiques en Algérie (Rahmanya - Tidjania)**, Alger, Adolphe Jourdan, 1910, p. 39

للثّورة، ترسم في ظلام أركانها مخطّطات الانتفاضات» (5)!

أمّا شارل بروسلار فقد وصف أتباع الطرق بـ «الميليشيات المسلّحة للدّفاع ونشر العقيدة. . . ، مستعدة للانطلاق بـمجرّد أوّل اشارة من قائدها.. » (6).

فكلّ هذه الأحكام وغيرها ــ وإن صدرت بعد تجربة في الجزائر ــ فإنّها قد صُرّح بأغلبها قبيْل استعمار فرنسا لتونس، ممّا جعل الادارة الاستعمارية ــ طيلة بقية القرن التّاسع عشر وحتّى قبيْل الحرب العالمية الأولى ــ تخشى الطرق الصوفيّة التي جعل منها بعض من كتبوا عنها ــ في تلك الفترة ــ قوّة مجاهدة عن الاسلام، تساهم في نشر التعصّب في صفوف الموالين لها.

كلّ ذلك جعل بعض الأوساط الإستعمارية، وحتى مصادر القرار فيها تهوّل، وتضخّم أمر الطرق، وترى في كل تحرّك جهاداً مقدّسا موجّها أساسًا نحو «الكفار والمشركين» تقف وراءه الطرق، الأمر الذي حتّم على حكومة الاحتلال الفرنسي في تونس القيام بدراسات وإحصائيات في هذا الجانب للتعرّف أكثر على واقع الايّالة وفْق معطيات شبه ميْدانية، أقرب نسْبيا الى الحقيقة.

2) وسائلهـــا :

أ ــ الدّراسات والإحصائيات:

تشير بعض الدلائل الى أنّ اهتمام الإستعمار الفرنسي بالواقع الدّاخلي للبلاد التّونسية سبق دخوله إليها، وذلك في إطار التمهيد والتحضير لإلحاقها ضمن مستعمراته.

ونلمس هذا في المسح الذي قام به أحد العسكريّين، الذي سجّل في مؤلفه معلومات مفصّلة عن البلاد، شملت المعطيات الطبيعيّة بما في ذلك التّضاريس، والأودية، والرؤوس والسّواحل (7)، وديمغرافية تمثّلت في تحديد مواقع مختلف القبائل، مع تبيان أهمّيتها وعدد أفرادها وخاصّة قوّتها العسكريّة من حيث عدد

(5 **Ibid** , p. 41

(6 BROSSELARD (CH.) **Les Khouans et la Constitution des Ordres religieux Musulmans en Algérie**, Alger, Imp A Bourget, 1859, p 19

(7 ZACCONE (P) **Notes sur la régence de Tunis**, Paris, Librairie pour l'Art militaire, 1875 p. 24 - 25

الخيل والسّلاح (8)، وكذلك الطرق الصّوفيّة وأسماء مشائخها، وعدد الزوايا، إلى جانب ذكر المدن وتحديد مواقعها مع تقديم لمحة تاريخية عنها ومختلف أنشطتها الإقتصادية (9).

إلاّ أنّ أهمّ أعمال المسح كانت تلك التي حدثت بعد الاستعمار الفرنسي للبلاد التّونسية، والتي سعى من خلالها الى جمع معلومات عن الطرق في شكل إحصائيات من حيث عدد أتباعها، وأصنافهم الاجتماعيّة، وعدد زواياها، ووظائفها ومهامّها، وخاصّة وزنها الإقتصادي والاجتماعي، وميولاتها وانتماءاتها السّياسية وقد اعتمد في كل ذلك على المراقبين المدنيين (10) والقيّاد (11)، وحتى مشائخ الطرق أنفسهم من خلال شيخ مشائخ كل طريقة.

وأهمّ تلك الإحصائيات تلك التي وقعت في ثلاثة مناسبات هي:

* سنة **1896**: لئن تمكّن ديبون من تجميع معلومات مهمّة عن تاريخ التصوّف الإسلامي، وخاصّة عن الطّرق في الجزائر، فإنّه قد سعى الى إثرائها، واستكمالها بمعلومات عن الطرق والزّوايا بالبلاد التّونسية بواسطة الحاكم العام للجزائر الذي طلب ريفوال (12) ـ المقيم العام المساعد بتونس ـ في رسالة منه إليه بتاريخ 1896/1/25 ـ مدّه بالمعلومات المتعلّقة بالموضوع، فبادر ريفوال بتوجيه منشور يحمل رقم 63، مؤرخ في 1896/2/20 الى المُراقبين المدنيين يحثّهم فيه على تجميع المعلومات المطلوبة وتوجيهها إليه.

---

8) Ibid , p 39 - 41

9) Ibid. , p 42 - 46.

10) المراقب المدني. مسؤول جهوي وقع إقراره بمقتضى أمر من رئيس الجمهورية الفرنسية مؤرخ في 1884/10/4، له مهام حفظ الأمن بالدّرجة الأولى، أنظر:

MAHJOUBI (A.), l'Etablissment du protectorat Français en Tunisie, Tunis, Publication de l'Université de Tunis, 1977, p 271 - 272.

11) القايد. مسؤول مدني له مهام إدارية وقضائية ومالية، ويمثّل واسطة بين الرعيّة والسّلطة المركزية، حيث يسهر على تطبيق القوانين المتعلّقة بالحياة الاقتصادية، والاجتماعية، كما يهتمّ بحفظ الأمن، أنظر: MAHJOUBI, op. cit, p. 23.

12) ريفوال أمدي (Revoil Amedée)، محام، شغل خطّة رئيس مصلحة "كتابة الدولة بوزارة البحرية والمستعمرات (1886 ـ 1889)، ثم نفس الخطة بوزارة الفلاحة (1890ـ1893)، فمدير =

والمتأمّل في الظروف التي جُمعت فيها تلك المعلومات، يتبيّن - منذ البداية - وجود مؤشّرات تدلّ على أنّه لا يمكن القطع بصحّتها، ولا الاعتماد عليها بصفة أساسيّة، وذلك لضيق الوقت الذي أنجزت فيه، حتّى أنّ أحد المراقبين المدنيين طلب منحه مُهلة أطول لاستكمال جمع المعلومات (13).

هذا في حين ظلّت رسائل الحاكم العام للجزائر - الى المقيم المساعد بتونس - تتوالى مؤكّدة عليه على ضرورة الإسراع ببعث المعلومات المجمّعة، باعتبار أن الوقت قد حان لطبع كتاب ديبون (14).

كلّ تلك الظروف والملابسات جعلت المقيم المساعد بتونس يؤكّد على أنّ المعلومات المجمعة «لا تستجيب للآمال المعلّقة عليها...، وبالتّالي فإنّ المعطيات التي وفّرها المراقبون المدنيون — رغم كثرتها — لا تمكّن من استخلاص معلومات دقيقة تستحقّ أن تُنشر في دراسة رسميّة...، فكان لا بدّ للكتابة العامة للحكومة التّونسية (15) أن تزيد النّقاط غير الواضحة فيها إيضاحًا بالاعتماد على دراسة جديدة» (16).

ولعلّ ذلك ما جعل الكتاب ينشر دون أن يحتوي على معلومات موثوق بها عن الطرق الصّوفية بالبلاد التّونسية باستثناء بعض المعلومات الأوّلية التي استقاها صاحبه بوسائله الخاصّة (17)، ممّا جعل البعض منها متضاربا أحيانا (18).

= ديوان وزارة الشؤون الخارجية (1894/5/31). كما عيّن مساعدًا للمقيم العام الفرنسي بتونس (1894/12/23)، ثم حاكما عاما للجزائر (1901/6/18 _ 1903/4/11)، فسفيرا ببارن (1905/11/28)، ثم بمدريد (1907 _ 1910)، أنظر: MARTEL (A.) Les Confins **saharo- Tripolitains de la Tunisie (1881 - 1911)**; Paris , P.U.F., 2t., t.1,1965, p. 583.

13) A.G.T., Le C.C de Gafsa au R.G , le 7/12/1896, D 97 - 3.

14) **Ibid.** , Cambon à Révoil, le 2/7/1896, D 97 - 3.

15) الكاتب العام للحكومة التونسية: حُدّدت مهامه بمقتضى الأمر العلي الصادر يوم 27 جانفي1883 وتتلخّص في مراقبة الوزراء التّونسيين المهتمّين بالادارة العامّة للإيّالة، كما يعتبر مدير الإطار الاداري العام، وناظر قسم الوثائق، بحيث أنّه لا يمكن أخذ أيّ قرار أو تنفيذ أيّ أمر بدون موافقته مسبّقا بعد عرضها عليه أنظر. MAHJOUBI, **l'Etablissement......** , p. 147 - 148.

16) A.G.T., Révoil à Cambon, le 5/4/1897, p. 2 - 3, D 97 - 3.

17) DEPONT et COPPOLANI, **op. cit** , p 292.

18) أنظر مثلا ما قلناه عن الطريقة الشّابية في حديثنا بالفصل الأول عن الطرق الأصلية، ص 48 .

كلّ تلك النّواقص حتّمت علـى ما يبدو على السّلط الاستعمارية انجاز دراسة أخرى.

* سنة 1911: يظهر أنّ هذه الدراسة تجد مبرّراتها في سلبيات التي سبقتها، بالإضافة إلى عوامل مستجدّة أشار إليها المنشور رقم 6، المؤرخ في 15 أفريل 1911، والذي حتّم إنجاز دراسة حول الزّوايا والطرق «بعد الأحداث الأخيرة التي برهنت على أنّ الزوايا كانت وراء كل ما حدث»(19)، ملمّحا بذلك - على ما يبدو - الى الأحداث التي جدّت بتالة في جهة القصرين في شهر أفريل من سنة 1906 والتي اعتبرت الأوساط الاستعمارية أنّ الطريقة الرحمانيّة تقف وراءها(20)

إلاّ أنّ المدّة الزمنية التي استغرقتها هذه الدراسة والإحصائيات، والظروف والملابسات التي دارت فيها، وحتى الأساليب والطرق التي اعتمدتها، تشبه الى حدّ كبير الدراسة الأولى (سنة 1896)، ممّا جعل المقيم العام (21) نفسه يؤكّد في مذكّرته الى المراقبين المدنيّين بأن الإدارة الاستعمارية لا تملك - باستثناء المعلومات الواردة في أطروحة مانشيكور(Monchicourt)(22) معطيات حول الطرق الصوفيّة بالبلاد التّونسية، وهو «ما يفرض معرفة - بأكثر ما يمكن من الدقّة- الطرق الموجودة بالايّالة ، بإنجاز دراسة أكثر عمق. . .، وصياغة نتائجها في جداول شبيهة بتلك التي نشرها ديبون وكوبولاني في كتابيهما.» (23). وبذلك أعطى منشور ماي 1924 إشارة الانطلاق لاحصائيات جديدة ثالثة، أقول ثالثة «باعتبار أنّ الأولى من نوعها وقعت سنة 1896 - 1897، والثّانية سنة 1911 - 1912، فتكون هذه (سنة 1924 - 1925) الثالثة، وهي التي اعتمدت في غالبها لانجاز احصائيات 1933. . .» (24).

---

19) A.G.T., D 97 - 3, document numéro 357

20) أنظر ذلك في حديثنا عن الطرق المناهضة للإستعمار بالفصل الثالث، ص154-165

21) المقيم العام: له مهام واسعة حدّدت بمقتضى قرار رئيس الجمهورية الفرنسيّة المؤرّخ في 1882/4/22، فهو ممثّل الحكومة الفرنسية لدى الباي، كما يسهر على تنفيذ المعاهدات المبرمة بين فرنسا والايّالة، أنظر: KASSAB, op. cit, p. 284.

22) MONCHICOURT (CH.), **La région du Haut-tell en Tunisie (le Kef,Téboursouk, Maktar, Thala), essai de monographie géographique**, Paris, Librairie Armand Colin, 1913.

23) A.G.T., le R.G. aux C C. et les Chefs du bureau des Affaires Indigènes, D 163.

24) **Ibid**

ب ــ تقييمهــا :

تلك هي أهمّ تواريخ الإحصـائيات وعمليّات المسح التي قـامت بها السّلطات الاستعمارية حول الطرق الصّوفية خاصّة، والمسألة الدينيّة عامّة بالبلاد التونسية.

هذا بالإضافة الى وسائل أخرى وقـع اعتمادها كمراقبة «المشبـوه فيهم» بصفة دورية، وتقـارير شهـرية (25)، وأخـرى كلّ ثلاثة أشـهــر «تُحـوْصل الملاحظات والاستنتاجات التي سجّلها [ألمقيم العام]. . .، حول اهتمامات المسلمين من حيث توجّهاتهم السـياسـيّة، والدّينية. . .، وكذلك مـشاعرهم المواليـة أو المناهضة لغـير المسلـمين. . .» (26)، كلّ ذلك لمسـايرة ومحاولـة فهم التـحوّلات التي يشـهدها العالم الإسلامي.

فماذا كانت نـتائج كل تلك الأعـمال، وما هي مـدى مصـداقيّة وواقعـيّة تلك النتائج المتحصّل عليها؟

على مستوى الأرقام ــ سواء بالنّسبة إلى عدد الاتباع، أو الثروات التي تملكها الطرق ــ فإنّ المعلومـات تبدو تقريبيّة، بعـيدة على أن تكون قطعيّة، تبعًا لـصعوبة الحصر، والتّحديد، باعتبار أنّ عدد الأتباع وكذلك حجم الثّروات والمداخيل المتأتّية للزّوايا، غـير منتظمـة، ومتـأثّرة بالدّرجة الأولى بالعـوامل الطبيـعيّة، وبذلـك فإنّ الأرقام الواردة في جـداول الإحصـائيات لا تتـجاوز أن تكون معـدّلات لا تعكس بالضرورة الواقع الطرقي.

لكن ـ رغم النّقائص التي تحملها، والتحـفّظات التي يمكن أن نُبديها تُجاهها ـ فإنّها تُعطينا فكرة عن ذلك الواقع المعقّد، رغم ما فيها ـ أحيانًا ـ من تحامل وتهويل واضـحـيْن ينمّان عن هـاجس الجـهـاد المقـدّس الذي ظلّ يقـضّ مـضـجع السّلط الاستـعمارية التي بقـيت رهينة فكرة مسـبّقة تضفي على المسـلمين سمة المتـعصّبين لدينهـم، والمبـغـضـين لكل «رومي»، بالاضـافــة الـى اعـتــمـادها على تـقـارير ومعلومـات لا أسـاس لها ـ أحيانا ـ من الصـحّة للأطراف الصادرة عنهــا والاطار الذي تتنزّل فيه.

(25 أنظر. Ibid, E 534 - 1 et 2.

(26 Ibid, Le Ministre des Affaires Etrangères à Paris au R.G. de la République Française en Tunisie, le 22/12/1908, D 163.

إلى كلّ هذا يضاف أن تلك الدّراسات والإحصائيات يشوبها الكثير من النّقص حتّى على مستوى التّقديرات: من ذلك أنّه ظلّ ــ باعتراف أعوان تلك الدّراسات أنفسهم ــ إلى سنة 1925 من الصّعب التعرّف بدقّة على مجموع مداخيل الطريقة الشّاذليّة، فقُدّر دخلها السنوي بـ 40.370 فرنكا (27).

كما أنّ المتأمّل في جدول موارد الطرق بأكملها (28)، يلاحظ أنّه بالنّسبة إلى قيمة العقارات التي يملكها مشائخ الطرق، والمداخيل السّنوية المتأتّية منها أنّها معروفة بالنّسبة لخمسة طرق صوفيّة من جملة تسع عشرة طريقة معروفة في الايّالة (29)، وهو ما يجعل المجموع الوارد في ذلك الجدول ــ بالنّسبة لكل صنف من أصناف الملكيات والموارد ــ لا قيمه له باعتبار النّقص الواضح والبيّن في أغلب أوْدية ذلك الجدول.

ولعلّ ذلك ما دفع ــ المعنيين بالأمر ــ إلى التّنصيص في أعلى الجدول المذكور ــ على أنّ تلك «المعلومات غير كاملة، وأنّ تلك المتعلّقة بتونس، وصفاقس يشوبها النقص، في حين أنّه بالنّسبة إلى جهات أخرى فإنّه لا يمكن إعطاء معلومات صحيحة إلاّ بشيء من الإحتياط وبالتّالي، فإنّه لا يمكن الإطلاع على ذلك الجدول إلاّ للتعرّف النّسبي» (30).

وبصفة عامّة، فإنّ تلك الدّراسات والإحصائيّات التي قامت بها السّلط الإستعمارية ــ رغم ما فيها من نُقص، وما أبْدته نفس تلك السّلط نحوها من تحفّظات ــ يبدو وأنها كشفت لها على جوانب مهمّة من الواقع الطرقي بالايّالة، وخاصّة تركيبته الدّاخلية التي تتميّز بعمق الرّابطة الرّوحية للأتباع بمشائخهم، لما لهؤلاء المشائخ من ثروة مادية هامّة جعلت لهم نفوذًا قويّا.

هذا بالإضافة إلى علاقات الطرق ببعضها البعض وبالقوى الخارجيّة، وهي جوانب شكّلت ــ إلى حدّ ما ــ أرضية ومرتكزات انبنت عليها السياسة

(27 Ibid., Ordre principal des Chadelya, p. 10, D 97 - 3.

(28 أنظر الملحق رقم 4، ص 275

(29 أنظر الملحق رقم 4، ص 275.

(30 أنظر الملحق رقم 4، ص 275.

الإستعمارية ـــ في خطوطها الكبرى وأهدافها ـــ تجاه ذلك الواقع الطّرقي للإحاطة به، ومـحـاصـرته، والعـمل تدريجـيـا على تحـجـيم الطّرق وتدجـينهـا، وبالتّالي تقويضها.

فماذا كانت خصائص وميّزات تلك السّياسة الإستعمارية تجاه الطرق الصّوفية بالبلاد التونسيـــة ؟

II ـــ ملامحها وميّزاتهـــا :

عـملت السّلط الإسـتعـماريـة في البلاد التّـونـسيـة على تشـديد الخناق على الطرق الصّوفية ـــ اعتقاداً منها أنّها مصدر الخطر ـــ وذلك بـ:

1) مراقبة السلط الاستعمارية لمشائخ الطرق:

إنّ التّنظيم الدّاخلي للطّرق، والعـلاقات الموجودة بين الطـريقة وزواياها في مختلف أنحاء الايالة، وما تتطلّبه من اتّصال شبه دائم ـ حتى خارج حدودها ـ ، بالإضافـة إلى الطاعة الشبـه مطلقة للأتباع تجاه المشـائخ، وخشيـة استغلالهـا ضدّ الاستعمار دفع السّلطة الإستعمارية إلى مـراقبة دقيقة انصبّت بالدّرجة الأولى على المشائخ، وذلك في عدّة مستويات منها.

أ ـــ تدخّل السّلط الإستعمارية في تسمية مشائخ الطرق

اقتـضت العادة أن يمارس شـيخ الطريقـة وظيفـته بمقـتـضى أمر علـي ـ وان كان بعض المشـائخ لا يملكونه ـ، وفي هذا المسـتوى فـرضت السّلط الإسـتـعمـارية عن طريق الوزير الأكبر ـ عدة إجراءات إدارية يجب توفّرها في المتـرشّح لخطّة مشيخة الطريقة.

من ذلك تعمـير بطاقـة إرشادات تتضـمّن معلومـات شخصـية حـول المترشّح، وخاصة من حـيث مواقفه السيـاسية وميولاته، بالإضـافة إلى رأي كلّ من العامل والمراقب المدني، علمـا وأن ملفّ التـرشّح لا بدّ أن يتـضـمّن بطاقة قـيس وبطاقـة

عـدد 3 (31) لمعرفة خلوّ سجل المترشّح من السّوابق العدْلية.

لقد كـانت السّلط الإسـتعمـارية ــ في الظّاهر ــ لا تتـدخّل في تسمـية مـشائخ الطرق، باعـتـبـار أن المتـرشّح يجب أن يـكون أهلا للخطّة من حـيث مـعـرفـتـه بالطريقة، وتوفّر شـروط اللّياقة فيـه، واتّفاق أتباع الطريقـة عليه وتوجيهـهم لحجّة اتّفاقـهم على صلوحيتـه، بالاضافة الى مـوافقة شـيخ مشائخ الطريقـة التي ينتمي إليها المترشّح، وكذلك رأي كلّ من عامل الجهة والمراقب المدني.

وقد تمكّنت السّلط الاستعـمارية بتقنينها لتلك الاجراءات، من اختـيار نوع معيّن من المشـائخ الذين لهم مكانة اجـتـماعـيـة ووجاهة ونفـوذ على السكان، حـتى يتسنّى للسّلط توظيفهم لصالحها.

ولذلك فـإنّ هذا الصّنف من المشـــائخ قـبلت ترشّحـــاتهم من قـبل المـراقـبين المدنيين: فقاسم ابـن الطاهر ــ المترشّح لخطّة شيخ الطريقة السّلامـية بزغوان (32) قـد قبل ترشّحـه من جـانب المراقب المدني لهـذه الجهـة، أمّا علي بن المنوّر المتـرشّح لخطّة شيخ زاوية القـادرية بكوكـــة (33) فقد قـبل ترشّحه من قبل المراقب المدني بتبرسق، وغيرهما كثير.

وفي المقابل ــ وبواسطـة نفس الإجراءات الإدارية السّابقة الذّكـر ــ فإنّ السّلط الاستعمارية قد تمكّنت من إقصاء «المشبوه فيهم» لعدم «وضوح» ولائهم وتبعيتهم

---

31) تصدر بطاقة القيس عن مـصلحة الهويّة العـدْلية، ويرسم بها كل ما يتعلّق بـالشخص ذاته، وهي لا تسلّم إلا بطلب صريـح من السّلطة القضائيـة، وفي غير هذه الصـورة تسلّم حسب الشـروط المقرّرة بالتّراتيب الادارية بطاقة عدد 3 لا تشتمل إلاّ على بيان جميع الأحـكام الحضورية أو الأحكام الغيابية غير المعـترض عليها والأحكام التـأديبية الصّادرة عن السّلطة العـدلية أو الإدارية إذا كانت متـسبّبة في حرمان المحكوم عـليه من ممارسة حقوقـه المدنية، وكذلك قرارات تحـجير الإقامـة أو المراقبة الإدارية وغيـرها من الأحكـام التي لم يقع محـوها باسترداد الحقـوق أو التي لـم يأذن في شأنهـا الحاكـم بتأجيل تنفيذ العقاب إلاّ إذا صدر في هذه الحالة الأخـيرة عقاب جديد يقضي بحرمان الشّخص المعني بالأمر من الإنـتفاع بالتـأجيل، علماً وأنّه لا يمكن ـــ بحال ــ تسليم هذه البطاقـة لغير صـــاحبـها، أنظر: محمد الطاهر السّنوسي، مجلّة الاجراءات الجزائية، تونس، المطبعة الرسمية، ط. 1، 1939، ص 133ـ135

32) A.G.T , Note du C.C de Zaghouan, le 23/4/1924, D 140 - 12.

33) **Ibid.**, le C C de Téboursouk au Délégué à la Présidence Générale, le 16/7/1904, D 102 - 4.

المطلقة للإستعمار، ولوجود علاقـة بينهم وبين قوى معادية لفرنسا، حتى ولو كان الأمـر يتعلّق بإشـاعات لا أسـاس لهـا من الصحّة وناتجة عن وشايات وأغـراض شخصية، فهذا الصّنف من المشائخ، قوبلت ترشّحاتهم بالرّفض التّـام:

من ذلك أنّ المراقب المدني ببنزرت ــ عند استفساره عن رأيه في البـشير بن حمّودة اللزّام المترشّح لخطة مشيـخة زاوية البنّا القادرية بالمكان ــ وجّه تقريراً ضمّنه عدم الموافقة بدعوى «ان ابن عمّ المترشّح ــ والمسمّى عبدالرحمان اللزّام ــ له أميال (كذا) تركية»! (34).

لقد أثار مـوقف المراقب المدني استغـراب شيخ مشـائخ القادرية الذي أوضح «أنّ ما ذكـره المراقب المدني من الأسباب التي تمنع من ولاية مـن ذُكر غيرُ مـانعة، وأنّ عبـدالرّحمان المذكور، إنّمـا هو مجرّد قريب للمـترشّح، وهو (عبدالرحـمان) من أعضـاء المجلس الشّوري، ولا يمكن مؤاخـذة المنتخب (انتخـبه أتبـاع الطريقة) المذكور بما نسب لابـن عمّه. . . ، إذ لو كانت هناك مـؤاخذة لكان يؤاخـذ بها ابن العمّ. . . »(35).

لكن رغم ذلك التّبرير لساحة المـترشّح من «الولاء للأجنبي» بحجّة عدم مؤاخـذته بميـولات أحد أقاربـه، فإنّ المراقب المدني ببنزرت أصـرّ على أنّه، «ليس من مصلحـة الحكومة التونسية تدعيم عـائلة مشاعرها تجاه فرنسا مـحلّ ريبة، لما يمثّله ذلك مـن خطر، باعـتبـار أنّالطريقـة القـادريّة لهـا أتبـاع عـديدون في بـنزرت .» (36).

فـواضح من موقـفـه هذا أنّه يخشى أن يوظّف المـترشّح نفـوذه على أولائك الأتباع الكثيرين ضد مصالح الإستـعمار، فكان لا بدّ من عدم إجابة مطلبه، الأمر الذي جعل زاوية المكان تبقى طويلا بدون شـيخ حتى «أصبحت مهمـلة ومشتّتة،

34) خزينة الوثائق التونسية، رسـالة من شـيخ مـشـائخ الطريـقة الـقـادرية الى الوزير الأكـبـر، بتـاريخ 1912/7/11، س د، صد. 100، مل. 5.

35) نفس المصدر.

36) A.G.T, le C.C. de Bizerte au R.G., le 15/4/1912, D 100 - 2.

وكثر فيها الهيجان والتشويش والتفرّق. . . » (37) على حدّ قول أتباعها في عريضتهم الموجّهة إلى الوزير الأكبر.

كما أنّ نفس الممارسة قد مورست ضدّ محمد بن أحمد النّوري الذي طلب شيخ مشائخ القادرية بالايّالة «تعيينه شيخا على زاوية جدّه سيدي علي النّوري بمدينة صفاقس لكبر سنّ والده، واشتداد ضعفه، وتعذّر قيامه بشؤون الزاوية. . . » (38). إلاّ أنّ المراقب المدني هناك اعترض على ذلك بدعوى وجود علاقات بينه وبين الخلافة العثمانية (39).

كما أنّ محمد بالرّيش ــ المترشّح لمشيخة زاوية القادرية بالدّبابة بالحامّة «وقع اعتراض على ترشّحه لأنه دستوري، فاضطرّ ــ لتحقيق غايته ــ إلى كتابة تعهّد ببراءته ممّا نسب إليه» (40).

فكلّ هذه الأمثلة وغيرها توضّح التدخّل السّافر للسّلط الإستعمارية في مستوى تعيين مشائخ الطرق، الأمر الذي جعل رأي الأتباع في المترشّح وكذلك رأي حتّى شيخ مشائخ الطريقة لا قيمة له أمام مصلحة تلك السّلط.

وبالتّالي فإنّ المقياس الأساسي والمحدّد لقبول المترشّح لخطّة مشيخة الطريقة أو رفضه هو مقياس سياسي بالدّرجة الأولى، كي تتمكّن السّلط الإستعمارية من غلق الباب في وجه المناوئين لها، والمتشكّكة في ولائهم، حتى لا يصلوا الى مناصب ووظائف حسّاسة قد يوظّفوها ضدّها لما لهم من نفوذ على أتباعهم.

وبتلك الوسائل لا يصل إلى تلك المهام الخطيرة ــ على الإستعمار ــ إلا الذين لا يمكن الطّعن في ولائهم، كما لا يمكن لهم أن يدّخروا جهدا في موافاته بكلّ ما يطلبه منهم من حيث إعانته (الاستعمار) على المسك بالبلاد والعباد، في إطار توظيفه لهم.

---

37) خزينة الوثائق التونسية، عريضة من أتباع الطريقة القادرية بزاوية سيدي البنّا بنزرت الى الوزير الأكبر، بتاريخ 1913/1/7، س. د، صد 100، مل 5

38) نفس المصدر، رسالة من شيخ مشائخ الطريقة القادرية الى الوزير الأكبر، بتاريخ 12 شوال 1891/5/21/1308، س. د صد 108، مل. 2.

39) A.G.T., le C C. et Vice-Consul de France à Sfax au R.G., le 15/1/1899, D 108 - 2.

40) **Ibid**, Note datée du 21/10/1922, D 107 - 2.

لكن السّلط الإستعمارية رغم كلّ تلك التحرّيات في تعيينهم، فرضت عليهم عدّة إجراءات تتعلّق بتنقّلاتهم.

ب ـ مراقبة السّلط الإستعمارية لتنقّلات مشائخ الطّرق:

إنّ أولائك المشائخ لما لهم من نفوذ مادّي وخاصة أدبي على أتباعهم يشكّلون خطراً على السّلط الإستعمارية التي ترى في تنقّلاتهم وسيلة من وسائل الاتّصال المباشر الذي قد لا يهدف إلى جمع الأموال من الأتباع فحسب، بل يساهم في نقل الأخبار، وإيصال المعلومات، وتبادلها ضمن قنوات اتّصال شكّلت ـ الى حدّ ما ـ جهازا إعلاميا منظّما.

ذلك أنّ زيارة الشّيخ الى مكان ما ينتج عنها تجمّع ضخم لجلّ الأتباع الذين قد يحرصون على الحضور لنيْل البركة والثّواب ـ على ما يعتقدون ـ أكثر من حرصهم ـ ربّما ـ على حضور الاجتماعات الرّسمية التي تدعو إليها السّلطة الحاكمة نفسها.

ونظراً لكلّ هذه الإعتبارات وغيرها، وإضعافًا للتّركيبة الدّاخلية للطّريقة، ولنفوذ المشائخ على أتباعهم عملت السّلط الإستعمارية على سنّ قوانين حدّدت الإجراءات اللاّزم احترامها، والعمل بها قبل التنقّل الذي صار محجّرا بدون ترخيص.

من ذلك أنّ المنشور عدد 3 المؤرّخ في 9 جانفي 1913 «وضّح لمشائخ الزّوايا ونوّابهم الأعمال القانونية التي يلزمهم إتمامها قبل الإنتقال من الدّوائر المقيمين بها...» (41).

أما المنشور عدد 13 والمؤرخ في 24 أوت 1921 فقد جاء منظّما لتنقّل مشائخ الزّوايا من الجزائر الى تونس والعكس، موضّحا أنّ سلط الدوائر مكلّفة بإحاطة الحاكم العام للجزائر أو المقيم العام بتونس علمًا بتلك التنقّلات لمعرفة رأيهما لأخذ القرار اللاّزم (42).

41) خزينة الوثائق التونسية، منشور وزيري، مؤرخ في 13 جوان 1924، س د، صد 97، مل 1

42) A.G.T., Circulaire datée du 24/8/1921, D 182 - 3.

هذا في حين أعطى منشور جانفي 1921 المراقبين المدنيين صلوحية منح رخص التنقّل لمشائخ الطرق داخل الايّالة، على أن يبقى تنقّلهم بين الجزائر وتونس خاضعا للإجراءات التي حدّدها منشور سنة 1921 المذكور (43)، والتي زادها المنشور الصّادر يوم 13 نوفمبر 1934 (44) توضيحا وإحكاما، ليتمّ للسّلط الإستعمارية إحكام سيطرتها على كلّ المنافذ بدعوى تأمين نفسها.

وبتلك الإجراءات فقد مشائخ الطرق الصّوفية حرية التنقّل التلقائي، وأصبحوا مطالبين «قانونيا» ــ قبل تنقّلهم ــ بتقديم مطالب إلى السّلط التي يعودون إليها بالنّظر، مع ما في ذلك من مماطلة، وبيروقراطيّة، وإضاعة للوّقت، وحتّى تعطيل للمصالح العامة والشّخصية لأولائك المشائخ، ممّا دفع بالبعض منهم ــ أحيانًا ــ إلى التنقّل ــ مسبّقا ــ قبل الحصول على ترخيص في ذلك.

ومن هؤلاء ــ مثلا ــ صالح بن عبّاس مقدّم زاوية غار الدماء (45)، ومحمد السّويسي مقدّم زاوية سوق الإربعاء (46) بالنّسبة الى الطريقة الرّحمانية، وإبراهيم بن محمد الكبير ــ شيخ زاوية توزر (47) ومحمد الرّشيد الكبير ــ شيخ زاوية نفطة (48) بالنّسبة الى الطريقة القادرية.

وأما بالنسبة الى الطريقة التيجانية، فإنّه ممّن تنقّل دُونما ترخيص مسبّق المسمّى العربي ابن سالم شيخ زاويتها بجرجيس (49).

غير أنّ السّلط الإستعمارية اعتبرت تلك التنقّلات غير قانونية، فسلّطت ــ على أصحابها ــ عقوبات لردعهم وحملهم على احترام الإجراءات السّابقة الذكر.

---

43) **Ibid** , Le R.G. aux C.C., le 5/1/1926, D 182 - 3

44) **Ibid.**, le Secretaire Général du Gouvernement Tunisien aux C C , le 13/11/1934, D 182 - 3.

45) خزينة الوثائق التونسية، مكتوب وزيري للكاهية بالرقبة بتاريخ 1915/9/28، س د، صد. 97، مل. 2.

46) نفس المصدر، مكتوب وزيري لعامل سوق الاربعاء بتاريخ 1914/6/25 س د، صد. 97، مل. 2.

47) A.G.T . le C C de Tozeur au R.G , le 23/7/1927, D 172 - 1

48) **Ibid** , Le Capitaine Belvalette - Chef de l'Annexe de l'Oued au C C de Tozeur, le 16/1/1926, D 172 - 1

49) **Ibid** , Le Capitaine Thivetw -Commandant le Cercle de Zarzis- au R G., le 26/2/1936, D 156 - 1

من ذلك أنّ تسعة أفراد توجّهوا لزيارة الزّاوية الرحمانية بالكاف — قبل الترخيص لهم — وقع إحضارهم من طرف كاهية المكان «ووقع توبيخهم، وإنذارهم بما يلزم ان عادوا لمثل ذلك» (50)، وهو نفس ما آل إليْه أمر كلّ من مقدم الرّحمانيّة بسوق الإربعاء (51)، ومقدّم الزّاوية القادرية بوادي غريب بنفس المكان (52)، إلاّ أن تلك العقوبات يبدو أنها تختلف باختلاف نفوذ المشائخ.

فهم رغم قيامهم بنفس المخالفة، لم ينالوا نفس العقوبة التي لم تقف عند حدّ التّوبيخ بل وصلت — عند البعض منهم — إلى حدّ الزّجر المادّي.

ويمكن الاستشهاد — في ذلك — بإيقاف صالح بالعبّاس — العدل بغار الدّماء — عن الاشهاد لمدة ثلاثة أشهر (53)، وبالتّخطئة بخمسة وعشرين ريالا — لادارة المال — بالنّسبة لأحمد بن عزّوز مقدّم الرّحمانية بنفطة (54)، في حين تمثّلت العقوبة بالنّسبة الى عبدالله بن عمر — شيخ الرّحمانية في زاويتها بنفطة — في طرده من الكاف (55) مسقط رأس زوجته، وحيث أملاكه ومصالحه.

كلّ تلك العقوبات — ذات الصّبغة الزّجرية — تهدف السّلط الاستعمارية من ورائها الى حمل المشائخ على الإنضباط للإجراءات السّالفة الذكر، ليسهل عليها معرفة ومراقبة كلّ تحرّكاتهم، من حيث توقيتها وأهدافها، والأماكن المقصودة بالزّيارة، ومدّة التنقّل، وحتّى مسالكه.

على أنّ مراقبة السّلط الإستعمارية لمشائخ الطرق لم تقف عند حدّ إجبارهم على تقديم مطالب في ذلك، بل طالبتهم بإجراءات أخرى أهمّها:

50) خزينة الوثائق التونسية، رسالة من كاهية الرقبة الى الوزير الأكبر، تاريخ 1916/6/7، س د. صد. 97.، مل 2

51) نفس المصدر، مكتوب وزيري لعامل سوق الاربعاء بتاريخ 1914/6/25، س د، صد. 97، مل2

52) نفس المصدر، مكتوب وزيري لعامل سوق الاربعاء، تاريخ 1913/7/2، س د، صد. 101، مل6

53) نفس المصدر، مكتوب وزيري لكاهية الرقبة بتاريخ 1915/9/28، س. د. صد. 97، مل 2

54) نفس المصدر، نسخة مكتوب وزيري لعامل نفطه، بتاريخ 23 رمضان 6/1308 ماي 1891، س. د، صد. 172، مل. 3

55) نفس المصدر، رسالة من عبدالله بن عمر الى المقيم العام، تاريخ 1925/7/17، س. د، صد 120، مل 2.

* ضبط مسالك التنقّل وتوضيحها بذكر الأماكن التي ستقع الإقامة بها خلال الرّحلة، و أحيانًا ـ تحديد العنوان، وخاصّة المُثول أمام السّلط بمجرّد الحلول بالمكان المقصود طيلة تنقّل الشيخ، وبذلك مسكت السلط الإستعمارية بكلّ القنوات التي تمكّنها من مراقبة المشائخ في حلّهم وترحالهم.

* توضيح أسباب وغاية التنقّل حتى تقف على الغايات الحقيقية لذلك، فعمدت ـ أحيانا ـ الى التثبّت منها بالبحث، وإلغائها كلّما اتّضح لها أنّ الأسباب المقدّمة ـ من قبل المعني بالأمر ـ ليست حقيقية، وإنّما تُخفي وراءها أهدافا لم يصرّح بها: كرفض مطلب التنقّل ـ للقصرين ـ الذي قدّمه محمد الكبير بن عزّوز ـ شيخ الرّحمانية بزاوية تمغزة ـ بدعوى أنّ له أقارب هناك، لكن بالبحث ثبت عدم صحّة دعواه (56).

كما رفض مطلبه الذي قدّمه للمراقب المدني ـ بتوزر ـ للحصول على رخصة تنقّل إلى النّمامشة والدّير ـ بالجزائر ـ ، حيث له زرع وبقر وبغال، إلا أنه بالتثبّت مع الحاكم العام للجزائر ـ تبيّن أنه «ليست له البتّة مصالح فلاحية بدائرة تبسّة، وانّ الغاية الحقيقية لسفره تتمثّل في جمع الزّيارات. . . ، لذلك لا سبيل لمنحه رخصة سفر. . .» (57).

وفي المقابل فإنّ عبدالقادر بن محمد الحفناوي ـ شيخ القادرية بزاوية تمغزة ـ قد حصل على جواز سفر إلى تبسّة بعد أن ثبت أنّ له ـ فعلاً ـ أملاكًا فلاحية هناك (58).

وبذلك، تمكّنت السّلط الإستعمارية من منع عدد هام من المشائخ من التنقّل بتعلاّت واهية أحيانًا، ودعّمت إجراءاتها الرّامية الى الحَيْلُولة دون جمع بعض مشائخ الطرق لبعض الزيارات التي ظلّ يجمعها بعضهم سرّا بعد أن وقع تحجيرها كما سيأتي.

(56 A.G.T., le C C. Suppléant -gérant le C.C. de Thala- au R.G., le 9/8/1921, D 172 - 3

(57 **Ibid** , Télégramme du Gouverneur Général de l'Algérie au R G de Tunisie, le 5/7/1915, D 172 - 3.

(58 **Ibid.**, le C.C Suppléant -Chef de l'Annexe de Tozeur- au R.G., le 13/2/1918, D 172 - 1.

* السّمــاح بالتنقّل شــريطة عـدم جـمع الزّيارات: لـقـد تشـدّدت السّلط الاستـعمـارية في هذا الجـانب مع كلّ المشـائخ ــ تقـريبًا ــ متـعلّلة ــ في ذلك ــ بالوضـعـية الاقـتـصـادية التي يعـيشـهـا السـكّان خـاصّة في سنـوات الجفـاف أو الكوارث الطبيعـية، في حين أن هدفـها الحـقيقي ــ من ذلك ــ التخفـيف عليهم ليتمكّنوا من دفع الضرائب الموظّفة عليهم، ويسدّدوا لها الدّيون المتخلّدة بذمّتهم.

ذلك أنّهم إذا منحـوا مـشـائخ الطـرق الهـدايا والعطايا، فـإنّهم يصـبـحـون عاجزين عن تسوية أوضاعهم المالية تجاه السّلط الاستعمارية.

وحرصًا منهـا على أخـذ تلك الأمـوال، ضيّقت المنافـذ عـلى المشـائـخ حتّى لا ينافسـوها في ابتزاز الـرعـية، خاصّة وانّ السكّان «لو خيّروا بين دفع الضرائب وإرسال الزّيـارات والهدايا لمشائخ الطرق لاختاروا الحلّ الثاني...»(59).

2) احتـــواء السلط الاستعمارية لبعض مشائخ الطرق

تهدف السّياسة الإستعمارية ــ تجاه الطرق الصوفية في البلاد التونسية ــ الى استغـلالها وتوظيفها لخـدمة مصالحها، وتحـقيق أهدافها وذلك لمكانة مشـائخها بين الأتباع؛ لنفوذهم الرّوحي عليهم.

وتحقيقًا منها لذلك، خصّتهم بعدّة امتيازات منها:

أ ــ الإعفــاءات:

كالاعـفــاء مـــن الخدمــة العـسكريــة طبقـــا للأمـــر المــؤرخ فـــي 24 جانفي 1893، و20 جويلية 1896.

كمـا وقـع اعفـاء بعـض مشائـخ الطرق الصّوفية من بعض الاداءات الدّولية،

(59 OULED MOHAMED (H.) "Notes a propos des enquêtes coloniales sur la religion populaire en Tunisie de 1896 à 1934" , **Cahiers de la Méditerranée** , Publié par le Centre de la MÉditerranée moderne et contemporaine, numéro 20/21, (Juin - décembre 1980); pp. 81 - 99, p. 90.

كاعفاء سيدي قدّور (60) شيخ زاوية القادرية بالكاف ـ من السُّخرة ابتداءً من سنة 1901 (61)، وإعانة زاوية التّيجانية بتماسين ـ بالجزائر ـ بمبلغ 3000 فرنك تعويضا لها على القانون الذي تدفعه على نخيلها بالجنوب التّونسي (62).

كما يقع أحيانا التّخفيض من بعض الأداءات التي تشكّى المشائخ من ارتفاعها: من ذلك أنّ سيدي قدّور ـ السّابق الذّكر ـ تشكّى من الاداء الذي يستخلص على الحيوانات التي تذبح لأكل فقراء الزّاوية، «فتقرّر تخفيظ الاداء المذكور - إلى النصف، بحيث [صار] مبلغه 300 فرنك ابتداءً من غرة جانفي.. (1905)» (63).

ب ـ التّسهيلات:

وتتمثّل في التكتّم على مخالفات مشائخ الطرق، وعدم فضح محاكماتهم، عدليا.

من ذلك ـ مثلا ـ التدخّل لدى محكمة سُوسة لايقاف تتبّع الحفناوي ابن عبدالحفيظ ـ شيخ رحمانية تمغزة ـ (64) المتّهم بقضية تهريب ومسك أسلحة (65)، وكذلك تدخّل حاكم التّحقيق بقفصة لصالح محمد الكبير

60) قدّور بن الحاج محمد بن عمّار الميزوني، هو ابن العدل بلقاسم بن حسن أحد أتباع الحاج محمد بن عمار الميروني المؤسّس الأوّل للـزّاوية القادرية بالكاف الذي كانت زوجته عاقرا، فتبنّى قدّور المذكور ومكّنه من مشيخة زاويتيْ القادرية بالكاف والدّيوان بالحاضرة وعند دخول الفرنسيين للبلاد كان لهذه الزاوية نفوذ على كامل غرب وشمال عرب الايالة ووسطها ووسطها الغربي وصولا الى شرق الجزائر، كما كانت له علاقات وطيدة مع العون القنصلي الفرنسي روا، وهي علاقات استغلّها هذا الأخير في تسهيل مهمة استيلاء الجيوش الفرنسية على مدينة الكاف، توفّي سيدي قدّور يوم 1916/7/29، أنظر: A.G.T., Confrérie mère des Kadria, pp 6 - 15, p. 6 - 7, D 97 - 3

61) خزينة الوثائق التونسية، رسالة من روا الى قدّور، بتاريخ 1900/7/23 س. د، صد. 102، مل3.

62) A.G.T, Note datée du 3/6/1924, D 179 - 2

63) Ibid., Decrét daté du 27/12/1904, de Roy à Kaddour, D 102 - 3

64) Ibid, Note de la Résidence Générale datée du 12/4/1899, D 172 - 3

65) خزينة الوثائق التونسية، ترجمة مكتوب من المراقب المدني بقفصة الى المقيم العام بتونس، بتاريخ 1898/11/26، س د، صد 172، مل 3.

شيخ القادرية ـ بها (66)، رغم صدور الإذن لباري (Barry) ـ العدل المنفّذ
ـ ـ بتنفيذ الحكم الصادر ضده عن المحكمة المدنية بتونس بتاريخ 31 ديسمبر
189، والقاضي بدفع محمد الكبير ـ المذكور ـ لمبلغ 6660 فرنكا الى موري
(Mau) البنكي بتونس (67).

كما تمثّلت الإمتيازات ـ أحيانا ـ في منح مشائخ بعض الطرق ـ تسهيلات في
تسديد ديونهم، كما كان الشأن ـ مثلا ـ بالنّسبة الى أحمد قدّور (68) شيخ زاوية
القادرية بالكاف ـ الذي كان عليه ديْن لفائدة جمعية الأوقاف (69)، فوقع التدخّل
لديه عن طريق المراقب المدني بالكاف، فأبدى استعداده للتّسديد بالأقساط (70).

كما أنّ محمد بن ابراهيم الكبير ـ شيخ القادرية بزاوية نفطة ـ اقترض
عشرات الآلاف من أحد الاسرائيليين، كما كان مُدانًا للدّولة، ونظرًا لمكانته، فإنّ
الخزينة كانت لا تستطيع تتبّعه، [فكانت تمنحه] أجلا بعد أجل . . .» (71).

هذا إلى جانب منح السّلط الإستعمارية لبعض مشائخ الطرق ـ مبالغ مالية في
شكل حوالات بدعوى ما لهم ولزواياهم من الفضل والاعتبار: من ذلك توجيه
ـ (Roy) (72) حوالتين الى سيدي قدّور ـ شيخ القادرية بزاوية الكاف ـ

---

(66) A.G.T., Note du Juge de paix de Gafza datée du 16/8/1899, D 102 - 4.

(67) Ibid.

(68) أحمد بن سالم زواري المعروف بأحمد قدّور خلف جدّه سيدي قدّور الميزوني في مشيخة زاويتي القادرية بالكاف والدّيوان بالحاضرة بمقتضى الأمر العلي المؤرخ في 1916/8/12. بدأت زاوية الكاف في عهده في فقدان نفوذها لتحاوراته المتعدّدة. توفّي في فيفري 1941 . حول ترجمه أنظر،
A.G.T ., Note datée du 9/2/1929, D 102 - 3.

(69) أسّسها خير الدين سنة 1874، مهمّتها تسيير بعض المؤسسات الدينية والاشراف على التحكّم في مجالات صرف مواردها، أنظر، MAHJOUBI, L'Etablissement ,p. 302

(70) A.G.T. le C.C. du Kef au R.G , le 28/4/1936, D 102 -3.

(71) Ibid. , le C.C. de Gafsa au R.G., le 20/1/1898, D 106 - 4.

(72) روا (Roy, J. B.B.)، ولد يوم 1845/5/28، شغل خطة عون بإدارة البريد والبرق والهاتف من سنة 1864 الى 1884، وبالقنصلية الفرنسية بالكاف(1871)، ثم مراقب مدني ومكلف بمهمّة نائب بالقنصلية المذكورة (1884)، ثم كاتب عام للحكومة التونسية يوم 1889/9/12، حيث أهّلته كل هذه المناصب لمعرفة لغة وعادات أهل البلاد التونسية، فربط علاقات وطيدة مع العديد من أعيان جهة الكاف وحاصة سيدي قدّور ـ شيخ زاوية القادرية بها ـ عيّن سنة 1910 كاتبًا عامًا الحكومة =

الأولى - مقدارها 800 فرنك (73)، والثّانية 500 فرنك «على وجه الاعانة للزاوية. . .» (74)!!.

فواضح - من خلال هذه الأمثلة - أنّ الذين خُصّوا بتلك الإمتيازات المختلفة - كلّهم من المشائخ الذين لهم وجاهة ومكانة اجتماعيّة، ونفوذ كبير في مناطقهم.

وبالتّالي فإنّ الهدف من وراء تلك الإمتيازات الخصوصية احتوائهم، وحملهم على الوقوف إلى جانب السّلط الإستعمارية، حتى تستعين بهم، وتوظّفهم في تحقيق أهدافها في البلاد، ولا يكون لها ذلك إلا بالتّمكين لهم، حتى إذا اقتضت الأوضاع الإستعمارية الإستعانة بهم لا يستطيعون فكاكًا من المهام التي يطالبون بإنجازها.

ج - التّوظيف:

لقد تعدّدت المهام التي قام بها بعض مشائخ الطرق الصّوفية لصالح السّلط الإستعمارية بالبلاد التّونسية، مستغلّة - في ذلك - نفوذهم على السكّان.

من ذلك - مثلا - أنّ عمران بن عبدالسّلام الفيتوري - مقدّم الطريقة السلاميّة - قد وظّفته سلط الإحتلال في إعادة العربان الفارّين إلى طرابلس الغرب على إثر دخول الإستعمار الفرنسي للبلاد، حيث أرجع كافتهم في عشرة أيام، «ففي يوم واحد أركب 1500 نفس» (75) على حدّ قوله.

= للعدالة ورئيس القسم الأهلي بالنّدوة الاستشارية. توفي سنة 1919، حول ترجمته أنظر، MARTEL, op, cit, t. 1, p.584; MONCHICOURT, **op.cit.**, p. 405.

MAHJOUBI, L'**Etablissement**..., p. 276; AYADI (T.), **Mouvement reformiste et mouvements populaires à Tunis (1906 - 1912)**, Tunis, Imp. Officielle de la République Tunisienne, 1986, p.107, de même Fallôt (E.) "Roy, Secrétaire Général du Gouvernement Tunisien", **l'Afrique Française**, 30è Année, n°. 1, (Janvier 1920), p. 7.

73) خزينة الوثائق التونسية، رسال؛ من روا الى قدّور، بتاريخ 1900/7/23، س.د، صد. 102، مل. 3، أنظر الملحق رقم 5 ص 277.

74) نفس المصدر، رسالة من روا الى قدّور بتاريخ 1904/4/21، س. د، صد. 102، مل. 3، أنظر الملحق رقم 6.

75) سيدي عمران «شكوى وانتقاد»، جريدة المنتظر، تونس، مطبعة العمالة، السنة الثالثة، عدد 21، ليوم 1893/8/20، ص 3.

أمّا الشّيخ الأزهاري بن مصطفى بن عزّوز ـــ شيخ الطريقة الرّحمانية ـــ فقد وقع تكليفه بالاتّصال بالشّيخ الحفناوي للعمل على افتكاك بقايا المركب الفرنسي الذي غرق بمقربة من طبرقة من سكّان جبل خمير.

ولما اندلعت الحرب العالميّة الأولى، كلّفه الكاتب العام للحكومة الفرنسية بمدّ الدولة بما تحتاجه من الخيل، وبحثّ الأهالي على الانخراط في الجندية، فقام بكلّ ذلك على أحسن وجه، وتقديراً لخدماته «وقع تقليده، وسام الشّرف الفرنساوي، ونيشان الافتخار» (76).

كما أنّ سعيد بن عمّار الشّابي ـ من الطريقة الشابيّة ـ كثيراً ما وقع تكليفه بإعادة الهمامّة كلّما خرجوا عن الطّاعة، حتى حصل بذلك الأمن والاستقرار (77) على حدّ قوله.

كما لعب مقدّم التّيجانية سعد بن الحاج ناصر دوراً هامًا أثناء حوادث الجنوب فيما بين 1915 و1916، حيث اجتمع ـــ أكثر من مرّة ـــ بأتباع الطريقة، وحثّهم على الوقوف إلى جانب فرنسا، كما قرأ عليهم عدّة تعليمات في هذا المعنى، واصلة إليهم من شيخ الطريقة الأمّ بالجزائر (78).

إلا أنّ أهمّ مثال على توظيف الإستعمار الفرنسي لمشائخ الطرق الصّوفية تمثّل فيما قام به محمد بالطيّب بن ابراهيم ـــ شيخ القادريّة بورقلة ـــ فيما سمّي بقضية المركيز ديموريس(Le Marquis de Mores) (79) الذي خرج في مهمّة

76) خزينة الوثائق التونسية، رسالة من الشيخ الأزهر بن مصطفى بن عزّور الى المقيم العام، بتاريخ 28 أفريل 1925، س. د، صد. 112، مل. 9، أنظر الملحق رقم 7، ص 281.

77) خزينة الوثائق التونسية، رسالة من سعد بن عمار الشّابي الى الكاتب العام بالدولة التونسية، بتاريخ صفر الخير 1316هـ، س. د، صد 172، مل. 4.

78) A.G.T , Note datée du 17/4/1916, D 156 - 31

79) انطوان فالمبروزا الملقّب بالمركيز دي موريس ولد يوم 15 جوان 1858 ، التحق بأحد المدارس العسكرية المشهورة بسان سير. عرف بحبّه للمغامرات، حيث سافر الى الهند والصّين دخل الجزائر حيث ألقى محاضرة بأحد نوادي باب الوادي، كما دخل تونس يوم 1896/3/20 وألقى محاضرة يوم 29 مارس بقاعة المسرح تمحورت حول الدعوةالى تحالف «فرنسي إسلامي» ضدّ انقلترا. شرع في رحلة استكشافية للصّحراء قتل أثناءها على يد الطوارق في شهر جوان من سنة 1896 في مكان بين الوطية وغدامس، أنظر المرزوقي المرجع السابق، ص 391، وكذلك MARTEL, op. cit. , t. 1, pp. 681 - 683.

استكشافية للصحراء لصالح الإستعمار الفرنسي، إلا أنّه لم يلبث أن قتل من طرف التّوارق، ولم تتمكّن السّلط من القبض على الجناة، فما كان من محمد بالطيّب ــ المذكور ــ إلا أن توجّه في أفريل سنة 1898 ــ نحو الجنوب بدعوى تفقّد الزوايا القادرية هناك، واستطاع أن يغرّر بثلاثة من القتلة، مدّعيا لهم أنّه سيحصل لهم على الأمان بفضل مكانته الدينية.

ولما وصل بهم الى ذهيبة سلّمهم إلى ضابط المركز الفرنسي الذي أرسلهم ــ بدوره ــ الى مدنين، ومن ثمّ أحيلوا الى سوسة للمثول أمام المحكمة الجناحية بها (80).

ولئن مكّنت هذه المهمّة السّلط الاستعمارية من الإيقاع بالواقفين في وجه مخطّطاتها الإستطلاعية والتوسّعية، فإنّ الشيخ المذكور قد كلّفته تلك المهمّة حياته، حيث تمّ اغتياله - فيما بعد - على أيدي التّوارق أنفسهم يوم 3 مارس 1901.

لقد تمكّنت السّلط الإستعمارية ــ بفضل توظيفها لبعض مشائخ الطرق الصّوفية من تحقيق عدّة أهداف بأقلّ التّكاليف، وفي مدّة وجيزة، كما وفّرت لها الأمن والاستقرار في أشدّ الفترات حرجًا، وفي أماكن حدودية نائية من الصّعب السّيطرة على قبائلها، وإرجاعها الى الجادّة، وحملها على الانقياد والدخول في الطّاعة.

لقد أمكن للسّلط الإستعمارية تحقيق كلّ ذلك بواسطة امتيازات ومكافآت كثيراً ما تكون رمزية ودون العمل المنجز، مستغلّة في ذلك تسابق وتنافس بعض مشائخ الطرق في إظهار الولاء لها، والتّفاني في خدمتها، ممّا مكنها من إذكاء العداء والتّنافر بين المشائخ وأتباع الطرق المختلفة، لغاية إضعافها داخليّا، لتسهل السّيطرة عليها خارجيا.

80) حول مهمّة المركيز دي موريس ودور شيخ القادرية في الكشف عن الجناة، أنظر: المرزوقي، صراع... ص 390 ــ 392، وكذلك:

A.G.T , Lettre au Secrétaire Général du Gouvernement Tunisien, le 9/7/1910, D 178-5; de même A 284-3, ainsi que A.M.A.E.F , N S. 77, Tunisie, Affaires du Sud, Affaires Mores I, (30/3 -- 27/7/1896), f. 5, 7, 12, 25, 50, 120, 121, de même N.S. 78, Tunisie, Affaires du Sud, Affaires Mores II, (28/7/1896 - 23/8/1898); f. 3, 4, 5, 147, 167, 171, 181, 182, 184, 187, 189 jusqu'au f. 194; de même N.S. 79, Tunisie, Affaires du Sud, Affaire Mores III, (24/8/1893 - 15/9/1902), f 19, 23, 24, 33, 34, 81, ainsi que A.M.G. , 2H52 - 1, f. 7, 22, 23, de même MARTEL, op.cit., t. 1, pp. 679 - 725

وبالتّالي، فبقدر ما خدمت تلك المهام الإستعمار ومكّنت له، كانت ــ إلى حدّ ما ــ سببًا في فقدان بعض المشائخ لهيبتهم ونفوذهم بين الأتباع من جرّاء كثرة استعمالهم من طرف السّلط الإستعمارية ممّا ساهم في ضعف بعض الطرق الصوفية (81)، خاصة بعد ضرب مقوماتها الاقتصادية.

3) تفقير السّلط الاستعمارية للطرق ومشائخها:

ما كانت السّلط الإستعمارية لتتمكّن من تطويع الطرق الصّوفية بالبلاد التّونسية، والسّيطرة عليها لو لم تبادر منذ دخولها للبلاد الى انتهاج سياسة معيّنة تصل بها الى كلّ ذلــك.

ففي نفس الوقت الذي كانت فيه بعض الطرق الصّوفية تبذل كلّ ما في وسعها لكسب رضا السلط الاستعمارية بالسّير في ركابها، والتّفاني في خدمة مصالحها كانت تلك السّلط تزيد في تضييق الخناق على الطرق لتحجيمها وإضعافها تدريجيا، ليس بمراقبة مشائخها وتوظيفهم فحسب، بل بضرب المقوّمات المادية لتلك الطرق، باعتبار أنّ السّند المالي أحد الركائز الأساسية التي يتوقّف عليها وجودها واستمراريتها.

لقد كان تفقير الطرق خيارًا مبْدئيا راهنت السياسة الإستعمارية على تحقيقه، ليس فقط خشية تحويلها (الطرق) لتلك الأموال المجمّعة لتمويل الأحزاب السياسية، أو إثراء المشائخ مقابل تفقير أتباعهم (82)، وإنما سعيًا منها لوضع حد لقوّة بعض الطرق الأدبية وخاصّة المادّية، وسط واقع متحوّل يحمل في طياته الكثير من المفاجآت، ممّا قد يؤدّي ــ في وقت ما ــ إلى توظيف تلك القوّة ضد المصالح الإستعمارية.

ووقاية لها من كلّ تلك الاحتمالات وغيرها، عملت السّلط الاستعمارية على ضرب مصادر موارد الطرق المتمثّلة أساسًا في:

---

81) أنظر ذلك بتوسّع أكثر في الفصل الرّابع في معرض حديثنا عن الأسباب الدّاخلية لضعف الطرق، ص 257-261.

82) OULED Med, op. cit, p. 89.

أ ــ منع الزّيــــارات:

تمثّل مـوردًا هامًا من موارد الطرق، لـذلك عملت السلط الإستـعمـارية على حرمـانها منه بدعوى أنّه يتسبّب في تفقيـر السكان مما يجعلهـم ــ بالتّالي عـاجزين عـن دفـع الضرائــب، خاصـة إذا علمنـا أنّ المحصــول السّنـوي من الزّيـارات والأعطيـات ــ نقدًا وعـينًا ــ بلغ سنة 1925 حوالي 120.000 فرنك بالنّسـبة الى الطريقـة القادرية بالبـلاد (83)، و24.000 فـرنك بالنّسبـة الى الطريقـة التّيجـانيّة بهـــا (84)، و56.310 فرنك بالنّسبة الى الطريقة العيساوية بالايّالة (85).

لذلك عملت السّلـط الإستعمـارية على حرمان الـطرق من ذلك المورد الهام، فبـــادرت ــ في مـرحلـة أولى ــ إلى تحـجـيـر الإعـلان عن تلـك الزيارات في الأسواق، بمقتضى الأمر العلي المؤرّخ في 20 جوان 1911، بدعوى أن مثل ذلك «الاعلان من شأنه أن تنشأ عنه أمور تخلّ بالرّاحة»! (86).

لكن رغم ذلك التّحـجير، ورغم عـدم السّماح بالتنقّل إلا بعـد التعـهّد بعدم جمع الزيارات، فإنّ بعض المشائخ ــ شعورًا منهم بأهمية ذلك المورد بالنّسبة إليهم ــ استمـرّوا في جمـعهـا، أو على الأقل بقي يصلهم بـعضـها بطرق ملتـوية، ممّا أوجب على تلك السّلط فرض عـقوبات على مرتكبي تلك «التـجاوزات» وصلت أحيانا حدّ مصادرة الأموال المجمّعة.

من ذلك أنّ مبلغ 630 فرنك، وقع تنزيله بخزينة مستشفى سوق الإربعاء، علمـا وأنه متـأت ممّا جمعـه حمـدة بن علي بن عيسـى شيخ زاويـة الرحمانـية بالكاف (87).

إلاّ أنّ السّلط الإستعمارية لم تقف عند حدّ تحجير الإعلان عن الزّيارات، بل خطت خطوة ثانية تمثّلـت في منع الزّيارات نفسهـا ابتداءً من سنة 1913، ممّا ألحق أضرارًا بالمقـوّمات الاقتـصادية للطرق ومشـائخها، الذين تعـالت أصوات

(83 A.G.T., tableau récapitulatif des ressources des confréries .., Colonne 4, D 97 - 3

(84 أنظر الملحق رقم: 4، ص 275.

(85 أنظر نفس الملحق.

(86 خزينة الوثائق التونسية، منشور وزاري للعمّال، بتاريخ 20 جوان 1911، س.د، صد.97، مل. 1

(87 A.G.T., Le C.C. de Souk-arbaâ au R.G., le 21/5/1924, D 97 - 2

بعضهم مطالبة بإرجاعها لمالها من أهمية، إذ تمكّن الطرق من مواصلة مؤازرة فرنسا ومحاربة أعدائها (88) على حدّ قول أحد المشائخ،لكن رغم ذلك أصرّت تلك السّلط على عدم التّراجع في «القرار الذي اتّفق في شأنه حكّام شمال افريقيا» (89).

وحرصا منها على تطبيق تلك الإجراءات، راقبت تنقّلات المشائخ، ولم تسمح للبعض منهم بالتنقّل إلا بعد التزامهم بعدم جمع الزيارات، وبذلك أحكمت السّلطة الإستعمارية مراقبة جمع المال من الزّيارات، إلاّ أنّ ذلك لم يمنع من وصول مبالغ أقلّ أهميّة، ممّا حدّ من موارد الطرق، خاصّة بعد أن توجّهت السّياسة الاستعمارية لضرب المورد الثاني.

ب ـ ضرب الأحباس (90):

مكّنت الأوقاف الطرق الصّوفية من ملكيات عقارية شاسعة، قدّرت قيمتها الجملية سنة 1925 بأكثر من 21.759.900 فرنك (91)،

منها 12.807.900 فرنك قيمة ما تملكه الزّوايا (92) وله دخل سنوي قدّر بأكثر من 466 368 فرنك (93)، و8.952.000 فرنك قيمة ما يملكه المشائخ (94) وله دخل سنوي قدّر بأكثر من 282.060 فرنك (95).

وبذلك يكون الدّخل السّنوي الجملي لزوايا الطرق الصّوفية في الايّالة من الملكيات العقارية أكثر من 650.526-فرنك، وهو ما يعادل تقريبا أكثر من

(88 **A.M.A.E.F.**, Le Cheikh Manoubi Tidjani -Chef de la confrerie Tidjania à Bou-arâda- à Peycelon, le 7/11/1929, Tunisie, 1917 - 1940, vol. 316, d no· 1, (1/1927 - 12/1929), f. 264 - 265

(89 **Ibid.**, Note pour Peycelon, le 21/11/1929, f. 266.

(90 HEFFENING, "wakf ou Habs", **l'Encyclopédie de l'Islam**, t. IV-2, PP 1154 - 1162.

(91 **A.G.T.**, Tableau recapitulatif des resources des confréries , 4.

92) أنظر الملحق4 ، الوادي الثاني من الجدول.

93) أنظر الملحق 4، الوادي الثالث من الجدول

94) أنظر الملحق 4، الوادي السادس من الجدول

95) أنظر الملحق 4

نصف دخلها السنوي العــام (96).

لهذا نـتبيّن السّبب الـذي دفع بالسّلط الاستـعمارية الـى العمل على إضـعاف مـداخـيل الطرق ومـشـائخهـا المتـأتّيـة من هذا المورد، وفي نفـس الوقت التّمكين للمعمّرين الفرنسيّين بمنحهم مساحات عقارية شاسعة.

ولتحقيق هذه الغايات عملت تلك السّلط على التدخّل في نوعي الأحباس وهي:

*** الأحبــــاس العامّــــة:**

وهي أملاك حبّست من طرف أصحابـها على مؤسّسـات وزوايا صارت هي المالك الحقـيقي لهـا، بحيث ينصّ عقد التّحـبيس على الأوْجه التي تنفق فـيها عـائدات تلك الأمــلاك كـالتّرمـيم للمـقـام، والزّوايـا، وشـراء الحـصـر، وإيواء الزائرين، علما وأنّ هذا النـوع من الملكيات كان يمسح مـساحات شاسـعة في جلّ أنحاء الايّالة.

وهو ما استـرعى انتباه السّلط الإستـعمارية التي عملت على الإسـتحواذ على أكـثـر مـا يمكن من ذلك النّوع من الأراضـي، وذلك بإصـدارها لقـانون 18 أوت 1885 الذي حوّر الإجـراءات المتعلّقـة بالانزال (97) الذي هو نوع مـن الاجـارة الأبدية، تمكّن صاحبها من التمتّع بالملكية، والقيام بكلّ ما يريد فوق الوقف.

ولئن كان الانـزال قبل 1885 يقع عن طريق القـاضي ــ الذي يصـدر الأمـر بالمزاد العلني، وأحيانًا يعمد الى التّرفيع في الرّيع الذي حدّده الخبراء بحيث لا يتمّ الانزال بصفة نهـائية إلا بعد موافقة البـاي ــ فإنّ حكومة الإستعـمار ــ التي تقدّر أهميّة الفـوائد التي يمكنها الحصـول عليها بتلك الوسـيلة ــ استصـدرت قانون 18 أوت المذكور، واستكملته بقانونيْ 21 أكتوبر و22 جوان 1888 وقد نصّت على:

ــ أن الانزال للأحـباس الخـاصّة والعامّة لا يمكن اجـراؤه إلا عن طريق المزاد العلني بعد اشهار خمسة أسابيع.

96) يقدر دخل الطرق السّنوي من المـلكيات العقارية التي تملكها بـ 368.466 فرنك، في حين يقدّر الدّخل السّنوي من الملكيات التي يملكها مـشائخها بـ 282.060 فرنك بالاضافة الى دخل الطرق المتأتّي من الزّيارات والمقدر بـ 93.740 فرنك، فيكون بذلك اجمـالي دخلها السـنـوي يقدّر بـ 1.144.266 فرنك وهو مـقدار نصفه تقريبا (650.526 فـرنك) متـأتّي من عائدات ملكيـات الطرق العقارية: أنظر الملحق رقم 4، ص 275.

97) حول تاريخ الانزال وأثره على الأحباس، أنظر: HEFFENING, op.cit, p. 1159.

ـ بمجرّد قبول الجمعية، أو المتفعين للمطلب، فإنّ على الراغب دفع مبلغ لقباضة الأحباس.

وبصدور تلك القوانين، عملت أوساط المعمّرين على توظيف رؤوس أموالها في شراء الانزال للإستحواذ على أراضي الأحباس، خاصّة وأنهم قد تمكّنوا من الحدّ من ارتفاع أسعار الانزال كلّما وقع مزاد علني، علمًا وأنهم أصبحوا «ينسّقون مع إدارة الفلاحة عوضًا عن جمعية الأوقاف، وإدارة الفلاحة هذه أنشئتْ لدعم الاستعمار الفلاحي، فصار لها الحقّ في مراقبة إدارة الجمعية، بحيث لا يمكن أن يتمّ انزال بدون موافقتها، وأن أيّإنزال [يهمّ] أكثر من 20 هكتار لا يمكن كراؤه بدون موافقتها، فتمكّنت ـ بذلك ـ من الحيْلُولة دون التفويت في أراضٍ ترى أنّها صالحة للإستعمار...» (98).

وتلك الوسائل ـ المختلفة ـ أمكن للمعمّرين السّيطرة على مساحات شاسعة من الأراضي الفلاحية الخصبة خاصّة (99)، حيث توضّح الإحصائيات الرّسمية أنّالمعمّرين الفرنسيين هم الذين استفادوا من عمليات الإنزال.

ذلك أنّه منذ مارس 1889 تفيد الأرقام أنّه من جملة 6068 هكتار ـ من أراضي الأحباس التي وضعت للمزاد العلني ـ صار منها 3430 هكتار ـ أي بنسبة 56٪ ـ الى الفرنسيين (100).

غير أنّ الخطوة المصيرية لاستيلاء المعمّرين على أراضي الأحباس العامّة كان أقرّها قانون 13 نوفمبر 1898 (101).

(98 KASSAB, **op. cit** ; p. 58 - 59.

(99 حول الاحباس الخاصة والعامة، والسيطرة التّدريجية .. للإستعمار عليها، أنظر: SFAR (B), "LesHabous en Tunisie envisagés au point de vue de l'opinion publique indigene et de l'interet général", **Compte-rendu des travaux du Congrés de l'Afrique du Nord,** t 2, Paris, 1909, pp. 385 - 404, de même CHEBIL (M), "Les grands Habous de Zaouias", **Bulletin Economique et Social de la Tunisie,** n° 92 (septembre 1954), pp. 36 - 42; ainsi que PONCET (J.) **La Colonisation et l'Agriculture Européennes en Tunisie depuis 1881,** Paris, l'Imp. Herissey, 1961.

(100 PONCET, **op. cit.**, p. 154

(101 **Ibid.**, p. 190

* الأحباس الخاصّـة: وهي أملاك حُبّست على عائلات تتصرّف فيها مباشرة أو عن طريق مقدّمين.

ولئن استهدفت أطماع المعمّرين الأحباس العامّة مبكّرا، فإنّ الأحباس الخاصّة لم تسلم بدورها من تلك القوانين.

وبالرّغم من التّحـذير الصّادر عن البشـير صـفر (102) - في تقـريره الى المقيم العام بتاريخ 15 سبتمبر 1903 - فإنّ السّلط الإستعمارية كانت متشبّثة بأهدافها الرّامية إلى الإستحواذ على ذلك النّوع من الأحباس تمكينًا منها للمعمّرين.

ولذلك الغـرض سنّت قـانون 12 أفريل 1913 الـذي مكّن المـالكـين لأراض محبّسة عـامّة أو خاصّة أخذها بالإنزال إذا أثبتوا استغـلالهم لها أبا عن جدّ بموافقة جمـعية الأحـباس أو المتفـعين من الحبس(103)، علما وأنّ الادارة الإسـتعـمارية تهـدف من وراء كلّ ذلك إلى«تحـديد الاسـتـحـواذ الحـقـيـقـي على الأراضي المحبّسـة، والعمل على جعل المهـيّأ منها للاستـغلال ـوالغيـر مستـولى عليه ـ تحت تصرّف الاستعمار»(104).

وبتلك الطرق الملتوية، أمكن للسّلط الإستعمارية انتزاع مساحات شاسعة على حساب الأحباس الخاصّة والعامّة، وهي إجراءات عملت على تدعيمها بعد الحرب العالميـة الأولى بمحاولتهـا «الاستيلاء علـى أرض الأوقاف الخاصّة وإلحاقـها بإدارة الاستعمار، وتوزيعها على المعمّرين الذين يجب أن يعدّوا الآلاف المؤلّفة .»(105) على حدّ قولها.

---

102) البشير صـفر: من أصل تركي، ولد بتونس سنة 1856 زاول تعلّمه بالمدرسة الصادقـية، ثم سافر إلى فرنسا لإتمام دراسته هناك بمعهد سان لويس. وبعودته الى تونس سمّي مترجمًا بالكتابة العامة، ثم صار أوّل رئيس لقسم المحاسبات ساهم في تأسيس «الجمعيـة الخلدونية» التي كان يقوم فـيها بدروس في التاريخ، كما باشر رئاسة «جمعية الأوقاف». عيّن قايد سوسة سنة 1908، أين توفّي سنة 1917، حول ترجمتـه أنظر: الفاضل بن عاشور تراجم الاعلام، تـونس، الدّار التونسـية للنشر، 1970 ، ص 197 ـ 206، ZMERLI (S.), **Figures Tunisiennes, les Successeurs**, Tunis, M.T E , 1967, pp. 15-29; MAHJOUBI, Les Origines. , p. 121-122, AYADI, **Mouvement réformiste**. , p. 34.

103) PONCET, **op. cit**, , p. 193

105) أحمـد توفيق المدني، حيـاة كفاح (مـذكّرات)، الجزء الأول في تونس، 1905ـ1925، الجزائر الشركة الوطنية للنّشر والتّوزيع، 1976، 2ج، ج. 1، ص 177.

كلّ ذلك وفق مشروع المقيم العام فلاندان (Flandin) (من نوفمبر 1918 إلى ديسمبر 1920)، والذي يمسّ بالمصالح الجوهرية لمشائخ الطرق الصّوفية، مما أدّى ـ يوم 14 ماي 1920 ـ الى خروج المتظاهرين، و«في مقدّمتهم مشائخ زوايا متعدّدة، من المنتفعين من الأحباس الخاصّة، حيث تجمهروا أمام الاقامة العامّة، إلاّ أنّ فلاندان أكّد لهم أنه لن يُمضي البتّة على قانون يستهدف معتقداتهم الدّينية، علمًا وأن كلّ ذلك حدث في رمضان، شهر هيجان المشاعر الدّينية» (106).

لكن يبدو أنّه رغم تلك الوعود ظلّت السّلط الاستعمارية في الايّالة متمسّكة بالإستحواذ على أراضي الأحباس الخاصّة، فأصدرت قانون 2 جويلية 1935 أتبعته بقانوني 17 سبتمبر و22 نوفمبر 1935، ممّا أدى سنة ـ1937ـ الى بعث جمعيّة للدّفاع عنها مقرّها 5 نهج النّحاس بتونس (107).

تلك هي أهمّ ملامح السّياسة الاستعمارية تجاه الطرق الصّوفية من حيث انتزاعها لأراضي الأحباس، وبالتّالي إضعاف مشائخها ماديّا وأدبيا لتسهل السّيطرة عليهم والتحكّم فيهم، الأمر الذي أدّى بالكثير منهم الى تدهور مداخيلهم، مما حملهم على التّداين.

من ذلك مثلا أنّ كلّ من محمد العربي وأخيه عبدالرّحيم الشّريف ـ صاحبي الزّاوية القادرية بالقصور ـ تَدَايَنَا من اليهودي سيمون برامي (108)، كما أنّ محمد بن ابراهيم الكبير شيخ القادرية بنفطة قد استدان من أحد الاسرائيليين ومن الدولة (109).

إنّ تلك الدّيون ـ رغم التّسهيلات الممنوحة للمشائخ في تسديدها ـ كما سبق أن أشرنا ـ جرّت العديد منهم إلى التّفويت في عقاراتهم بأثمان بخسة.

ويمكن الاستدلال ـ في هذا المجال ـ بهنشير محمد العربي وأخيه عبدالرحيم الشّريف المذكورين (110).

---

106) HANOTEAU (G.), **Histoire des Colonies Françaises et de l'expansion de la France dans le monde**, Paris, Imp. Paris-Vanves, t. 3, 1931, p. 460.

107) أنظر: A.G.T. , E 509 - 180.

108) D 102 - 4. , **Ibid.** أنظر الملحق رقم 3، ص 273

109) **Ibid.** , Le C.C. de Gafsa au R.G. , le 20/1/1898, D 106 - 4.

110) أنظر قضية الهنشير في خزينة الوثائق التونسية، في توضيح أحمد بن الخوجة ـ عامل تاجروين ـ الى الوزير الأول، بتاريخ 1945/8/12، س. د، صد. 102، مل. 2.

كما أدّت بالبعض الآخر إلى رهْن عقاراتهم ريثما يتمّ لهم خلاص ما عليهم من ديون: من ذلك أن دُيون محمد بن ابراهيم ـ شيخ القادرية بنفطة ـ بلغ مجموعها فيما بين 1894 ـ 1896 ما قدره 104.600 فرنك، منها 94.600 فرنك لأربعة من اليهود (111).

وبحلول آجال كلّ تلك الدّيون، وعجزه عن تسديدها ـ مع فوائضها ـ اضطرّ الى رهْن حجج جنانه في دور الحسبة (توزر)، وغابة دايْخة(112)في حين رهن رسم «سانيت خرْنوب (نفطة)، ونصف الدّويرة (توزر) عند اليهودي حامي بن بارور» (113)، وبذلك لم تبق بيده ـ الى حدّ سنة 1899 ـ إلاّ حجّة جنّة نصف بولرْباق بنفطة، وحجج السّواني المحبّسة على الزّاوية التي ـ بدورها ـ «يمكن رهنها لأن الأمور كلّها بيده لا يشاركه فيها أحد. . »(114) على حدّ قوله.

لقد دفعت وضعية تفاقم الدّيون ـ لدى بعض مشائخ الطرق ـ وعجزهم عن تسديدها إلى الإلتجاء الى السّلط الإستعمارية ـ التي تبحث عن تلك الظروف لاستغلالها ـ للتدّخّل لفائدتهم، ومساعدتهم على إيجاد صيغة لتسوية أوضاعهم.

ويمكن الإستشهاد في هذا الصّدد بالتجاء محمد بن ابراهيم ـ المذكور ـ الى الكاتب العام بالدّولة التّونسية للتدخّل لفائدته لدى أصحاب الدّيون «لإيقاف الزّيادة (أي فائض الدّين)، وتقسيط الحاصل على السّنين ليقع الخلاص من غير تعب» (115) على حدّ قوله.

أما عبدالرّحيم وأخوه ـ المذكوران سابقا ـ فقد طلبا «قرضا ثمن الهنشير يسدّدانه أقساطا. . .» (116).

إنّ هذه الأمثلة وغيرها تكشف عن الوضعية المادية التي آلت إليها بعض زوايا الطرق ومشائخها الذين ساءت ظروفهم الإجتماعيّة، فأصبحوا عاجزين عن توفير حاجياتهم اليومية:

---

111) خزينة الوثائق التونسية، س. د، صد. 102، مل. 4، أنظر الملحق رقم 3، ص 273.

112) نفس المصدر، أنظر نفس الملحق.

113) نفس المصدر، أنظر نفس الملحق.

114) نفس المصدر، أنظر نفس الملحق.

115) نفس المصدر، رسالة من محمد بن ابراهيم الى الكاتب العام بالدولة التونسية، بتاريخ 1899/7/3 س. د، صد. 106، مل. 4.

116) نفس المصدر، رسالة من عبدالرّحيم بن الازهر الشريف الى المقيم العام، بتاريخ 1931/7/18، س. د، صد. 102، مل. 2.

من ذلك أنّ محمد المكّي ـ شيخ القـادرية بالجريد ـ صار على حالة «من ضـعف الحال، وقلّة ذات اليـد. . .، حـتّى أنّه لم يجـد شيـئـا يقتـات به هو وعائلـته التي يخـشى عليهـا الاهمال. . .» (117)، وهذا ما آل إليـه أمر محـمد الأخضـر السهيلي ـ مـقدّم التّيجـانية بتبـرسق ـ الذي أصبح يعـاني من «شدّة الفاقة، والاحتياج وكثرة العائلة، وعدم الحـرفة. . .» (118).

لقـد اضطرّت تلك الوضعـية بعض مـشائخ الطرق الى التوجّه نحـو السّلطة طلبا للإعانة، كمحمد الاخضر السّهيلي المذكور (119)، وكذلك محمد الجنيْد بن حسين (120)، ومصطفى بن الحوسين (121)، وغيرهـم ممّن ينتسـبون الى الطريقة الرّحمانية.

ومحمـد الخياري (122)، وحمـيّد النّايْلي (123)، من الطريقـة السلاّمـية. وعبدالرّحيم الشـّريف (124) من الطريقة القادرية، وغيرهـم كثير، علمًا وأن بعض تلك الاعـانات المطلوبة كانت بغـاية ترمـيم أو إتمام بعض الزّوايا كالزاوية القـادرية

---

117) نفس المصدر، رسالة محمد المكّي بن محمـد الكبير الى كاتب الدّولة العام، بتاريخ 1915/10/22، س. د، صد 172، مل. 1.

118) نفس المصدر، رسالة من محمد الأخضر السّهيلي الى رُوا، بتاريخ 1901/5/25، س د، صد. 156، مل. 1.

119) نفس المصـدر، رسـالـة من مـحـمد الأخـضـر السّهـيلي الى رُوا، بتـاريخ 1901/11/17، س.د، صد. 156، مل. 1.

120) نفس المصدر، رسالة من محمـد الجنيد بن حسين الى رُوا، بتاريخ 1894/10/29، س. د صـد. 121، مل. 2

121) نفس المصـدر، رسـالة بالفرنسـيـة من مصطفـى بن الحوسين الى الكاتب الـعام للحكومـة التونسية بتاريخ 1935/12/8، س. د، صد 112، مل 2

122) نفس المصدر، رسالة محمد الخياري الى المقيم العام بتاريخ 1936/8/10، س د، صـد. 153، مل 7.

123) نفس المصدر، رسالة حـميّد النايلي الى الكاتب العـام، بتاريخ 1914/5/15، س. د، صـد. 140، مل. 5

124) نفس المصدر، رسالة عـبدالرّحيم الشريف الى المدير العـام للداخلية بتـاريخ ديسمـبر 1931، س. د صد 102، مل. 2

بساكن (125)، ممّا يوضّح العجز المادي الذي صارت عليه بعض الزّوايا الطرقية التي لم تعد لديها مداخيل كافية لتسديد مصاريفها.

كذلك من الزّوايا التي أصبح ترميمها أو إكمال بناءها متوقفا على إعانة الحكومة نذكر الزاوية السّلامية بتطاوين(126) والزاوية الرّحمانية بالملاّسين(127) مما يوضّح مدى العجز المالي الذي آل إليْه أمر بعض الطرق الصّوفية، حتى صارت عاجزة عن الايفاء بحاجياتها.

لكن هل يمكن تحميل السّلط الاستعمارية وحدها مسؤولية تفقير بعض الطرق الصّوفية ومشائخها؟

لئن تعتبر السّياسة الاستعمارية مسؤولة فعْلاً عن الأوضاع المزرية التي آلت إليْها الطّرق، فإنّ جانبا من تلك الأوضاع يعود الى تصرّفات المسؤولين عن أملاكها وعقاراتها.

ذلك أن تبذيرهم، وإسرافهم للأموال المتأتّية من الموارد المختلفة للطرق أدّى إلى إتلاف ثرواتها، وهو ما آل إليه ـ مثلا ـ أمر الزّوايا القادرية (128)، والرحمانية (129) بنفطة، وزاوية الرّحمانية بالكاف (130).

تلك هي الأسباب الأساسية التي كانت وراء تفقير عدة طرق صوفيّة بالبلاد، وهذا قد يكون وراء اندثار البعض منها، كزاوية سيدي الحاج ـ التّيجانية ـ بتوزر التي لم تذكر ضمن قائمة زوايا الجهة سنة 1925 (131)، وكذلك زاوية

---

125) نفس المصدر، رسالة من جماعة القادرية بمساكن الى روا، بتاريخ 1910/6/8، س د، صد 109، مل. 8.

126) نفس المصدر، رسالة محمد الخياري الى المقيم العام بتاريخ 1936/8/10، س. د، صد. 153، مل7.

127) نفس المصدر، رسالة محمد الجنيد بن حسين الى الكاتب العام للحكومة، بتاريخ 1904/10/25، س. د، صد 112، مل 2

128) **A.G.T.**, Confrérie mère des Kadria, p 5, D 97 - 3.

129) **Ibid** , Confrérie mère des Rahmanya, p. 9, D 97 - 3.

130) **Ibid.**, p. 14.

131) **Ibid.**, Congrégation des Tidjania, p 6, D 97 - 3.

الشّاوش صالح التّيجانية بباجة (132)، وزاوية الحاج العبّاسي ـ الرّحمانية ـ في ماجر التي انتهى أمرها بموت مؤسّسهـا (133).

بهذا كلّه نتـبيّن وسائل السـياسة الاستـعمارية لفـرنسا، ونتائجهـا تجاه الطّرق الصّوفية بالبلاد، والتي ضربت مقوّماتها المادية، وامـتيازاتها الأدبية كحقّ الاحتماء بالزّوايا (134) بمقتضى الأمر الصادر سنة 1882.

وهو أمر أوجب على مشائخ الزّوايا والمراقـبين المدنيين أنه «إذا تحصّن ـ بأحد الزّوايا ـ أيّ جان كَان. . . ، متّهم بسـرقة، أو نهب أو جـــرح، فـإنّهم يبادرون ـ في الحال ـ بإعْلام العامل بذلك. . . ، مع التأكـيد على مشائخ الزّوايا بردّ البال من الجاني حتى يقع تثقيله (أي بالحديد). . . » (135).

وبهذا تكون السّياسة الاستـعمارية قـد ساهمت ـ إلى حدّ بعـيد ـ في فقدان الطرق الصّوفية لأهمّيتها المادّية والأدبية، وبالتّالي إضعافها (136).

تلك هي السّياسـة التي اعتمـدتها السّلط الإسـتعمارية في التّعامل مع الطّرق ومشـائخهـا، قصد تطويعـهم، واحتـوائهم، وتوظيفـهم، حتى تستـعين بهم عند الحاجة، ولا يصدر عنهم ما يهدّد مصالحها.

فهل نجحت فـــي تلـك السّياســـــة ؟

وإن كان لها ذلك، فإلى أيّ مـــــدى ؟

---

132) **Ibid.**, p. 8.

133) **Ibid.**, Confrérie des Rahmanya, p 17, D 97 - 3

134) تتمتّع بعض الزّوايا في الايالة بحرم، وهو عبارة عن مسـاحة ـ تختلف باختـلاف الزّاوية ـ مقدّسة، ومحدّدة بجدار أو أسلاك شائكة، لا يمكن انتهاكها من أحـد، بحيث أنّ من دخلها، واحتمى بالزّاوية يعدّ آمنا، أنظر الهادي حمّوده الغزّي، الأدب التّونسي في العهد الحسيني، 1705 ـ 1881، الدّار التّوسية للنشر، 1972، ص 86 و 87، أنظر كذلك قائمة هذا النّوع من الزّوايا، وحدود حرمها في A.G.T., Les limites des zones de Zaouias qui jouissent du droit d'asile à Tunis et aux environs et dans la régence, D 97 - 8 bis.

135) خزينة الوثائق التّونسية، مكتوب من الوزير الأكبر الى المراقب المدني بالوطن القبلي، بتاريخ 25 رجب 1885/5/10/1302، س. د، صد. 97، مل. 4

136) أنظر ذلك بأكثر تفصيل في حديثنا ـ بالفصل الرّابع ـ عن الأسباب الخارجية لضعف الط ؛ الصّوفية، ص 251-257

الفصل الثّالث

علاقات الطرق الصّوفية بالاستعمار الفرنسي



لئن سلكت السّلط الإستعمارية ــ تجاه الطّرق الصّوفية ــ سياسة لها ملامحها الواضحة، وخصائصها المميّزة، فإنّ بعض تلك الطرق، لم تكن لها مواقف ورؤى منسجمة وموحّدة تجاه الإستعمار الفرنسي وسياسته بالبلاد.

ذلك أنّه رغـم تعدّد الطّرق وكثرتها، فإنّ بعضها ممّن تعامل ـ سلبا أو إيجابا ـ مع الإستعمار جدّ قليلة حسب ما تفيده الوثائق التي أمكننا الإطّلاع عليها.

وتلك المواقف ــ على قلّتـها ــ تميّزت بالتّبـاين ــ ليس بين طريقـة أمّ وأخرى متفرّعة عنها فحسب ــ وإنّمـا يحدث ذلك بين عدّة طرق فرعية تعود إلى طريقة أمّ واحدة، بل وقد يحصل ذلك التّباين بين زوايا داخل الطريقة الفرعيّة الواحدة.

وهذا يجـعل من الصّعب على الباحث أن يحـدّد المواقف الطرقية الملزمـة لها جميعا أصلا وفرعا، الأمـر الذي يحمله بالضّرورة على تحديد خصائص كلّ موقف من مواقف تلـك الطرق، ومقارنتـها بعـضها ببـعض، وتوضيح خلفـياتهـا وتحديد أسبابها.

I ــ الطرق الصّوفية والمسألة الاستعماريـــة:

جـسّم مـؤتمر برلين (1) ــ الذي افـتتـح أشغـاله يوم 13 جوان 1878ــ قـمّة التّناقض بين الدّول الإسـتـعمـارية المتنافـسة على اقـتسـام ممتلكات الإمبـراطورية العثمانيّة.

ذلك أنّ بريطانيـا كـانت حريصـة على إيجـاد توازن بين القـوى في البحـر الأبيض المتوسّط (2) بعد ان استولت على قبرص لمسـاندتها للإمبراطورية العثـمانية ضدّ الأطماع الرّوسية (3).

كمـا وجّهت إهتمـامها إلى البـحر الأحـمر، فعـملت على صرف فـرنسا عن الطّمع في الإستيـلاء على مصر خاصّة بعـد أن شقّ دي ليسبس (De Lesseps) ــ المهندس الفرنسي ــ قناة السّويس التي تمّ افتتاحها يوم 17 نوفمبر 1869.

ولأهميّة ذلك الممـرّ المائي في ربط بريطانيا بمسـتعمـراتها بالهند ــ لقـصر الطريق وقلّة التّكاليف ــ تمكّنت بريطانيا ــ سنة 1875 ــ من اشتراء نصيب الخديو

---

1) حول أشغال هذا المؤتمر ومداولاته أنظر: GANIAGE, op.cit, pp. 509 - 520

2) MARTEL, op. cit, t. 1, p. 208.

3) MIEGE (JP.), Expansion Europeenne et decolonisation de 1870 à nos jours, Paris, P U F, 1973, p. 177

اسماعيل من الأسهم (4)، فسيطرت بذلك على الملاحة في القناة التي أصبح 75٪ من السّفن المارّة بها تابعة لبريطانيا (5).

ولتلك الإعتبارات، شجّعت هذه الأخيرة فرنسا على الإستيلاء على تونس على حساب إيطاليا حيث كانت تخشى إغلاقها لمضيق صقليّة في صورة انتصابها على ضفتيْه (6).

كما أنّ بسمارك ــ رئيس المؤتمر السّابق الذكر ــ قد رغّب فرنسا ــ أيْضًا ــ في الإستيلاء على تونس، سعيًا منه لعزلها عن القارّة الأوروبية حتى يُنسيها التّفكير في مقاطعتيْ الألزاس واللّوران (7).

وبذلك تجاوزت فرنسا العراقيل الخارجية لاحتلالها للايّالة، فوضعت خطّة مرحلية تقضي باحتلال المناطق الشّمالية من البلاد، وفرض معاهدة على البــاي ــ كمرحلة أولى ــ، ثم احتلال بقيّة التّراب التّونسي في مرحلة ثانية.

وحتّى تضع مخطّطها ــ ذلك ــ حيز التنفيذ استغلّت دخول 300 مسلّح من سكان خمير التّراب الجزائري يوم 16 فيفري 1881 (8) كتعلّة لتحريك قواتها نحو الايّالة بدعوى تعقّب المعتدين والاقتصاص منهم.

فاجتازت الجيوش الفرنسية الحدود التّونسية الجزائرية من جهة غار الدّماء يوم 24 أفريل 1881، كما وصلت في نفس التّاريخ ــ قوّات بحرية فرنسية نزلت بطبرقة، حتّى كان يوم 3 ماي 1881، فتعزّزت القوات الفرنسية بنزول فرق أخرى بميناء بنزرت بقيادة الجنرال بريار (Breart) (9) الذي حاصر قصر الباي يوم 12 ماي 1881، وعرض عليه التّوقيع على معاهدة «الحماية»، ففضّل الاستجابة على التخلّي، وبذلك أصبحت تونس بمقتضى معاهدة باردو «محميّة فرنسية».

ورغم قرار الباي بعدم المقاومة، فإنّ العديد من الجهات وبعض المدن قد استعدّت لذلك.

---

4) ارنستو كينيتز، قناة السّويس، القاهرة، دار القاهرة للطباعة، 1957، ص 54

5) نفس المرجع، ص 61.

6) GANIAGE, op.cit., p. 508.

7) MARTEL, op.cit., t 1, p. 208, de même GANIAGE, op.cit., p. 503.

8) MARTEL, op.cit, t. 1, p. 208; GANIAGE, op.cit, p. 664.

9) Breart (Jules - Aimé) (1826 ـ 1913) شارك في الحملة على القبائل والمكسيك وسنة 1881 أرسل إلى تونس ليفرض على الباي معاهدة باردو، توفي يوم 1913/2/13 أنظر: MAHJOUBI, l'Etablissement., p. 37

فمـاذا كانت مـواقف الطرق الصّوفيّة من دخـول الإستعـمار الفرنـسي للبلاد التونسية؟

وهل كانت لها نضالات ضدّه؟

1) مواقـف الطرق الصوفـية من دخـول الإستعـمار الفـرنسي للايّالة التّونسية

في الفترة التي دخلت فيها الجيوش الفرنسية للبلاد، كانت الطرق الصّوفيـة ــ على ما يبـدو ــ تمثّل أهمّ تنظيم فيـها يتمـتّع بنفوذ مادّي وأدبي هامّين، وقـاعدة شعبية عريضة، يمكن توظيفها لو وقع التفكير في ذلك.

وبذلك يمكن القوْل بأنّ الطرق الصّوفـية كانت آنذاك القوّة الوحيـدة ــ تقريبا ــ في الايالة القادرة على التصدّي للقوات الإستـعمارية باستنفار السكّان، وإعلان التعبئة العامّة، وتنظيم الجهاد رغم النّقص البيّن في العتاد.

فهل قامت بما كان منتظرًا منها؟

إن الدّارس لمواقف الطرق إزاء دخـول الإستـعمار للـبلاد التّونسـية، ولما تميّزت به من تناقضات ــ فيما بينها ــ يمكنه أن يصنّفها صنفين:

أ ــ بعض مشائخ الطرق المتواطئين مع المستعمر:

ونقـصـد بهم أولائك الذين سـهّلوا أو سـاهمـوا ولو نسـبيا فـي مسـاعـدة الإستعمار الفرنسي على دخول البلاد التّونسية.

ومن هذا المنطلق، يـبدو أنّ زاوية القـادرية بالكاف قـد لعـبت دورًا هامـا في تسهيل استيلاء الغزاة الفرنسيين على المدينة.

وممّا يحملنـا على هذا الرّأي أنّه من جهة بـلغ إلى علم الحاكم العـام للجزائر تقرير مفـاده أنّ «حالة من التّململ بدأت تظهر حـول الكاف، وأنّ الأعراب أخذوا يقتنون كمّيات هامّة من البارود استعْدادًا للجهاد المقدّس. . .» (10).

(10) A.M.A.E.F, Dépèche télégraphique de Roustan au Gouverneur Général de l'Algérie, le 15/4/1881, C P. Tunis 57 Roustan, (avril 1881), Corresponcance télégraphique entre le consulat Général et l'Agence consulaire du Kef pendant les jours des 24, 25 et 26/4/1881, f 215.

ومن جهة ثانية وقع ــ بعد عشرة أيام ــ «التخلّي نهائيا عن فكرة المقاومة، وتكوّن وفد لتبليغ ذلك [الموقف] إلى قائد القوّات الفرنسية» (11).

فما الأسباب الكامنة وراء التخلّي عن الاستعداد للجهاد؟

إنّ ذلك التّراجع عن التّفكير في المقاومة والصّمود، وفتح أبواب مدينة الكاف للقوات الفرنسية قد يعود ــ إلى حدّ ما ــ إلى دور سيدي قدّور:

لقد كان ــ هذا الأخير ــ طيلة شهر أفريل من سنة 1881 ــ أي قبل معاهدة باردو ــ على اتّصال وثيق بالعون القنصلي الفرنسي روا حيث راسله (أي سيدي قدّور) مستفسرا إيّاه «عن الدّور الذي يمكن له أن يلعبه، (فأشار عليْه] بأن يعمل ما في وسعه للحفاظ على تلك الصورة الحسنة التي لديْه عنه...»! (12) على حدّ قوله.

ثم لم يلبث سيدي قدّور ــ في نفس ذلك اليوم ــ أن أعلم روا أنّه «على استعداد للذّهاب لمقابلة اللّواء لوجروا (Logerot) قائد القوّات الفرنسية للإعراب له عن ولائه، وهي فكرة حبّذها رْوا، [واعتقد] بأنها ــ ستكون لها نتائج حسنة» (13) حسب زعمه.

وبإبلاغها لروسطن (Roustan) (14) أبْدى مُوافقته عليها، وعلى كلّ المساعي «التي من شأنها أن تحول دون إراقة دماء لا طائل من ورائها...»! (15) غير أنّ «اللّواء المتصلّب (لوجرو) رفض مقابلة أيّ كان...» (16).

لكن رغم كلّ ذلك، فإنّ سيدي قدّور وصل به الأمر إلى إعطاء الأوامر

---

(11) **Ibid**, du même au même, le 25/4/1881, à 8 heure 40 mn du soir, C.P. Tunis 57 Roustan..., f. 453 verso

(12) **Ibid.**, du même au même, le 24/4/1881, 7 heure 15 mn du soir .., f. 451 verso.

(13) **Ibid**, Depeche Télégraphique, l'Agent Consulaire du Kef au Chargé d'Affaires, le 24/4/1881, à 8 heure du soir, C.P. Tunis 57..., f. 451 verso.

(14) تيودور، روسطون (Roustan) ولد سنة 1833 بايكس أون بروفانس (Aix - en provence) عيّن قنصلا عاما لفرنسا بتونس سنة 1874، ثم أول مقيم عام لفرنسا بتونس سنة 1881، وسنة 1882 عيّن سفيرا لبلاده بواشنطن، ثم بمدريد سنة 1890، توفي بباريس سنة 1906، (MARTEL, **op.cit.**, t. 1, p. 172

(15) **A.M.A.E.F.**, Depeche Télégraphique, le Chargé d'Affaires à l'Agent consulaire au Kef, le 24/4/1881, à 8 heure 50 mn du soir, C P. Tunis 57 ..., f 452.

(16) MAHJOUBI et KAROUI (H.), **Quand le soleil s'est levé à l'Ouest, Tunisie 1881, Imperialisme et resistance**, Tunis, Ceres production, 1983, p. 78.

ـ للذين جاؤوا إلى زاويته ـ بالعودة من حيث أتوا (17)، ممّا جعل روْا يستحسن ذلك قائلا: «تحرّك أصدقاؤنا...» (18)!!.

إنّ هذا يحملنا على القوْل بأنّ سيدي قدّور كان وراء التخلّي عن فكرة الجهاد، مستعملاً في ذلك نفوذه المادّي والرّوحي بالمنطقة، هذا بالإضافة الى الدّور التّخذيلي الذي قام به قايد الكاف وبعض أعيانها والذي لم يمكننا تحديد أهميّته.

لتلك الإعتبارات وغيرها، «تمّ فتح أبواب المدينة وكذلك قصبتها حيث سيقيم الجنرال حامية...» (19).

إنّ هذا الدّور الذي لعبه سيدي قدّور قد يُعزى إلى العلاقة الوطيدة التي كانت تربطه برْوا، وهي علاقة كانت سببًا في حماية هذا الأخير من التّهديدات بالموْت الصّادرة عن الطريقة الرّحمانية بالكاف (20)، علْمًا وأنّ سيدي قدّور الذي مهّد لاحتلال المدينة «كان قد رفض ـ أثناء الحربَ الرّوسية التّركية سنة 1877 ـ المساهمة في الاكتتاب الذي فتحه الباي لصالح السّلطان، وفضّل استغلال موارده في شراء الحبوب للفقراء» (21) على حدّ قول بعض المصادر الفرنسية.

تلك هي ـ انطلاقا من الوثائق التي أمكننا الإطّلاع عليْها ـ أهمّ الإشارات المتعلّقة بموقف قادرية الكاف من دخول الإستعمار الفرنسي للبلاد.

لكن هل يمكن اعتبار موْقف زاوية القادرية بالمدينة المذكورة مُلْزمًا وممثّلاً لموقف هذه الطريقة على مستوى كامل البلاد التّونسية؟

إنّ هذا لا يمكننا القوْل به لانعدام الأدلّة ـ في حدود ما اطّلعنا عليه ـ إلا أنّه يمكن اعتبار ذلك الموقف من الأهميّة بمكان تبعا للقيمة والمنْزلة التي تحتلها الزّاوية المذكورة ـ كما مرّ بنا ـ ليس على مستوى الطريقة القادرية بالبلاد ـ والتي تمثّل فيها تلك الزاوية أحد مراكز نفوذها الرّوحي فحسب ـ وإنّما على مستوى الطرق الصّوفية بالبلاد.

(17 A.M.A.E.F., Dépèche télégraphique de Roy à Roustan, le 25/4/1881 à 7 heures 15 mn du soir, C P. Tunis 57...., f. 453 verso.

(18 **Ibid.**

(19 **Ibid.**, Dépèche télégraphique du même au même, le 26/4/1881 à 10 heures 59 mn du matin, C.P. Tunis 57...., f. 454 verso

(20 FALLOT, **op.cit.**, p. 7.

(21 MONCHICOURT, **op.cit**, p. 317.

كما أنّه لابدّ من الإشارة إلى أنّ الشّيخ محمد بن شعبان (ت. 1919) ـ شيخ مشائخ القادرية وإمام جامع باردو آنذاك ـ قد ورد ذكره ضمن الذين نسّقوا مع الاحتلال الفرنسي، حيث شوهد يرحّب بالقوّات الفرنسية عند دخولها إلى تونس(22)، وقد يفسّر موقفه ذلك بالخطّة الرّسمية التي كان يشغلها آنذاك حيث قد يكون الباي طلب منه ذلك.

لكن هل أنّ تلك المواقف ـ السّالفة الذكر من دخول الإستعمار الفرنسي إلى البلاد التّونسية ـ كانت صادرة عن بعض مشائخ الطريقة القادرية وحدها أم كانت تشاركها فيها طرق صوفية أخري؟

إذا أخذنا بالإعتبار الإتّصالات المكثّفة برموز الإستعمار، والتّنسيق معهم، وإبداء الإستعداد للقيام بكل ما من شأنه أن يسهّل عليهم دخول مدينة الكاف واحتلالها فإنّ الدّور الذي لعبه سيدي قدّور ـ حسب الوثائق التي اطّلعنا عليها ـ يبدو أنّه الوحيد من نوعه وفي حجمه.

لكن رغم ذلك توجد دلائل تشير إلى أنّ هناك مشائخ زوايا طرقيّة أخرى كانت لهم مواقف وممارسات لا تخلو من أهميّة.

فالشّابيون [أتباع الطريقة الشابية] قد بذلوا جهوداً لاستتباب الأمن بالجريد، وجلبوا المناوئين وسلّموهم للفرنسيين.

من ذلك ـ مثلاً ـ أنّه لمّا وصل الجنرال فيلبار (Philebert) ـ لأوّل مرّة للجريد على رأس قوّة فرنسية ـ فرّ العديد من سكّان أحواز توزر ـ مذعورين ـ، «فما كان من ابن جدّو ابن الحاج أحمد ـ شيخ الشّابية هناك ـ إلاّ أن أعادهم الى ديارهم، كما لعب دور الوسيط مع الجيش الفرنسي لتهدئة الأوضاع، فما كان من المستعمر إلاّ أن عيّنه قايد بيت الشريعة مكافأة له، ومن ذلك الحين لم يدّخر جهدا في الإعراب عن ولائه لفرنسا...» (23).

كما قام عُمْرَانْ بن عبدالسّلام الفيتوري ـ مقدّم الطريقة السلاّميّة بالبلاد ـ بنفس الدّور، حيث عمل ـ عند فرار العُربان الى طرابلس الغرب زمن الاحتلال الفرنسي للبلاد ـ على إرجاعهم.

(22 GREEN (A H.), the Tunisian Ulama 1873 - 1915, social structure and response to Ideological currents, Leyden, E.J. Brill, 1978, p. 131

(23 DEPONT et COPPOLANI, op.cit, p 483

أمـا المنّوبي العمـراني (24) شـيخ زاوية الطريقة التّيـجانيـة ببوعـرادة ــ فقـد أوضح في رسالة له الى وزير الخاريـجة الفرنسية بـباريس ــ أنّه في بداية الاحتلال ــ «استـقـبل الجيـش الفـرنسي، وكـان دليله [في المنطقـة] مـوصيـا إياه بالقبـائل خيرا. . . ، كما أوصى القـبائل بملازمة الهدوءوالامتثـال للنّفوذ الفرنسي، وبذلك عـرف كيف يتـجنّب إراقـة دماء غـاليـة عليه، وكـيف يسـهّل مهـمّة السّلط المدنيـة الفرنسيـة. . .»(25) على حدّ قوله.

كـمـا يمكن في نفس السّيـاق الإستشـهـاد بزاوية باب منارة بالحـاضـرة التي ساهمت ــ على ما يبدو - في «تهدئة الخـواطر،حتّى أنّ القائد سيون (Cyone)(26) مساعد الملحق العسكري [لدى بول كمبون (27) المقيم العام آنذاك] ــ كان يشارك في المائدة التي تُنصب بالزّاوية كلّ يوم جمعة. . » (28).

لكن هل يعني هذا أنّه لا توجـد زوايا تيـجانيـة أخرى لهـا مواقف من الغـزو الفرنسي مغايرة لمواقف الزّوايا التي ذكرناها؟

أشار المراقب المدني بالكاف ــ سنة 1896 ــ إلى أنّ الطريقة التّيجانية بالجهة، أثارت ــ أيام الإحتلال الفرنسي ــ قبائل ورتان والخمَامْسة.

---

24) المنّوبي بن الشيخ سيدي صالح العمراني التّيجاني الشّريف، كـان مقدّما للطريقة التّيجانية بزاويتها في هشـير بوفطيس بجـهة بوعرادة المعـروفة بزاوية سـيدي صـالح التيجـاني، توفي يوم 1930/8/19، أنظر: A.G.T, D 156 - 21.

25) A.G.T., Le Cheikh Manoubi au Ministre des Affaires Etrangères Françaises à Paris, le 7/11/1929, D 156: 21

26) سيون أبال (Cyon Abel) (1835 ــ 1898)، اشتغل في المكاتب العربية بالجزائر (1861 ــ 1881)، ويوم 1882/1/2 وحتى جانفي 1886 عيّن في تونس كمساعـد للملحق العسكري لدى المقيم هناك، ثم ملحقا عسكريا من أفريل 1883 إلى جانفي 1886، أنظر: MARTEL, op.cit., t. 1, p 268.

27) بول كمبون (Paul Cambon) ولد بباريس سنة 1843، عيّن سنة 1870 رئيس ديوان جيل فيري، ثم مقيـما عاما بالبلاد التونسية من مارس 1882 إلى نوفمبر 1886، كما عـيّن فيما بعد ــ سـفيرا لبلاده بمدريد (1886/10/28) ثم بالقسطنطينية (1891/8/3) ولندن (1898/9/21 ــ 1920/11/20) توفـي بباريس سنة 1924؛ أنظر: MARTEL, op.cit., t. 1, p. 268.

28) A.G.T., Congrégation des Tidjania, p 10, D 97 - 3.

فما كان من العقيد دولاروك (29) إلاّ أن زحف عليها لاخضاعها، وحملها على دفع غرامة حربية، ممّا أدّى الى استتباب الأمن، لكن بمجرّد رحيله عادت الاضطرابات (30)، هذا في حين أنّ زاوية التّيجانية بالسّرس قد أعربت عن ولائها وخضوعها (31).

إنّ هذا الموقف المناهض للإستعمار من زوايا ثانوية في أهميّتها ـ وان كان لا ينسجم مع الخطّ العام الذي سارت عليه الطريقة التّيجانية ككلّ سواء في الجزائر أو في تونس ـ لم يكن له تأثير في مواقف التأييد والولاء الصادرة عن الزّوايا الهامّة.

فواضح من خلال هذه الأمثلة، استفادة الإستعمار من الدّور الذي لعبته بعض الطرق في تسْكين وتهْدئة الخواطر للحيْلولة دون رُدُود فعل قد تعرقل، أو على الأقلّ تؤخّر الاستيلاء السّريع للقوّات الفرنسية على البلاد،

ب ــ بعض مشائخ الطرق الذين قاوموا دخول المستعمر:

هل يمكن الحديث عن طرق ناضلت بأتمّ معنى الكلمة، بحيْث نظّمت الجهاد، وأعلنت التّعبئة، وأطّرت المجاهدين وقوفًا في وجه المستعمر؟

إنّ المتأمّل في مواقف الطرق التي لم تكن متواطئة يصعب عليْه القوْل بوجود طرق صُوفية ناضلت فعْلا.

إذ غاية ما في الأمْر، أنّ هناك بعض الطرق تميّزت مواقفها برفض التّعامل أو التواطؤ مع الاستعمار، محاولة بذلك الوقوف في وجهه بإمكانيات محدودة، لم تكن كافية لعرقلة تقدّم قوّات الإستعمار ــ ولو نسبيا ــ .

لكن رغم محدودية محاولات التصدّي هذه لقوات الاحْتلال فإنّ تلك

---

(29) دولاروك (De Laroque)، ولد سنة 1835 كلف بعدّة مسؤوليات في الشرق (1855 ـ 1856)، وبالمكاتب العربية (1859) وسوريا (1860 ــ 1861) وافريقية (1864 ــ 1870). دعي سنة 1881 إلى تونس لقيادة قصبة الكاف كما تولّى عدّة مناصب عسكرية كبرى كقيادة هيئة الأركان العامة (1886)، أحيل على التقاعد يوم 1899/10/7، توفي ببــاردو سنة 1903، أنظر: MARTEL, **op. cit**, t. 1, p 314.

(30) A.G.T., Congregation des Tidjania, p 10, D 97 - 3.

(31) **Ibid.**, p. 11.

المحاولات توضّح أنّ بعض مشائخ الطرق قد بذلوا ما في وسعهم في المقاومة، وهو ما يعدّ في حدّ ذاته أمر له أهميتــــه.

من ذلك أنّ علي بن عيسى ــ شيخ زاوية الطريقة الرّحمانية بالكاف ــ الذي سبق أن «قرّر قتل العون القنصلي روا بهذه المدينة» (32)، قد «شجع الأهالي على الوقوف في وجه القوّات الفرنسية الدّاهمة...» (33)، لما اقتربت منها.

كما أن أحمد بن عبدالملك (34) ــ شيخ زاوية الرّحمانية بأولاد عون ــ قد «برهن عن عداوته للإستعمار سنة 1881 لذلك أقصاه الجنرال فيلبار الى تونس، ولم يعف عنه إلا سنة 1888...» (35).

أمّا محمد بن ابراهيم بن عبدالملك ــ أحد رجالات زاوية سيدي عبدالملك ــ السّابق الذكر ــ فقد «قاوم انتصاب الحماية الفرنسية، وواجه قواتها قرب الفحص، ولما انهزم هرب الى جبل السّرج [قرب الوسلاتية من ولاية القيروان]، ومنه إلى طرابلس، حيث استقرّ الى ان تُوفّي(سنة 1901)...»(36).

كما سُجّلت محاولة لمقاومة الإستعمار الفرنسي ــ في أيّامه الأولى ــ من قبل مُعَمّر الزّاير ــ شيخ زاوية الرّحمانية بكُدية الحلفاء بماجر ــ إذ أنّه «وقف في وجه الطابور [الذي يقوده] فورجمول (Forgemol) (37) لكنه لم يلبث أن

(32 FALLOT, op. cit., p. 7.

(33 A.M.A.E.F., Dépêche télégraphique de Roy au Chargé d'Affaires, le 25/4/1881 à 11 heures 10 mn du matin, C.P. Tunis 57.....

34) أحمد بن عبدالملك شيخ زاوية الطريقة الرّحمانية بالشطّ، الواقعة تقريبا 16 كلم غرب تبرسق، ولد سنة 1821 تقريبا استمدّ نفوذه من مصاهرته للشّيخ مصطفى بن عزّوز شيخ الرّحمانية بالجريد، كما له علاقة قرابة بشيخ رحمانية لغواط بالجزائر كما كانت له ثروة طائلة زادت في تدعيم نفوذه على أولاد عون. توفي سنة 1921 تقريبا، أنظر: A.G.T, Confrérie des Rahmanya, D 97 - 3.

(35 A.G.T., le C.C. de Maktar au R G. le 6/11/1893, D 182 - 2

36) عبدالقادر، الهاني، «الدور الاجتماعي والثّقافي للزّوايا بجهة سليانة» مجلّة الحياة الثقافية، تونس، وزارة الشؤون الثقافية والأخبار، السنة 8، العدد 26 ، 27 ــ ، (مارس ــ أفريل ــ ماي ــ جوان 1983) ص. 115 ــ 119،ص 118 ، أنظر كذلك، MONCHICOURT, op.cit., p. 315.

(37 (Forgemol de Bostquenard) ولد سنة 1821 أمضى مدّة طويلة من مهنته بالجزائر حيث شارك في الحملة على القبائل ثم تولّى قيادة مقاطعة تبسّة وسكرة، كما تولّى قيادة مقاطعة قسنطينة يوم 1879/3/4 حيث قاد عمليات القمع في الأوراس سنة 1879، ويوم 1882/1/25 قاد قوات الاحتلال في البلاد التونسية التي غادرها في نهاية سنة 1883 أنظر: MAHJOUBI, l'Etablissement, p. 65.

فرّ الى طرابلس التي عـاد منها سنة 1882، وبوفاته سنة 1907 خلفه أخـوه الأصغر عبدالحفيظ فكافح بدوره ضدّ الاستعمار، لكنّه بعد النّضال هدأ وسكن. . » (38).

من خلال هذه الأدلّة، نتبيّن أنّ بعض زوايا الطّريقـة الرّحمانية كانت من أبرز زوايا الطرق ــ على مستوى البلاد ــ التي وقفت في وجه الغزو الفرنسي.

لكن بعض مواقفـها لـم تخل أحيانا من التـردّد والتّذبذب، ممّا قد يوحي بأنها ليست صادرة عن قناعـات ثابتة، وإنما ناتجة عن معطيات وظروف متـحوّلة، وربّما ــ كذلك ــ عن اجتهادات فردية ومعزولة، خالية ــ على ما يبدو ــ من محاولات التّنسيق على مستوى البـــلاد.

من ذلك أنّ علي بن عيسى ــ المذكور ــ قد تأرجح بين أربعـة مواقف في يوم واحد، وهو ما تؤكّده البرقيات الصادرة عن رْوا إلى القنصليّة العامّـــة.

فالأولى ــ منها ــ تفيد أنه في صباح 25 أفريل 1881 قد حرّض الأهالي ضدّ الغزاة الفرنسيين، وحوالي منتصف النّهار أعلن عن استعداده للخضوع (39).

أما البرقية الثانية، فتفيد أنّ الرّجل قد عاد ليُعلن الجهـاد المقدّس ضدّ العدوان وذلك على السّاعة الواحدة بعد الزّوال من نفس اليوم (40).

وفي المساء، وبعد ما شتّت سيدي قدّور الأهالي ــ الذين احتشدوا بزاويته ــ أحبطت عزائمه فجدّد قبوله بالخضوع (41).

بماذا يمكن أن نفسّر مظاهر التردّد في مواقف عليّ بن عيسى؟

هل يعني ذلك أنّه لا ينوي الجـهاد، أم ثمّة أسـباب أخـرى حملتـه على ذلك التصرّف؟

إنّ المتتبّع للبرقيات المتعدّدة بين روا والقـنصلية العامّة، يتبيّن وجود نيّة الجهاد عند علي بن عيسى، لـكنّها بقيت على ما يبدو في مستـوى الاضمار، ولم تتحوّل الى عمل فعلي.

وقد يعـود ذلك الى عـلاقة التّنافس بـين زاويتي القادريّة والرّحـمـانيّة بالكاف

(38 A.G.T., Confrérie des Rahmanya, p. 16 et 17, D 97 - 3.

(39 **A.M.A.E.F.**, Dépêche Télégraphique de Roy au Chargé d'Affaires, le 25/4/1881 à 11 heure 10 mn, C.P. Tunis 57..., f. 452 verso.

(40 **Ibid.**, Dépêche télégraphique du même au même, le 25/4/1881 à 1 heure 20 mn C.P. Tunis 57......, f. 453

(41 **Ibid.**, Dépêche télégraphique, du même au même, le 25/4/1881 à 7 heure 15 mn du soir, C.P. Tunis 57... , f. 453.

على تزعّم المدينة والسّيطرة على سكّانها (42) والأمر الذي يؤكد ذلك حرص سيدي قدّور علي حماية روا (Roy)، في حين يصرّ علي بن عيسى على قتله.

قد يكون علي بن عيسى تراجع عن مواقف التصدّي لأنه تيقّن بعد ان فرّق سيدي قدّور جموع الأهالي بزاويته من استحالة القيام بأيّ عمل نضالي مهما كان حجمه.

وخلاصة القول، أنّ الرّحمانية بالكاف وان اختلفت مع القادريّة بها في المواقف - إزاء الغزو - فإنّ الطريقة الرّحمانيّة التي كانت وراء العديد من الانتفاضات بالجزائر (43) لم تقم ببادرة نضال في حجم قوّتها الاقتصادية والرّوحية والبشرية التي كانت تتمتّع بها في البلاد التونسية في الفترة التي ندرسها.

ج ـ المقاومة الوطنية لدخول الاستعمار ودور الطرق فيها:

رغم النتيجة التي انتهينا إليها والتي تظهر فيها مواقف بعض مشائخ الطرق الصّوفية من دخول الإستعمار الفرنسي إلى البلاد التّونسية غير موحّدة، فإنه يجدر بنا معرفة مواقف الأهالي من ذلك الإحتلال في مختلف مناطق البلاد وخاصة منها تلك التي فيها نفوذ طرقي هام، حتى نتبيّن إلى أيّ مدى جاءت تلك المواقف منسجمة أو مخالفة لمواقف المشائخ السّالفي الذّكر ومحاولة تفسير ذلك.

فما هي أهمّ مواطن المقاومة التّونسية للإستعمار الفرنسي والعوامل المفسّرة لها؟

* في الشّمــــــال:

إنّ الكتيبة الفرنسية التي تسرّبت من الجزائر يوم 24 أفريل 1881 بقيادة الجنرال لوجروا قد تمكّنت من احتلال مدينة الكاف يوم 26 أفريل، وسوق الاربعاء في التّاسع والعشرين منه، وعين دراهم يوم 11 ماي.

في حين كانت مدينة بنزرت قد استسلمت بدون أدنى مقاومة منذ غُرّة ماي 1881 (44).

(42 MONCHICOURT, op.cit, p. 318

(43 MERAD, op.cit., p 55 - 56.

44) المحجوبي علي، «مقاومة السكّان التّونسيين للإحتلال الفرنسي»، المجلة التاريخية المغربية، تونس، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، السنة 11 العدد 34/33 ، (جوان 1984)، ص111ـ124، ص111.

فإلى أيّ شيء تعود سرعة ذلك الإحتلال حتى أنّ تلك المناطق قد تمّ الإستيلاء عليها قبل معاهدة باردو؟

هل يُمكن إرجاع ذلك الى الدّور التّمهيدي الذي قد تكون قامت به بعض الطرق الصّوفية المهيمنة على تلك المناطق؟

رغم أن نفوذ زاوية القادرية بالكاف يتجاوز أولاد بوغانم، وشارن، والزّغالة، حيث يصل إلى بنزرت (45)، ورغم أنّ المراقب المدني ببنزرت فسّر اعتراضه على ترشّح البشير بن حمّوده اللّزام لمشيخة زاوية البنّا ـــ القادرية ببنزرت ـــ بولائه لتركيا، وما يمثّله ذلك من خطر على المصالح الفرنسية، لأنّ للطريقة المذكورة أتباع كثيرون بالمراقبة المدنية ببنزرت (46) كما سبق أن أوضحنا فإنّنا لم نعثر ـــ في حدود الوثائق التي اطّلعنا عليها ـــ على ما يثبت أنّ الطريقة القادريّة أو غيرها من الطرق المهيمنة على المناطق التي استسلمت بسرعة أو بسهولة قد كانت طرفا في ذلك.

على ان استسلام بنزرت بدون مقاومة قد يعود أساسا الى موقعها الجغرافي المتقدّم ودورها التّجاري:

ذلك أنّ موقعها يجعلها قريبة من الغرب ومفتوحة عنه، مقابل بعدها عن المشرق شأنها في ذلك شأن المدن السّاحلية في الشّمال.

كما أن نشاطها التّجاري وما يتطلّبه من علاقات واختلاط أدّى إلى امتزاج سكانها بالأوروبيين، الأمر الذي جعلهم أقلّ عداء لهم من غيرهم في داخل البلاد.

فلقد وصل الأمر ببعض الأعيان من سكّان تلك المدن ـــ حماية لمصالحهم وامتيازاتهم ـــ إلى الدّخول تحت حماية أولائك الأوروبيين وحتّى دولهم، ممّا جعل من أولائك الوجهاء الأغنياء حلفاء موضوعيين للقوى الأوروبية ضدّ دولتهم نفسها» (47).

---

45) A.G.T., Confrérie mère des Kadria, p. 4, D 97 - 3

46) أنظر تدخّل السّلط الاستعمارية في تسمية مشائخ الطرق بالفصل الثاني ص 89-93.

47) CHERIF; "Les réactions Citadines...."; p. 232.

هذا بالإضافة الى «نزعة الحضر الى الخضوع للسّلطة الحاكمة. . .، [ذلك أنّ الفئـات المحظوظة المتمـركـزة في المدن]. . .، والمتكوّنة من كبـار الفـلاحين والصناعـيين والتـجّار. . .، لا تريد الدّخـول في صـراع غـيـر مـتكافئ مع قـوّات الاحـتلال حتى لا تتعـرّض مصـالحهـا وممتلكاتهـا وأمنها للخطر، كـما يعـود ذلك الخمـول الى خوف الحضـر من عمليات النّهب التي قـد يقوم بها الأعـراب خلال الفوضى. . .» (48).

هذا بالنّسبة لبعض المناطق التي استسلمت.

أما بالـنّسبة لأهمّ المناطـق التي تصدّى سكانهـا للاستـعمار الفـرنسي عند دخوله للبلاد التونسية فيمكن حصرها في:

* الشّمال الغربي:

ما أن سمعـت قبائل خمير بوصـول السّفن الحربية الفرنسية إلى مـيناء طبرقة حتى هبّ المتطوّعـون من أولاد بُوسعيد والحـوامدة وأولاد عمر لمواجـهة الأعداء، الذين لم يتمكنوا من الإستيلاء على المدينة إلاّ بعد قصفها بالقنابل.

هذا في حين لازمت فـروع أخرى من خـمـيـر مـواقـعـها لقـطع الطريق على القوّات الفـرنسية القادمـة من الجزائر، بحيث استـبسلت تلك القبائل في المـقاومة ساعات عديدة، ولم تنسحب إلاّ بعد أن كبّدت خسائر فادحة (49).

وبنفس الحدّة واجهت قـبائل مُقعـد ومذيل الغزاة الفـرنسيين، حيث اسـتولى أبناء مقعد ـــ يومَ 28 أفريل 1881 ـــ على «سفينة حربـية غرقت في عرض السّاحل التّونسي بين رأس سرات وميناء بنزرت، فنهبُوها وأسّروا من فيها» (50).

وبذلك لم تتمـكّن قوّات الإحتـلال من السّيطرة نهائيا عـلى الوضع، وحمل تلك القبائل على الخضوع إلاّ في شهر جوان (51).

كما اندلعت المقاومة أيضا في جهة جندوبة بمشاركة أولاد بوسالم، والشيّاحية وعَمْدون، حيث كان سـهل بوسالم مسرحا لمعركـة عنيفة يوم 30 أفريل 1881،

48) المحجوبي، المقال السابق، ص 123.

49) نفس المرجع، ص 112.

50) نفس المرجع، ص 113.

51) نفس المرجع والصفحة.

تواصلت من الثّامنة صباحًا إلى السّادسة مساءً، وانتهت بتقهقر المقاومين للتفوّق التّقني للعدوّ ووصول تعزيزات هامة لقوّاته (52).

تلك هي أهمّ الأحداث المتعلّقة بالمقاومة في اشمال الغربي، فما هي الانتماءات الطّرقية للقبائل المذكورة التي شاركت في تلك المقاومة، والى أيّ حدّ كان العامل الطرقي وراءها سلبًا أو إيجابًا؟

بالرّجوع الى مؤلّفي منشيكور (Monchicourt) وزكّون (Zaccone) يمكن القول بأنّ قبائل خمير كانت تنتمي إلى الطريقة الرّحمانيّة، وتعود بالنّظر الى الحفناوي بن مصطفى ابن عزّوز ــ شيخ رحمانية نفطة ــ ، وعلي بن عيسى ــ شيخ رحمانيّة الكاف ــ (53).

كما أنّ نفوذ أحمد بن عبد الملك- شيخ الرّحمانيّة بقنطرة سليانة- يصل كذلك إلى تلك المنطقة(54).

ومن جهة أخرى، فإنّ أولاد بوسالم ينتمون إلى الطريقة القادريّة (55)، في حين تنتمي قبائل عمدون إلى الطريقة الرّحمانية (56).

هل يمكن القول بأن الطريقة الرّحمانية كانت وراء مقاومة قبائل خمير وعمدون؟

يبدو ان الطّريقة الرّحمانية كانت وراء ذلك خاصة إذا علمنا أنّ علي ابن عيسى، وأحمد بن عبدالملك ـ صاحبيّ النّفوذ الرّوحي في المناطق المذكورة ـ قد عرفا بعداوتهما لدخول الإستعمار الفرنسي للبلاد التّونسيّة، ممّا يحملنا على القول بأنّموقف كلّ منهما في منطقته قد يكون أثّر على مواقف أتباعه في مناطقهم.

هذا مع العلم أنّ أحمد بن عبد الملك ــ المذكور ــ قد كلّف من طرف الباي ــ بعد نهب السفينة الفرنسية لوفارني (L'Auvergne) بالتحوّل والتّفاوض ــ على عين المكان ــ حول دفع غرامة (57)، وهو ما يوضّح ــ فعلا ــ نفوذه على قبائل خمير الأمر الذي يساهم في نجاح وساطته.

---

52) نفس المرجع والصفحة.

53) A.M.A.E.F., Le Secrétaire Général du Gouvernement Tunisien au R G, le 12/3/1887, Protectorat Français en Tunisie, C. 1218 .

54) MONCHICOURT, op.cit., p. 315.

55) ZACCONE, op.cit., p. 68

56) Ibid, p. 69.

57) MONCHICOURT, op.cit., p. 315.

كما ساهم ـــ أيضا ـــ في تلك الوساطة الأزهاري بن مصطفى بن عزّوز ـــ شيخ الرّحمانية بنفطة ـــ الذي كُلّف من طرف الوزير مصطفى بن اسماعيل بتبليغ أوامره إلى أخيه الحفناوي (ابن مصطفى بن عزّوز) والرّامية «إلى افتكاك المركب الفرنساوي الذي غرق بمقربة من طبرقة من سكّان جبل خمير. . .» (58).

انّ التجاء السّلط الرّسمية الى مشائخ الطّريقة الرّحمانية للتدخّل لدى قبائل خمير يعتبر إقراراً ضمنيّا منها بنفوذهم عليها، واعترافًا ـــ بالتّالي ـــ منها بما يوفّره تدخّلهم من حظوظ لنجاح تلك الوساطة.

ولئن حملتنا مؤشرات نفوذ الرحمانيّة في المناطق التي اندلعت فيها المقاومة الوطنية للمستعمر على القول بأن تلك الطريقة تبعا للمحاولات التي حاول القيام بها بعض مشائخها - كعلي بن عيسى وأحمد بن عبدالملك، أو التي قام بها فعلاً محمد بن ابراهيم بن عبدالملك وشيْخ زاوية الرّحمانيّة بكدية الحلفاء قد تكون وراء ذلك التحرّك انسجامًا مع ما عُرفت به في خطّها العام، فإنّ تحرّك أولاد بوسالم أتباع الطريقة القادريّة قد يفسّر بتجاوزهم لطريقتهم الصّوفيّة التي إتّضح لهم تواطؤها مع الغزاة عند دخولهم لمدينة الكاف مركز الزّاوية الأمّ للطريقة التي ينتمون إليها.

فبما يمكن تفسير ذلك التّجاوز؟

إنّ وجود أولاد بوسالم ـــ القادريّة ـــ في منطقة قريبة من الحدود التّونسية الجزائرية حيث العديد من اللاّجئين الجزائريين الذين يطلق عليهم اسم «الغرابة» والذين كانوا ـــ إلى حدّ ما ـــ وراء الهيجان الذي كان يسودُ القبائل (59) ـــ قد يكون أجّج حماسهم وشعورهم الوطني الغريزي، فاندفعوا مدعّمين بأبنائهم «من الجنود الذين فرّوا بأسلحتهم من معسكر علي باي في 29 أفريل 1881 ـــ للدّفاع عن مواطنهم اثر احتلال سوق الاربعاء. .» (60).

كما أنّ تعلّق القبائل الطبيعي بمسقط الرأس، ورفضها «للأجنبي»، وإيمانها بواجب اعلان الجهاد ضدّ «الكفار» هو الذي كان وراء رفضها لدخول الاستعمار الفرنسي للايّالة، وهو ما يتّضح أكثر في بقيّة المناطق.

---

58) خزينة الوثائق التونسية، رسالة الأزهاري بن مصطفى بن عزّوز الى الورير الأكبر، بتاريخ 28 أفريل 1925، س. د، صد. 112، مل. 9، أنظر الملحق رقم 7.

TIMOUMI, op.cit, p 179 (59

60) المحجوبي، المقال السّابق، ص 112.

* الوسط والوسط الغربي:

عملت قبائل هذه المنطقة على وضع خطّة موحّدة لمواجهة القوّات الفرنسية الدّاهمة، فانعقد ـــ بين 15 و20 جوان 1881 ـــ اجتماع بجامع القيروان ضمّ ممثلين عن قبائل عدّة من ضمنها قبائل الوسط.

وهناك تمّ إتّفاق الأطراف الحاضرة على إرسال ثلاثة رسل إلى طرابلس لاستقصاء نوايا الباشا التّركي تجاه الإحتلال الفرنسي للبلاد (61).

ويوم 19 أوت 1881 انعقد اجتماع ضخم بسبيطلة جمع بين عدد كبير من قيّاد ومشائخ، وأعيان قبائل ماجر والفراشيش والهمامّة وورتان وأولاد عيّار وجلاص، للتّباحث في طرق تنظيم المقاومة (62).

لقد مثّلت تلك الاجتماعات المرحلة النّظرية لتنظيم المقاومة في الوسط والوسط الغربي والتي تجسّدت في:

ـــ **معركة حيدرة:** إنّ المقاومين المؤلّفين من ماجر والفراشيش والزّغالمة، والذين كانوا يعدّون ألفيْن بيْن خيّالة ومشاة تحت قيادة محمد بن يونس والحاج الحرّاث قد واجهوا قوّات فورجمول في معركة حيدرة التي استمرّت كامل مساء 17 أكتوبر 1881.

وقد خلّفت عشرات القتلى من ضمنهم القائد محمد بن يونس، إلى جانب العديد من الجرحى (63).

ـــ **معركة الرّوحيّة:** وقعت يوم 23 أكتوبر 1881، وهي التي أبدى فيها الأهالي مقاومة مدهشة لقوات فورجمول

إذ شارك فيها أولاد مْهَنّة بقيادة فرحات بن علي بن سيّد، والفوايْد بقيادة الحاج علي ابن عبدالله إلى جانب أولاد عيّار، وونيفة، والفراشيش، وجلاص، وورتان، والهمامة والزّغالمة. لقد خلّفت تلك المعركة خمسة وعشرين قتيلاً وعدداً كبيراً من الجرحى (64).

---

(61) MARTEL, op.cit., t 1 p. 230; même TIMOUMI, op.cit, p 183.

(62) TIMOUMI, op.cit, p 179

(63) Ibid, p. 185.

(64) Ibid. p. 187

ـــ معركة كدية الحلفاء: وهي المعركة الثّالثة والأخيرة وقد وقعت يوم 25 أكتوبر 1881، حيث قرّر الأهالي أن يستخدموا فيها كل قوّاتهم في وجه قائد الفيلق الفرنسي، ممّا كلّفهم مائة وخمسين قتيلا (65).

تلك هي أهم مواطن المقاومة ومختلف الأطراف التي ساهمت فيها، فماذا عن طبيعة العوامل والدّوافع التي كانت وراءها؟

هل يمكن تفسير المقاومة المذكورة بالعامل الطرقي؟

للإجابة على ذلك لابدّ من معرفة الإنتماء الطرقي لمختلف القبائل التي ساهمت في مقاومة الوسط والوسط الغربي للقوّات الفرنسية الغازيّة، وتحديد دور زوايا الطرق الصّوفيّة في تلك المناطق في كل ذلك.

تشير بعض المعلومات إلى أنّ نفوذ رحمانيّة الجريد كان يصل الى ماجر، حيث زاوية سيدي محمد بن عمّار التي تأسّست بجبل سمّامة سنة 1856، وزاويّة سيدي عمر السّماتي بسبيبة، وزاوية سيدي أحمد الزّاير بكدية الحلفاء والتي تأسّست سنة 1847 (66).

أما في الفراشيش فتوجد زوايا ابن عزّوز بكلّ من القصرين وتالة (67).

وفيما يتعلّق بالطريقة القادريّة فقد كان لها ثلاثة زوايا في ماجر وأربعة في الفراشيش(68).

وفي الجملة فإنّ التوزيع الطرقي لقبائل الوسط والوسط الغربي ـ آنذاك ـ كان كما يلي:

(65 **Ibid.**, p. 189.

(66 **A.G.T**, Confrérie des Rahmanya, p. 16, D 97 - 3

(67 **Ibid.**, p. 17.

(68 **Ibid**, Confrérie mère des Kadria, p. 8, D 97 - 3.

إسم القبيلة التي ساهمت في المقاومة	الطرق الصوفيّة التي تنتمي إليها
مــــاجــــر	القادرية، التّيجانية، والرّحمانيـة(69)
الفراشيــــش	أغـلـبـهـم رحـمـانـيّـــة (70)
أولاد مُـهَـنّـــة	
القّوايْـــــد	
ونيفـــــــة	
أولاد ـ «القبالـــة»	قادريّـــة + رحـمـانيّـــة (71)
عـيّـــار ـ «الظّهارة»	كلهّم تـقـريـبـا رحمانيّـــة
جــــلاص	الرّحـمـانيـــة والـقـادريّـــة (72)
ورتْـــان	القادريـــة والرّحمانيـــة (73)
الـهـمـامـــة	جـزء هـام منهـم قادريّــة (74)
الزّغـالـــة	القادريـــة والرّحمانيّـــة (75)

ZACCONE, **op.cit.**, p. 131. (69

Ibid., p. 129. (70

Ibid., p. 172; de même MONCHICOURT, **op.cit**, p. 313. (71

ZACCONE, **op.cit** , p. 132. (72

Ibid., p. 64. (73

Ibid , p. 138. (74

Ibid , p. 53. (75

يوضّح هذا الجدول هيمنة الطريقتين القادرية والرّحمانية على قبائل الوسط والوسط الغربي، في حين تبدو الطّريقة الرّحمانية أكثر تمثيلا من غيرها.

لكن هل كانت هاتين الطّريقتين أو إحداهما وراء مقاومة تلك القبائل لدخول الإستعمار الفرنسي للبلاد؟

فإنّ كان الأمر كذلك ففي أي شيء تمثّل ذلك الدّور، وهل يتناسب هذا الأخير مع ما تتمتّع به من حضور مكثّف هناك؟

إنّ المتأمل في دور الطرق الصّوفية في مقاومة قبائل الوسط والوسط الغربي لدخول الإستعمار لا يلاحظ التّناقض ـ في المواقف ـ بين طريقة وأخرى فحسب، بل يتبيّن قمّة ذلك التّناقض داخل الطريقة الواحدة.

وهذا أمر يجعل من الصعب تحديد المواقف تبعًا للطّريقة، في حين يكون الأمر سهلاً حسب الزّاوية التي كثيراً ما تكون مواقفها غير منسجمة ليس مع زاوية الطريقة الأمّ التي تنتمي إليها فحسب ـ بل وحتّى مع زوايا أخرى قريبة منها جغرافيا وتعود معها إلى نفس الطريقة.

من ذلك أنّه في الوقت الذي اعتبر فيه الحاج صالح العسيلي (ت. 1916) ـ مقدّم سيدي قدّور على الزّاوية القادرية بالفراشيش ـ وراء المقاومة التي تصدّت للغزو الفرنسي، حيث نُسبت إليه شرارة اندلاع معركة حيدرة (76)، فإنّ محمد صالح بن الحاج الشّافعي (ت. 1910) مؤسّس وشيخ زاوية عين المنشية الرّحمانيّة ـ بين حيدرة وتالة، والتي تعود بالنّظر الى زاوية الرّحمانية بالكاف ـ كان قد رفض ـ سنة 1881 ـ الإنضمام إلى المناهضين للإستعمار الفرنسي والمقاومين له، حيث فرّ صحبة عائلته والتجأ إلى جبل سمّامة.

ومكافأة له، عيّن ـ سنة 1886 ـ قايد أولاد ناجي، ثم قايد كل الفراشيش سنة 1896 نظراً «الماضيه» (77) !.

وفي نفس الوقت الذي لم تشارك فيه زاوية سيدي عمر السّماتي ـ الرّحمانية ـ بسبيبة في المقاومة (78) فإنّ شيخ زاوية نفس الطريقة بكدية الحلفاء ـ مْعمّر الزّاير ـ قد وقف في وجه فيلق فورجمول ضمن الذين تصدّوا له في معركة كدية الحلفاء شمال جبل مغيلة.

---

76) A.G.T., Confréne mère des Kadna, p. 8, D 97 - 3.

77) MONCHICOURT, op.cit., p. 317

78) A.G.T., Confrérie des Rahmanya, p 16, D 97 - 3

كما أنّ بعض مشائخ الطرق كالحفناوي بن مصطفى بن عزّوز ـ مقدّم زاوية الرّحمانية بنفطة ـ ومحمد صالح بن الحاج الشّافعي ـ مقدّ زاوية الرّحمانية بعين منشية ـ ، كانوا يمدّون السّلطات العسكرية الفرنسية ـ عن طواعيّة ـ بكلّ الأخبار التي تروج بين النّاس، حسب ما ورد في تقرير بتاريخ 20 سبتمبر 1884 (79).

فواضح من هذه النّماذج عدم الإنسجام في المواقف بين طريقة وأخرى في نفس المنطقة، وبين الزّوايا التّابعة لنفس الطّريقة، بل وحتّى بين شيخ الطريقة وأتباعه.

وهو ما يجعل العامل الطّرقي ـ في المقاومة ـ ليس المحدّد والنّهائي إذ كثيراً ما يقع تجاوزه.

من ذلك أنّ محمد صالح بن الحاج الشّافعي ـ السّابق الذكر ـ لم يكن له نفس الموقف الذي كان لأتباعه من الإستعمار، حيث انضمّوا للمقاومة في حين رفض هو ذلك، مما اضطرّه الى الفرار والاعتصام بجبل سمّامة.

بل انّ تالة أين توجد زاوية ابن عزّوز الرّحمانيّة ـ قد هادنت قوّات فورجمول سنة 1881 في الوقت الذي كانت فيه هذه الأخيرة تُبيد المقاومين من ماجر والفراشيش والزّغالة في معركة حيدرة.

فما كان من المقاومين من أولاد ناجي ـ وهم جزء من الفراشيش ينتمون ـ شأنهم شأن سكّان تالة ـ إلى الطريقة الرّحمانية (80) ـ إلاّ أن أغاروا عليها ـ بعد معركة حيدرة ـ ونهبوها «وسلبوها بعنف، فلقيت بذلك نفس المصير الذي لقيه القيّاد الذين خانوا المقاومة» (81).

وممّا يدلّ على أنّ ما لحق بتالة كان بسبب سلبيتها في المقاومة، أنّ التخريب كان أشدّ بالنّسبة للقيّاد الذين رفضوا المشاركة في المقاومة، كعلي الصغيّر الذي أبدى تعجّلا في الخضوع لقوّات فُورجمول (82).

كلّ ذلك يدلّ على أنّالموقف من المقاومة هو المحدّد لطبيعة العلاقات بين الأطراف المتواجدة وليس دائما العامل الطرقي أو المعطى القبلي.

هذا مع ا لعلم أن تالة ـ زمن الشيخ مبارك شيخ زاويتها الرّحمانية ـ قد

(79 TIMOUMI, op.cit., p. 209.

(80 ZACCONE, op.cit, p. 128 - 129.

(81 TIMOUMI, op.cit, p. 187.

(82 Ibid.

ساندت سنة 1864 ــ ثورة علي بن غذاهم (83).

لكنّها إلى جانب فريانة ــ التي كانت تعدّ عند دخول الإستعمار الفرنسي البلاد ــ 600 نسمة ينتمون إلي الطريقة الرّحمانية (84)، لم تشارك في المعارك ضدّ قوّات فورجمول (85)، كما بادرت تالة إلى استنكار ثورة 1906 والتبرّء من القائمين بها (86).

كل هذه الدلائل تشير إلى أن المُعْطى الطرقي - وإن انسجم أحيانا مع المقاومة- لم يكن العامل المفسّر لاندلاعها، وهو أمر قد يفسّر بطبيعة علاقة قبائل الوسط والوسط الغربي ببعض الطرق الصّوفية التي ينتمون إلَيْها، ومدى نفوذ هذه الأخيرة علَيْهم.

فما الذي إذًا دفع القبائل المذكورة إلى التحرّك إذا لم تكن الطرق التي ينتمون إليها وراء ذلــــك؟

هل يمكن القول بأن العامل القبلي هو الذي كان وراء تنظيم القبائل للمقاومة؟

إنّ المتتبّع لسيْر الأحداث بمنطقة الوسط والوسط الغربي، يلاحظ أنّ القبائل المشار إليها قد تجاوزت ــ أثناء المقاومة ــ الحيّز الجغرافي الخاص بكلّ واحدة منها، الأمر الذي جعلها تلتحم وتتّحد في وجه العدوّ المشترك ــ عدوّ البلاد ــ ، متناسية أو على الأقلّ مؤجّلة خصوماتها وصراعاتها الدّاخلية التّقليدية، للتفرّغ لما هو أخطر وأهمّ.

وممّا يدلّ على ذلك التّجاوز، ويؤكد التحامَهَا انصهارُ قوّات العديد منها مع بعضها البعض في معارك دارت خارج فضاء العديد منها.

من ذلك تحوّل 3000 من خيالة الهمامة للقتال بجهة زغوان بين 19 أوت و20 أكتوبر 1881 (87).

(83 MONCHICOURT, op.cit., p. 318.

(84 ZACCONE, op.cit, p. 200.

(85 TIMOUMI, op.cit., p. 211.

(86 Ibid., p. 187 et 347.

(87 Ibid., p. 183.

كما أنّ علي بن عمّار قائد المقاومة في أولاد عـيّار لم يلبث أن التحق بالمقاومة في الوسط الغـربي لمّا طلب منه حْميدة بـن يونس نجدته في مـعركـة كدية الحلفـاء وذلك رغم أنّه كان منشغلا بمعارك تَستور ضدّ الفرنسيين (88).

كما وصل الأمر بالحاضرين في ميعاد يوم 6 جوان 1881 بزاوية سيدي حسين بلحاج ــ بين صـفاقس والجمّ ــ إلى حدّ اقتـراح إرسال 3000 من الخيّالة لتحرير قبائل خمير من الفرنسيين (89).

فما الذي جعل القبائل تتجاوز، وتعمل على تنظيم المقاومة ــ رغم إمكانياتها المحدودة بالنّسبة للعدو ــ إن لم يكن العامل الطرقي ولا القبلي وراء ذلك؟

إنّ ذلك قد يُفسّر بشـعور تلك القبائل بضرورة الجـهاد، وواجب الدّفاع ليس عن القـبيلة أو «العـرش» في فضـاء محـدود، وفي إطار جغـرافي معـيّن، بل في مـجـال أوْسع وأرْحب وأشـمل من ذلك، وهو مـجـال «البْلاَدْ» الذي يعني كـامل تراب الايّالة (90) أرض الأجداد التي تحوي المقابر والمواشي (91) وكل ما يذكّرهم بالماضي الحريصين على التعلّق به.

ذلك أنّ التـعلّق بأرض الأجداد مـسقط رأس قـبائل الوسط والوسط الغـربي، وقلّة اختلاطها بالأوربيين وتأثّرها بهم (92)، بالإضافة إلى تعوّد تلك القبائل على الحيـاة الحرّة بعيـدًا عن السّيطرة والتحكّم فـيها مع مـا يتبع ذلك من تمرّد وعـصْيان حتّى على دفع الضّرائب كالهـمامّة مثلا (93) وهو ما سينتهي بدخـول الإستعمار، جعل لتلك القبائل نفور من «الأجنبي»، وتمييز واضح بينه وبين «الأهالي».

كما أنّ تلك القبائل رأت في دخول الإسـتعمار الفرنسي للايالة غزوا «نصرانيـا»، وانتهاكًا لأرض الاسلام مـن طرف الكفّار الذين لابدّ من إعلان

(88 Ibid., p. 189

(89 AYADI (T.), "La résistance sfaxienne à l'occupation coloniale en 1881", **Réaction à l'occupation Française de la Tunisie en 1881...**, pp. 161 - 194, p. 167.

(90 TIMOUMI, **op.cit.**, p. 213.

(91 **Ibid.**

(92 CHERIF, "Les reactions...", p 231.

(93 ZACCONE, **op.cit.**, p. 140.

الجهاد للتصدّي إليهم والوقوف في وجههم بالتّنسيق مع الدّولة العثمانية التي أرسلت القبائل المجتمعة في القيروان ثلاثة رسل لممثّلها بطرابلس الغرب لمعرفة موقفه من التدخّل الفرنسي في تونس.

كلّ ذلك يوضّح أنّ أغلب تلك القبائل لا تزال ــ حتّى نهاية القرن التّاسع عشر ــ تعتبر نفسها جزءًا مُغايرا «للغرب المسيحي»، ومرتبطًا بالخلافة العثمانية رمز تكتّل المسلمين واتّحادهم في وجه الهجمات الأوربية النصرانية.

وبذلك يمكن القول بأنّ مقاومة القبائل السّالفة الذّكر للإستعمار الفرنسي عند دخوله الايّالة تعود إلى شعور وطني فطري، شكّل بداية «وعي قومي ـ لازال جنينيّا ــ ظهر نتيجة ردّ الفعل ضدّ الإستعمار، وتحت تأثيره...»(94).

خلاصة القول، أن قبائل الوسط والوسط الغربي كانت مدفوعة ــ بالدّرجة الأولى في مقاومتها للغزو الفرنسي للايّالة ــ بدافع شعور غريزي قوامه جعل مصلحة «البْلاَدْ» فوق كل اعتبار، وفي صدارة اهتماماتها.

وهي مصلحة تجاوزت من أجلها القبائل ليس مشائخ بعض طرقها الصوفيّة المتواطئة، أو خصوماتها وتشتّتها فقط، بل تجاوزت وتناست من أجلها حتى ظلم بعض قيّادها الذين طالما شكتهم إلى السّلطات العليا في البلاد (95).

فهؤلاء رغم «ماضيهم الأسود» (96)، لم تر القبائل بُدًّا من اتّباعهم، والانصياع إليهم، عندما تزعّموا المقاومة، لا لشيء إلاّ لأنّ شعار الجهاد الذي رفعه أولائك القياد يستجيب لإرادة الجميع ويعبّر عن طموحاتهم، وهو شعار طغى على التّناقضات التي كانت قائمة بين الأهالي ومضطهديهم القُدامى (97).

كل ذلك يوحي بأن جُلّ تلك القبائل قد تصبر على اضطهاد بني جلدتها من قياد وغيرهم، لكنّها لا تقبل إطلاقا الصّبر على التدلّ الأجنبي.

---

94) TIMOUMI, **op.cit.**, p. 213. ، حول الذّاتية التّونسية والشّعور الوطني أنظر. DEMEERSEMAN (A.); "Formulation de l'idée de Patrie en Tunisie de 1837 à 1872, interprétation psychologique", **Revue de l'Institut des Belles Lettres Arabes** (I.B.L.A.), Tunis; I.B.L.A., 29è Année; n° 114 - 115; 2è/ 3è Trimestre; 1966; pp. 109 - 142.

95) TIMOUMI; **op.cit.**, p. 205.

96) **Ibid.**

97) **Ibid.**

وإنّها إن تغفر لأولائك استغلالهم لها، واستبدادهم بها، فإنّها لن تغفر لهم تفريطهم في البلاد التي يتطلّب الذّوْد عنها وحدة الجميع، بتجاوز الحزازات وحتّى مشاعر الإنتماء الطرقي أو الولاء القبلي.

كما لا بدّ من الإشارة إلى أنّه رغم أنّ المعطيات الميدانيّة ـــ التي أوضحاناها ـــ للمقاومة في الوسط الغربي تبرز غياب العامل الطرقي فيها إلاّ نادراً، فإنّ الأرقام الرّسمية لعدد أتباع الطرق جعلت تلك المنطقة أهمّ جهة بالبلاد من حيث كثرة الأتباع.

لقد أظهرت تلك الأرقام مراقبة تالة كأكبر منطقة بالايالة تحتوي على حوالي 40٪ من أتباع الطّريقة القادرية، و50٪ من أتباع الطريقة الرّحمانية بكامل الايّالة، في حين نجد بها ثلث العدد الجملي للأتباع على مستوى البلاد كما سبق أن أوضحنا.

انّ هذه المبالغة في الأرقام تفسّر بتعمّد الأوساط الإستعمارية تضخيمها لتحميل الطرق الصّوفية مسؤولية الأحداث التي جدّت بالمنطقة وخاصّة ثورة الفراشيش ـــ بمراقبة تالة ـــ سنة 1906، لتؤكّد ـــ تبعًا لمنطقها الاستعماري ـــ انّ الطرق هي المصدر الحقيقي لكلّ خطر حدث أو يحدث في الإيالة.

وممّا يثبت تضخيم عدد أتباع الطرق الصّوفية بمراقبة تالة عدم انسجامه مع عدد سكانها كما أوضحنا سابقًا.

* صفاقس:

واجهت صفاقس الدّخول الاستعماري بشدّة وضراوة (98) رغم التفوّق البيّن للعدوّ في العُدّة والسّلاح.

فإلى أيّ مدى كان العامل الطرقي حاضراً ـــ سلبا أو إيجابًا ، في تلك المقاومة؟

تعتبر صفاقس ـــ باستثناء الطريقتين العيساوية والمدنية ـــ من أقلّ جهات السّواحل من حيث عدد أتباع الطرق للعوامل السّابقة التي سبقت الإشارة إليها.

98) حول مقاومة صفاقس لدخول الاستعمار الفرنسي، أنظر: AYADI, "La résistance Sfaxienne..."; de même CHERIF, "Les réactions Citadines...", p. 234 et 235.

كما تشير بعض المعطيات الطرقية إلى أنّ بعض أتباع الطريقة الرّحمانية في صفاقس كانوا يتمو ن إلى عائلا ت غنيّة كعائلة النّوري والشّعبوني والشّرفي (99) والزّريبي والكرّاي (100)، في حين ينتمي أتباع الطريقة القادرية بها إلى «كلّ الطبقات من أغنياء وأعيان وشحاذين» (101).

أما الطريقة المدنية فلها زاوية في صفاقس أسّسها محمد ظافر المدني — صاحب الحُضوة لدى السّلطان العثماني عبدالحميد — وهي زاوية الشّيخ أبي عبدالله التي كان محمد ابن عبدالله — ابن أخت محمد ظافر السّابق الذكر — شيخا عليها أثناء الاحتلال الفرنسي للبلاد.

من خلال هذا، نتبيّن أنّ الطريقة المدنية المدعومة خارجيا بتأييد السّلطان العثماني لها، وبقربها — جغرافيا — من زاويتها الأمّ بطرابلس الغرب، وداخليا — في صفاقس — بوجود ابن أخت محمد ظافر — المقرّب من السّلطان — شيخًا على زاويتها بها هي الطريقة المهيّأة أكثر من غيرها لتنظيم المقاومة في صفاقس التي هناك عدّة دلائل تشير إلى تعلّق سكانها بالخلافة العثمانية، وهو شعور كان بإمكانها استغلاله وتوظيفه.

فهل قامت تلك الطريقة — في صفاقس — بما كان منتظرًا منها أن تقوم به؟

رغم عدم عثورنا — في حدود الوثائق التي اطّلعنا عليها — على ما يؤكد تحرّك هذه الطريقة ضدّ الإحتلال الفرنسي لمدينة صفاقس، أو سلبيتها تجاهه، فإنّه يمكننا القول بأنّ سلط الإحتلال كانت واعية بخطورة تلك الطريقة نظرًا للدّور الذي قد تقوم به في المدينة المذكورة.

وتلافيًا منها لذلك — واحتواءً لها — راهنت تلك السّلط على المسمّاة عائشة أخت الشيخ محمد ظافر المدني — السّابق الذكر — وأمّ شيخ زاوية المدنيّة بمدينة صفاقس، بأن منحتها مبلغ 15.000 فرنك بعنوان جبر الأضرار التي لحقت منزلها

---

99) تشير بعض المصادر انّ نفس هذه العائلة (الشّرفي) تنتمي إلى الطريقة القادرية، أنظر:
A.M.A.E.F., La sous - direction des protectorats au Ministre des Affaires Etrangères, Tunis, le 22/8/1887, N.S.127, Culte musulman, Sectes religieuses, Panislamisme, 1886 - 1891

100) Ibid., Le Vice - Consul de France à Sfax au R.G, le 14/8/1888, protectorat Tunis 1er Versement..

101) Ibid., La Sous- direction des Protectorats au Ministre des Affaires Etrangères, Tunis, le 22/8/1887, N.S. 127...

أثناء قصف القوّات الفرنسية للمدينة سنة 1881 (102).

كلّ ذلك تبعًا «للإعتبارات السياسية التي قدّرت كسب تلك العائلة لما لأخيها (عائشة) من علاقة مع السّلطات [العثمانية]، وما قد يقوم به من تسهيل استقرار فرنسا بتونس. . .» (103)، خاصّة وأنّ عائشة المذكورة كانت وعدت ــ بعد تسلّمها ذلك المبلغ ــ «بتسخير كل جهودها ونفوذ عائلتها في خدمة فرنسا» (104) على حدّ قول المصادر الفرنسية.

ولم تقف إنعامات سلط الإحتلال على تلك العائلة عند ذلك الحدّ بل وصلت سنة 1883 إلى إعفاء محمد بن عبدالله ــ ابن عائشة المذكورة وشيخ زاوية المدنية بمدينة صفاقس ــ من الضريبة الحربية التي فرضت على المدينة بعد استسلامها (105).

وهو مبلغ قُدّر ــ بالنّسبة لابن عائشة ــ المذكور ــ بـ 8.000 فرنك، ممّا يجعل تلك العائلة قد نالت ــ إجماليًا ــ مبلغ 23.000 فرنك.

لكن رغم ذلك ظلّ محمد بن عبدالله يطلب بقيّة قدرها 7.500 فرنك، ووصل به الأمر إلى الاحتجاج لدى خاله بالقسطنطينية عن طريق سفارة فرنسا هناك.

لكنّه لم يحصل على شيء، لأن «الاعتبارات التي كانت قائمة في سنتي 1882 و1883 ـ والتي حتّمت على الحكومة الفرنسية معاملة عائشة وابنها بامتياز خاص ـ لم تعد موجودة. . .» (106) لتبدّل الظروف على حدّ قول الأوساط القريبة من الاقامة العامة في تونس.

إنّ هذه الإشارات فضلا على أنّها توضّح بجلاء كيفية تعامل سلط الاحتلال مع طريقة صوفية، واحتوائها لها ببعض الإمتيازات في الوقت المناسب، تحملنا على القول بأنّ الطريقة المدنية لم يكن لها دور في مقاومة صفاقس للإحتلال الفرنسي.

إذ لولا مهادنتها وسلبيتها لما نالت تلك الانعامات والإمتيازات في وقت لم

(102 A.G.T., Note émanante de Tunis, le 17/7/1882, D 158 - 5

(103 Ibid., le R.G. à Tunis au Ministre des Affaires Etrangères à Paris, (en 1911), D 158 - 5.

(104 Ibid., Note émanante de Tunis, le 17/7/1882, D 158 - 5.

(105 حول الضريبة الحربية التي فرضت على صفاقس بعد استسلامها أنظر: AYADI "La résistance Sfaxienne...", pp. 182 - 184.

(106 A.G.T., Le Délégué à la Résidence Générale à l'Ambassadeur de France à Canstantinople (sans date), D 158 - 5.

تدرس فيه المطالب التي قدّمها التّونسيون ـ من سكّان صفاقس ـ للّجنة المكوّنة من ممثّلي المصالح الفرنسية والأنقليزية والايطالية، والتي كانت ستتولّى ـ آنذاك ـ تقييم الأضرار النّاجمة عن دكّ السّفن الحربية للمدينة (107).

كما أنّه في الوقت الذي يتحمّل فيه الصفاقسيون وحدهم مسؤولية تخريب المدينة وبالتّالي دفع ضريبة قدّرت بعشرة ملايين فرنك ثم خفّضت الى ستّة ملايين فرنك، ممّا أدّى إلى إفلاس العديد منهم ومصادرة أملاكهم (108) نالت فيه عائشة وابنها ما قدره 23.000 فرنك.

إنّ حصول عائشة وابنها على تلك الإمتيازات الخصوصية دليل على أنّه لم يصدر عنهما شيء من شأنه أن يعرقل الإستيلاء الفرنسي على المدينة، وأنّ تحقيق ذلك الإستيلاء يتطلّب الإغداق على تلك العائلة لمزيد كسب سكوتها وبالتّالي توظيفها.

هل يمكن القول بأن هناك طرق أخرى كانت وراء المقاومة في صفاقس أو على الأقل ضمن الفئات الشّعبية التي ساهمت فيها أو حتّى المؤيّدة لها؟

رغم انّنا لم نعثر ـ ضمن الوثائق التي اطّلعنا عليها ـ على ما يفنّد ذلك أو يؤيّده فإنه يمكن القول بأنّ المقاومين في صفاقس كانوا مشجّعين معنويا من قبل الدّعاة العثمانيين الذين أرسلوا إلى طرابلس الغرب، حيث أنّ مبعوث السلطان إلى هناك ـ الشيخ حمزة ظافر ـ كان مكلّفا بمتابعة المسألة التونسية الفرنسية عن كثب (109).

لكن رغم ذلك لا يمكن إرجاع ذلك الحماس، وتلك المقاومة المستميتة من طرف الصفاقسيين للإستعمار إلى ولائهم للطريقة المدنية الممثّلة في مدينتهم في محمد بن عبدالله شيخ زاوية المدنية بصفاقس وأمّه أخت محمد ظافر رغم أنّها طريقة لها أتباع كثيرون في طرابلس الغرب، وإنّما يعزى ذلك إلى ولائهم للخلافة العثمانية.

وهو ولاء تجسّد في العلم الأخضر للسّلطان الذي حلّ محلّ علم الباي ـ لمدّة أيّام ـ فوق التّحصينات الأساسية لمدينة صفاقس (110).

كما أنّ رواج شائعات مفادها أنّ الدولة العثمانية ستتدخّل لطرد فرنسا من

---

107) AYADI, "La résistance Sfaxienne ." p 182.

108) **Ibid** , p. 183 et 184.

109) **Ibid.**, p. 172.

110) **Ibid**, p. 180.

البلاد التّونسية قد زاد في توتّر الوضع في صفاقس (111).

إذ أنّها ساهمت في رفع معنويات المقاومين ودعّمت فيهم الشّعور بالإنتماء إلى أمّة إسلامية واحدة على أبنائها أن يتوحّدوا ويتكتّلوا لمواجهة الأطماع الأجنبيّة النّصرانية التي تهدّد الجميع.

وممّا يؤكّد- كذلك- أهميّة الولاء للدّولة العثمانية في المقاومة الوطنيّة بصفاقس لجوء بعض رموز المقاومة إلى القسطنطينية بعد سقوط المدينة، كالحاج محمد الشّرفي (112)، وكذلك محمد الشّريف ــ قائد مدفعية صفاقس ــ الذي بعد إقامة قصيرة بطرابلس إنتقل إلى القسطنطينية أين استُقبل بكل إعزاز وتشريف، وشغل خطّة عقيد في الجيش العثماني (113).

وممّا يفسّر رفض صفاقس أو قابس التّبعية للباي وإعلانهما التعلّق بالسّلطان العثماني أنّ كلاً منهما كانت ــ قبل سنة 1881 ــ أقلّ تغلغل من طرف الأروبيين ــ عكس مدن الشّمال والسّاحل ــ ، وبالتّالي تربطهما بالمشرق العربي الإسلامي علاقات نشيطة (114).

فهذه العلاقات البعيدة عن الغرب، والمفتوحة على المشرق جعلت هاتين المدينتيْن وجنوب الايّالة أكثر اتّصال ببقية البلدان الإسلامية عن طريق الحجيج وطلبة العلم والتجّار خاصّة.

وهو ما دعّم في السكّان التعلّق بالخلافة العثمانية وخليفتها حامي حمى المسلمين، والحريص على توحيدهم في وجه الأطماع الأوربية بواسطة الجامعة الإسلامية التي دعا إليها السّلطان العثماني عبدالحميد الثّاني.

كلّ هذا يوضّح العوامل الأساسية والتي كانت محدّدة في مقاومة صفاقس وقابس لدخول الإستعمار الفرنسي، ويبرهن ــ بالتّالي ــ عن غياب العامل الطرقي وتأثيره فيها.

---

(111) المحجوبي، المقال السابق، ص 115.

(112) A.M.G., Le Général St Marc au Ministre de la guerre, le 25/11/1889, 2H25 - 4, f. 853 verso; de même A.M.A.E.F., La sous-direction des Protectorats au Ministre des Affaires Etrangères à Paris, Tunis, le 22/8/1887, N.S. 127......, f. 45.

(113) AYADI, "la résistance sfaxienne..." p. 186.

(114) Ibid, p. 187; de même CHERIF, "Les réactions.. ", p 234.

* الجنـــــوب:

يعتبر الجنوب من المناطق التي لم تواجه دخول الإستعمار الفرنسي فحسب، وإنّما الجهة التي ظلّت غير مستقرّة، ومسرحا لحركات التمرّد، ممّا فرض على السّلط الإستعمارية جعلها تحت المراقبة العسكرية (115).

فما هو وزن الطرق الصّوفية به؟

وما هو مدى نفوذها على سكانه؟

وهل كان لها دور في المقاومة فيه سنة 1881؟

من حيث الطرق المهيمنة في الجنوب نجد زاوية سيدي محمد بن ابراهيم القادرية بنفطة، والتي كانت تعتبر سنة 1896 أهمّ مؤسّسة دينية بالجريد والجنوب التّونسي يمتدّ نفوذها إلى سوف، وقريبا من غدامس والنّمامشة وتبسّة (116).

في حين كان عدد أتباع التّيجانية بالجريد ــ سنة 1896 يقدّر بحوالي 400 (117).

أما الطّريقة السّلاّمية، فيبدو أنّ نفوذها يزداد تدريجيا كلّما اقتربنا من الجنوب (118)، في حين تبقى المعلومات المتعلّقة بتواجد الطريقة السّنوسية ــ هناك ــ متضاربة ومتناقضة.

فمن دوفييريي (Duveyrier) المضخّم والمهوّل لعدد أتباع هذه الطريقة بالجنوب التّونسي وخطرها على الإستعمار الفرنسي (119)، حتّى أنّه ذهب إلى أن الدّعاية السّنوسيّة جلبت إليها قبائل ورغمّة أين توجد سبعة زوايا (120)، إلى قائل بعدم

115) أنظر تعريف «التّراب العسكري» في حديثنا عن أسباب مهادنة بعض الطرق للوجود الإستعماري في هذا الفصل، ص 170، هامش 216.

116) **A.G.T.**, Confrérie mère des Kadria, p. 5, D 97 - 3

117) **Ibid.**, Congrégation des Tidjania, p 8, D 97 - 3.

118) **Ibid**, Le C.C. de Bizerte au R.G., le 20/4/1896, D 97 - 3.

119) في الصفحة الأولى من كتابه نجد مكتوبا «التّرك والنّصارى الكلّ في زمرة نقطعهم في مرّة» وقد ذهب إلى أن سيدي محمد المهدي شيخ السنوسية كان يردّدها، أنظر:

DUVEYRIER (H.), **La Confrérie Musulmane de Sidi Med. ben Ali Es-senoussi et son domaine géographique en l'année 1300 de l'hégire 1883 de notre ère**, Paris, Imp. Réunies; 1884.

120) **A.M.A.E.F**, La Direction politique au Ministre des Affaires Etrangères à Paris, Tunisie, N.S. 128, Cultes musulmans; Sectes religieuses, Panislamisme, vol. II, Août 1891 - Octobre 1897, f. 43 verso.

صحّة تلك المعلومات، إذ «أثبتت الدّراسات الميدانية أنّه لا وجود لأتباع أو زوايا سنوسيّة في ورغمّة أو مدنين والدّويرات» (121).

أمّا المراقب المدني بتوزر فقد ذكر أنّه لا وجود بصفة ظاهرة إلا لزاوية سنوسية بالوديان تسمّى «زاوية العرب»، في حين أنّ للطريقة أتباع قدّرهم بحوالي مائة، من ضمنهم سي العبيدي قايد نفطة (122).

وبقطع النّظر عن مدى صحّة المعلومات المتعلّقة بالتّواجد الطرقي بالجنوب ــ والمتأتّية من اهتمام السّلط الاستعمارية بهذه الجهة ــ فإنّه يمكن القول بأن الجنوب لم يكن يخلو من نفوذ الطرق لقربه ــ جغرافيا ــ من المناطق التي بها الزّوايا الأمّ لبعض الطرق كالتّيجانية (تماسين وعين مهدي)، والسّنوسية (جغبوب)، والسّلاّمية (زليطن في طرابلس الغرب)، والمدنية (مسراطة في طرابلس الغرب).

هذا بالنّسبة للطرق التي لها أتباع بالجنوب، أمّا عن مواقفها من دخول الاستعمار الفرنسي إليه سنة 1881 فيمكننا التّذكير بالدّور الذي قام به ابن جدّو بن الحاج أحمد ــ شيخ الشّابية في توزر ــ والذي أعاد المذعورين من دخول الفرنسيين الى المدينة، ومكافأة له على ذلك عيّن ــ قايد بيت الشريعة.

أمّا مقدّم الرّحمانية بمدنين فكان يمدّ السّلطات الإستعمارية في تونس ـ عن طريق أتباعه في طرابلس ـ بمعلومات تتعلّق بتحرّك الايطاليين هناك (123)، في حين أنّ الحفناوي بن عبدالحفيظ ـ شيخ رحمانية تمغزة ـ كان يبدو مؤيّدًا أكثر منه مناهضا للإحتلال الفرنسي(124) على حدّ قول السّلطات الاستعمارية نفسها.

ذلك أنّ مشائخ رحمانية الجريد «لم يكونوا أبدًا مناهضين لـلنّفوذ الفرنسي» على حدّ قول بعض المسؤولين العسكريين الفرنسيين بالجنوب (125).

---

121) **Ibid.**

122) **Ibid.**, Le C C de Bizerte au R G , Le 10/7/1888, Protectorat Tunisie, 1er versement, C. 1218 .

123) **A.M.A.E.F.**, Le Général st Marc au R G , Le 9/4/1888, Protectorat Tunisie, 1er versement, C 1218. .

124) **A.M.A.E.F.**, D'Estournelles au Minsitre des Affaires Etrangères, Confidentielle, Paris le 22/6/1883, Tunisie, C P 1871 - 1896, vol 74, Mai - Juin 1883, f. 497

125) **Ibid** , Le Général de brigade au R.G., Le 9/4/1888, Protectorat Tunisie, 1er versement, C. 1218.

كما أنّ محمد بن ابراهيم الكبير — شيخ زاوية القادرية بنفطة — كانت له علاقات وطيدة مع السّلط الفرنسية خلافًا لأبيه إبراهيم بن أحمد (ت. 1878) الذي اتّضحت عداوته للإستعمار الفرنسي بالجزائر (126).

أمّا الطريقة التّيجانية بالجنوب — فقد كانت لها في تونس — على حدّ قول بول كمبون — نفس موقف الولاء والتأييد الذي كان لها بالجزائر (127).

ذلك أنّها ما أن اكتشف أن الحاج أحمد — أحد مقدّميها بالجنوب — كان في أوت 1882 بصدد الإعداد لعدوان ضدّ فرنسا حتى بادر شيخ مشائخها بالجزائر إلى إقالته في مارس 1883 بعد أن أرسل مبعوثا خاصّا إلى تونس (128).

كما أنّ وصول الشيخ سيدي محمد الصّغير من تماسين إلى تونس في جويلية 1885 قد يكون في إطار طمأنة المقيم العام وإقناعه بولاء الطريقة التّيجانية، وهو ما حمل بول كمبون — آنذاك — على القول بأن التّيجانية — بالنّسبة لفرنسا — أداة من الطراز الأول «للصّمود في وجه دعاية الجامعة الإسلامية، لأنّ أتباعها هم الأعداء الطبيعيين للطريقة السّنوسية» (129)!.

وفي مقابل هذه المواقف تبرز الطّريقة السّنوسية بمناهضتها للأوروبيين، وسعْيها إلى تحريض المسلمين على التوحّد واعلان الجهاد المقدّس للوقوف في وجه المستعمرين (130).

فهل يمكن القول بأنها كانت وراء المقاومة في الجنوب؟

رغم أنّ الوثائق التي اطّلعنا علينا لا تجيب على ذلك فإنّه يمكن القول بأنها بمناهضتها للإستعمار، وبقربها من الحدود الجنوبية للايّالة قد تكون مارست نفوذا معنويا على المقاومين من الخارج نظرًا للتّضييقات التي فُرضت عليها في الدّاخل كما سبق أن أوضحنا.

وفي نفس السّياق اعتبرت السّلط الإستعمارية القاضي عبدالعزيز بن يحيى

---

126) **Ibid**, Le Général de brigade au R.G., Le 9/4/1888, Protectorat Tunisie, 1er versement, C 1218..

127) GREEN (A.H), "French" Islamic policy" in Tunisia, 1881 - 1918, a préliminary inquiry", **Revue d'Histoire Maghrébine**, Tunisie; Imp. de L'U.G T.T; n° 3, Janvier 1975, pp. 5 - 17, p. 5

128) **Ibid.**, p. 8.

129) **Ibid.**

130) ANDRÉ, **op.cit.**, p 72, de même MAHJOUBI, Les **Origines.**, p. 147.

والباش مفتي علي الحبيب ـ أحد اللّذين كانوا وراء تنظيم المقاومة في قابس فيما بين 1881ـ1883 ـ نائبيْن جهوييْن الأول للطّريقة الرّحمانية والثّاني للطّريقة القادرية(131)

إلاّ أن اعتبارها ذاك قد يجد مبرّرًا له في ما حدث لهـا بالجزائر حيث ساندت الطريقة القادرية الأمير عبدالقادر (ت. 1883) في حروبه ضدّ الغزاة الفرنسيين بين 1830 و1842، كما أنّ الطريقة الرّحمانية كانت وراء أغلب الإنتفاضات التي عرفتها الجزائر ضدّ الإحتلال الفرنسي فيما بين 1842و1878 بجهة قسنطينة (132).

ولذلك أصبح كل تحرّك في نظر السّلط الإستعمارية تقف وراءه الطريقة القادرية أو الرحمانيّة، وهو ما حملها سنة 1883 على إيقاف شيخ زاوية الرّحمانية بتمغزة بتهمة التّحريض على الجهاد (133)، بل جعلها تعتبر الباش مفتي علي الحبيب المذكور من أتباع الطريقة السّنوسية (134).

كما أنّه لا بدّ من الإشارة إلى أهميّة الدّور الذي قد تكون لعبته الطريقة المدنيّة إنطلاقا من طرابلس الغرب.

فقد ذهب بول كمبون ـ في رسالة له بتاريخ 20 ماي 1882 ـ إلى أنّ الباب العالي قد استعمل الزّاوية المدنيّة بمسراطة في طرابلس الغرب للوقوف في وجه الإستيلاء الفرنسي على الجنوب التّونسي.

فلقد قام شيخها ـ على حدّ قوله ـ بدعاية واسعة ونشيطة بين القبائل ضدّ «المشركين»، وخاصة ضدّ الفرنسيين، الأمر الذي جعله ينتهي إلى القول بأنّ «دعاية الأعوان الدّينيين المبعوثين والمؤيّدين من طرف الباب العالي كانت السّبب الوحيد لاستمرار الإنتفاضة بالجنوب» (135).

ولعلّما حمل المقيم العام المذكور على القول بذلك هو إرسال محمد ظافر المدني لشقيقه الشيخ حمزة إلى طرابلس أين تولّى شنّ حملة معادية لـلفرنسيين، فاعتبر لذلك «المسؤول عن الإضطرابات التي استمرّت طويلا على الحدود الجنوبية للبلاد التّونسية. . .» (136)

(131 GREEN, "French" Islamic policy. ."; p. 5.

(132 Ibid., p. 7

(133 Ibid

(134 Ibid

(135 Ibid

(136 A.G.T, Enquête réalisée par le Capitaine Le Chatelier au Ministre de la guerre, le 23/9/1889, p. 3, D 97 - 3.

لا شكّ أنّ إرسال الشّيخ حمزة يبرز تقدير السّلط العثمانيّة لقيمته الدّينية وأهميّتها في حمل القبائل على التمرّد على الفرنسيين في المناطق الحدودية.

كما أنّه في نظر الأهالي يمثّل السّلطان العثماني، وهو ما يعني بالنّسبة إليْهم التفاتة هذا الأخير نحوهم، واهتمامه الشخصي بقضيّتهم، وبالتّالي مساندته لهم في مقاومتهم للإستعمار الفرنسي.

ولعلّ ذلك ما ساهم في انتشار الإشاعات القائلة بقرب وصول المدد العثماني للمقاومين بالجنوب التّونسي.

ذلك أنّ التّونسيين وخاصة سكّان الجنوب قد راهنوا على ذلك المدّد انطلاقا من طرابلس الغرب، لكنه لم يأت أبداً (137).

ولذلك اضطرّ العديد منهم إلى الهجرة التي شملت 120.000 لاجئ تونسي من ضمنهم علي بن خليفة (ت. 1884) الذي قاد — انطلاقا من منفاه — عدة غارات ضدّ الفرنسيين في الجنوب التّونسي (138).

فواضح — من خلال هذا — مدى أهمية قرب الوجود العثماني من الايّالة في دعم المقاومة معنويّا، الأمر الذي جعل القبائل تستميت في الدّفاع رغم امكانياتها المحدودة بالنّسبة إلى العدوّ.

ومن المفيد ذكره — في إطار حديثنا عن إبراز المعطى الطرقي في مقاومة الجنوب للإحتلال الفرنسي — أنّ أحد المبعوثين إلى تمغزة يوم 10 جوان 1883 أكّد — بعد عودته يوم 16 من نفس الشّهر — أنّ الشيخ الحفناوي بن عبدالحفيظ — شيخ الرّحمانية بالمكان المذكور — بصدد الإعداد للجهاد المقدّس (139).

وأنّ محمد بن ابراهيم — شيخ زاوية القادريّة بنفطة — بمروره بتمغزة عائداً من تونس — أكّد أنّ الفرنسيين بعد انهزامهم في قصر مدنين — أين تكبّدوا خسائر فادحة — أرسلوا تعزيزات هامّة إلى قابس لايقاف تقدّم الأتراك، وأنّ الجرْحى من الفرنسيين يصلون إلى تونس بأعداد كبيرة.

---

137) AYADI, "La résistance ..", p. 188.

138) Ibid. , p. 185.

139) A.M.G., Le Général de division - commandant le corps d'Occupation de la Tunisie - au Ministre de la guerre à Paris, le 3/7/1883, 2h29 - 2, f. 387.

وقد زادت تلك الأخبار في حماس السكّان، فصاروا يُطلقون البارود(140)، خاصّة وأنّ الشيخ الحفناوي المذكور قد راسل العديد من المشائخ وإخوان الطرق معلنا عن «وصول 200.000 من الأتراك، وموت الباي وسحق الفرنسيين..»! (141).

ورغم أنّ الجنرال فورجمول نفسه كان يشكّ في صحّة تلك المعلومات(142) فإنّه تحرّك بفيْلقه من قفصة صوْب تمغزة معزّزًا بقوات زَحَفَتْ من تبسّة ومُقرن، لتلتقي يوم 22 جوان 1883 على بعد حوالي عشرين كيلومترا غرب تمغزة.

فما هي حقيقة الأمر، وهل كان هناك فعلا إعداد للمقاومة في تمغزة انطلاقا من الزاوية الرّحمانية بها؟

كلّ ما في الأمر أنّ الأتباع والمشائخ ـ ككلّ عام ـ يتوافدون بكثرة للإجتماع في شهر رمضان (143)، وأنّ لا شيء يؤيّد أنّ في الأمر ثورة تُعدّ ضدّاً الوجود الفرنسي (144).

ولكن رغم ذلك، ورغم أنّ الشيخ الحفناوي المذكور وقايد تمغزة وأعيانها كانوا قد اتّصلوا ـ قبل وصول القوّات الفرنسية إلى قريتهم ـ بالجنرال فورجمول، وأعربوا له عن ولائهم لفرنسا وخضوعهم لها (145)، فإنّ القوّات الفرنسية واصلت زحفها وطوّقت تمغزة.

فتمّ إيقاف كلاّ من الشيخ الحفناوي والمسمّى مصطفى بن مبروك ـ أصيل بسكرة التجأ إلى تمغزة على إثر ثورة 1876 بالجزائر والتي كان طرفا فيها ـ وكذلك قايد المنطقة أحمد بن مسعود والذين تمّ نقلهم إلى قفصة.

لقد انتهت أطوار قضية تمغزة بتخطئة شيخ زاويتها بـ 1.000 فرنك لسماحه

---

140) Ibid., f. 388.

141) Ibid., f. 389.

142) A.M.A.E.F., Dépêche télégraphique de D'Estournelles au Minsitre des Affaires Etrangères Françaises, Tunis, le 16/6/1883, C.P. Tunisie, 1871 - 1896, vol 75, (Juillet - Août 1883), d. 1, f. 420.

143) Ibid., Dépêche télégraphique du même au même, Tunis, Le 18/6/1883, C.P. Tunisie, 1871 - 1896, vol 75..., f. 444.

144) Ibid., Dépêche télégraphique du même au même, Tunis, Le 20/6/1883, C.P. Tunisie, 1871 - 1896, vol 75..., f. 463.

145) Ibid., Dépêche télégraphique, du même au même, Tunis, Le 22/6/1883, C.P Tunisie, 1871 - 1896, vol. 75..., f. 490.

وتشجيعه على ممارسات مناهضة لفرنسا بالزّاوية التي هو شيخها، بالإضافة إلى معاقبته بثلاثة أشهر من الإقامة الجبرية بقفصة.

في حين تمّت تخطئة قايد القرية بـ 500 فرنك لعدم إحاطته السّلط علما بما كان يعلمه.

أما محمد بن ابراهيم شيخ زاوية القادرية بنفطة فقد عوقب بخطيئة قدرها 500 فرنك من أجل قيامه بأعمال مناهضة لفرنسا، في حين اقترح نفي مصطفى بن مبروك إلى سان مارجوريت أو الى كرسيكا (146).

فواضح من خلال هذه الإشارات أنّ الشّيخ الحفناوي لم يقم بما من شأنه أن يُعتبر مناهضة للدّخول الفرنسي للجنوب، وهو ما ينسجم مع ما عرف به من تأييده لدخول الاستعمار، وهو تأييد جعله يستهدف إلى غارة قام بها المناوؤون له وللإستعمار في بداية الاحتلال (147).

إلاّ أن كلّ ذلك ـ إلى جانب عدم ثبوت ما نسب إليه ـ لم يحل دون عقابه بدعوى ـ حسب السّلط الاستعمارية ـ أنّ «كلّ محاولة للفوضى يجب أن تُقمع بشدّة، وان كل مثير للإضطرابات يجب إيقافه حالا حتّى يكون لمثل تلك الإجراءات ردّ فعل قوي يحول دون حدوث مضاعفات أخرى. . . ، [ذلك] انّ إبداء التّساهل أو اتّخاذ إجراءات من نوع آخر من شأنه أن يساعد على تطوّر التعصّب. . .» (148) على حدّ قول أحد قوّاد جيوش الإحتلال الفرنسي.

تلك هي بعض المعطيات المتعلّقة بأحداث تمغزة، والتي افتعلتها مكاتب الاستخبارات الفرنسية، وعملت على تضخيمها «لتحدث تدخّل فيلق الاحتلال، وهو ما يُعلي من هيْبة السّلطة العسكرية بانتصارات مزعومة، ويوضّح الحاجة الأكيدة للجيش لضمان السّيطرة الفرنسية على تونس. . .» (149).

كل ذلك في إطار الصّراع ـ في الايّالة ـ بين السّلطة العسكرية وسلطة المقيم العام بول كمبون الذي يسعى جاهدًا لإقناع الحكومة الفرنسية بعدم جدْوى

(146 **Ibid.**, Dépèche télégraphique du même au même, Tunis, Le 19/7/1883, C.P. Tunisie.., F. 132 - 133.

(147 **A.M.A.E.F.**, Dépêche télégraphique de D'Estournelles au Ministre des Affaires Etrangères, C.P. Tunisie, 1871 - 1896, vol 75..., f. 454.

(148 **A.M.G.**, Le Général de division - Commandant le corps d'Occupation de la Tunisie - au Ministre de la guerre à Paris, le 3/7/1883, 2H29 - 2, f. 394 verso.

(149 MAHJOUBI, **L'Etablissement.**., p. 267.

مكاتب الإستخبارات التي تتطلّب أموالاً طائلة تُثقل كاهل الخزينة الفرنسية، وضرورة تعويضها بنظام المراقبين المدنيين الذي تتحمّل مصاريفه الايّالة.

وباستغلاله لتلك الحادثة، وتوظيفها لصالحه، تمكّن المقيم العام من إضعاف السّلطة العسكرية، حتّى أنّ الجيش الفرنسي الذي كان يعدّ حوالي 40.000 جنديا في بداية الإحتلال لم يَعُدْ يَعُدّ سوى 15.000 جندي (150).

إنّ حادثة تمغزة لا تثبت سلبية زاوية الطريقة الرّحمانية بتمغزة فحسب بل تُبيّن مدى التّباين في المواقف — من دخول الاستعمار الفرنسي — بين مختلف زوايا الطريقة الواحدة إذا ما قارنا بين زاوية تمغزة في الجنوب مثلا وزاوية كدية الحلفاء، وعين المنشية في الوسط الغربي، وزاوية سيدي يوسف بوحجر بالكاف وكلّها تابعة للطريقة الرّحمانيّة.

وهو أمر يحملنا على القول بأن بعض الطرق الصّوفية ليست لها تصوّرات ورؤى واضحة ومبادئ ثابتة تحدّد مواقفها طبقا لها.

وخلاصة القول — وانطلاقًا من هذا المسح الذي حاولنا فيه رصد أهم مواطن المقاومة الوطنية سنة 1881، وتتبّع دور الطرق فيها — أنّ هذه الأخيرة — رغم أنّها زمن دخول الجيوش الفرنسية للبلاد كانت مهيّأة للدّفاع وتنظيم المقاومة لما تتمتّع به من قاعدة شعبية عريضة ونفوذ ماديّ وروحي كفيلين بجمع السكّان في صعيد واحد — نراها ليس فقط لم تقم بذلك فحسب، بل وقف العديد من مشائخها إلى جانب قوّات الإحتلال ضدّ رغبة الجماهير في رفضها للإستعمار الأجنبي، مسجّلين بذلك تعلّقهم بمصلحتهم على حساب مصلحة البلاد.

كما أنّه انطلاقا من نفس المسح المذكور يمكن القول بأن المعطى الطرقي إذا تفاعل وانسجم إيجابيا مع رغبة الأهالي يزيد هؤلاء حماسا واستماتة في الدفاع: ذلك أن رفض كلّ من شيخ زاوية الرّحمانية بكدية الحلفاء أو غيره للإستعمار، وإعلانه للمقاومة من شأنه أن يكسب هذه الاخيرة مزيدا من «الشرعية الدّينية» والتحام المقاومين.

أما إذا جاء موقف بعض مشائخ الطرق الصوفيّة من الإستعمار في نشاز بيّن مع رغبة الأهالي في المقاومة وإعلان الجهاد، فإنّ المعطى الطرقي سرعانَ ما يقعُ تجاوزه، ولا أدلّ على ذلك من فرار محمد الصالح الشّافعي — شيخ زاوية الرحمانية بعين المنشية — في حين انضمّ أتباعه للمقاومين.

Ibid., p. 268. (150

لقد كـان الموقف العام للطرق الصّوفية ـــ على مستوى كـامل البلاد ـــ يتّسم بالسّلبية، والرّكـون إلى المسالمة والمهادنة إزاء دخول الإستعمـار الفرنسي إلى البلاد التّونسية، ممّا ساهم في تيسير مـهمّة قوّات الإحتلال في السّيطرة على معظم أنحاء البلاد خـاصة الشّماليـة الغربية منهـا ـــ موطن ثقل الطرق ـــ (151)، وفي ضـمان استمرار وصول المدد إليها للتفرّغ لإخضاع بعض المدن التي استماتت كصفاقس، أو حتّى تلك التي كانت مقاومتها محدودة (152) كالقيروان مثلا.

لقد حالت سلبية الطرق ـــ تلك ـــ دون فتح عدّة جبهات في وقت واحد ضدّ الجيوش الفرنسية وإجبارها على تشتيت قوّاتها تبعًا لتعدّد جبهات المقاومة.

وهو مـا كان من شـأنه أن يقطع توارد المدد للعـدوّ من جـهة، ويخـفّف من قبضته على المدن التي استمرّت فيها المقاومة مدّة لا يستهان بها كصفاقس وقابس.

ولئن أمكننا تحليل بعض المواقف السّلبية لكلّ من الرّحمانية والقادرية بالكاف ـــ إزاء الغـزو الفرنسـي ـــ فكيف نفسّر مـواقف الطرق الصـوفـيّة الأخرى بالبـلاد التّونسية من ذلك الحـــدث؟

د. أسباب سلبية بعض الطرق في مقاومة الحماية:

إنّ ذلك قد يرجع إلى عدّة أسباب أهمها:

* درس الجزائر:

ذلك أنّه إبّان الإحتلال الفرنسي للجزائر كانت عـدّة طرق وخاصة الرّحمانية وراء العديد من الإنتفاضات طيلة النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر للميلاد، ممّا أخّر ـــ ولو نسبـيا ـــ إحكام سيطـرة القوّات الفرنسـية على عدّة أنحـاء من البلاد، وبالتّالي تسبّبت في عدم استقرار الأمن بها نهائيا.

إلاّ أن تلك المجهودات الطّرقـية قوبلت من طرف السّلط الإستعـمارية بالقمع والإرهاب ضدّ الثوار الذين استهدفوا للقـتل الجماعي ومصادرة أموالهم وأرزاقهم، وتشريد العديد منهم، حيث وصل بعضهم إلى تونس فرارًا من نِيْر الإستعمار الذي

151) أنظر خريطتيْ توزيع أتباع القادرية والرحمانية بالبلاد في الفصل الأوّل، ص 42 و 56

152) حول محدودية مقاومة المدن وأسبابها أنظر: "...CHERIF, "Les réactions

رغم ذلك لاحقهم وطالب البـاي بتسليمهم، وفعلا تمكّنت السّلط الإستعمارية من الإنتقام من العديد منهم.

وبذلك يبدو أنّ فشل محاولات الطرق الصّوفيـة بالجزائر في التصدّي الفعلي للإستعـمار الفرنسي بالإضافة إلى الملاحقـة التي تعرّض إليها من لجأ من مشـائخها وأتبـاعـهـا الى تونس وتسليـمـهـم، قـد يكون لذلـك أثر في مـشـائخ بعض الطرق الصوفيّة بالايّالة التونسية، واعتبار بالدّرس الجزائري، فآثروا السّلامة على أن يلقوا نفس المصير.

وممّا يحملنا على القول بذلك أنّ بعض الزّوايا في تونس تعـتبر امتداداً لطرق بالجزائر، حيث أسّسهـا مشائخ معارضون للإسـتعمار فرّوا إلى تونس أمثـال محمد بن عـزّوز شيخ الرحـمـانية بـالجريد، وابراهيم بن أحـمـد الكبـير مـؤسس الزّاوية القادريّة بنفطة.

والجدير بالملاحظـة أنه بوصول هذيْن الرّجليْن إلى تونس تغـيّرت مواقف من خلفهما لفائدة الاستعمار، وهذا يجعلنا نقول أنّ ذلك التحوّل قد يكون مبادرة إلى طيّ صـفحـة الماضي، وفتـح صفـحة جـديدة من العـلاقات قـوامهـا الودّ والولاء للغاصبين، بعيداً عن كلّ ما يؤلّب عليهم السّلط الاستعمارية ويهدّد مصالحهم.

* الحفاظ على المصالح:

يبدو أنّ بعض مشائخ الطـرق - في سلبيتهم تجاه دخول الإسـتـعمار الفرنسي للبـلاد التّونسـيـة - كـانوا مـدفـوعين بدافع الحـرص على صـيـانة المصـالح المادية والرّوحـيــة والتي يقـتـضي الحـفـاظ عليـهــا العـمـل علـى اسـتـتـبـاب الأمن والاستقـرار(153).

ذلك أنّ فترات الحروب والفتن والإضطرابات من شأنها أن تتسبّب في إتلاف المحاصيل، وتفقير الأتباع وبالتّالي حرمان الطرق ومشائخها من مواردهم الحياتية.

كما يمكن القول أيضا بأنّ بعض مشائخ الطرق الذين تواطؤوا مع الإستعمار، وقاموا بكل ما من شأنه أن يسهّل عليه الإستيلاء على البلاد أو بعض جهاتها كانوا مـدفـوعين في ذلك بدافع الطمع في بعـض الامتـيـازات، ونيل المكانة والحـضـوة تدعيمًا لمواقعهم وتوسيعًا لنفوذهـم المادّي والأدبي:

TIMOUMI, op.cit., p. 209 et 211; de même MAHJOUBI; Les origines ; p. 106. (153

فالطريقة الشّابية ـ مثلا ـ قد عملت ـ عند وصول فيلبار الى توزر سنة 1881 ـ على «أن تخصّ نفسها بشرف إخضاع الجريد...، معوّلة ـ في ذلك ـ على جني فوائد ملموسة..، [حيث عبّرت عن طموحها] في بسط نفوذها على الصحراء الممتدّة من قفصة الى خنقة الظريف...» (154).

هذا بالإضافة إلى المكافأة التي نالها شيخها ابن جدّو ابن الحاج أحمد على خدماته السّابقة الذكر.

إنّ هذا كلّه يوضح أن السياسة الإستعمارية ـ بالايّالة ـ قد عملت على التّمكين للطرق الموالية لها مكافأة على ما صدر عنها من مواقف، وسعت إلى احتوائها حتى تخضع للأمر الواقع وتقبل التّعامل مع الاستعمار.

* التّناقضات الداخلية :

باعتبار عدد الأتباع، فإنّه يمكن القول بأن الطرق الصّوفية بالايّالة كانت تملك قوّة بشرية هامة يمكن تأطيرها وتوظيفها في مقاومة قوات الإحتلال، إلاّ أنّ التناقضات بين الطرق ـ داخل المنطقة الواحدة كالكاف (155)، وعلى مستوى البلاد ـ قد عمّق الاختلاف بينها حتى وصل الأمر ـ في بعض الأحيان ـ إلى حدّ المشادّات العنيفة التي كادت تعصف بالتّعايش السّلمي، وتتسبّب في حرب أهلية (156).

وهي ممارسات تفرضها عدّة عوامل كالتّنافس على كسب الأتباع، وتنمية الثروة، وخاصة عقلية الزّعامة التي تدّعي كل طريقة استحقاقها دون سواها(157).

كل هذه العوامل وغيرها حالت دون إمكانية وجود أدنى إتّفاق، أو أرضية

154) A.G.T., Renseignements sur les Zaouias et les personnages religieux fournis par le C.C de Gafsa en 1896, D 172 - 4.

155) MONCHICOURT, op.cit., p. 318.

156) أنظر الفصل الرّابع فيما يتعلّق بالأسباب الدّاخلية لضعف الطرق ص 261-265 .

157) خزينة الوثائق التّونسية، رسالة من محمد بن الحاج الطيّب ـ مقدّم الطريقة العروسية بورغمّة ـ الى الوزير الأكبر، بتاريخ 18 ربيع الثاني 23/1334 فيفري 1916، س. د، صد. 153، مل. 3.

158) نفس المصدر، رسالة من روا إلى قدّور، بتاريخ 1900/7/23، س. د، صد. 102، مل. 3.

عمل مشترك حتّى في أشدّ الفترات حرجا على البلاد، خاصّة وأنّ الإستعمار نفسه قد اعتمد ــ تجاه الطرق ــ سياسة «فرّق تسد» لادخالها في دوّامة تآكل داخلي يحول دون توجّهها موحّدة نحو عدوّ مشترك خارجي.

تلك هي ــ في نظرنا ــ أهمّ الأسباب التي كانت وراء السلبيّة الشّبه مطلقة لجلّ الطرق الصّوفية البلاد التّونسية تجاه الغزو الفرنسي لها سنة 1881.

لكن هل يعني أنّ الاستعمار ــ لمّا أحكم قبضته على البلاد ــ قد حمل كل الطرق على مهادنته والولاء له، والتّعامل معه؟

أم أنّ تلك السّيطرة لم تمنع بعضها من مناهضته والولاء لغيره؟

وللإجابة على هذا السّؤال لا بدّ من توضيح مواقف الطرق الصّوفية من الواقع الجديد بالبلاد، ونعني به الاستعمار.

2) مواقف الطرق الصّوفية من الاستعمار الفرنسي بعد استقرار نظام الحماية في تونس:

لئن أوضحنا في العنصر السّابق ــ من هذا الفصل ــ مواقف بعض الطرق من دخول الاستعمار الفرنسي للايالة التونسيّة سنة 1881 فقط، فإنّنا سنحاول ــ فيما يلي ــ توضيح مواقفها منه طيلة تواجده بها.

إنّ المتتبّع لمواقفها من ذلك يمكنه أن يصنّفها ــ بصفة عامة ــ صنفين:

أ ـ الطرق الموالية للمستعمر:

ونقصد بها تلك التي اتّضح ولاؤها للإستعمار في العديد من المناسبات كما تعاملت معه إيجابا في العديد من القضايا كما سنرى فيما يلي.

وعلى رأس هذا الصنف من الطرق الصوفية في الايّالة ـ نجد زاوية القادرية بالكاف التي كانت تربط شيخها علاقات وطيدة بروا، تكشف المراسلات ـ بينهما ـ عن بعض الجوانب الخصوصية فيها:

من ذلك إعفـاء دوابّ سيدي قـدّور ـــ المذكور ـــ من السّخـرة، وهو إجراء بشّره به روا، وطلب منه أن لا يعلم به أحـدا، «حيث أنه من الأمـور الخصوصـية التي يتحتّم كتمانها. . .» (158) على حدّ قوله.

أمّا خليـفتـه أحمد قـدّور فقـد وصل تعاملـه مع الاستـعمار الفـرنسي مـيدان الفلاحـة، حيث كـان روقارو (Regaru) ـــ مـحافظ الحكومـة بالكاف ـــ شـريكا فلاحيا له (159).

بل وصل به الأمـر إلى تـأليب السلط الاسـتـعـمـارية ضـد الوطـنيين بكشف مواقعهم، واعطاء أسماء البعض منهم حتى يسهل ضربهم (160).

وهي نفس المـارسات التـي قام بهـا المنّوبي بن الشـيخ صالح ـــ شـيخ زاوية التيجانية ببوعرادة ـــ في العديد من المناسبات كما سيأتي في هذا الفصل.

فلقد أوضح هذا الأخـير «انّ المعمّرين الفـرنسيين الأوائل ـــ بتونس أمـثال تان (Taine)، ونابليون ناي (Napoléon Ney)، وآخرين كثيرين بـجهة بوعرادة وباجة، [كانوا قـد] تمكّنـوا مـن استـغـلال واستـثمـار ضـيعاتهـم بمسـاعـدة ودعم زاويته وحمايتها. . .» (161).

كما لعب دوراً أسـاسيا ـ حسب ما ذكـره هو نفسه ـ في الحدّ من التـحرّكات المضادّة التي قـام بهـا الحـزب الحـر الدسـتوري التونسي(162) ضـد إصـلاحـات سنة 1922.

لقد علمت السّلط الإستعمارية على التّمكين لمشائخ الزّوايا الطرقية الموالين لها ليس بالامتـيازات الممنوحة لهم فـحسب بل كذلـك بمنحهم سلطات واسعـة ونفوذ مطلق تجسّم بالخصوص في شيخ زاوية القادرية بالكاف.

---

158) نفس المصدر، رسالة من روا إلى قدّور، بتاريخ 1900/7/23، س د، صد. 102، مل. 3.

159) A.G.T., Note émanante du Kef, datée du 16/2/1929, p. 1, D 102 - 3.

160) ذلك في مواقف الطرق الصّوفية من الحركة الوطنية بهذا الفصل.

161) A.G.T., Le Cheikh El manoubi au Ministre des Affaires Etrangères à Paris, Le 7/11/1929, p 2, D 156 - 21.

162) حول نشأة هذا الحـزب وموقفه من اصـلاحات 1922، أنظر المدني، المرجع السـابق، ج. 1، ص 173، وكذلك MAHJOUBI, Les Origines .., p. 198 - 218 et 224.

فلقد كان يشيع أنّه «من القانون في حرز حريز، وأنّ له علاقات متينة... مع بعض رجال الحكومة تمكّنه من القلب والابدال ونقلة المتوظّفين...»! (163).

ولعلّ هذا ما يفسّر تجاوزاته العديدة التي لم تقتصر على النّزاعات العقارية التي أثارها بمنطقة الكاف (164)، بل وصلت أحيانا حدّ الاعتداء على الأشخاص (165).

كما تجلّى تمكين السّلط الإستعمارية للمشائخ الموالين لها في شيخ زاوية التّيجانية ببوعرادة والذي ـ سعيا وراء منحه الخطّة المذكورة ـ سانده في ذلك «رئيس الغرفة الفلاحية الفرنسية، ونائب رئيس المجلس الكبير للايالة...، ورئيس نقابة المعمّرين الفرنسيين الذي أمضى ـ صحبة مجموعة من المعمّرين ـ عريضة مساندة، هذا إلى جانب مساندة الصحافة الفرنسية له أيضا...» (166).

فهذه الأمثلة توضّح ـ إلى حدّ ما ـ مدى تعامل بعض مشائخ الطرق الصّوفية بالايالة مع الإستعمار، والتّمكين له من الإستيطان، إلاّ أن ذلك لا ينطبق عليهم كلّهم.

ب. الطرق المناهضة للمستعمر:

ونقصد بها تلك التي لم تتواطأ مع الإستعمار فحسب بل حافظت

---

163) «صدى الكاف»، جريدة الصواب، عدد 361، السنة 17، ليوم 1921/7/29، ص 3.

164) حول النزاعات العقارية التي كان شيخ زاوية القادرية بالكاف طرفا في إثارتها بالمطقة أنظر: A.G.T, D 102 - 3.

165) 166. حول ذلك أنظر: A.G.T., Le Chef du poste de police d'Ebba-Ksour au C C Consul de France au Kef, le 19/2/1927, D 102 - 3; ainsi du même au même, le 12/3/1927, D 102 - 3; de même LOUZON (R.) "Les protégés des protecteurs", **l'Avenir Social**, Tunis, Imp L Rombi; 3è Année, les n°= 188 du 2/6/1921, p 1 et 2, n°= 191, du 12/6/1921, p. 1; n°= 200 du 31/7/1921, p. 1.

166) C.N.U.D.S.T, Le Chérif Tidjani au Ministre des Affaires Etrangères à Paris, le 14/12/1930, Tunisie 1917 - 1940, Dossier n°= 2, 12/1930 - 7/1938, la Confrérie Tidjania, aux f 2 - 18/111 - 112 et 117, f. 4.

على شيء من الاستقلالية تجاهه، فنجت بذلك من الانزلاق في ما وقعت فيه بعض الطرق السّالفة الذكر. وضمن هذا الصّنف من الطرق نجد بعض زوايا الطريقة الرّحمانية:

من ذلك أنّ حسونه بن أحمد بن عبدالملك ـ شيخ الرّحمانية بأولاد عون ـ كان قد عمل ـ حسب ما أورده المراقب المدني بمكثر ـ على عرقلة المشاورات المتعلّقة بمشروع سدّ وادي بوزافة لريّ سهل سليانة (167).

ورغم أنّ معارضته تلك قد تكون نابعة من رغبته في صيانة مصالحه بالمنطقة من كلّ ما من شأنه أن ينافسها أو يهدّدها، فإنّ موقفه ذلك يتناقض أساسا مع المواقف السّابقة الذّكر لكلّ من أحمد قدّور والمنّوبي التّيجاني.

على أنّ من أهمّ التحرّكات اتي سُجّلت في الايالة ضدّ الوجود الاستعماري بها كانت انتفاضة الفراشيش سنة 1906، وأحداث الجنوب سنة 1915 ـ 1916.

فما هي أسباب تلك الإنتفاضات، وماذا كان دور الطرق الصّوفية فيها؟

*** ثورة الفراشيش بمراقبة تالة:**

لقد هزّت وسط غرب الايالة في آخر فترة المقيم العام بيشون (168)، وكان

---

167) A.G.T., Renseignements fournis par le C.C. de Maktar, le 8/6/1911, D 97 - 3.

168) ستيفان ولد سنة 1857 بـ Arnay - le Duo (Côte d'or) مارس خطة قنصل بلدي لمدينة باريس (1883)، ثم قنصل عام (1884)، فوزير مفوّض في سان دومنيق (St domingue) (1894 ـ 1895)، ثم في ريودي جانيرو بالبرازيل (1895)، وبيكين (1897)، فمقيما عاما بالبلاد التوسية (1901/3/19 ـ جانفي 1907)، ثم عيّن وزيرا للشؤون الخارجية الفرنسية (1907/3/19 ـ 191/3/2) توفي سنة 1933، MARTEL, op.cit., t 2, p 27

وراءها المسمّى عمر بن عثمان (169) أحد المعروفين بانتمائه الى الطريقة الرّحمانية.

لقد اندلعت أحداثها يوم الجمعة 26 أفريل 1906 بهجوم جمع من الفراشيش على المزرعة المعروفة ببرج الشّعانبي (170)، والتّابعة لأحد المعمّرين الفرنسيين الذي قتل مع أمّه، في حين جرح خادمهما.

ثم تحوّلت مجموعة المهاجمين إلى ضيعة مجاورة أين تمّ قتل أحد الايطاليين، وأسر أربعة آخرون نُقلوا إلى مقرّ عمر بن عثمان، حيث لم «ينجهم من الموت ــ حسب رواية جريدة (La Dépêche Tunisienne) إلاّ النّطق بالشّهادتين، والتّظاهر بالدّخول في الاسلام. . .»! (171).

ثم تحوّل المهاجمون ـ في مرحلة ثانية وعددهم حسب ما جاء في ملفّ القضية يتراوح بين خمسة وعشرين وثلاثين شخصا ـ إلى منجم عين خمودة (172) الذي يبعد عن مكان الحادث حوالي كيلومتر

---

169) عمر بن عثمان ولد سنة 1881 بضواحي قالمة بالجزائر، حفظ القرآن الكريم بأحد الزّوايا، سرعان ما ظهرت عليه أعراض الجذب فساح في الأرض حتّى وصل إلى فوسانة بجهة القصرين أين اعتقده أهلها وأضفوا عليه صفات الولاية والصّلاح، توفّي بالسّجن الذي سجن به على إثر أحداث الفراشيش، أنظر المرزوقي، دماء على الحدود، الدّار العربية للكتاب، 1975/1395، ص 18، وكذلك .TIMOUMI, op.cit., p. 325

170) برج الشعانبي، قرية تعرف اليوم ببولعابة، وتوجد على بعد حوالي 10 كلم من القصرين على الطريق الرابطة بين هذه الأخيرة وتالة، أنظر الخريطة بالملحق رقم 1 ص 271.

171) "L'Affaire de Kasserine - Thala devant le Tribunal de Sousse"; La Dépêche Tunisienne; Tunisie; Imp. Rapide Luis Nicolas et Cie; 18è Année n°= 5937; du 22/11/1906; p. 3 - 4
سنشير إلى هذا المصدر في الصفحات الموالية بالدّيباش تونيزيان

172) يحتوي هذا المنجم على عدة معادن (أنظر الخريطة في آخر صفحة من كتاب مانشيكور) وأغلب المساهمين فيه ــ سنة 1911 ــ من الفرنسيين، في حين يتكوّن إطاره المسيّر من الايطاليين، أنظر: MONCHICOURT; op.cit; p. 465.

ونصـف(173) يعمل به عـدد من العمّال، أرغم رئيسهـم على النطق بالشّهادتين (174).

لم يكتف الثّائرون بذلك، بل قرّروا مهاجمة تالة في اليوم الموالي، إلاّ أنّ السلط الاستعمارية كانت قد استعدّت للأمر.

فمـا أن اقتـربت مـجمـوعة منهم من دار المراقـبة حـتّى بادر أعوانهـا بإطلاق النّيران عليـهم، فسقط منهم اثنا عشـر قتيلا، و«مقـبرتهم ـ بتالة ـ تعـرف بحفرة الاثني عشر...» (175).

هذا في حين جـرح عدد آخر، ولاذ البـقيـة بالفرار، لكن الجـيش طاردهم، واستطاعت السّلط ـ بعـد أيّام ـ أن تقدّم تسعـة وخمسين متّهـما وُجّهت لهم تهم مـختلفـة كالقـتل، ومـحاولتـه، والمشاركـة فيـه، ومـسك السّلاح واستـعمـاله، واستعمال العنف.

ومثّلوا أمام المحكمـة الجناحية بسوسة، ثم عُقّبت القضـية ـ من طرف النّيابة العامة ـ إلى دائرة الاتّهامات بالجزائر، وصدرت ضدّهم أحكام مختلفة (176).

تلك هي - بإيجاز شديد - أهم أطوار ومراحل انتفاضة مراقبة تالة سنة1906، ضدّ الوجود الاستـعماري في منطقة الفراشيش، بعـد حوالي ربع قرن من دخوله البلاد، والتي تحدّثت عنها، وردّدت صداها أكثر من خمسمائة جريدة (177).

---

173) TIMOUMI; op.cit.; p. 347.

174) "L'Affaire de Kassenne - Thala..."; **La Dépêche Tunisienne**...; p. 3-4..

175) المرزوقي، دماء ...، ص 21 ـ 22.

176) أنظر تلك الأحكام في، المرزوقي، دماء ..، ص 18 ـ 26. كذلك TIMOUMI, op.cit, p.361.
حول ثورة تالة، أنظر المرزوقي، دماء، ...، ص 18 ـ 26، وكذلك
la Depêche Tunisienne du n°= 5937 du 22/11/1906 au n°= 5945 du n°= du 30/11/1916, et du n°= 5946 du 1/12/1906 au n°= 5954 du 9/12/1906 et les n°= 11, 12, 13, 14, 15/12/1906, de même A.M.G., 2H29 d. 1, f. 3; SIMIAN, op.cit., p. 47; JULIEN (CH.A), "Colons Français et jeunes Tunisiens, 1882 -- 1912", extrait de la **Revue Française d'Histoire d'Outre-mer**, t. 4 (1967), p. 94 - 95.

177) TIMOUMI, op.cit., p. 325.

فلماذا تأخّرت هذه المجابهة كلّ تلك المدّة؟

وما هي خصوصيات سنة 1906، والعوامل الظرفية المميّزة في منطقة الفراشيش ــ آنذاك ــ والتي تولّدت عنها تلك الأحداث؟

وما هو ــ بالتّالي ــ دور العامل الطرقي فيها؟

تجد تلك الأحداث مبرّراتها في العوامل الظرفية ــ الطبيعية والاقتصادية ــ التي كانت عليها تلك المنطقة سنة 1906.

لقد كان الموقع الجغرافي لكلّ من فوسانة ـ المكان الذي انطلق منه الثائرون ـ وبولعابة ــ المنطقة التي كانت مسرحا لأحداث 1906 ــ محدّدا لنوعية المناخ المسيطر عليهما، و ــ بالتّالي ــ لطبيعة نشاطهما الاقتصادي.

ذلك أن فوسانة تشكّل حوضا بُنيويّا (Cuvette techtonique) بين هضبة زلفان (من 800 إلى 1000 متر)، وهضبة بُودَرْياس وبُوشبْكة (بين 900 و1150 متر)، يغطّي أرضها الصّلصال الرّملي (Grés) والأرطماسية (l'Armoise) والحلفاء(178)، ممّا يجعل زراعة الحبوب بها غير مضمونة المردود، فهي بذلك لا تصلح إلا لتربيّة الماشية (179).

أما بولعابة فهي عبارة عن ممرّ ضيّق جدّاً يسمى «خنقة الجبّاس أو فمّ السّمكة»(180)، يفصل بين جبل سمّامة وجبل الشّعانبي، ويشكّل ــ بالتّالي ــ همزة وصل بين فوسانة والقصرين، وهو معبر يعبره وادي الحطب (181).

فلا عجب ــ تبعا لهذه التّضاريس ــ أن يكون مناخ هذه المنطقة يتّسم دوما بالقساوة والشدّة، وخاصة في السّنوات التي سبقت أحداث سنة 1906، حيث لا

---

178) حول المناخ والتربة بهذه المنطقة أنظر: MONCHICOURT, "La Steppe Tunisienne chez les Frechiches et les Majeurs, (regions de Feriana, Kasserine, Sbeïtla, Djilma)", **Bulletin de la Direction de l'Agriculture et du Commerce**, Tunisie, Imp. Rapide Modernes, Imp. Rapide Modernes, 10è Année, N° 38, 1er Trimestre, 1906, pp. 38 - 76

179) MONCHICOURT, **La région du Haut-Tell.** , p. 143.

180) الميساوي، المقال السابق، ص 61.

181) **Ibid.**, p. 145.

يكاد شتاء يُمرّ دون أن تعرف المنطقة عواصف ثلجية (182)، مما يجعلها تتجمّد ما بين الخمسة عشر يوما والشهر في السّنة (183).

ومن السّنوات التي نزلت فيها الثّلوج سنة 1905 المسماة «العامْ لَبْيض» لكثرة ما نزل بها من ثلوج (184)، وخاصّة سنة 1906 التي وصلت درجات الحرارة فيها ـــ خلال شهر فيفري ـــ الى ما تحت الصّفر طيلة عشر أيام.

كما تساقطت في تلك السّنة الثلوج بتالة طيلة خمسة أيام متتالية (185)، ووصل ارتفاعها الى مترين ونصف (186).

وانجرّ عن ذلك تحطيم خيُوط التّلغراف بين مكثر والكاف، وبين الكاف وتالة التي بقيت ثمانة أيام معزولة عن بقية أنحاء البلاد.

وهو ما تسبّب في نقص تموين السكّان الذين أوشكوا أن يموتوا جوعا، علما وأن إقامة الأسواق كانت مستحيلة، حتّى أنّ تالة لم تقم سوقها من 3 إلى 24 فيفري 1906 (187).

لقد تسبّبت كل تلك العوامل المناخية في أضرار لحقت بالفلاحة وكذلك بالثّروة الحيوانية (188) ـــ المصدر الأساسي لحياة الأهالي هناك ـــ حيث وصلت نسبة الوفيات فيها إلى 60٪ (189)، ممّا تسبب في تدهور أثمانها وارتفاع أسعار الحبوب، وبالتّالي في تفقير السكّان.

لقد جاءت كلّ تلك العوامل الظرفية لتضاف إلى أسباب هيكلية مزمنة، قوامها تغلغل المعمّرين بالمنطقة، وهو تغلغل وصل ـــ سنة 1906 ـــ إلى وضع أصبح انفجاره لا يحتمل التأخير:

---

182) TIMOUMI, op.cit., p. 61

183) Ibid.

184) Ibid., p. 309.

185) MONCHICOURT, La region..., p. 172

186) Ibid., p. 174.

187) Ibid., p. 174 - 175.

188) أنظر خسائر الثروة الحيوانية في MONCHICOURT, La region..., Tableau récapitulatif des pertes d'animaux par suite des mauvais temps, févrıer 1906, p. 174 - 175; de même TIMOUMI, op.cit, p. 309.

189) TIMOUMI, op.cit., p. 339.

ذلك أنّ استيلاء المعمّرين على الأراضي خاصة الخصبة والسقوية كهنشير القصرين(190) بالإضافة إلى استبدادهم بالسكّان، وإثقال كواهلهم بالغرامات أدّى إلى انحصار الأهالي في مساحات ليست ضيّقة فحسب ـ بالنّسبة إلى عددهم ـ وإنما كذلك فقيرة التّربة، ظنينة العطاء لهم ولمواشيهم.

لقد أدّى انخرام التّوازن بين الأرض والرّأسمال البشري إلى نقمة الأهالي على الذين نافسوهم في وجودهم، وحالوا دون انتفاعهم وتصرّفهم في أملاكهم.

وهي نقمة زادها سكوت السّلط الرّسمية ــ رغم تعدّد شكايات المتضرّرين المطالبين بإنصافهم (191) ــ حدّة، وعرف عمر بن عثمان كيف يوظّفها.

فلئن مهّدت الأسباب الهيكلية والعوامل الظرفية ــ السّابقة الذكر ــ لإيجاد حالة من الإستياء، فإنّ عمر بن عثمان قد عمل على توسيع الهوّة، وتوتير الأوضاع قصد إيجاد أرضية قابلة للتّثوير ــ في مرحلة أولى ــ وممكنة التّفجير في مرحلة ثانية: ذلك أنه طيلة السّتّة أشهر ــ التي قضاها بين الفراشيش (192) ــ كان معبّرا في تصرّفاته عن هموم سكّان فوسانة، متمثّلا لأمانيهم، وشديد الوعي بواقعهم ومشاكلهم.

فهو قد وعدهم ــ بعد أن تشكّوا له من الخدمة العسكرية ــ «بأن لا يذهب أبناؤهم أبدًا إلى عسكر النّصارى» (193).

كما أنّ عمر بن عثمان قد تجسّدت فيه معاناة الأهالي من نير المعمّرين، فكان محمّسًا للمناهضين لهم (194)، مروّجا بين السكّان القول بأنّ «الفرنسيين سيغادرون تلك السّنة [1906] الايّالة، مؤكّدًا أنّ ساعة الخلاص قد دقّت، وأنّ الفراشيش لن يعانوا إطلاقا إذا اتّبعوا نصائحه» (195)، مردّدًا باستمرار قوله:

أنا عمر ونحب العماره   نطهّر البلاد ونخرّج النصارى (196).

---

190) حول تقسيم هنشير القصرين أنظر: JULIEN, op.cit, p 94 وكذلك· TIMOUMI,op.cit, p. 307.

191) أنظر مثلا الرّسالة المجهولة الموجّهة إلى الباي في C.N.U.D.S.T., Tunisie 1885 - 1916, vol. 325, (4/ 1906 - 7/1906), f. 61 - 61 bis

192) دخل إلى فوسانة بين ديسمبر 1905 وجانفي 1906، أنظر المرزوقي، دماء.. ، ص 18.

193) TIMOUMI; op.cit., p. 345.

194) Ibid., p. 331.

195) Ibid., p. 331.

196) Ibid , p. 331.

وبذلك لم يع عمر بن عثمان مشاكل وطموحات أهالي فوسانة فحسب، بل تمثّلها في حياته وهو مازاد في حماسهم ونقمتهم على الجاثمين على بلادهم.

غير أنّ ذلك كلّه ما كان ليكون كافيا لتفسير قُدرة عمر بن عثمان على تحريك الأهالي، إذ أنّها مواصفات كان بالإمكان أن تتمثّل في غيره، و ــ بالتّالي ــ أن يقود ذلك التحرّك بدلاً منه.

فما هي خصوصيات ذاك «الولي الصالح» (Marabout) المنتمي للطريقة الرحمانية (197) ؟

إن تلك الخصوصيات ــ التي سنشير إليها ــ تكشف دور المعطى الطرقي في ذلك التحرّك:

ذلك أنّ تمثّل عمر بن عثمان لمشاكل الأهالي، وتعبيره عن طموحاتهم وأمانيهم ما كان كافيًا ليمكّنه من كسبهم ولفّهم حوله، وبالتّالي تحريكهم ضدّ عدوّ جاثم على أرضهم لا يملكون لا العدّة ولا العدد الكافي لمواجهته.

لقد أضاف عمر بن عثمان إلى اهتماماته الحياتية للسكّان بُعْدًا أخرويا ينسجم مع طبيعتهم المتعلّقة بالأولياء والصّالحين، والمعتقدة في صلاحهم وتقواهم، والمؤمنة بكراماتهم وواجب تصديقهم فيما يُخبرون عنه.

فلقد طلب منه الأهالي توسّطه لنزول المطر ــ تبعا لحالة الجفاف التي عرفتها المنطقة آنذاك ــ، فصادف أن نزلت «أمطار طوفانيّة. . . ، إلى حدّ أصبح معه الأهالي يخشون مكروها، ويطلبون من عمر توقّفها، فوعدهم بذلك، . . . ، فتقشّعت السّحب وصفا الجوّ. . .»! (198).

كما أنّ أحد الذين سرقوا له شياها أهديت له، لم يلبث أن فقد إبنه وجزءاً هامّا من قطيعه الذي أكلته الذئاب، بالإضافة إلى ثلوج هامة غطّت أرض الفراشيش، وأفنت جزءاً هامّا من مواشيهم.

وهي كوارث فسّرها الأهالي بغضب «الولي الصّالح» عمر بن عثمان، الذي كان لا بدّ من صفحه وعفوه عنهم حتى يكونوا في مأمن من كل المصائب.

فتهاطلت عليه الهدايا والعطايا، وزادت مكانته في فوسانة (199) بعد أن

---

(197) SIMIAN, op.cit, p 47.

(198) TIMOUMI, op.cit., p. 329.

(199) Ibid.

تيقّن أهلها من ولايته تبعا لكراماته العديدة التي أثبتتها - حسب رأيهم ــ الأيام !.

لقد زاد نجاح عمر بن عثمان في تلك «الاختبارات» في تدعيم مكانته كولي بين الأهالي الذين اعتقدوا أن الله حباه بقوّة خارقة للعادة، فلقّبوه بـ «صانع المعجزات»! (200).

وبوصوله إلى تلك المنزلة لم يكسب عمر بن عثمان ثقة الأهالي فحسب، بل ملك قلوبهم ومشاعرهم، فصاروا طوعا لإرادته، مستعدّين لتنفيذ كل ما يأمرهم به.

وهكذا تمكّن عمر بن عثمان ــ بعمق معرفته للواقع الذي يتحرّكِ فيه، وبنفوذه الرّوحي على الأهالي ــ من جعل سهل فوسانة يعيش ــ في شهر أفريل من سنة 1906 ــ «جوّا حقيقيّا من الجهاد المقدّس، كَهْربه وصول ولي آخر من قفصة يُكنّ له الفراشيش آيات الاحترام والاجلال» (201).

وبذلك تجمّعت كلّ العوامل ليحصل الانفجار بعد كبت دام حوالي ربع قرن مرّ على دخول الإستعمار الفرنسي للبلاد.

وسعيًا منها للحيْلولة دون تكرّر تلك الواقعة، أخضعت الإدارة الإستعمارية «الأولياء الصّالحين» لمراقبة شديدة، وطالبت السّلط الجهوية بمدّها بكلّ المعلومات المتوفّر لديْها عنهم من حيث درجة نفوذهم على السكّان وكــذلك تنقّلاتهم وتحرّكاتهم(202).

بل وصل أمر حذرها منهم أنّها منعت التّرخيص في رفع سنجق أي علم على الزّاوية القادرية بجبل مغيلة (قرب سبيطلة بجهة القصرين) (203).

ومهما يكن من أمر ، فإنّ انتفاضة الفراشيش سنة 1906 ــ التي اعتبرها المعمّرون الفرنسيون بداية يقظة الاسلام، وغزو المسلمين للعالم (204) - حملت

(200) TIMOUMI, op.cit., p. 329.

(201) Ibid

(202) Ibid, p. 357.

(203) Ibid., p. 359.

(204) SAMMUT (C), L'Impérialisme capitaliste Français et le Nationalisme Tunisien (1881 - 1914), Belgique, Les Presses de GEDIT à Tournai, 1983, p. 308.

السّلط الاستعمارية على القول بأن الزّوايا تقف وراء كل ما يحدث بالايالة (205) وفرضت عليها - بالتّالي - القيام بدراسة ميدانية وإحصائيات أقرب ما تكون إلى الصحّة حول كل ما يتعلّق بالطرق، فكانت إحصائيات سنة 1911 كما سبق أن أوضحنا.

* أحداث الجنـــوب:

رغم أنّ الجنوب التّونسي يعتبر آخر جهة في الايّالة خضعت للإحتلال الفرنسي بعد صمود طويل ممّا حتّم على السّلط الإستعمارية وضعه تحت السّلطة العسكرية، فإنّه ما أن اندلعت الحرب العالمية الأولى، ودخلت فيها الدولة العثمانية الى جانب ألمانيا، حتى عمّته الانتفاضات، كان مسرحًا للعديد من المعارك العنيفة ضدّ قوّات الاحتلال (206).

فما هو دور الطرق الصوفيّة في كلّ ذلك؟

من خلال الوثائق التي اطّلعنا عليها، يمكننا الإشارة — في هذا الصدد — إلى مواقف الطريقة التّيجانية هناك:

فلقد عمل شيخ زاوية التّيجانية الأمّ على استغلال الأوضاع المضطربة للجنوب لينشئ زاوية تيجانية بجوار تطاوين حتّى تنافس كلاّ من الطريقة الرّحمانية والقادرية اللّتين لهما أتباع كثيرون هناك (207).

كما أنّ الطريقة التّيجانية قد عبّرت — في العديد من المناسبات — عن اخلاصها ووفائها وذلك أثناء الأحداث التي هزّت منطقة الجنوب سنة 1915 و 1916، وهو نفس الموقف الذي صدر عن كلّ من الطريقة الرّحمانية والقادريّة بنفس المنطقة (208).

ومن جهة أخرى وفي نفس السّياق فإنّ سعْد بن الحاج ناصر القاضي — مقدّم التيجانيّة — قد عمد - أثناء أحداث الجنوب تلك - إلى تجميع أتباعه في العديد من المناسبات «ليوصيهم بأن يكونوا إلى جانب فرنسا، حيث قرأ عليهم رسائل — في

---

205) أنظر. A.D., "Le rôle des Marabouts en Tunisie", Le **Courrier de Tunisie**, Tunisie, 8è année, n° 2753 du 24/5/1912, P. 1.

206) أنظر تلك المعارك في، المرزوقي، دمــاء. ، ص 51 — 139.

207) **A.G.T.**, lettre du Gouverneur Général de l'Algérie, p 1, datée d'Avril 1916, D 156 - 21.

208) **Ibid.**, p. 2.

نفس الغرض ــ واردة عليْه من الزاوية الأمّ. . .» (209).

أمّا البشير بن محمد بن سي العيد ــ شيخ التيجانية الأكبر بتامسين بالجزائر ــ فقد أرسل أحد مقدّميه إلى جهة تطاوين ليقوم ــ على حدّ قوله ــ «بتهدئة الخواطر، ونشر الهدوء، والسّلم المطلق. . .، وحمل النّاس على الهدوء والانقياد لفرنسا. . .، واحترام القوانين. . .، ووضع حدّ للشّائعات المغرضة التي تدور [هناك] بين الأهالي. . .» (210).

فواضح من خلال هذا أنّ الطرق الهامّة في الجنوب ليس فقط امتنعت عن المساهمة في الأحداث التي هزّته فيما بين سنتيْ 1914 و1915 ــ بل عملت في أغلب الأحيان على حطّ العزائم، وتفشيل القبائل وفاء منها لفرنسا.

وذلك يدلّ على أنّالعامل الطرقي لم يكن ملموسا وراء تلك الأحداث وإنّما كان ضدّها.

ورغم ذلك فإنّ جلّ القبائل تجاوزت المعطى الطرقي وأبلت البلاء الحسن، مدفوعة في ذلك ببعدها عن مقرّ السّلطة المركزية (211)، ومستفيدة من رحيل الجنود الفرنسيين الى الجبهة، ومن قربها إلى طرابلس الغرب حيث المقاومة ضدّ الإيطاليين، وكذلك من سعي ألمانيا والأتراك الى فتح جبهة في جنوب البحر الأبيض المتوسّط والتي من شأنها أن تربك الفرنسيين (212).

إلى كلّ تلك الأسباب ـ السّابقة الذكر ـ يضاف ـ في ثورة الجنوب إبّان الحرب العالمية الأولى ـ دور التّونسيين الذين كانوا قد التحقوا بمقرّ الخلافة العثمانية كصالح الشريف(213) الموجود بها منذ سنة 1906، وعلي باش

---

209) **Ibid**, note datée du 17/4/1916, d 156 - 31.

210) **Ibid.**, lettre émanante du Marabout El béchir ben Mohamed ben Si Mohamed el Aîd - Grand maître Tidjania de Temacine, Le 26/3/1916, D 156 - 31.

211) CHERIF, "Les réactions....", p. 234.

212) AYADI, **Mouvement réformiste..**., p. 263

213) صالح الشريف، ولد بتونس سنة 1860، زاول تعلّمه بجامع الزّيتونة حيث نال شهادة التّطويع سنة 1887، كما أحرز على خطّة التّدريس به سنة 1893 ـ 1894. وبعد حجه سنة 1906 قصد الاستانة ومنها سافر الى الشّام أيْن قضى عامين عاد على اثرهما الى دار الخلافة أين=

حانبة (214) وغيرهما.

فهؤلاء ــ سعيًا منهم لحمل التّونسيين على الوقوف إلى جانب الخلافة ضدّ فرنسا ــ أرسلوا الرّسائل إلى بعض الأعيان التونسيين على طريق طرابلس الغرب «ضمّنوها وجوب الدّعوة إلى الجهاد، ووعدوا بتوفير السّلاح بواسطة الغواصات الألمانيّة...» (215).

وبقطع النظر عن إيفاء الأتراك بما وعدوا به أو عدمه، فإنّ أحداث الجنوب جاءت لتثبت مدى الثّورية التي كانت في قبائلـه.

غير أن اندلاع ثورته وخاصّة نجاحها كان متوقّفا على المدد الخارجي، ممّا جعل تلك القبائل - رغم حدّة المعارك التي خاضتها - ينتهي أمرها إلى الإنهزام والإستسلام، وذلك راجع ليس لعوامل خارجية فقط، بل وكذلك لأسباب داخلية من بينها السّلبية والدّور التفشيلي الذي قامت به معظم الطرق الصوفيّة في المنطقة.

وبصفة عامّة ــ وإذا ما استثنينا أحداث تالة ــ فإنّه يمكن القول بأن الإتّجاه العام لجلّ الطرق ــ بالايّالة من وجود الاستعمار الفرنسي بها ــ كان يتميّز بالمهادنة والتّعامل معه في أغلب الأحيان.

فإلى أيّ شيء يعود ذلــك؟

= أسندت له إدارة مشيخة الاسلام، كما زار طرابلس الغرب سنة 1911. سافر مع نهاية الحرب العالمية الأولى الى سويسرا أين توفي في مدينة لوزان سنة 1920. حول ترجمته أنظر: ابن عاشور، المرجع السابق، ص 207 ــ 217، مخلوف: المرجع السابق، ص 425، المرزوقي: دماء...، 221 ــ 235 وكذلك GREEN, the Tunisian... p. 286 - 287.

214) علي باش حانبة: ولد بتونس سنة 1876، في عائلة من أصل تركي، زاول تعلّمه بالمدرسة الصادقية ثم سافر الى فرنسا. أسّس سنة 1905 جمعية «قدماء تلامذة الصادقية»، كما أسّس جريدة «التونسي» الناطقة بالفرنسية والتي صارت لها نشرة بالعربية ابتداء من سنة 1909. وعلى اثر الاحتلال الايطالي لليبيا أسس جريدة «الاتحاد الاسلامي». قام بدور هام في حوادث الترامواي التي نفي على اثرها من البلاد في ماي 1912 الى فرنسا ومنها انتقل الى اسطنبول. اتّهم بالتعامل مع الامبراطوريات الوسطى، وخرج معروض من الباي بمصادرة أمواله، توفي باسطنبول سنة 1918. حول ترجمته أنظر المرزوقي، والجيلاني بن الحاج يحيى: معركة الزلاّج 1911، تونس، مكتبة المنار، ط. 1، 1961، ص 174 ــ 175، وكذلك ZMERLI, op.cit., pp. 43 - 67; de même MAHJOUBI, Les Origines..., p. 125; AYADI, Mouvement réformiste..., p. 65.

215) المرزوقي: دمـــاء... ص. 38 ــ 39.

ج ـ أسباب مهادنة بعض الطرق للوجود الاستعماري:

إنّ ذلك قد يفسّر ـ في نظرنا ـ بعدّة أسباب من أهمّها:

* فشل المقاومة التّونسية:
إنّ فشل المقاومة التي اندلعت في عدّة جهات من البلاد وخاصّة الجنوب مكّن الاستعمار من بسط نفوذه عليها، ومن تركيز حامياته بالتراب العسكري (216)، ممّا فرض الإستسلام، وقبول الأمر الواقع بالولاء والتّعامل.

* عدم وصول المدد العثماني الذي تردّدت حول وشك وصوله شائعات عديدة كانت وراء الحماس بين الأهالي، وحملهم على إعلان الجهاد خاصّة في أحداث الجنوب.
إلاّ أنّ عدم وصول ذلك المدد جعل الأهالي يواجهون عدوّا يفوقهم عددًا وخاصّة عُدّة، بإمكانيات محدودة جدًّا فآل أمرهم إلى الهزيمة بعد أن تكبّدوا خسائر فادحة.

* السياسة الإستعمارية:

إنّ تظاهر السّلط الإستعمارية باحترامها للقيم الرّوحية للتّونسيين من دين وعادات، وتقاليد، مكّنها من احتواء بعض مشائخ الطرق بعد منحهم بعض الامتيازات، وتو ظيفهم وفق مصالحها.

216) التّراب العسكري: تسمية أطلقتها سلطات الاحتلال على الجنوب وأقصى الجنوب التّونسي، حيث ركّزت ـ بعد دحرها لقوات المقاومة الى الأراضي الليبية ـ قواعد مراقبة، وامداد عسكرية، ويضم التراب العسكري ـ اداريا ـ عمالات ورغمة، ومطماطة، ونفزاوة، والودارنة أنظر الهادي جلاب، المجلس الكبير للبلاد التونسية، القسم التونسي، 1922 ـ 1954، شهادة الكفاءة في البحث، مخطوطة، كلية الآداب والعلوم الانسانية، تونس 1984، ص 35.

هذا بالإضافة إلى طبيعة الفكر الطرقي، والذي بتركيزه على تلك الأوراد والأذكار ومفاهيمه حول الدّنيا ــ وجّه الأتباع إلى الزّهد في الحياة، ورغّبهم في أجر الآخرة بدعوى الترقّي في مراتب الصّالحين.

وهذه التّربية ــ التي لقّنها المشائخ لمريديهم ــ مكّنتهم من السّيطرة على أغلبهم إلى درجة صاروا معها ــ في أغلب الأحيان ــ مسلوبي الإرادة، عديمي المبادرة، فاقدي الشخصية لا يخالفونهم في شيء، ممّا حال غالبا دون القيام بأي عمل لا يوافق عليه أولائك المشائــخ.

وبذلك يمكن القول بأنّ السّياسة الإستعمارية بمسكها واحتوائها لبعض المشائخ مسكت من وراء ذلك أحيانا بعض الأتباع والمريدين واحتوتهم.

لقد عملت السّلط الإستعمارية كلّ ذلك لحمل الطرق على الولاء لها للحيْلولة دون قيامها بعمل مناهض لها، ولتحول بينها وبين الولاء لقوى «خارجية».

فهل نجحت في ذلــــك؟

لئن عملت فرنسا على البحث بدقّة ــ في الإيالة ــ عن الطرق أو الأشخاص الذين لهم ولاء أو شبه علاقة بقوى خارجية» وخاصّة الدولة العثمانية، فراقبت الطريقة السّنوسية، واطردت كل داعي لها يشتبه في أمره (217) فإنّ بعض المؤشّرات تشير إلى وجود علاقة بين بعض مشائخ الطرق وقوى أخرى.

من ذلك أنّ أحمد بن عبدالملك ــ شيخ زاوية الرّحمانية قرب سليانة ــ اتّهم سنة 1911 بأنّ له «علاقات مع تركيا، [وأنّه] شجّع ــ سنة 1910 ــ بعض السكان على الهجرة إلى سوريا...»! (218)!.

وهي نفس التّهمة التي وُجّهت إلى الحاج حمده العبّاسي مقدّم الطريقة المدنية ببنزرت (219)، والبشير بن حمّودة اللّزّام الذي ترشّح لمشيخة زاوية سيدي البنّا ببنزرت أيضا، وكذلك محمد بن أحمد النّوري الذي كانت نفس التّهمة وراء إقصائه من مشيخة الزّاوية القادرية بصفاقس.

---

217) A.M.A.E.F., La Direction politique au Ministre desAffaires Etrangères à Paris, Le 16/4/1890, N.S. 127, Culte Musulman..., f. 84 verso.

218) A.G.T , Confrérie des Rahmanya, p. 23, D 97 - 3.

219) Ibid., Renseignements sur les Zaouias et les Personnages religieux, fournis par le C.C. de Bizerte, Le 20/4/1896, D 97 - 3.

أمّا الحاج عبدالقادر الشّلاكي ـ مقدم القادرية بحومة السّوق بجربة ـ فقد أشار المراقب المدني بقابس إلى أنّ له ميولات إيطالية (220).

هل يمكن ـ انطلاقا من هذه الأمثلة ـ القول بوجود طرق موالية فعلا للدّولة العثمانية؟.

رغم إقرارنا بأنّ المعلومات الواردة في الأمثلة السّابقة الذكر قد لا تعْدو أن تكون نوعا من المعلوما الظنّية، الواردة في تقارير «المشبوه فيهم» من مصادر ليست يقينيّة نتيجة الوشايات والأغراض الشخصية أحيانا، فإنه لا يمكننا القطع بعدم وجود علاقات بين أتباع بعض الطرق والدّولة العثمانية، أو على الأقل تعاطف معها، وميول نحوها.

ذلك أنّ عدّة عوامل داخلية وخارجية ــ في بداية القرن العشرين ــ قد زادت ــ على ما يبدو ــ في تنامي التّعاطف والولاء للخلافة العثمانية، الأمر الذي دفع فرنسا إلى العمل على حمل الطرق الصوفيّة في البلاد التّونسية على إعلانها للوقوف إلى جانبها ضدّ تركيا في الحرب العالمية الأولى، لا لشيء إلاّ لخوْفها من مغبّة استعمال الخلافة لنفوذها الرّوحي على المسلمين حتى يقفوا معها إلى جانب ألمانيا ضدّ الحلفاء.

فهل تمّ لحكومة الإحتلال ما أرادت؟

3) مواقف الطرق الصوفيّة من اندلاع الحرب العالمية الأولى ودخول تركيا فيها إلى جانب ألمانيـــا.

ظلّت فرنسا ــ حتّى قبيْل اندلاع الحرب العالمية الأولى، ورغم مرور أكثر من ثلاثين سنة على استيلائها على البلاد التّونسية ــ تشعر بعجزها عن السّيطرة التّامة على واقع البلاد الذي ظلّ متحوّلاً، ومتأثّرًا بما يجدّ على مستوى العالم الإسلامي، وخاصة في علاقته بالخلافة العثمانية.

كلّ ذلك في ظرف أوشكت فيه الحرب العالمية الأولى على الإندلاع، ممّا حتّم على الإستعمار الفرنسي بتونس انتهاج سياسة ظرفية هدفها السّيطرة على الوضع الدّاخلي قصد التفرّغ لمجابهة الخطر الخارجي.

(220 A.M.A.E.F., Le C C. de Gafsa au R G , le 4/4/1896, D 97 - 3.

فبماذا تميّز الوضع الدّاخلي للإيالة آنذاك، وفي أيّ شيء تمثّلت السياسة الإستعمارية الظرفية لمواجهته؟

أ ـ مميّزات الوضع الدّاخلـــي:

رغم بُعْـدها ـ جغرافيا ـ عن مركز الخلافة وانقطاع تبعيتها لها ـ على المستوى السّياسي على الأقلّ ـ فإنّ البلاد التّونسية ظلّت ـ على ما يبدو ـ وعلى مستوى أوسع الجماهير الشّعبية موالية للخلافة العثمانية.

وهو ولاء لا علاقة له بقوّة أو ضعف الخلافة، وإنّما يجد مبرّراته في مفهومها في المنظور الدّيني والرّأي العام الإسلامي الذي يعتبر بيْعة الخليفة واجب شرعي لأنّه حامي حمى المسلمين، ومن ثمّ فإنّهم مطالَبون بالإلتزام بطاعته باعتباره رمز وحدتهم في وجه هيمنة القوى الإستعمارية.

وهي مفاهيم زادت في تغذيتها «الجامعة الاسلامية» التي تهدف إلى جمع المسلمين على صعيد العقيدة وفقًا لتعاليم القرآن الكريم والسنّة، بقطع النّظر عن لغاتهم وأجناسهم ومواطنهم.

وبالتّالي فهي الوسيلة «الوحيدة التي يمكن أن توحّد المسلمين وتشدّ أزرهم في كفاحهم...، ضدّ الإحتلال الأجنبي...» (221).

وهذه المفاهيم ازدادت تبلورًا بعد ظهور الحركة الاصلاحية بتأسيس «جمعية العروة الوثقى» سنة 1882 على يد جمال الدّين الأفغاني (ت. 1887)، وبما قام به محمد عبده (ت. 1905)، لربط المشرق بالمغرب بزيارتيْه إلى تونس وإلقائه للعديد من المحاضرات، وتأثيره في الأوساط العلمية الزّيتونية وغيرها.

كل هذه المؤثّرات جعلت سكّان الإيّالة «يشعرون برابطة قوية، وانجذاب نحو عاصمة الخلافة...، ويرون فيها مراكز إشعاع خاص للدّين، والثّقافة، والفكر،

---

221) أبوالقاسم محمد كرّو، اعلامنا، محمد الخضر حسين، تونس، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، 1973، ص 18.

بل وللحرّية أيضا...» (222).

وهو شعور زادته أحداث طرابلس سنة 1911 تدعيما لما قام به التّونسيون من مساندة لإخوانهم هناك بالقول والفعل: حيث نظّمت حركة التطوّع للجهاد، كما كُوّنت لجان الهلال الأحمر لجمع التبرّعات للمجاهدين ومدّهم بالمساعدة الطبية والعسكرية، ممّا أوجد لدى الرّأي العام التّونسي خاصّة، والإسلامي عامة جوّا من التّضامن والتّكافل والشّعور بوحدة المصير، وبضرورة التوحّد خاصّة وأنّ حوادث التّرامواي والزلاّج قد فجّرت لدى التّونسيين النّقمة على الأجنبي الجاثم على وطنهم.

إلى كل هذه المؤثّرات الدّاخلية والخارجية يضاف إلتحاق العديد من التّونسيين بالمشرق، وخاصة بدار الخلافة.

لقد شملت تلك الهجرة العديد من الأوساط العلمية من خرّيجي الزّيتونة وغيرهم كالشيخ صالح الشريف الذي التحق بتركيا منذ سنة 1906، وعلي باش حانبة بعد إبعاده على اثر أحداث الزلاّج سنة 1912، وأخيه محمد (223) والشيخ محمد الخضر حسين (224)،

---

222) نفس المرجع ، ص 19 و20.

223) محمد باش حانبة: ولد بتونس سنة 1881 من عائلة أصلها تركي، غادر الإيالة التّونسية سنة 1913 للقاء أخيه علي في القسطنطينية التي رجع منها الى تونس في 18 جانفي 1914 ثم غادرها نهائيا يوم 25 مارس 1914 . إستقر في أوروبا حيث عمل أثناء الحرب العالمية الأولى على التّعريف بقضايا بلدان المغرب العربي توفي في برلين في ديسمبر 1920 ، حول ترجمته، أنظر الحبيب الجنحاني، محمد باش حانبة، تونس، الدار التونسية للنشر، 1968، ص 37 — 61، وكذلك MAHJOUBI, **Les Origines**., p. 141; de même AYADI, **Mouvement réformiste**.., p 141.

224) محمد الخضر حسين: ولد بنفطة سنة 1873، كان والده من مريدي مصطفى بن عزّوز شيخ الطريقة الرّحمانية بالجريد. التحق بجامع الزّيتونة أين تحصّل سنة 1898 على شهادة التّطويع. أصدر سنة 1904 «مجلة السّعادة العظمى» تولّى خطّة القضاء ببنزرت كما تولّى التّدريس بالمدرسة الصّادقية. هاجر إلى المشرق واستقرّ بدمشق أين سُجن لمدّة ستّة أشهر ونصف، إرتحل على إثرها إلى الاستانة ومنها كلّف بمهام في ألمانيا أثناء الحرب العالمية الأولى. دخل مصر سنة 1922 لاجئا سياسيا أين استلم رئاسة تحرير «مجلة نور الإسلام» كما أنشأ جمعية «الهداية الإسلامية» وأصدر =

واسماعيل الصفايحي (225)، وغيرهم.

وهؤلاء جميعا كانوا «يعملون ـــ في الآستانة وفي أوربا ـــ على إعداد حملات تحريرية مسلّحة ضدّ الإحتلال الايطالي والفرنسي في المغرب العربي، وكانوا يتحرّكون بكثرة بين العواصم، ولهم إتصالتهم السريّة المنظّمة، وأنصارهم الكثيرون في تونس، وليبيا والجزائر. . .» (226).

وقد نظّموا دعاية في صفوف المغاربة المجنّدين داخل الجيش الفرنسي، واتّصلوا بالأسرى لدى الألمان لحملهم على التطوّع في الحركات الجهادية التي تساندها الدّولة العثمانية معنويا وأدبيا، وانتهى بهم الأمر إلى تأسيس لجنة لتحرير المغرب سمّيت باسم «اللجنة التّونسية الجزائرية»، وذلك ببرلين سنة 1916 (227).

هذا بالإضافة إلى وجود مؤشّرات توحي بوصول دعاة عثمانيين إلى الايالة «قصد تحريض الأهالي التّونسيين على الإنخراط في الجيش العثماني بطرابلس. . . ، كما أنّ عدداً من الأهالي وقع أخذهم من عدّة قبائل، وتوصّلوا لعبور الحدّ التّونسي الطّرابلسي. . .» (228).

كما وصلت رسالة بإمضاء محمد ـــ من صالونيك ـــ بتاريخ 24 مارس 1912

=. مجلة تحمل نفس الإسم. عيّن عضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق وعضوا في المجمع اللّغوي بالقاهرة، كما ترأس جمعية «جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية»، وفي سنة 1952 عيّن شيخا للأزهر توفّي سنة 1958 أنظر: كرّو، المرجع السّابق، محمد مواعده، محمد الخضر حسين، حياته وآثاره، 1873 ـ 1958، تونس، الدّار التونسية للنشر، 1974، وكذلك GREEN, the Tunisan Ulama...,p. 251-252.

225) اسماعيل الصّفايحي: ولد بتونس سنة 1849، إلتحق بجامع الزيتونة سنة 1865 فأخذ عن عدة مشائخ كسالم بوحاجب والشّاذلي بن القاضي. أحرز على رتبة التّطويع سنة 1877، وسنة 1889 عيّن مدرّسا بالصّادقية، كما قُدّم سنة 1895 للقضاء الحنفي. توجّه سنة 1914 للحجّ، ومن هناك للآستانة حيث تولّى مناصب علمية مختلفة، توفّي سنة 1917. حول ترجمته أنظر: GREEN; the Tunisan Ulama...., p. 281; de même AYADI, Mouvement réformise..., p. 141.

226) كرّو، المرجع السّابق، ص 24.

227) MAHJOUBI; Les Origines.., p. 160.

228) A.G.T., Circulaire date du 28/2/1912, G 3 (Circulaires divers) d. 33.

إلى صالح البكّوش قايد باجة، أوضح له فيها «تعـاطف العثمانيين والمسلمين بصفة عامّة مع كلّ الشّعوب الإسلامية الخاضـعة للدّول الأوربية، ويدعوهـم إلى الاعتماد على وحـدتهم للوقـوف في وجـه الذين يكبّلون المسلمين، ويقـتلون إخـوانهم في إفريقيا، وطرابلس، وكذلك في المغرب. . . » (229).

كلّ هذه العوامل الدّاخلية والخارجيـة ساهمت في إيجاد انجذاب نحو المشرق وخاصّة نحـو دار الخلافة (230)، سـيحلّ بالايّالة في العـشرية الأولى من القـرن العشرين.

وهو انجذاب أربك السّلطة الإستعمارية بها، خاصة بعد أن وقفت على بعض الأدلّة التي أكّدت لها وجود ذلك الولاء، وذلك التعلّق.

من ذلك إعلانات عُلّقت بجـامع الزّيتونة «دعت إلى رفض كلّ إعانة لفـرنسا بما في ذلك دفع الضرائب لهـا، لأنها [في نظرهـم] تقاتل الخليفـة، كما أنّ ثلاثة من الطلبـة عـشر على تلك الإعـلانات بين أيديهـم تمّ اعتـقالهم بدون مقاضـاة مدّة سنة، ثم وضعوا تحت الإقامة الجبرية. . . » (231).

كمـا أنّه لمّا قام أحـد المسؤولين الفرنسيين بجـولة تفقّدية في الجنوب - في أوت 1915 - «تفطّن إلى أنّ لأعيان صـفاقس تعلّقا واضحا بتـركيا، وأنّ للمثقّفين بقابس عداء لفرنسـا. . .، حتى أنّ كاتب القايد ــ هناك ــ كان يحضر اجتماعات تلك الأوساط. .»! (232).

هذا بالإضافة إلى دخـول بعض الكتب إلى الايّالة نذكر منها مجمـوعة أشعار بعنوان «صوت الحريّة والوطن» وهي قصـيدة «معربّة من التّركـيّة نظمًا. . .، يتغنّى بها كلّ تركي حرّ على وجه الأرض. . .» (233) وفق ما كتب على غلافها.

---

229) Ibid., E 550/ 30 - 1.

230) حول ذلك أنظر: TLILI (B.), "Les rapports Arabo-Turcs à la veille de la grande guerre (1907 - 1913)", **Les Cahiers de Tunisie**, Tunis, les Presses de la Société Tunisienne des Arts Graphiques, t. XXIII, n°= 89-92, 1er et 2è trimestre, 1975, pp. 33 - 140.

231) GOLDSTEIN (D.), **Libération ou annexion: aux chemins croisés de l'Histoire Tunisienne, 1914 - 1922**, Tunis, Maison Tunisienne de l'Edition, 1978, p. 139.

232) **Ibid.**, p. 140.

233) A.G.T., Note datée du 15/11/1910, E 550/30 - 1.

تلك هي أهمّ المعطيات المتعلّقة بالوضع المتميّز الذي كانت عليه الإيالة في علاقتها بها بالشّرق وخاصة بدار الخلافة قبيْل الحرب العالمية الأولى.

وهو وضع زاد السّلط الإستعمارية في تونس تخوّفا من اندلاع الجهاد ضدّها خاصّة بعد دخول تركيا ــ رمز الخلافة عند المسلمين ــ الحرب إلى جانب ألمانيا، وإصدار شيخ الاستانة لفتوى في وجوب إعلان الجهاد المقدّس من كافّة المسلمين ضدّ فرنسا وحليفاتها، وهي فتوى وقع التّرويج لها في معظم أنحاء العالم الإسلامي قصد تثوير شعوبه، وتأليبها ضدّ فرنسا.

فكيف واجهت السّلط الإستعمارية الأمر في تــــونس؟

تمثّلت الإجراءات «الوقائية» للسّلط الإستعمارية بالايّالة في العمل على محاصرة «الدّعاية العثمانية» داخلها.

لذلك راسلت المراقبين المدنيين، والمسؤولين على مكاتب الشؤون الأهليّة تأمرهم ببثّ العيون للتعرّف على الدّعاة العثمانية، وحصر عددهم ومناطق وجودهم.

وباندلاع الحرب العالمية الأولى وصلت تلك الإجراءات الأمنية أوجها بصدور أمر عليّ مؤرّخ في 29 جويلية 1914 يتعلّق برعايا الايّالة الذين «كانوا بـــارحوا ــ عصيانا منهم زمن انتصاب الحماية الفرنسية ــ الإيالة، ولم يعودوا. . .، إليها، وأنّ مكاسبهم بقيت معرقلة أثناء كلّ تلك المدّة. . .» (234).

لذلك نصّ فصله الأوّل على أنّه «يعتبر عصاة التّونسيون الذين تركوا الإيالة. . .، ولم يعودوا إليْها. . .، أو التّونسيون الذين خدموا أو يستخدمون بجيش أجنبي بدون الحصول على رخصة في ذلك. . .» (235).

أما الفصل الثّامن ــ من الأمر المذكور ــ فقد منحهم ثلاثة أشهر منذ تاريخ نشره «للدّخول تحت الطّاعة والرّجوع إلى مسكنهم. . .» (236).

(234) «نسخة أمر عليّ»، جريدة الزهرة، تونس، المطبعة التّونسية، عدد 2021، السّنة 26، ليوم 1914/10/27، ص 2.

(235) نفس المصدر

(236) نفس المصدر والصفحة.

في حين أعلن الأمـر العلي المؤرّخ في 2 أوت 1914 حالة الحصار بالمملكة التّونسية (237).

هذا بالإضافة إلى ضرب مراقبة شديدة على «المشبوه فيهم»، وعلى «عائلات المهاجرين، والفارّين، وذوي الميولات المعادية للإستعمار، كما تمّ إيقاف بعض المروّجين لإشاعات مغرضة بين العربان بالجنوب، وتسليط عقوبات شديدة عليهم..» (238).

ولم تغفل السّلط الإستعمارية أيْضا عن تسليط مراقبة على الطرق الصّوفيّة، وتحميل مشائخها إلى جانب أعيان البلاد مسؤولية السّهر على الأمن العام، والحيلولة دون القيام بأعمال تخريبية قد تستهدف الخطوط الحديديّة(239).

كما سلّطت «رقابة شديدة على الصّحف الأجنبيّة والمحلية، وكانت [تلك السّلط] لا تتردّد في حذف أيّ خبر من المراسلات الشخصية يتّضح لها أنه قد يعكّر صفو الأمن العام، وتمّت مراقبة الإتصالات مع الخارج، في البداية مع البلدان الإسلامية، وفي مرحلة ثانية مع كلّ البلدان، وأمّا بالنّسبة للبريد الوارد من فرنسا إلي تونس فقد وقع الإكتفاء بفتح رسائل الأشخاص المشبوه فيهم...» (240).

تلك هي مميّزات الوضع الدّاخلي للإيالة قبيْل الحرب العالمية الأولى، وإذْ أطلنا حوله الحديث فلنحدّد الإطار التاريخي الذي ستتنزّل فيه مواقف الطرق الصّوفية في البلاد من تلك الحرب، ومدى خطورة الوضع الذي كانت عليه السّلط الإستعمارية بها آنذاك، لنتبيّن أهميّة مواقف تلك الطّرق في معالجة ذلك الوضع بمحاولة مسكه والسّيطرة عليْه.

ذلك أنّ أهمّ إجراء قامت به حكومة الإحتلال في البلاد ـ عند اندلاع الحرب العالمية الأولى ودخول تركيا فيها إلى جانب ألمانيا ـ تمثّل في توجّهها إلى العلماء والهيئات الشّرعية الرّسمية وخاصّة مشائخ الطرق والزّوايا ـ قصد

237) «اعلان حالة الحصار بالمملكة التونسية»، نفس المصدر، عدد 1940، السنة 26، ليوم 5 أوت 1914، ص 2.

238) GOLDSTEIN, op.cit, p 121.

239) Ibid., p 122.

240) Ibid., p 123.

حصولها على تأييدهم لها، وحملهم على إعلانهم لمساندتها والوقوف إلى جانبها ضدّ تركيا، مقدّرة ما لهم من تأثير على الأهالي.

فهل تمّ لها ذلـــك؟

ب ـ ردود فعل الطّرق الصوفيّة في الايّالة:

إنّ حـرص حكومـة الإحتـلال في تونس على كـسب ولاء الأطراف الدّينيـة والإجتمـاعية الفاعلة فيـها ينبع من تخوّفهـا من النّفوذ الذي تملكه تلك الأطراف، والذي قد يُستـعْمل ضدّها، بالإضافة إلى تقـدير السّلط الإستعمارية للـنتائج المحلية وحتّى الخارجية التي يُمكن أن تترتّب عن إعلانهم على رؤوس الملأ لذلك الولاء.

لهذه الإعتبادرات وغيرها بادرت حكومة الإحتلال بنشر مواقف الولاء والتأييـد لها في الحرب ضـدّ تركيا، طـمعًا في كسب الرأي العـام الإسلامي، وسعـيًا منها لإحداث قطيـعة بينه وبين تركـيا للحدّ من الـشعور بالولاء للخـلافة، وخاصّة للتّخـفيف من فـاعليّة فتوى شـيخ الاسلام الدّاعـية إلى إعلان الجـهاد المقدّس على فرنسا وحليفاتها أعداء الإسلام.

فمـا هي الأطراف التي صدرت عنها المواقف المشـار إليْها،والتي بادرت السّلط الإسـتعـمارية بالايّالة إلى نشـرها منذ الأشهـر الأولى لاندلاع الحرب،ومـا هي محتوياتها؟

إنطلاقا من المصـادر التي أمكننا الإطّلاع عليها، فـإنّ تلك المواقف صدرت عن الأطراف التّاليـة:

الإطراف الصادرة عنها المواقف	وظيفتها الدينية بالإيالة التونسيّة	الجهة الموجه إليها الموقف	تاريـخ الموقف	اللّغة الصّادر بها الموقف
محمّد بن شعبان	شيخ مشائخ الطريقة القادرية	موقف موحّد إلى المقيم العام	1914/11/8	العربيّة(241)
محمّد البشير الشّريف	شيخ مشائخ الطريقة الرحمانيّة			الفرنسيّة (242)
أحمد الشّريف	شيخ مشائخ الطريقة العيساويّة			
محمّد بلحسن	شيخ مشائخ الطريقة الشّاذليّة	المقيم العام	1914/11/8	العربيّة (243)
أحمد الشّريف	شيخ مشائخ الطريقة العيساويّة	المقيم العام	1914/11/8	الفرنسيّة (244)
حمده بن علي ابن عيسى	شيخ الرحمانيّة بزاوية الكاف	المقيم العام	1914/11	العربيّة (245)

(241 محـمـد ابن شـعـبـان، محـمـد البـشـير الشّريف، أحـمـد الشريف، «شـواهد الإخلاص»، الزهرة، السـنـة 26، عـدد 2039، لـيـوم 1914/11/17، ص2، أنظر كـذلك C.N.U.D.S.T., Tunisie,Guerre 1914 - 11/1914, f 138; de même "Les Musulmans Français et la guerre, adresses et temoignages de fidélité des Chefs Musulmans et des Personnages religieux", **Revue du Monde Musulman**, Paris, Ernest Leroux éditeur, t. 21,vol. XXIX, (décembre 1914), p. 274 سنشير إلى هذا المصدر في الصفحات الموالية بـ: **R.M.M.**

(242 **A.G.T.**, D 93 - 3.

(243 محمد بلحسن، «شواهد الإخلاص»، جريدة الزّهرة، السنة 27، عدد 2047 ليوم 1914/11/25، ص2.

(244 **A.G.T.**, D 126 - 21

(245 حمده ابن علي بن عيسى «رسائل الإخلاص»، جريدة الزهرة، السّنة 27، عدد 2049، ليوم 1914/11/27، ص 2.

محمّد العربي الشّريف بالقاسم الشريف	شيخ زاوية القادرية بنفطة شيخ زاوية القادرية بقفصة	المقيم العام	1914/11/12	العربيّة (246)
محمّد العربي الشّريف بالقاسم الشّريف	شيخ زاوية القادرية بنفطة شيخ زاوية القادرية بقفصة	المراقب المدني بقفصة	1914/11/12	العربيّة (247) الفرنسيّة (248)
محمّد القيزوني	شيخ زاوية العيساويّة بالكاف	المقيم العام	1914/11/17	العربيّة (249) الفرنسيّة (250)
الحاج الطّاهر الشّريف	شيخ الطريقة العيساويّة	المقيم العام	1914/11/18	الفرنسيّة(251)
محمّد بالحاج اللّوز	نائب العيساويّة قفصة	المراقب المدني بقفصة	1914/11/18	العربيّة (252) الفرنسيّة (253)

246) محمد العربي الشّريف، بلقاسم الشّريف، «رسائل الإخلاص»، نفس المصدر، السّنة 27، عدد 2049، ليوم 1914/11/27، ص 2.

247) محمد العربي الشّريف ، بلقاسم الشّريف، «رسائل الإخلاص»، نفس المصدر، السّنة 27، عدد 2049، ليوم 1914/11/27، ص 2

248) خزينة الوثائق التونسية، س، د، صد. 106، مل. 2

249) القيزوني محمد، «رسائل الإخلاص»، الزّهرة، السّنة 27، عدد 2049، ليوم 1914/11/27، ص 2.

250) خزينة الوثائق التونسية، ص. د، صد. 130، مل. 4.

251) C.N.U.D.S.T , Tunisie, Guerre 1914 - 1918, vol. 1650 (août - novembre 1914), f. 174.

252) محمد بن الحاج اللّوز، «رسائل الإخلاص»، الزّهرة، السّنة 27، عدد 2049، ليوم1914/11/27، ص 2

253) خزينة الوثائق التونسية، س. د، صد. 134، مل. 1.

يوسف بوحجر السّهيلي	شيخ زاوية الرحمانيّة بقفصة	المقيم العام	19/ 11/ 1914	العربيّة (254)
مصطفى بن الحاج مبارك	مقدّم زاوية الرحمانيّة بتالـة	المراقب المدني بتالـة	20/ 11/ 1914	الفرنسيّة (255)
محمّد الصّالح العمراني	شيخ زاويـة الرحمـانيّة بعين الصّـابـون	المقيم العام	23/ 11/ 1914	العربيّة (256)
عبد الحميد بن عزّوز	شيخ الرحمـانيّة بالقيروان وجلاص	المقيم العام	24/ 11/ 1914	العربيّة (257) الفرنسيّة (258)
حسّونة بن عبد الملك	شيخ الرحمـانيّة بأولاد عـون	المقيم العام	27/ 11/ 1914	العربيّة (259) الفرنسيّة (260)
عمر بن الشّيخ أحمد	شيخ العيساويّة بطبربة	المقيم العام	27/ 11/ 1914	العربيّة (261)
محمّد الشّريف	شيخ مشائخ السلامية	المقيم العام	نوفمبر 1914	الفرنسيّة (262)

254) يوسف بوحجر السّهيلي، «رسائل الإخلاص»، الزّهرة، السنة 27، عدد 2049، ليوم 1914/11/27، ص 2.

255) محمد الصالح العمراني «رسائل الإخلاص»، نفس المصدر، السنة 27، عدد 2049، ليوم 1914/11/27 وكذلك عدد 2055، ليوم 1914/12/3، ص 2.

256) مصطفى بن الحاج مبارك ، نفس المصدر.

257) عبدالحميد ابن عزّوز، «رسائل الإخلاص»، نفس المصدر، السّنة 27، عدد 2056، ليوم 1914/12/4، ص 2.

258) خزينة الوثائق التّونسية، س د، صد. 172، مل. 3.

259) حسونه ابن عبدالملك، «رسائل الإخلاص»، الزّهرة، السنة 27،عدد 2054، ليوم 1914/12/2.

260) خزينة الوثائق التونسية، س. د، صد. 97، مل. 3

261) عمر ابن الشّيخ، «رسائل الإخلاص» الزّهرة، السنة 27، عدد2053، ليوم 1914/12/1، ص2.

262) C.N.U.D.S.T., Tunisie, Guerre 1914 - 1918, vol. 1650..., f. 173.

تلك هي أهمّ الأطراف (263) ـ في حدود اطّلاعنا ـ التي عبّرت عن مواقفها من دخول تركيا الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا، والتي رغم تعدّدها، واختلاف الجهات الصّادرة عنها تتّفق في جملة من المحاور من أهمّها:

* تعبير تلك الأطراف عن الإستياء والأسف الذي حاق بها بسبب دخول تركيا تلك الحرب إلى جانب ألمانيا، وتأكيدها (تلك الأطراف) على **تجديد الولاء والاخلاص «للملك والدولة الحامية»، متبرّئة ممّا صدر عن تركيا، ومتمسّكة بمواقف الودّ والوفاء لفرنسا.**

* تعديدها، وتنويهها بالمكاسب «التي تحقّقت في الايالة على يد فرنسا» كقول بعض تلك الأطراف بأنها «تسعى فيما يعود [على الرعيّة] بالرفاهية والترقي...»!(264)، وكل ما من شأنه أن يمتّعها «بمنافع الحضارة والتقدّم..»!(265).

إلى جانب تحقيق فرنسا «لأمن الطرقات، وتهذيب البلاد والعباد..» (266)، و«نشر التّعليم، وتذليل الصّعوبات، وتأمين الطرقات...»! (267).

هذا بالإضافة إلى تأكيد كلّ الأطراف تقريبا على احترام الإستعمار الفرنسي في تونس «للشعائر الدينية والعوائد القومية، [ومحافظته عليها]...» (268).

---

263) استثنينا من هذا الجدول مواقف مشائخ الزّوايا غير الطرقية كزاوية سيدي محرز، وابن عروس، والزّاوية البكرية، وزاوية سيدي الباهي، وغيرها باعتبارها لا علاقة لها بموضوع البحث.

264) محمد ابن شعبان، محمد البشير الشّريف وأحمد الشّريف، المصدر السابق، ص 2.

265) ابن عيسى، المصدر السّابق، ص 2، اللّوزو المصدر السّابق، ص 2، ابن عبدالملك، المصدر السّابق، ص2.

266) محمد العربي الشّريف، بلقاسم الشّريف، المصدر السّابق، ص 2.

267) A.G.T., E 550 30/15 - 894.

268) ابن شعبان، محمد البشير الشريف، وأحمد الشّريف، المصدر السّابق، ص 2، بلحسن، المصدر السّابق، ، ص 2، ابن علي بن عيسى، المصدر السّابق، ص2، الشريف، محمد العربي وبلقاسم الشّريف، المصدر السّابق، ص 2، اللّوز، المصدر السّابق، ص 2، ابن عزّوز، المصدر السّابق، ص 2، ابن عبدالملك، المصدر السّابق، ص 2، ابن الشّيخ، المصدر السّابق، ص 2، وكذلك C.N.U.D.S.T., Tunisie Guerre 1914 - 1918..., f. 173 et f 174.

ولهذه الاعتبارات وغيرها دعت تلك الأطراف لفرنسا «بازدياد عزّها وشرفها، مع الظّفر والنّصر» (269)، لأنّ - في رأيها - «في انتصارها (فرنسا) انتصار للمسلمين . . » (270)!!

*** إتفاق أغلب تلك الأطراف ــ التي صدرت عنها تلك المواقف ــ على تحميل ألمانيا مسؤولية دخول تركيا الحرب العالمية الأولى إلى جانبها.**

حيث كانت تركيا ــ في نظرهم ــ ضحيّة «إغراء ودسائس ألمانيا» (271)، و«إمبراطورها الباغي، ورجال دولته . . » (272)، مع نعت ألمانيا بـ«الباغية»(273)، و«المتوحّشة» (274)، و«الخؤونة» (كذا) التي لا صديق لها في العالم أجمع . . » (275).

وانطلاقًا من هذه المحاور ــ التي يكاد يلتقي حولها جلّ أصحاب المواقف السّالفة الذكر ــ يمكننا إبداء الملاحظات التّالية:

* أنّ هذه المواقف ــ الصّادرة عن أطراف متعدّدة ــ يبدو لها نفس المحتوى، ممّا يجعل المتأمّل فيها لا يكاد يلاحظ إلا التقديم أو التأخير في الكلمات، وكأنّ محتوياتها مقتبسة عن بعضها البعض، ممّا يوحي بإمكانية وجود تنسيق مسبّق بين أصحابها، أو على الأقل إتفاقهم المسبّق حول محاور معيّنة كالإعراب عن الإستياء والأسف من دخول تركيا تلك الحرب، واعتبار ذلك ليس ملزما لها، ولا يغيّر شيئا من ولائها لفرنسا، مع تعديد مزاياها على البلاد والعباد والدّعاء لها بالنّصر.

---

269) صدر ذلك الدّعاء عن كلّ الأطراف المذكورة في الجدول السابق

270) بلحسن، المصدر السّابق، ص 2، وكذلك , C.N.U.D.S.T , Tunisie, Guerre 1914 - 1918 f 173 et 174

271) نفس المصدر، ص 2، ابن الشّيخ، المصدر السّابق، ص 2، وكذلك C.N.U.D.S.T., Tunisie, Guerre 1914 - 1918 , f. 173 et 174.

272) ابن الشيخ ، المصدر السّابق، ص 2

273) بلحسن، المصدر السّابق، ص 2

274) ابن شعبان، محمد البشير الشّريف وأحمد الشّريف، المصدر السّابق، ص 2، اللّوز، المصدر السّابق، ص 2، السّهيلي، المصدر السّابق، ص 2، ابن عبدالملك، المصدر السّابق، ص 2، وكذلك A.G.T., E 550 30/15 - 894.

275) القيزوني، المصدر السّابق، ص 2

كما يمكن أن يكون ذلك التّشابه ــ في محتويات تلك المواقف ــ راجعا إلى تأثّر أصحابها ــ عند صياغتهم لها ــ بخطاب الحضرة العلميّة (276).

* أنّ بعض الطرق ــ في مواقفها ــ فسّرت دخول تركيا تلك الحرب بدسائس ألمانيا، وإغرائها، مشهّرة ــ كذلك ــ بـ «رجال الدّولة العثمانية...»(277).

فهل يمكن إعتبار ذلك تبرئة منها ــ غير مباشرة ــ لساحة تركيا، ممّا قد يبرهن على وجود تعاطف تجاهها، مسايرة من بعض مشائخ الطرق لمشاعر أتباعهم؟

كما نجد نفس تلك المعاني في الخطاب الملوكي الذي جاء فيه «أنّ مقاطعة فرنسا للدّولة العثمانية، ليس المقصود منها معاداة الأمّة التّركية بأجمعها...، بل هو عداء لكلّ أولائك الأفراد الذين إستعبدتهم ألمانيا بدسائسها وأموالها...، فزاغوا عن جادّة الصّواب، وسلكوا بدولتهم مسلك التّهلكة بطريق الخيانة، وسفك الدّماء...» (278).

على أنّإدانة الماسكين بزمام السّلطة السّياسية بتركيا ــ آنذاك ــ نلمسها بأكثر وضوح في مواقف الطّرق الصّوفيّة بالجزائر، التي اعتبر بعضها أنّ تركيا في «يد غلمان تربّوا في ألمانيا، وليس لهم من الإسلام إلاّ إسمه...»(279)، وأنّ «العُهدة على أنور باشا(280)، ومن شاركه [في ذلك] الأمر

276) «خطاب ملوكي لعامّة الرّعايا التّونسيين»، الزهرة، السّنة 27، عدد 2033، ليوم 1914/11/11، ص 1 وكذلك، «خطاب ملوكي موحه من الحصرة العلية الى كافة الرعايا التونسيين». R.M.M, p 270

277) بلحسن، المصدر السّابق، ص 2، اللّوز، المصدر السّابق، ص 2، ابن عبدالملك، المصدر السّابق، ص 2

278) «خطاب ملوكي لعامة الرّعايا التّونسيين»، المصدر السّابق، ص 2

279) محمد، الصّغيّر، «نداء السّيد محمد الصغيّر بن الشّيخ المختار ــ شيخ الطريقة الرّحمانية في زاوية أولاد جلال» .R.M.M, p. 204

280) أنور باشا، ولد باسطنبول سنة 1881، تخرّج من الأكاديمية العسكرية باسطنبول سنة 1902، إنخرط في «جمعية الاتّحاد والتّرقّي» التي كانت وراء ثورة 1908/7/24 عيّن سنة 1909 ملحقا عسكريا ببرلين لاتقانه للّغة الألمانية، وهناك أعجب بالقوّة العسكرية لألمانيا وفاعلية =

الفضيع . . .»(281)!.

بل وصل الأمر ببعض الطرق الصّوفية بالجزائر إلى التبرّئ من الأتراك أصلا، اعتبارًا لما قاموا به في الجزائر (282)، وهو ما لا نلمسه في مواقف الطرق الصّوفية في البلاد التّونسية، التي تشابهت مواقفها ـ كذلك إلى حدّ كبير ـ مع مواقف بعض الطرق الصّوفية في إفريقيا الغربية (283).

* إنّ المتأمّل في الأطراف التي صدرت عنها تلك المواقف، يلاحظ أنّها لم تشمل كل الطرق، بل اقتصرت ـ بصفة أخصّ ـ على الطرق الهامّة بالبلاد، ممّا يوحي بتقدير السّلط الإستعمارية لوزنها الشّعبي، وما لمواقفها المنشورة من تأثير على أتباعها العديدين حسب ما اتّضح لها ـ على الأقلّ ـ من تلك الدّراسات والإحصائيات، فركّزت عليها أكثر مَن غيرها لأهميتها.

تلك هي ـ في حدود اطّلاعنا ـ أهمّ محتويات مواقف بعض الطرق الصّوفية من دخول تركيا الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا، وهي مواقف ـ وإن عمل بعض مشائخها على إظهارها بمظهر المعبّرة عن مواقف أتباعهم باستعمالهم أحيانا لعبارة «بالأصالة عن نفسي وعن أتباعي» (284) ـ فإنّها تبدو مُعبّرة بدرجة أولى على مواقف بعض المشائخ.

= جيشها، تطوع سنة 1911 للقتال في ليبيا، وباندلاع الحرب العالمية الأولى عرف بدفاعه المستميت من أجل تحالف ألمانيا والامبراطوريات الوسطى مما أدّى الى دخول تركيا الحرب ضدّ الحلفاء. أطردهالكماليو نسنة1922 . توفّي ببرلين، أنظر: ,RUSTOW (D.A.), "ENWER PASHA" **L'Encyclopédie de l'Islam, t. 2, 1965, pp. 716 - 720.**

281) محمود، ابن سيدي محمد البشير، «وصية السيد محمود بن سيدي محمد البشير ابن القطب الأكبر سيدي احمد التّيجاني لأحباب الطّريقة التّيجانية أينما كانوا» .R.M.M., p. 202 - 204

282) شيخ الطريقة التّيجانية، «نداء شيخ الطّريقة التّيجانية لأحباب طريقته في العالم الاسلامي» R.M.M., p. 190 وكذلك ميسوم عبدالرحمان، «وصية السيد ميسوم عبدالرّحمان ابن الشيخ الميْسوم ـ شيخ الطريقة الشاذليّة في زاوية قصر البخاري ـ» R.M.M. p. 246 - 248، محمد الهاشمي بن ابراهيم، «نداء السيد محمد الهاشمي بن ابارهيم ـ شيخ الطريقة القادرية في زاويتيْ توغرت وعميش ـ الى كافّة اخوان طريقته»، .R.M.M., p. 240 - 242

283) حول مواقف الطرق الصّوفية في إفريقيا الغربية، أنظر: ,R.M.M., vol. XXXII, 1915 - 1916 pp. 15, 16, 64, 17, 118

284) محمد العربي الشّريف وبلقاسم الشّريف، المصدر السّابق، ص 2، وكذلك السّهيلي، المصدر السّابق، ص 2، و .A.G.T. , E 550 30/15 - 894

لكن هل اقتصرت مواقف الطرق الصّوفية في البلاد التونسية ــ من دخول تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا ــ على ما نشر لها على صفحات الجرائد والمجلاّت، أم تمظهرت كذلك في جوانب أخرى لا تخلو ــ بدورها ــ من أهميّة؟

تشير بعض الدّلائل إلى أن بعض مشائخ الطرق في مواقفهم تلك تجاوزوا المستوى الاعلامي الى المستوى العملي بإنجازهم لعدّة خدمات لصالح الإستعمار الفرنسي في تلك الظروف الحرجة.

من ذلك أنّ الشّيخ الأزهاري بن مصطفى بن عزّوز ــ شيخ الرّحمانية بنفطة ــ كُلّف «بتمهيد الأمن بين بعض عروش متحاربة، وبمدّ الدولة بما تحتاجه من الخيل، وحثّ الأهالي على الانخراط في الجندية...» (285).

كما وصلته تعليمات من شيخ الطريقة بزاوية الرّحمانية بطولقة ــ بالجزائر ــ يأمره فيها بالتوجّه بها إلى الاخوان «أعراش (كذا) طرود والنّمامشة لينشر العافية بينهم، ويبصّرهم لمحبّة الدولة الفرنسية...» (286).

أمّا شيخ العيساوية بطبربة فقد «نصح [الأتباع] ــ أثناء الحرب في اجتماعاته داخل الزاوية وخارجها ــ بالخضوع، والطّاعة لفرنسا، الأمر الذي نتج عنه الهدوء والاستقرار بالجهـــــــة...» (287)! على حدّ قوله.

أمّا الدّور البارز ــ على ما يبدو ــ فقد قام به المنّوبي ــ شيخ الزّاوية التّيجانية ببوعرادة ــ الذي كتب رسالة مسجوعة كلّها دعاء بالنّصر والتّمكين لفرنسا، وممّا جاء فيها قوله: «[نسأل] الله العزيز الديّان الحفظ والأمان لعساكرنا في كلّ مكان...، ولدولة الألمان يعوقهم الزمان في العساكر والحال والأبدان...، والذلّ في كل مكان...» (288).

285) خزينة الوثائق التونسية، رسالة من الازهاري بن مصطفى بن عزّوز الى الوزير الأكبر، بتاريخ 1925/4/28، س د، صد 112، مل. 9، أنظر الملحق رقم 7.

286) نفس المصدر، رسالة من عمر بن علي بن عثمان الى بلان الكاتب العام لتونس، تاريخ 1915/2/3، س. د، صد. 178، مل. 4

287) A.G.T , El Hadj Amor ben Cheikh Ahmed au Délégué au Ministère d'Etat du Gouvernement Tunisien, le 13/11/1929, D 126 - 7.

288) خزينة الوثائق التّونسية، رسالة الشّيخ المنّوبي التّيجاني الى المقيم العام (غير مؤرّخة)، س د، صد، 156، مل. 21، أنظر الملحق رقم 8.

إلى هذا يضاف ما قام به من تهدئة للأوضاع بمنطقته، بحيث أنّه بتدخّلاته، ووساطاته واستعماله لنفوذه، المادّي والرّوحي «أمكن إعادة الفارّين من الجُندية إلى فيالقهم ببنزرت وغيرها. . .» (289).

كما جاء ـــ في رسالة أخرى له ـــ قوله: «. . . إنّ ابني الوحيد الشّريف محمد التّيجـــاني (290) كان قد تطوّع ـــ بأمر منّي وبموافقتي ـــ لقتال الأعداء [الألمان]، إذ أن أعداء فرنسا هم أعداؤنا، [فهو بذلك] الوحيد من كل المشائخ، الوحيد من كلّ أتباع كل الطرق الصّوفية بإفيريقيا، الوحيد من الأشراف المنحدرين من الرسول صلّى الله عليه وسلم، الذي عبّر بطريقة ممتازة عن الولاء والتعلّق الدّائم بفرنسا، وذهب يمنح دمه وحياته للدفاع ضدّ العدوّ المشترك. . .» (291).

كما قام الشيخ المذكور بتحريض «الضبّاط الـقْرايدية (أي ذوي الرّتب)، والجنود العسكريّة، والمراقبات المدنية، وجميع الأهالي من عرب وبدوية، أن يمدّوا يد المساعدة بالدّفاع في محاربة دولة الألمان الظالمين الخْرَايْـمِـيّة (كذا)، أصحاب المكر والخدع والشّر والبدع. . .، [كما حرّض] الإخوان على الدفاع على دولة فرنسا الفَخيمة والأمّة الكريمة. . .» (292).

وفي رسالة من محمد الشريف بن المنّوبي التّيجاني ـــ ابن شيخ زاوية التّيجانية ببوعرادة المذكور ـــ إلى وزير الدعاية الفرنسية بباريس ورد قوله: «. . .لما اندلعت الحرب سنة 1914 كان أبي له من العمر سبعين سنة، وكنت ابنه الوحيد، ورغم أنّي معفى من الخدمة العسكرية. . .، ولي صحّة سريعة العطب. . .، فإنّ أبي أمرني بالإلتحاق بالجبهة. . .، كما نصح بالهدوء والخضوع لفرنسا في كل مكان، وشجّع الإنخراط في الخدمة العسكرية، كما أمر ـــ أحيانا ـــ العائلات بأن يرجعوا بأنفسهم أبناءهم الفارّين إلى فيالقهم، لقد كان لي من العمر إثنين

---

289) A.G.T., Le Cheikh El Manoubi Tidjani à Briand, le 7/11/1926, D 156 - 21.

290) محمد الشّريف بن الشيخ المنّوبي التّيجاني، اشتهر بحبّه للمغامرة قصد توفير المال، فأسّس جريدتيْ «المنصف» سنة 1907 و«التسامح» سنة 1909، كما سافر عدّة مرّات الى المغرب وباريس حيث كان مولعًا بالتشبّه بالأوروبيين. خلف والده على مشيخة الزّاوية التّيجانية ببوعرادة أنظر: A.G.T., Note du R G de la France au Maroc au sujet du Chérif Tidjani, le 7/11/1924, D 156 - 21.

291) **Ibid**, du même au même, le 7/11/1929, D 156 - 21.

292) خزينة الوثائق التونسية، رسالة محمد المنّوبي التّيجاني الى الكاتب العام بالدّولة التّونسية، بتاريخ 1915/11/17، س. د، صد. 156، مل. 21

وعشرين سنة لما تطوّعت في الحرب كجندي بسيط التحق بالجبهة في شمال فرنسا. . . ، إلاّ أنّه تمّ إجلائي. . . ، على إثر نزلة رئوية ألّمت بي على إثر البرد والأمطار هناك. . . ، وهي نزلة أصابت منّي الرّئة اليسرى ولازلت أعاني من مضاعفاتها، وبعد إحدى عشرة شهر قضيتها بالمستشفى وقع تسريحي من طرف لجنة الإعفاء من الخدمة العسكرية. . . ، وخلال فترة النّقاهة طلب مني الجنرال سرفيار (Sérvière) زيارة دُور النّقاهة والمستشفيات التي يوجد بها المسلمون. . . ، وذلك للرّفع من معنوياتهم، وتشجيعهم على العودة إلى الجبهة.

لقد تكلّمت في كلّ مكان لصالح فرنسا، حتّى أنّ بعض خطاباتي نشرت من طرف ارنست دوداي (Ernest Daudet) ضمن كُتيّب صغير تحت عنوان «العرب والحرب، 1914-1915» (293). . . ، لكن رغم كلّ ذلك لم أطلب شيئا مقابل خدماتي. . . » (294).

وفي خطاب أمام «الرُّماة «Les Tirailleurs» ورد قوله: «إنّ علينا أكثر من واجب، بل انّ لنا دَيْنًا تجاه فرنسا علينا أن نسدّده بكلّ شرف، فالقرآن يأمر المسلمين بأن يحموا حاميهم، ولذلك فإنكم مدعُوُون للتّضحية بحياتكم للدّفاع عن فرنسا. . . ، فالذين يحصل لهم شرف الموت في هذه الحرب يتقبّلهم الله برحمته تمامًا كالذين يموتون أثناء الحجّ. . . ، فالفرنسيون إخواننا ولا مجال لأن ندعهم لوحدهم. . . »! (295).

فواضح من خلال هذه الرسالة مدى التّوظيف الذي عمدت إليه فرنسا لأحد أبناء مشائخ الزّوايا، كما يتّضح كذلك مدى خدمات هذا الأخير للإستعمار الفرنسي أثناء الحرب العالمية الأولى، وخاصّة اتّصاله بالمرضى المسلمين «للرّفع من معنوياتهم وتشجيعهم على العودة إلى الجبهة» على حدّ قوله، وهو عمل يمكن أن يفهم على أنّه ردّ فعل على ما قام به بعض الذين غادروا الإيّالة واتّصلوا بالأسرى المسلمين لدى الألمان لحملهم على التطوّع في الحرب ضدّ فرنسا وحلفائها، علما وأنّ محمد الشريف التّيجاني ــ المذكور ــ كان قد شغل رئاسة «اتحاد شمال

---

(293) DAUDET (E.), Les Arabes et la Guerre, Paris, Imp. Artistique "Lux", 1915.

(294) C.N.U.D.S.T., Le Chérif Tidjani au Ministre de la guerre à Paris, le 14/12/1930, Tunisie 1917 -- 1940, dossier n° 2, 12/1930 - 7/1938,..., f. 2, 3

(295) DAUDET, op.cit., p. 30.

إفـريقيـا لقدمـاء المحاربين المـتطوّعين في الحرب الكبـرى» (296) "L'Union Nord Afrıcaine des Anciens Combattants engagés volontaires de la grande guerre".

غيـر أنّ المشاركة الفـعلية في الحـرب إلى جانب فرنسـا لـم تقتـصر على زوايا الطرق السّالفة الذكـر، بل شملت الطريقة الرّحمـانية التي أشار شيخهـا بالقيروان وجلاص بكل فخر واعـتزاز الى وجود «أبنائه الرّوحيين» (297) في ميادين القتال إلى جانب «العساكر الفرنسوية الباسلة...» (298) على حدّ قوله.

واعـتمـادًا على مـا ذكر، يمكننـا أن نقول أنّ نسـبـة كبـيرة مـن الثمـانين ألف عسكري تونسي الـذين جُنّدوا في تلك الحرب (299)، قد يكونون جُنّدوا بتـأثير بعض مشـائخ الطرق الصوفيّة، علمـا وأنّ أعلامها وسناجـقها قد صـاحبت الجنود التّونسـيين إلى جبـهات القـتال تيمُّـنًا وتبرُّكًا بها، ولاسـتعـمالها من قـبل السّلط الإستعمـارية في إثارة حماس الجنود، وتحريضهم على الإستبـسال في القتال تحت رايات زواياهم.

حـتّى أنّه تمّ «أثناء الطواف بهـا...، [تجـميـع] ثلاثمـائة وأربعـة وسـتين فـرنـكا وزّعت - حـسـب رغـبـات أصـحـابـهـا -(300) علـى الزّوايا الـهـامّة بالايالة..»(301).

من ذلـك أنّه تمّ توزيع مـائة خُبزة في زاويـة سيـدي عبـدالقـادر الجيـلاني ـ بالدّيوان ـ ثمنهـا عشرون فـرنكا دفعهـا جناب شيخ المدينة من المال الذي وجّهـته العساكر بفرنسا...، جعلها اللّه صدقة بالغة...»! (302).

---

296) C.N.U.D.S.T, Le Chérif Tıdjanı à M. Frossard - Ministre de la propagande à Parıs, le 3/4/1938, Tunisie 1917 - 1940, dossier n°= 2, 12/1930 - 7/1938.., f. 111.

297) ابن عزّوز، «رسائل الاخلاص»، المصدر السّابق، ص 2

298) نفس المصدر والصفحة.

299) KASSAB, op.cit. p. 378.

300) A.G.T, Le Secrétaire Général au Chef de Service Central des Affaires Indigènes en Tunisie, le 14/1/1919, D 97 - 6.

301) Ibid., Le R.G au C.C. de Sousse, Le 29/9/1918

302) Ibid.

تلك هي أهمّ المواقف والتحركات التي صدرت عن بعض الطرق الصوفية أثناء إندلاع الحرب العالمية الأولى ودخول تركيا فيها إلى جانب ألمانيا، وهي ــ وإن كانت متنزّلة في إطار وظروف معيّنة تأثّرت بها ــ فإنّها في الواقع تكشف عن التوجّه الرّسمي الذي دأبت عليه بعض الطرق ــ ليس إزاء ظروف استثنائية كالحرب المشار إليها ــ وإنما تجاه السّياسة العامّة لحكومة الإحتلال في البلاد التّونسية.

II ــ الطرق الصّوفية والسّياسة الإستعمارية:

رغم وجودها السّابق لدخول الإستعمار الفرنسي للبلاد التّونسية، ورغم تجذّرها في واقع الإيالة مع ما تملكه من إمكانيات مادّية وبشريّة هامّة فإنّ الطرق الصّوفية لم تكن لمعظمها مواقف واضحة إزاء العديد من الأحداث التي جدّت بها، وإزاء مختلف مجالات السياسة الإستعمارية بالبلاد.

1) مواقف الطّرق الصّوفية من السياسة الاستعمارية بالايّالة:

أ ـ مواقفها من السياسة الاستعمارية في المجالَيْن الاقتصادي والإجتماعي:

رغم أنّ السياسة الإستعمارية في هذا المجال قد استهدفت ــ منذ السّنوات الأولى للإستعمار ــ المصالح الطرقية بضربها للأحباس العامّة والخاصّة ومنع الزّيارات، فإنّنا لا نلمس مواقف واضحة للطّرق من كلّ ذلك باستثناء مطالبة العديد من مشائخها بالتّراجع في قرار منع الزيارات باعتباره يمسّ موردا هاما من الموارد المكوّنة لثرواتهم.

هذا إلى جانب ردود فعلهم عندما حاولت السّلط الإستعمارية ضرب الأحباس الخاصّة سنة 1920، ممّا يوضّح أنّ مواقف الرّفض أو الإحتجاج لدى الطرق لا تصدر في الغالب إلاّ عند تعرّض مصالحها الحيوية للخطر.

وفي ما سوى ذلك، فإنّ مشائخها غالبًا ما يتبنّون مواقف رسمية لا تعكس الواقع الإقتصادي والإجتماعي الذي عليه الايالة، وذلك تقرّبا من السّلط الإستعمارية أو على الأقل مجاراة لها.

وهذا نلمسه في مـواقف العديد منهم من دخول تركيا الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا، حيث أشاد بعضهم بإنجازات فرنسا في البلاد:

كـالقـول بأنهـا نشرت «ثوب الـرّفاهيـة والتـمـدّن والرّقي، وبثّت النّفع العـام والمصالح التي لم تُعـهد في غابر الأزمان، من تـهذيب العباد، وتذليل الصـعوبات وأمن الطرقات. . .»(303)، الأمر الذي جعل النّاس - على حدّ قول أحدهم - «منذ ثلث قـرن. . . في أرغـد عيش تحت رعـاية صـاحبـة العـدالة [فرنسـا] راتعين في بحبوحة تلك المزايا التي لا تحصى. .»!! (304).

هذا بالنّسبة لمواقـفـها في الثّلاثين سـنة الأولى التي تلت دخـول الإستـعـمـار الفـرنسي للإيالة، أمّا عن مواقف بعـضهـا من تلك السّياسـة في الثّلث الأوّل من القرن العشرين فتبدو أكثر وضوحا.

فمـاذا كانت مميّزات الوضع الإقـتصادي والإجـتماعي بـالبلاد على إثر الأزمة الإقـتصـادية لسنة 1929، وفي أيّ شـيء تمثّلت الحلـول التي توخّتـــهـا الـسّلط الإستعمارية لمواجهة الأزمة، وماذا كانت مواقف الطرق الصّوفية من كلّ ذلك؟

* مميّزات الوضع الإقتصادي والإجتماعي للإيّالة سنة 1930:

تجلّت إنعكاسـات الأزمة الإقـتصـادية العالميـة لسنة 1929 في تونس بصـفة متأخّرة، حيث تمثّلت في تضـخّم مالي مصحوب بسلسلة من المحاصـيل الفلاحية الرّديئـة «شملت الـزّيت والحبـوب منذ 1929، وفي عـامي 1930 ــ 1931 أهلـك الطوفان آلاف الهكتارات كـما أفضت الأزمة الإقتصادية ــ مـن جهة أخرى ــ إلى تدهور أسعار الحبوب. . .» (305).

لقد وصل انحـدار أسعار المنتـوجات الفلاحـية أوجه، حـتى أن «ثمن القمح الصّلب وصل في ــ مراقبـة القيروان ـــ. . . إلى 37 و39 فرنك للمائة كيلو. . .

---

303) السّهيلي، المصدر السّابق، ، ص 2

304) الفيزوني، المصدر السّابق، ، ص 2.

305) «الفـلاحـة في خطر ، نداء حـار من الـسّيناتور برانجي»، جريدة الزّهرة، السّنة 45، عـدد 7657، ليوم 1932/12/1، ص 1.

والشّعير 20 و18 فرنك للمائة كيلو. . .» (306).

وهو أمر حال دون تمكّن الفلاّحين من دفع ما عليهم من أشعار وأداءات دولية وكراء أراضي، بالإضافة إلى ما عليهم من ديون.

لقد دفعت تلك الوضعية الفلاّحين إلى الإلتجاء إلى المرابين للحصول على قروض «بفوائض مشطّة وصلت حدّ 300٪ : فالفلاّح الذي يستلف كيسا من القمح يجب أن يرجع ثلاثة. . .» (307).

وهي وضعية أجبرت صغار الفلاّحين خاصّة على بيْع أراضيهم، في حين افتُكّت أراضي وحيوانات ومحاصيل المُعْسرين منهم، وتمّ طردهم من أراضيهم التي أصبح ثمن هكتارها 1000 فرنك بعد أن كان يساوي ــ قبل الأزمة ــ 4000 فرنك (308)، وأصبح العدد اليومي للعقارات المحجوزة ــ سنة 1934 مثلا ــ بمعدّل عشرة في اليوم (309).

لقد نجم عن كلّ ذلك نزوح أعداد مهولة من سكّان الأرياف إلى المدن وخاصة العاصمة التي تكوّنت حولها الأحياء القصديرية، كما تضخّم عدد سكانها آنذاك: فالملاّسين ــ مثلا ــ تضاعف عدد سكّانها، في حين قدّرت نسبة النموّ السّنوي بها ــ في تلك الفترة بـ 166٪ (310).

هذا بالإضافة إلى تزايد عدد العاطلين، وتفشّي المجاعات والأوبئة، حيث عمّت الإيالة حالة من البؤس والعُرْي كانت أكثر حدّة على سكّان المناطق الدّاخلية منها والذين «كانوا يأكلون الحشيش، ويطبخون الخرشف، ولا يجدون حتى قشور القمح المعروفة بالنّخالة المصنوعة خبزا. . .» (311).

---

306) «اشتداد الكرب على الفلاحين من جرّاء تدهور الأسعار»، جريدة الصّواب، السّنة 30، عدد 775، ليوم 1935/8/9، ص 2.

307) M'HALLA (M M.), **La Crise de 1929 en Tunisie,** Mémoire de maîtrise d'histoire (dactylographié), Université Paris VII, 1974 - 75, p. 115.

308) **Ibid**, p. 116.

309) **Ibid**, p 118.

310) **Ibid.**, p. 164.

311) مصطفى ابن شعبان، «المجاعة والبطالة»، جريدة لسان الشعب، تونس، المطبعة التّونسية، السّنة 14، عدد 559، ليوم 1934/3/7، ص 2، أنظر كذلك M'HALLA, **op.cit**, p 152.

إنّ تلك الأوضاع لم تؤدّ إلى العديد من الوفيات خاصّة في الوسط والجنوب (312)، فحسب وإنّما كانت وراء تفاقم عمليات النّهب والسلب لمحلاّت المواد الغذائية كالدكاكين(313)، والمخابز(314)، وإهراءات الحبوب(315) ممّا أدّى إلى ارتفاع عدد الإيقافات من 851 سنة 1928 إلى 3081 سنة 1934 (316).
هذا بالإضافة إلى تعدّد مظاهر الإحتجاج على ما آل إليه الأمر في الإيالة كمظاهرة الفلاّحين التّونسيين التي نظّمتها نقابتهم للإعراب للحكومة على الآلام التي يقاسيها المباشرون للفلاحة، والذين قدّموا نقاطاعديدة تحوصل أهمّ مطالبهم(317).
على أنّ أهمّ ما تجب الإشارة إليه في هذا المجال المظاهرات الشّعبية التي جاءت كردّ فعل على ما تعانيه أوسع الفئات الإجتماعية، كمظاهرة توزر(318)، ومظاهرة سوسة (319)، وخاصة الأحداث التي عرفتها الملاّسين في مطلع سنة 1937(320).
بهذه الحوادث المختلفة بلغت الأزمة أوجها ممّا حتّم على حكومة الإحتلال الإسراع باتّخاذ عدّة إجراءات لمجابهة الأزمة ومحاولة السّيطرة عليها للحيلولة دون تفاقمها.
ففي أي شيء تمثّلت تلك الإجراءات، وماذا كان موقف الطّرق الصّوفية منها؟

---

312) M'HALLA. op.cit. p. 152

313) Ibid., p.152.

314) Ibid.

315) Ibid.

316) Ibid., p.153.

317) «مظاهرة الفلاّحين التّونسيين»، جريدة الزّهرة، السّنة46، عدد7842، ليوم1933/7/12، ص2.

318) «مظاهرة بتوزر ضدّ الأزمة الحاضرة»، نفس المصدر، السّنة 49، عدد8839، ليوم1936/8/25، ص 4.

319) « مظاهرة البطّالين في سوسة، وقوع بعض الحوادث»، نفس المصدر، ص 3.

320) حول أحداث الملاّسين، أنظر: «في أوساط الجائعين، حوادث مؤلمة بقرب الملاّسين بين الجائعين وأعوان الأمن»، نفس المصدر ، السّنة 49، عدد 9000، ليوم 1937/2/4، ص 3 وكذلك العدد 9001، ليوم 1937/2/5، ص 1 و2، وكذلك:
L'Inspecteur des Services Administratifs au R.G., le 15/2/1937, Revue WATHA'IQ, Tunis, Les Imprimeries Réunies, n°° 4, 1985, pp. 25 - 69

* الإجراءات المتعلّقة بالجانب الإقتصادي والإجتماعي:

بادرت حكومة الإحتلال إلى تأسيس «الصندوق العقاري لتوحيد الدّيون»، الغاية منه مدّ الفلاحين بقروض للحيلولة دون بيع أملاكهم، (321)، وذلك بمساعدتهم على تسديد «ديونهم إلى حدّ مائة وخمسين ألف فرنك، يخلصون فيها في ظرف ثلاثين سنة بفائض قدره خمسة في المائة...» (322).

في حين تمثّلت مهمّة الصّندوق التّونسي للقرض في إعانة الفلاّحين على التصرّف في قروض التّوثيق التي تمنحها لهم لجنة إدارية (323).

هذا بالإضافة إلى صدور عدّة أوامر تتعلّق «بتوقيف قضايا الحجز العقاري المرفوعة ضدّ الفلاّحين وأرباب العقارات الفلاحية، على أن يكون ذلك التّوقيف بصفة وقتية، ومنحهم أجالا ـ، على وجه الفضل ـ، تسمح لهم سواء الإنتفاع بتسهيلات في الخلاص بالتي هي أحسن، أو بالإلتجاء للمؤسّسات المعدّة لتوحيد الدّيون... [لذلك] فإنّ جميع التتبّعات الواقعة على إثر عقلات عقارية لأملاك فلاحية ـ يقع توقيف العمل بها..» (324). كما تمّ إلغاء آداء العشر وتعويضه بأداءات زهيدة على وسق الإنتاج الفلاحي (325).

هذا بالإضافة إلى «الضرب ـ مباشرة ـ على أيدي المتكالبين من المرابين، والحكم عليهم بالتّغريب والنّفي من الأرض، ولعلّ هذه أوّل مرّة ـ في تاريخ الحماية ـ يصدر حكم من هذا القبيل على فئة من العقبان دأبهم امتصاص دماء ضحاياهم...، حيث كانوا يقرضون بفائض يتراوح بين 100 و 200٪...»!!(326) على حدّ قول أحد اليوميات التي كانت تصدر آنذاك.

321) محمد نعمان، «الصندوق العقاري»، الزّهرة، السّنة 46، عدد 7960، ليوم 1933/11/28، ص1.

322) محمد نعمان، «تأسيس الصّندوق العقاري»، نفس المصدر، السّنة 46، عدد 7964، ليوم 1933/12/3، ص 1.

323) «الأزمة الاقتصادية»، نفس المصدر، عدد 7962، ليوم 1933/11/30، ص 1.

324) « بوادر الاصلاح الاقتصادي»، نفس المصدر، السّنة 47، عدد 8202، ليوم 1934/9/17، ص 1.

325) «الغاء اداء العشر»، نفس المصدر، السّنة 48، عدد 8573، ليوم 1935/11/30، ص، 2.

326) «مقاومة آفة الرّبا تكتسي شكلا جديدًا ناجحًا»، نفس المصدر، عدد 8586، ليوم 1935/12/13، ص 1.

هذا على مستوى الدّيون وطرق خلاصها، أمّا عن أهمّ تلك الإجراءات على مستوى الإنتاج والأسعار فقد تمثّلت في تدخّل الحكومة بواسطة الدّواوين التي تمّ بعثها كديوان الخمور، وديوان الزّيت، وديوان الحبوب (327)، حيث «قررت الحكومة إشتراء القمح والشّعير للتّخفيف على سوق الحبوب، والتّسهيل على صغار ومتوسّطي المنتجين استنفاد قسم من حاصلاتهم - على الأقلّ -، وتصفية ما لديهم من المؤخّر، ولذلك فإنّ الجمعيات الإحتياطية التونسية... قامت باشتراء كمّيات من الحبوب... [بحيث] يكون الثمن مساويا - في بعض الأحيان - للدّيون التي اقترضوها من الجمعيات والخزينة وفي نفس الوقت — وبصفة استثنائية ومقابل دفع المتأخّر من حبوب البذر - المنعقد قبل 1930 - 1931، فإنّ هذه السّلفات يقع خفضها بصفة تصبح معها الدّيون الباقية مساوية لقيمة حبوب البذر الحالية التي وقع تسليمها للفلاّحين بالسّعر القديم الذي هو مرتفع بصفة عامّة عن الأسعار الحالية، فيحصل من ذلك نقص من الدّيون التي عليهم للجمعيات يتراوح [بين]... 35 و75 في المائة..، [كما أنّ] الإدارة ستشتري... قسما من الحبوب التّابعة للفلاّحين الذين عقدوا قروضا من الصندوق التّونسي، أو الصندوق العقاري للتّعديل مع صابتهم إذا لم يمكنهم أن يقوموا بأنفسهم ببيع حاصلاتهم أو ادخارها» (328).

لم تحل حكومة الإحتلال دون تدهور أسعار الحبوب بالنّسبة للفلاّحين إلاّ بواسطة شراء كمّيات هامّة منهم، واللّجوء خاصّة إلى ادّخارها وخزنها بإنشاء عدّة إهراءات في باجة (1926)، سوق الخميس (1932)، بوعرادة (1930)، ومقرين (1932)، والتي لها طاقة خزن جملية تقدر بـ 290.000 قنطار (329).

وبالإنتهاء من أشغال إهراء منّوبة - سنة 1935 - أصبحت طاقة الخزن الجملية تقدّر بـ 500.000 قنطار.

كما أنّ الوضعية زادت تدعّما بشراء الدّولة - فيما بين سنتي 1937 - 1938 - لمخزن التّصدير ببنزرت (330)، هذا بالنّسبة إلى الجانب الإقتصادي.

---

327) M'HALLA, op.cit., p 131.

328) «اشتراء الادارة للحبوب»، الزّهرة، السّنة 47، عدد 8178، ليوم 1934/8/20، ص 2.

229) PONCET, op.cit., p 137.

330) Ibid.

أمّا بالنّسبة إلى الجانب الإجتماعي فقد بادرت حكومة الإحتلال باتّباع سياسة «الأشغال الكبرى (la Politique des Grands Travaux) (331) لحلّ أزمة البطالة، حيث «اتّجهت الإدارة إلى فتح أشغال تحت عنوان «الأشغال الخيرية أو أشغال الإسعاف»، ومن المعلوم أنّ الطرقات التّونسية لم تكن [آنذاك] على حالة مرضية. . .، وقد سنحت الفرصة لضرب عصفورين بحجر واحد، فأصبح من الممكن للإدارة أن تستخدم البطالة وتصلح الطرقات في آن واحد. . .» (332).

ومن جهة أخرى عملت الحكومة ـ منذ جوان 1936 ـ على توزيع الغذاء على العاطلين والجائعين: «فكان يتمّ يوميًا ـ بالملاّسين وأحواز العاصمة ـ توزيع كمّية من الخبز تتراوح بين 200 و700 كيلوغرام على حوالي 800 شخص» (333).

كما فتحت «الجمعية الخيرية الإسلامية» محلاّت الإسعاف بالحارات الأهلية، كمحلّ الإسعاف الكائن بالحفصية حيث «ما يزيد [آنذاك] عن الألفة نسمة في انتظار القوت. . .» (334).

كما توجد أربعة «مطابخ إسلامية» بباب سويقة توزّع بها الأرغفة على المعوزين تحت إدارة شيخ المدينة ورعايته (335).

* ردود فعل الطّرق الصّوفية:

تلك هي أهمّ ملامح الوضع الإقتصادي والإجتماعي بالايالة في بداية الثّلث الثّاني من القرن العشرين، وتلك هي أهمّ الإجراءات التي اتخذتها حكومة الإحتلال لمجابهة الوضع، والتي ـ رغم نواقصها ـ خفّفت نسبيا من الأزمة، ولقيت إستحسان بعض الأوساط بما في ذلك بعض مشائخ الطرق الصّوفية.

331) M'HALLA, op.cit., p. 134.

332) «أشغال اسعاف البطّالين»، الزّهرة، السّنة 49، عدد 8803، ليوم 1936/7/21، ص 2، وكذلك «مقاومة البطالة»، نفس المصدر، عدد 8986، ليوم 1937/7/21، ص، 4، أنظر كذلك، M'HALLA, op.cit, p. 135

333) L'Inspecteur des services administratifs au R.G., le 15/2/1937, Revue WATHA'IQ..., p. 31

334) «زيارة جناب العميد لمحلاّت الاسعاف الأهلية»، الزّهرة، السنة 46، عدد 8036، ليوم 19342/28، ص 2

335) «زيارة جناب العميد للمطابخ الشّعبية»، نفس المصدر، عدد 8037، ليوم 1934/2/29، ص 2.

فقد أوضح شيخ زاوية الطريقة التّيجانية ببوعرادة مدى امتنانه بالقوانين التي صدرت سنة 1935، والتي أغاثت ــ على حدّ قوله ــ آلاف المساكين (336).

أمّا المئات من أتباع التّيجانية بزاوية سيدي صالح التّيجاني بجهة نفزة فقد عبّروا عن تأييدهم لكلّ تلك الإجراءات المتّخذة لمقاومة الجوع بتوزيع الإغاثات الضّرورية، وتقديم العون للفلاّحين التّونسيين وتقليص البطالة.

كما عبّروا عن إمتنانهم لبعث ديوان الحبوب الذي سيضمن ــ حسب رأيهم ــ الوضعية الإقتصادية للفلاّحين، ويجنّبهم ــ بالتّالي ــ المضاربة (337).

على أنّ ذلك الإستحسان ــ لتلك الإجراءات ــ لا يجب أن يفهم على أنه صادر فقط عن انشغال أصحابه (الإستحسان) بالوضعية المتردية للفلاحين عامّة والمعوزين خاصّة، بل لأنهم بدورهم سيستفيدون من تلك الإجراءات، علما وأنّ بعض المشائخ كانوا ــ في فلاحتهم ــ شركاء لبعض المعمّرين كأحمد قدّور ــ شيخ زاوية القادرية بالكاف ــ والمنّوبي التّيجانية ببوعرادة ــ. بل انّ هذا الأخير ــ في الوقت الذي استهدفت فيه السياسة الإقتصادية والإجتماعية لسلط الإحتلال أراضي العروش والأوقاف للتّمكين للمعمّرين ــ لم يكّن للمعمّرين الأوائل فحسب، بل أخذ «عقود الملكية من الأهالي الذين رفضوا إعطاءها للمراقب المدني قصد تحديد أراضي الدولة...» (338).

تلك هي الإشارات التي تتعلّق ــ في حدود إطلاعنا ــ بمواقف الطرق الصّوفية من السياسة الاقتصادية والإجتماعية لحكومة الإحتلال.

ورغم محدودية تلك المواقف، فإنّها قد أوضحت إلى حدّ ما موقف بعض مشائخ الطرق الصوفية من الوضعية الإقتصادية والإجتماعية للايالة آنذاك.

لكن تلك المواقف توضّح أنّ بعض تلك الطرق اكتفت بالاعلان عن مواقفها من ذلك الوضع دون أن تكون طرفا فاعلا في تغييره:

ذلك أنّ تلك الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية - السّالفة الذكر - حتّمت بعث العديد من المؤسّسات الخيرية للمساهمة في الإغاثة: فبالإضافة إلى محلاّت

336) A.G.T., Le Chérif Tidjani au R G., le 21/10/1935, D 156 - 21.

337) Ibid, du même au même, le 24/9/1937, D 156 - 21.

338) C.NU.D.S.T, Le Chérif Tidjani au Ministre de la guerre à Paris, le 14/12/1930, Tunisie 1917 - 1940, dossier n°= 2.., f. 2.

الإسعاف التي أسّستها الجمعية الخيرية الإسلامية، تكوّنت «جمعية الإغاثة التّونسية» بواسطة «طائفة من أهل البرّ والإحسان للنّظر في إغاثة الفقراء والمعوزين الذين قضت عليهم البطالة، وأصبحوا بسببها عاجزين عن العيش...»(339).

كما تكوّنت بصفاقس «جمعية البرّ العربية» (340)، وأسّس الحزب الحرّ الدستوري التّونسي «لجنة إغاثة البائسين» (341)، التي تمكّنت ــ آنذاك ــ وفي «بحر مدّة وجيزة من إرسال بعثتين إلى عين الكدية [قرب حفوز حاليا]، وعين جلولة [قرب الوسلاتية من ولاية القيروان] وزّعت فيهما عدداً كبيراً من الملابس والأغطية على النّساء والولدان والفتيات وحتّى الشّيوخ» (342).

هذا بالإضافة إلى ما قامت به من مساعدة أبناء العاصمة خاصّة أيّام عيد النّحر، حيث وزّعت الملابس والدّراهم واللّحوم على البائسين والمعوزين (343).

كل هذه النّماذج توضّح مدى التكافل الذي ساد البلاد التّونسية على إثر انعكاسات الأزمة الإقتصادية العالمية لسنة 1929، وهو تكافل ــ رغم ضرورته وحتميته تبعا لما آل إليه حال الأهالي ــ ومشاركة عدّة أطراف فيه، لا نلمس ــ في حدود إطّلاعنا ــ أثرا لوجود الطرق فيه رغم أنّها أولى من غيرها ــ بزواياها ومواردها ــ للقيام بذلك الدّور الإجتماعي والإنساني.

إنّ المتأمّل في المجتمع التّونسي ــ إبّان الأزمة السّالفة الذكر ــ يلاحظ مدى التّضامن الذي ساد مختلف فئاته: فلقد تبرّعت «جمعية التّمثيل العربي» بتمثيل رواية «العبّاسية»، لفائدة صندوق «جمعية الإغاثة التّونسية» (344).

هذا بالإضافة إلى الإعلانات المحرّضة على المساهمة في التبرّعات وكذلك

(339) «جمعية الإغاثة التونسية»، الزّهرة، السّنة 46، عدد 8031، ليوم 1934/2/22 ص 2.

(340) «جمعية البرّ العربي بصفاقس»، نفس المصدر، السنة 47، عدد 8130 ليوم 1934/6/21 ص3.

(341) «لجنة إعانة البائسين»، جريدة الصّواب، السنة 31، عدد 807 ليوم 1937/1/22، ص 3.

(342) «لجنة إعانة الجائعين والعُراة» نفس المصدر، عدد 808، ليوم 1937/2/12 ص 3.

(343) «لجنة إغاثة الجياع والعراة»، نفس المصدر، عدد 810، ليوم 1937/3/26، ص 3.

(344) «جمعية الإغاثة التّونسية»، جريدة الزّهرة، السّنة 46 عدد 8040، ليوم 1934/3/5، ص 2، وكذلك «رواية العبّاسية لفائدة جمعية الإعانة التّونسية»، نفس المصدر، عدد 8039، ليوم 1934/3/4، ص 3.

القصائد الشّعرية (345)، والحفلات الخيرية النّسائية (346).

إنّ تلك الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية تعتبر مجالا خصبا كان على الطرق الصوفيّة أن تستغلّه في تدعيم قاعدتها الشّعبية، والظّهور بمظهر المحبّ للبؤساء والمعْوزين، الحريص على إغاثتهم وإعانتهم.

غير أنّها لم تفعل، في حين أنّ الكنيسة قد وجدت ـ في نفس تلك الأوضاع ـ مجالا حيويا لتوسيع نشاطها التّبشيري، الأمر الذي جعل «بعض فقراء المسلمين يستفيدون ــ حقيقة ــ من مشروعات الإغاثة والإسعاف التي يقوم بها رجال الدّين المسيحي. . . [علما وأنّ تلك] الإغاثة والإسعاف المسيحي ــ التي لا يقصد بها ظاهرا إلا خدمة الإنسانية، وتخفيف الآلام عن أبناء البشر. . . إنّما تخفي في الواقع. . . مقاصد تبشيرية، وتنطوي تحتها آمال جمّة تحوم حول جلب القلوب بالإحسان. . .»! (347) على حدّ قول جريدة الزّهرة.

فكيف يمكننا تفسير غياب الطرق الصّوفية عن المساندة في ذلك العمل الإنساني؟

لا شكّ أنّ ذلك يعود بالدّرجة الأولى إلى سياسة التّفقير التي سلكتها حكومة الإحتلال لضرب الركيزة المادّية للطرق، وخاصة إنعكاسات الأزمة الإقتصادية العالمية ليس على أتباع الطرق فحسب، بل وعلى الممتلكات العقارية للطرق ومشائخها، والتي لا شكّ قد تضرر إنتاجها بالإضافة إلى تدهور أسعاره.

وهو ما يؤدّي حتمًا إلى نقص فادح في مداخيل الطرق التي ستبقى مساحات شاسعة من أراضيها بدون استغلال بعد تفاقم حركة النزوح الى المدن على إثر الأزمة، وما نتج عن ذلك من نقص واضح في اليد العاملة الفلاحية بالأرياف.

وممّا يدلّ على أنّ الوضعية الإقتصادية للطرق الصّوفية ومشائخها كانت ــ على إثر الأزمة الإقتصادية ــ متردّية أنّ هؤلاء كانوا ــ في الوقت الذي تعدّدت

---

345) «نداء شاعر القيروان إلى الإكتتاب لإعانة البائسين»، نفس المصدر، عدد 8042، ليوم 1934/3/7، ص 3، وكذلك «قصيدة الشّاعر جلال الدّين النقّاش»، نفس المصدر، عدد 8048، ليوم 1934/3/14، ص 3

346) «حفلة خيرية نسائية لإغاثة الجائعين»، نفس المصدر، عدد 8055، ليوم 1934/3/22، ص 2

347) «تنويه الصحافة الأجنبية بتسامح الاسلام»، نفس المصدر، السّنة 42، عدد 6871، ليوم 1930/5/5، ص 1.

فيه المؤسّسات الخيرية، وعمّت البلاد حملات جمع التبرّعات ـ كانوا يناشدون سلط الإحتلال لتسمح لهم بالتنقّل والإتّصال بالأتباع الذين ـ سيزيدهم ذلك ـ إرهاقا على إرهاق.

وتجنّبا لذلك كان إعتراض السّلط الإستعمارية على زيارة المكّي بن الحوسين ـ شيخ الرّحمانية بتونس ـ إلى الجنوب التّونسي في صائفة 1930 (348)، 1932 (349)، و1933 (350) ممّا قد يوضّح أنّ بعض أولائك المشائخ كانوا يبحثون ـ في كثير من الأحيان، وحتّى في الظروف العصيبة لمواطنيهم ـ على مصلحتهم، ممّا قد يكون وراء تقلّص نفوذهم وبالتّالي شعبيتهم.

ب ـ مواقف الطرق من السّياسة الإستعمارية سياسيا:

رغم تعدّد أوجه ومجالات السّياسة الإستعمارية لحكومة الإحتلال في الايّالة، واختلافها أحيانا باختلاف المقيمين العامّين، فإنّ جلّ الطرق الصّوفية ـ في حدود إطلاعنا ـ ليست لها مواقف من تلك السياسة باستثناء إصلاحات 1922 وسياسة بعض المقيمين العامّين بالايالة.

وبقطع النّظر عن الدّوافع الخارجية والدّاخلية التي حملت السّلط الإستعمارية على القيام بتلك الإصلاحات (351)، وكذلك عن محتواها (352)، فإنّ الحزب الحر الدّستوري التّونسي قد «أجمعت صحافته...، على أن... [تلك] الإصلاحات تمثّل مسّا إضافيا من استقلال البلاد، وخطوة على طريق إلحاقها

(348 A.G.T., Le Commandant militaire des Territoires du sud au R G le 26/6/1930, D 172 - 3

(349 Ibid, Le Capitaine Fourches - Chef de Bureau des Affaires Indigènes au R.G., le 7/6/1932, D 172 - 3.

(350 Ibid, du même au même, le 30/6/1933

(351 حول تلك الدّوافع الخارجية والدّاخلية، أنظر
MAHJOUBI, "Les réformes de 1922 et le Mouvement National Tunisien" **Revue Tunisienne des Sciences Sociales**, Tunis, Imp de L'U G T T, 13è Année, n°= 45 (1976), pp. 99 - 139.

(352 حول محتوى تلك الإصلاحات أنظر جريدة الزّهرة، السنة 34، عدد 4508، ومن العدد 4511 الى العدد 4519، وعدد 4521 و 4523، وكذلك جلاب، المرجع السابق، ص 30 ـ 34.

بفرنسا. . . ، لأنّها تمثّل إنتصارا لأديولوجية التفوّق، وتكريس هيمنة الفرنسيين. . .» (353).

ولذلك عملت الأوساط الدستورية على القيام «بواجب رفضها والردّ عليها، وحثّ الأمّة على عدم الإمتثال لها، وعدم المشاركة في انتخاباتها المزيّفة. . .»(354).

كما توالت البرقيات المستنكرة لها من مختلف الشّعب الدستورية (355).

أمّا الحزب الإصلاحي (356) فقد إعتبرها خطوة إلى الأمام، إذ تمثّل ــ في نظره «مرحلة معتبرة تؤهّل التّونسيين إلى الحياة العمومية، وتسمح لهم بالمشاركة في إسعاد البلاد بالتّعاون مع الفرنسيين. . .» (357).

هذا بالنّسبة لردود فعل بعض التّشكيلات السياسية في البلاد، أمّا عن ردود فعل الطرق الصّوفية من تلك الإصلاحات فإنّه يمكن القول بأنّه رغم ضآلة المعلومات المتعلّقة بهذه المسألة، فإنّ بعض الدّلائل تشير إلى ترحيب بعض مشائخ الطّرق الصّوفية بتلك الإصلاحات:

من ذلك أنّ صالح بن شعبان ــ شيخ مشائخ الطريقة القادرية بمقتضى الأمر العليّ المؤرّخ في 3 ديسمبر 1919 (358) ــ أبرق الى رئيس الجمهورية الفرنسية معربا له عن «عبارات التّقدير والإمتنان للإصلاحات التّونسية، وإكبار

353) جلاب، المرجع السابق، ص 50

354) المدني، المرجع السابق، ج 1، ص 272

355) أنظر تلك البرقيات والشّعب الدّستورية الصادرة عنها في A.M.A.E.F., Campagnes de Télégrammes contre les réformes administratives, Tunisie 1917 - 1940. vol 66, dossier n°= 1, 11/7/1922 - 30/9/1923, f. 14, 31, 32, 33, 35, 38, 50 et 54

356) 358 حول الحزب الإصلاحي أنظر:
KRAIEM (M.), "Le Parti réformiste Tunisien 1920 - 1926" **Revue d'Histoire Maghrébine**, n° 4 (Juillet 1975), pp. 150 - 162

357) حسن قلاّتي، «حول الإصلاحات التّونسية»، جريدة البرهان، تونس، المطبعة التّونسية، السّنة الأولى، عدد 39 ليوم 1922/8/1، ص 1.

358) A.G.T.; D 97 - 3.

مجهودات المقيم العام بتونس...» (359). كما أبرق ــ بنفس المعنى ــ إلى رئيس المجلس الفرنسي (360).

أمّا المنّوبي ــ شيخ الطريقة التّيجانية ببوعرادة ــ فقد أشاد بالدّور الذي لعبه «أثناء أحداث الدّستور، بحيث جنّب المنطقة كلّ تحرّك...، وهو ما أدركه... المراقب المدني بمجاز الباب في رسالة الشكر والإمتنان التي أرسلها إليه بتاريخ 23 سبتمبر 1922 (361).

هذا مع العلم وأنّ مهمّة المنّوبي ــ المذكور ــ تمثّلت آنذاك ــ على ما يبدو ــ في استعمال نفوذه على أتباعه لإقناعهم بتلك الإصلاحات، خاصّة وأنّ المراقب المدني ــ السّابق الذكر ــ قد طلب منه القيام بنفس الدّور فيما بعد (362).

إنّ هذا يحملنا على القول بأن بعض مشائخ الطرق قد وظّفوا في إقناع أتباعهم بتلك الإصلاحات لما لمشائخهم من سلطة عليهم، وذلك سعيًا من السّلط الإستعمارية للتّخفيف من حدّة الأصوات المناهضة لتلك الإصلاحات خاصّة من جانب الحزب الحرّ الدستوري التّونسي.

كما أنّ بعض مشائخ الطرق قد يكونون قبلوا ذلك الدّور لالتقاء مصلحتهم بمصالح حكومة الإحتلال، حيث سعوا إلى سحب البساط من تحت الحزب المذكور الذي قد تزيد معارضته لتلك الإصلاحات في اتّساع شعبيته، فيهيمن على الرّأي العام التّونسي، ويلفّ حوله أوسع الجماهير، وهو أمر يضرّ بالقاعدة الشّعبية للطّرق الصّوفية.

إنّ هذه الإشارات ــ رغم محدودياتها ــ توضّح أنّ بعض مشائخ الطّرق الصّوفية ــ في مواقفهم من تلك الإصلاحات لم ينسجموا مع مواقف الحزب الإصلاحي فحسب، بل انسجموا أيضا مع مواقف الطّائفة

---

(359) A.M.A.E.F., Communiqué au protocole, Salah ben Chaâben au Président de la République Française, le 10/8/1922, Tunisie 1917 - 1940, vol: 66 .., f 61

(360) Ibid, f. 64

(361) A.G.T., Le Cheikh El manoubi au Ministre des Affaires Etrangères à Paris, le 7/11/1929, D 156 - 21.

(362) A.M.A.E.F., le C.C de Medjez-el-bab au Cheikh El manoubi à Bou-araâda, le 28/5/1929, Tunisie 1917 - 40, vol. 316, Dossier n°= 1 (Janvier 1927 - décembre 1929), f 272.

اليهـــودية بالإيالة(363)، وأعيـان أولاد عون وأولاد عـيّار (364)، وأعيان الكاف(365)، والفراشيش وماجر وتاجروين والـسّواسي وسوسة والمنستير(366)، وحتى مع مواقف بعض أمناء الحرف (367).

وهي كلّهـا أوسـاط رسـميـة لم تتـخلّف ــ غـالبـا ــ على مـؤازرة السّيـاسـة الإستعمارية بـالبلاد، ومباركة كل خطوة من خطواتها مهمـا كانت إنعكاساتها على الايالة، وحـتّى وإن لـم تلب المطالب الوطنيـة التي عـبّرت عنهـا أوسع الجـماهيـر وزعماء الحركة التّحريرية.

فلقد وصلت مواقف بعض أولائك المشائخ حدّ إثارة السّلط الإستعمارية على الوطنيين، لحملها على تصفيتهم.

فجاءت مـواقف كل من شيخيْ زاويتيْ التّيـجانية ببوعـرادة والقادرية بالكاف كلّها تحامل على سياسة بـعض المقيمين العامّين الفرنسيين الذين ــ حسـب ما ذهبا إليْه ــ قد مكّنوا للدّسـتوريين في البلاد، في حين لـم يلق «أحبـاب فرنسا» ــ على حد قول أحدهما ــ أي إهتمام أو إكرام وتقدير:

ففي هذا المجال ذهب محمد الشّريف التّيجاني ــ شيخ زاوية التيجانية ببوعـرادة ــ الى أنّ المقـيم العام الفـرنسي لوسيـان سان (Lucien Saint) (من ديسمبر 1920 الى جانفي 1929)، قد جعل ــ بعد سنة 1923 ــ «الدستوريين في كل مكان. . .، وعـوض أن يخرجـوا أصبح لهـم نفوذ كـامل. . .، فصـار منهم القايد، والخليفة، وفي حاشية الباي والوزير الأول وفي الدّاخلية. . .، والعدلية، وفي كلّ مكان، وذلك تبـعا لسياسـة لوسيـان سان. . .، الذي سـار على منواله خلفه(368)، الذي صار رهين إرشاداتهم وميولـهم. . .، في حين أنّ أصدقاء فرنسا

(363 **Ibid.** Le Président du Conseil au Ministère des Affaires Etrangères à Paris au Delegué à la Résidence Générale de France à Tunis, le 7/8/1922, Tunisie 1917 - 1940, vol 66..., f. 57.

(364 **Ibid.**, f 63

(365 **Ibid.**, f. 74.

(366 **Ibid.**, f. 86.

(367 **Ibid.**, f 62.

(368 يقصد المقيم العـام فرنسوا مانصورون (F. Monceron) الذي شـغل تلك الخطة من جـانفي 1929 الى جويلية 1933.

صاروا مهملين. . .»! (369) على حدّ قوله.

وزيادة منه في تقـتـيم سـيـاسة المقـيم العـام الفـرنسي للإيالة، وتهـويل أمـر «الدستوريين» يمضي قائلا: «إنّ المقيم العام متقوقع وأسـير الدّاخلية ومديرها العام الذي بدوره تحت نفوذ السـيد دوجاي (Dugoy) ـ المراقب العام للشـؤون الأهلية (le Controleur General des Affaires Indigenes) المحـاط ـ بدوره ـ بنفـوذ الدّستوريين. . .، بـحيث إذا قيل له ذلك الشّيء أسود، قـال أسود، وإذا قيل له أبيض قال كذلك. . .»! (370).

وفي رسـالة منه إلى المقـيم العـام مارسـال بيـروطون (Marcel Peyrouton) (جويلية 1933 ـ ماي 1936)، وبعد تهـنئته بالسّنـة الجديدة (1934) وردّ قـوله: «أسأل الله أن يعـينكم في مهمّتكم الصّعـبة، ويعطيكم القوّة اللاّزمة لإسـعاد هذه البلاد التّعيسة، التي دبّت فيهـا الحياة من جديد بفضل عنايتكم. . .، فكلّ ما أتمنّاه هو التّوفيق لكـم في السّير بهذه البـلاد نحو الرّفاهـية. . . لكن مع الأسـف. . .، فإننا في هذه الـبلاد خرّبنا الدّسـتور. . .، حيث أنّ الدّسـتوريين أصبـحوا في كلّ الإدارات. . .، في الدّاخليـة، والعدلية. . .، وأصـدقاء فـرنسا يتـحسّرون ـ من بعيد ـ على تلك الفـئة التي أساءت لهم ولكلّ الأحباب الذين يمكـن لفرنسا أن تعوّل عليـهم بكلّ ثقة. . .، كلّ ذلك بفضـل السـياسـة العقـيمة للمقـيمين [العـامّين الفـرنسـيين] والمديرين العـامّين الذين بطيـبـتـهم أضـاعـوا الطريق السّوي. . .، [فأصـبح] يوجد ضمن الوظائف. . . العديد من الدستوريين. . .، وكل ذلك خطأ كبير. . .، وأتمنّى أنّ تنتصروا على كل ذلك. . .»! (371).

كما أن شيخ زاوية القـادرية بالكاف قد ركّز ـ هو الآخر ـ على السياسة غير الحكيمة لبعض المسؤولين في مؤسّسات حكومة الإحتلال.

فقـد ذهب إلى أنّ خليـفة فـعفور صـديق حمـيم لأحد الدّسـتوريين المـسمّى إبراهيم بن حسن (372)، بحيث أنّ هذا الأخـير ـ على حدّ قوله ـ هو الخلـيفة

---

(369) C.N.U.D.S.T., Le Chérif Tidjani au Minsitre de la guerre à Paris, Le 14/12/1930, Tunisie 1917 - 1940, dossier n°= 2, 12/1930 - 7/1938, la Confrérie Tidjania aux f. 2 - 18/111 - 112/117, f 3

(370) Ibid.

(371) A.G.T., Le Chérif Tidjani au R.G , Le 1/1/1934, D 156-21.

(372) أنظر ترجمته في: A.G.T , E 550 - 30/15 - 120.

الفعلي للجهة المذكورة، وبواسطته ـ إلى جانب بعض الموظّفين ـ «انتشرت الأفكار الدستورية بين الأهالي. . .، وهو ما يمثّل خطراً على الحكومة. . .»!!(373) حسب رأيه.

إنّ هذه المواقف التي تدين فقط سياسة بعض المقيمين العامّين الفرنسيين تجاه روّاد النّضال الوطني تفسّر بالعداء الذي يُكنّه بعض مشائخ الطرق للنّضال الذي يقوده الحزب الحر الدستوري التّونسي آنذاك، وهو عداء مصدره الصّراع بين بعض الطرق والتّشكيلات السّياسية على استقطاب الأنصار، وخوف الأولى من فقدانها لنفوذها بعد بروز الثانية.

وممّا يؤيّد ما ذهبنا إليه أمران:

* **أوّلهما**: أنّ كلّ من شيخ زاوية التّيجانية وشيخ الزّاوية القادرية المذكورين اقترحا إنزال عقوبات «بالدّستوريين»: ففي حين تعجّب الأوّل قائلا: «إنّ أولائك الأشخاص (الدستوريون) الذين كانوا ـ أثناء وجودنا بالجبهة [أثناء الحرب العالمية الأولى] ـ يطالبون باستقلال تونس وإخراج فرنسا ـ عوض أن يُطردوا أو يُسجنوا نجدهم على رأس الادارات. . .»! (374)، أكّد الثّاني أنّه لا يمكن لفرنسا أن تحدّ من نشاط «الدستوريين» إلاّ إذا «أقرّت عقوبات ضدّ كل من يساهم في ذلك. . . .»! (375).

* **ثانيهما** تأييد أتباع زاوية الطريقة التّيجانية ببوعرادة وعدّة جهات أخرى للسياسة القمعية التي إنتهجها المقيم العام مارسال بيروطون تجاه الوطنيين خاصة سنة 1934 وللقوانين التي أصدرها في ذلك الشأن.

---

(373) A.G.T., Ahmed KADDOUR el Mizouni au C C. du Kef, Le 21/3/1931, D 97 - 2.

يعود الفضل الى المرحوم الحبيب الشّابي الباحث بمركز الفنون والتّقاليد الشعبية ـ زنقة ابن عبدالله تونس ـ الذي أمدّنا بنسخة من رسالة أحمد قدّور هذه، والتي لم نجد لها أثراً في الموضع المشار إليه.

(374) C.N.U.D.S.T., Le Chérif Tidjani à M Donman, Le 7/1/1931, Tunisie 1917 - 1940, dossier n°= 2, , f. 12 - 13.

(375) A.G.T., Ahmed Kaddour el Mizouni au C.C. du Kef. Le 21/3/1931, D 97 - 2.

وهو ما يوضّح خطورة العمل الوطني على نفوذ الطرق، ومراهنة مشائخها على تلك الإجراءات التعسّفية للحدّ من نشاط الوطنيين وضربه، علما وأنّ محمد الشّريف التّيجاني المذكور والذي ــ انتقد سياسة المقيمين العامين الفرنسيين لوسيان سان ومانصورون ــ قد كتب إلى أحد الوزراء يدعوه إلى التدخّل لدى زملائه ــ أثناء انعقاد مجلس الوزراء ـ للإبقاء على أرمان فيون على رأس الإقامة العامة بتونس حتى ـ على حدّ قوله ــ «لا يحرم سكّانها ــ تحت كنف فرنسا ــ من رجل شهم، بصير، مقتدر، صلب في سلطته. . .»! (376).

إنّ هذه المواقف من بعض مشائخ الطرق الصوفية توضّح ليس فقط قصر نظرهم حيث لم يَرُقْهم في سياسة بعض المقيمين العامين إلا ما يتعلّق منها «بالدستوريين»، وإنّما تبرز كذلك إقرارهم للسّياسة التعسّفية للسّلط الإستعمارية، ووقوفهم ــ في غالب الأحيان ــ ضدّ جماهير أمّتهم المضطهدة، وهو ما يبرز أكثر في مواقفهم من بعض الأحداث التي جدّت بالايالة في الفترة التي ندرسها.

2) مواقفها من بعض الأحداث التي جّت بالايالة:

عرفت الإيالة التونسية منذ مطلع العشرية الثانية من القرن العشرين عدّة أحداث متقاربة جدّا أحيانا وخطيرة، شدّت إليها انتباه أوسع الجماهير آنذاك، لارتباطها ــ من قريب ــ بحياتها اليومية، وللعلاقة التي لها بكيان البلاد وذاتيتها.

أ ــ أحداث طرابلس الغرب (377):

ما أن شاع خبر دخول الجيوش الايطالية طرابلس الغرب حتّى عمّت معظم أرجاء العالم الإسلامي موْجة من العداء لايطاليا والتّعاطف مع الدّولة العثمانية.

لقد تجلّى ذلك التّعاطف في الايالة ــ آنذاك ــ على المستوى الاعلامي، حيث أصدر علي باش حانبة جريدة **«الاتّحاد الاسلامي»** التي صدر عددها الأوّل يوم 19 أكتوبر 1911 للدّفاع عن حقوق المسلمين.

(376 **Ibid**, Le Chérif Tidjani à Maurice violette -Ministie d'Etat à Paris- Le 24/9/1937. D 156 - 21.

(377 حول أحداث طرابلس سنة 1911 أنظر: KRAIEM (M.) "La question de l'annexion Italienne de la Libye", **Revue d'Histoire Maghrébine**, n° 6 (Juillet 1967), pp. 157 - 179.

فقد عملت ــ طيلة أعدادها الستّة التي صدرت منها (378) ــ على تغطية أحداث طرابلس الغرب، ممّا جعل لها «رواج في كل بلدان العالم الاسلامي وتأثير على مسلميها الأمر الذي نتج عنه وصول تهاني فورية ــ لصاحبها ــ من الجزائر، وطرابلس الغرب، ومصر وحتى من الهند. . .» (379).

أمّا التضامن الفعلي، فقد تمثّل في «تنظيم جمع التبرّعات لمساعدة الطرابلسيين في حربهم ضدّ الإمبريالية الايطالية. . .» (380)، حيث شملت تلك الحملة كامل الإيالة لفائدة الهلال الأحمر.

كما تمثّلت تلك المساعدة في تجنيد المتطوّعين للإلتحاق بالجبهة: فلقد عثر ــ لدى علي باش حانبة ــ على العديد من الرّسائل الواردة عليه من عدّة جهات تطلب منه إرسال قصاصات التبرّع، أو تعلمه بوصولها إليها (381).

كما صدر ــ يوم 28 أكتوبر 1911 ــ منشور موجّه إلى بعض الوجهاء (382) يدعوهم إلى تكوين لجان في جهاتهم تتولّى جمع التبرّعات ــ نقدا وعينا ــ، ويوضّح لهم طريقة إرسالها (383) إلى «جمعية الهلال الأحمر التي تمّ بعثها لنجدة الجرحى المسلمين في الحرب التّركية الايطالية الدّائرة في طرابلس الغرب. . .»(384).

كما علّقت إعلانات في أهمّ حارات المدينة، فيها تحريض للأهالي على مقاطعة البضائع الايطالية (385)، وهي مقاطعة وجدت ــ على ما يبدو ــ صدى، حتى أن «كثيرا من التجّار وأصحاب المغازات من الايطاليين ـ بتونس ـ رفعوا مضبطة إلى جناب قنصل دولة إيطاليا بالعاصمة، يشتكون فيها ممّا أصاب

---

378) صدر آخر عدد لها يوم الاثنين 1911/11/6.

379) "Lettre de M. Bach Hamba", Le Courrier de Tunisie, 8è Année, n° 2715, du 14/4/1912, p. 1.

380) SAMMUT, Op.cit., p. 295.

381) AYADI, Mouvement réformiste..., p. 150.

382) أنظر نصّه في: AYADI, Mouvement réformiste..., p. 151.

383) Ibid.

384) C.D.N., Section Mouvement National, l'Affaire du Djellaz (7 novembre 1911), B - 3 - 27, p. 28.

385) «مقاطعة الطليان»، الصّواب، السنة 2، عدد 297، ليوم 1911/10/20، ص 4.

تجارتهم من البوار، وما حاق بها من الكساد. . .» (386).

تلك هي أهمّ الإشارات المتعلّقة بردود فعل التّونسيين تجاه الإحتلال الايطالي لليبيا سنة 1911، فماذا كان موقف الطرق الصّوفية ــ في الايالة ــ من ذلك الحدث؟

هل ساهمت ــ بمشائخها وأتباعها ــ في جمع التبرّعات وإرسالها إلى المعنيين بذلك؟

هل كان أتباعها ضمن المتطوّعين الذين التحقوا بالجبهة؟

ماذا كان موقفهم ودورهم في مقاطعة البضائع الإيطالية في الايالة؟

إن المعلومات المتوفّرة لدينا ــ انطلاقا من الوثائق التي أمكننا الإطّلاع عليها ــ لا تجيب على كلّ تلك التساؤلات، ولا توضّح ــ بالتّالي ــ الحجم الحقيقي لدور الطرق الصّوفية ــ في البلاد ــ من تلك الحرب التي كان لها صدى في جلّ فئات المجتمع التّونسي المسلم آنذاك.

فغاية ما في الأمر إشارات طفيفة لا تمكّننا من بلورة مختلف أوجه ذلك الموقف.

من ذلك أنّ المراقب المدني بمكثر أفاد بأن أحمد بن عبدالملك ــ شيخ زاوية الرّحمانية قرب سليانة ــ اتّهم سنة 1911 بأنّ له علاقات مع الطرق في الجزائر وتركيا، وانّه شجّع ــ سنة 1910 ــ بعض السكّان علىالهجرة إلى سوريا، لكن جهوده لم تكلّل بالنّجاح (387).

هل يعني ذلك أنّأحمد بن عبدالملك ــ المذكور ــ كان له موقف واضح من أحداث طرابلس تلك، أو انّه ساهم فيها بشكل من الأشكال، أو على الأقلّ حرّض غيره على ذلك؟

لا شيء يمكّننا من الإجابة على ذلك، لكن من المفيد ذكره الإشارة إلى أنّ أحمد بن عبدالملك ورد إسمه في طليعة قائمة أسماء الذين لهم كلمة مسموعة في مناطقهم والواردة (قائمة الأسماء) في رسالة عثر عليها لدى علي باش حانبة، موجّهة إليه من المسمّى محمد العربي بن محمد الميموني ــ العدل بتبرسق ــ، والمؤرّخة في 2 ذي القعدة 1329 هجري الموافق لــ 25 أكتوبر 1911.

---

386) «الايطاليون بتونس»، نفس المصدر، عدد 298، ليوم 1911/10/27، ص 4.

387) A.G.T., Confrérie des Rahmanya, p 23, D 97 - 3

وهي رسالة أوضح له فيها إعجابه بالدّور الذي قام به تجاه المجاهدين الطرابلسيين، كما أعلمه بأنّ المسمّى علي بن لمين ـ الذي بعث إليه علي باش حانبة برسالة في إطار جهوده الرّامية إلى جمع التبرّعات على مستوى البلاد ـ لم يفعل شيئا.

لذلك أمدّ محمد العربي ـ المذكور ـ علي باش حانبة بقائمة إسمية في ذوي النّفوذ بجهاتهم ليراسلهم في الأمر إن أراد ذلك (388).

إن القائمة المشار إليها تتضمّن أسماء ثلاثة مشائخ طرق صوفية، وهم أحمد بن عبدالملك، وابنه حسونة ـ شيخ رحمانية أولاد عون ـ وسيدي قدّور ـ شيخ زاوية القادرية بالكاف.

هل يمكن القول بأنّ سيدي قدّور قد يكون تفاعل مع أحداث طرابلس، وكان له ـ بالتّالي ـ دور إيجابي فيها؟

إنّ رفض سيدي قدّور ـ كما سبق أن أشرنا ـ المساهمة في الإكتتاب الذي فتحه الباي لصالح السّلطان العثماني في الحرب الرّوسية التّركية سنة 1877، وموقفه من الإستعمار الفرنسي للايالة يحملنا على القول بأنّه من المستبعد أن يكون له دور إيجابي في حملة تضامن التّونسيين مع الطرابلسيين، والتي كان لعلي باش حانبة دور أساسي في تنشيطها.

لكن إيراد محمد العربي بن محمد الميموني ـ المذكور ـ لاسم سيدي قدّور ضمن القائمة السّالفة الذكر لا يبين بالنّسبة إليه ـ قيمته في المنطقة فحسب بل يوحي بأنه ممن يمكن التّعويل عليهم في استغلالهم لنفوذهم في جمع التبرّعات التي لم يفعل فيها علي بن لمين شيئا.

وفي المقابل فإنّ أحمد بن عبدالملك ـ الذي اتّضحت عداوته للإستعمار عند دخوله للايالة، وكذلك ابنه الذي عارض السياسة الفلاحية للإستعمار الفرنسي بسهل سليانة ـ قد يكونان ساهما في حملة التضامن تلك، خاصّة وأنّ الأوّل اتّهم سنة 1911 ـ بالتحديد ـ بأنّ له علاقات مع الطرق الصّوفية في الجزائر وتركيا.

إلا أنه رغم ذلك لا شيء يمكننا من القطع بذلك، أو تحديد نوع وحجم وطُرُق تلك المشاركة في تلك الحملة إن وجدت فعلا.

(388 Ibid., D 97 - 3, Document n°= 125

ب ـ أحداث الـــــزلاّج : (389)

بقطع النّظر عن الأسباب التي أدّت إلى تلك الأحداث كالإحتلال الايطالي لليبيا (390)، أو الاحتلال الفرنسي لمدينة فاس، (391) وخاصة الأوضاع الاجتماعية المتردّية للايالة (392)، فإنّه يمكن الإشارة إلى أنّ بلدية الحاضرة عمدت إلى تسجيل مقبرة الزلاّج، وقدّمت في ذلك طلبا إلى المحكمة العقارية المختلطة بتاريخ 26 سبتمبر 1911، ونشر بالرائد الرّسمي في أكتوبر من نفس السّنة، وعيّن يوم 7 نوفمبر 1911 موعدا لعملية التّسجيل، ووُجّهت الدعوة إلى سكّان العاصمة بوصفهم أصحاب المقبرة لحضور تلك العملية في اليوم المذكور(393).

لقد دفع قرار التّسجيل ــ الذي اعتبره السكّان انتهاكًا للحرمات وتدنيسا للمقدّسات (394) ــ إلى احتشاد ما بين 2000 و3000 (395) مِن الأهالي حول أبواب المقبرة صبيحة يوم 7 نوفمبر 1911.

وهو ما أدّى إلى اصطدامات دامية تلتها قوانين إستثنائية صدرت عن الباي يوم8 نوفمبر:

منها قانون يتضمّن نصب حالة الحصار العسكري على العاصمة وضواحيها،

---

389) 391. حول تلك الأحداث أنظر، المرزوقي والجيلاني، المرجع السابق، وكذلك:
A.G.T., Affaire du Djellaz; E 565 - 1, document n° 176 et 270, de même au **C.D.N.**, Section Mouvement National, l'Affaire du Djellaz (7 novembre 1911), B - 3 - 27; de même au **C.N.U.D.S.T**, Nouvelle Série (N.S.), Tunisie 1882 - 1919, N S. 33, 12/1911 - 3/1/12; ainsi que N.S. 34, 36; AYADI, **Mouvement réformiste...**, p 165 et les journaux de l'époque

390) المرزوقي والجيلاني، المرجع السابق، ص 10 ــ 12، وكذلك SAMMUT, **op.cit**, p. 324; de même MAHJOUBI, **Les origines** ., p 131, et AYADI, **Mouvement réformiste...**, p. 177.

391) المزوقي والجيلاني، المرجع السابق، ص13 وكذلك: AYADI, **Mouvement réformiste**.. p 177.

392) AYADI, **Mouvement réformiste**., p. 175 et 176.

393) المرزوقي والجيلاني، المرجع السابق، ص 17.

394) MAHJOUBI, **Les Origines...**, p. 131; de même SAMMUT, **op. cit.**, p. 324.

395) اختلف في تقدير عدد الحاضرين، فذهب البعض إلى أنه يتراوح بين 2000 و3000 AYADI, **Mouvement** .., p. 185. في حين ضخمت بعض الصحف الإستعمارية العدد، فادّعت أنه يتراوح بين 5 و6 آلاف، أنظر: "Une grave echauffourée à Tunis, manifestation qui tourne à l'émeute", **La Dépêche Tunisienne**, du 8/11/1911, P. 1.

وتكليف القيادة العسكرية الفرنسية بالمحافظة على الأمن.

وقانون آخر يتضمّن منع الإجتماعات العامّة والخاصّة، واجتماع أكثر من ثلاثة أشخاص والوقوف بالطريق العام، ومنع الجولان ليلا إبتداءً من السّاعة التّاسعة.

هذا بالإضافة إلى قانون يتضمّن غلق جميع المقاهي في الأحياء العربية مؤقتًا، وسحب رخص بيع ومسك وحمل الأسلحة مهما كان نوعها.

كما أصدرت السّلط العسكرية قرارات بتعطيل جميع الصّحف العربية عدا جريدة **الزهرة** (396)، علما وأنّ تلك الأحداث قد أفضت إلى إيقاف 72 متّهما صدرت ضدّهم أحكام مختلفة (397).

تلك هي ــ بإيجاز ــ أهمّ أطوار أحداث الزلاّج وحصيلتها، ونعرض فيما يلي إلى توضيح مواقف بعض الطرق الصوفية بالايالة منها.

توجد عدّة إشارات هامة تتعلّق بالمعطى الطرقي في تلك الأحداث:

فممّا تجدر الإشارة إليه أنّ مقبرة الزلاّج توجد في سفح «جبل التّوبة» المعروف بجبل سيدي أبي الحسن (398) حيث المغارة الشّاذلية «موضع عبادة أبي الحسن الشاذلي، واعتكافه والتي كان أتباع طريقته يزورونها أسبوعيا ويعقدون فيها حلقات الذّكر والأوراد، ممّا زاد المقبرة اعتبارًا، وأصبغ عليها قدسية لدى سكّان الحاضرة...» (399)، الذين ينتمي «ثلاثة أرباعهم ــ تقريبا ــ إلى الطريقة الشّاذلية» (400) على حدّ قول علي باش حانبه.

هذا بالإضافة إلى احتواء المقبرة المذكورة على قبور العديد من العلماء والصّلحاء والأمراء والأعيان، ممّا جعل معظم سكّان تونس المدينة وأحوازها لهم أهل أو أقرباء مدفونون بها (401)، الأمر الذي جعلها أكبر مقبرة بالحاضرة،

396) المرزوقي، دماء...، ص 31، وكذلك: MAHJOUBI, Les **Origines**., p. 130 de même AYADI, **Mouvement réformiste**., p. 206.

397) أنظر تلك الأحكام في المرزوقي والجيلاني، المرجع السّابق، ص 150 ــ 153، وكذلك. AYADI, **Mouvement réformiste**., p 210

398) المرزوقي والجيلاني، المرجع السّابق، ص 15

399) نفس المرجع، ص 16 و17.

400) BACH - HAMBA (A), "Les responsabilités", **Le Tunisien**, Tunis, Imp Rapide, du 16/11/1911, P.1, au **C.D.N.**, Section Mouvement National, événements 1911, A - 1 - 42.

401) المرزوقي والجيلاني، المرجع السّابق، ص 16، وكذلك: BACH-HAMBA, **op.cit.**, p. 1.

تلقى الإهتمام من كل فئات السكّان.

وبهذا كلّه، لنا أن نتساءل ــ مع علي باش حانبة ــ : «هل يمكن أن نتصوّر أن أتباع الطريقة الشّاذلية ـ التي ينتمي حوالي ثلاثة أرباع سكان مدينة تونس إليهاـ سيحضرون هادئي الأعصاب لتسجيل الزّاوية الأم لطريقتهم باسم بلدية مدينة تونس»(402)؟

فهل صدر عن مشائخ الطريقة الشّاذلية وخاصة أتباعها ما توقّعه علي باش حانبة؟

فإن كان الأمر كذلك، ففي أي شيء تمثّل؟

حسب رواية جريدة الدبياش تونزيان، فإنّ ممّن شارك في أحداث 7 نوفمبر «مجموعة من السّوقيّة مرّت تصيح، في مقدّمتها شيخ رثّ الثّياب يلوّح بخرقة حمراء يبدو أنّها علم ولي، وللحيلولة دون إثارة الهيجان، أمر بالإنسحاب دون أن يفتكّ منه ذلك الشّعار...»! (403).

فهل يمكن القول بأنّ المقصود بذلك الشّيخ الرثّ الثّياب أحد مشائخ الطرق الصّوفية يقود أتباعه كمساهمة في أحداث الزلاّج، وهل يمكن أن يكون بالتّحديد أحد مشائخ الطريقة الشّاذلية؟

إنّ هذا ما لا يمكن التأكّد منه لانفراد جريدة الدبياش ــ في حدود اطّلاعنا ــ بنشر ذلك الخبر، ممّا يحملنا على الشكّ في صحّته، خاصّة إذا علمنا أنّها تعكس وجهة نظر الأوساط الإستعمارية التي تجنح دائما إلى التّهويل والتّوريط.

ومع ذلك نجد إشارات هامّة تتعلّق بالمعطى الطرقي في أحداث الزلاّج:

من ذلك أنّ الجماهير المحتشدة أمام المقبرة صبيحة يوم 7 نوفمبر 1911 قد طالبت بإطلاق سراح «درويش Derwuiche» كان قد تمّ اعتقاله (404)، ويبدو أنّ إلحاح الحاضرين على ذلك حمل شيخ المدينة على إجابة طلبهم (405).

هل يعني هذا أن نأخذ بقول السّلط الاستعمارية، فنجعل «الأولياء وراء كل

(402 BACH - HAMBA, **op. cit.**, p. 1, de même **C.D.N.**, l'Affaire du Djellaz, B - 3 - 27, p. 4.

(403 "Une grave échauffourée à Tunis", **la Dépêche Tunisienne**, du 8/11/1911, p. 1.

(404 "L'Affaire du Djellaz", **La Tunisie Française**, Tunis, Imprimerie de la Tunisie Française, n° 2460 du 3/6/1912, pp. 5 - 7; p. 5; de même "Affaire du Djellaz"; **Le Courrier de Tunisie**, n° 2764 du 4/6/1912, p. 1 et 4, et le n° 2772, p. 1; de même AYADI, **Mouvement réformiste...**, p. 171.

(405 "Affaire du Djellaz", **Le Courrier de Tunisie**, n°= 2771, du 11/6/1912, p. 1 et 4, p. 4.

ما يحدث»(406)، وبالتّالي نذهب إلى القول بأنّ اعتقال ذلك «الدرويش» كان السّبب في اندلاع أحداث الزلاّج (407)؟

انّ هذا ما لا يمكن القول به لأنّه لا ينسجم مع سير الأحداث آنذاك: ذلك أنّ الولي الذي أوردت جريدة الدّيباش أنه كان يتزعّم «مجموعة من السُّوقية قد أمر بالانسحاب من ساحة الأحداث، كما أن شيخ المدينة قد بادر بإطلاق سراح «الدرويش» السّابق الذكر.

كل ذلك قبل أن تندلع الأحداث، وهو ما يدلّ على أنّ السّلط الإستعمارية كانت حريصة على تجنّب كل ما من شأنه أن يتسبّب في مضاعفات قد تكون لها عواقب وخيمة، فعملت على إزالة أسباب التوتّر بعدم تعرضها «للأولياء» بما من شأنه أن يزيد في هيجان الجماهير.

لكن هل يعني ذلك أنّ تلك السّلط قد نجحت في تحييد الطرق، وتجنّبت — بالتّالي — عدم مشاركة أتباعها في أحداث الزلاّج؟

تشير بعض المعلومات إلى أنّ الطريقة الشّاذلية قد تكون لعبت دوراً في ذلك: فبالإضافة إلى أنّ «العشرات من جثث الأهالي خُبّئت في زاوية المقبرة، ومنها تمّ نقلها إلى المستشفى الصّادقي. . .» (408)، فإنّ رئيس المحكمة — في جلسة صباح الاربعاء 5 جوان 1912 — وعند استنطاقه للمتّهم محمد بن خميّس لاكانجي أشار إلى أنّ هذا الأخير «لم تصدر ضدّه أحكام سابقة، حيث أثبت البحث أنّه شاب مقبل على أشغاله كنجّار، حسن الخلق، من الطبقة الحازمة من صغار أرباب الحرف، ومن أتباع الطريقة الشاذلية، محافظ على قواعد دينه، وكذلك إخوته، لكنّ الإشاعات الرّائجة اتّهمت الأخوين، فألقي عليهما القبض يوم 15 نوفمبر 1911. . .» (409).

أما شقيقه فهو المسمّى حسن بن خميّس لاكانجي، الذي قال له رئيس المحكمة «إنّ البحث يفيد بأنّك مثل أخيك في الإستقامة، والانكباب على

(406 Ibid., n° 2790, du 30/6/1912, p 1 et 4, p 1 , de même; A.D.; "Le rôle des Marabouts en Tunisie", le n°= 2753, du 24/5/1912; p. 1

(407 Ibid., n°= 2772, du 12/6/1912, p. 1.

(408 "Les Indigènes se révoltent, une sanglante émeute aux portes de Tunis", La Tunisie Française du 7/11/1911, p. 1.

(409 المرزوقي والجيلاني، المرجع السابق، ص 76، وكذلك: "Affaire du Djellaz", Le Courrier de Tunisie, n°= 2766 du 6/6/1912, p 1 et 4, p 4

عملك الخاص، والتمسّك بالدّين والتّقوى. . .» (410)، علما وأنّ محمد بن خميس حكم عليه بالأشغال الشاقة لمدّة خمس سنوات (411)، في حين حكم على أخيه حسن بالبراءة وترك السّبيل (412).

كما أنّه لابدّ - في هذا المجال - من الإشارة الى أنّ أحمد المتّهمين يسكن جبل سيدي بلحسن نفسه (413)، وهو المسمّى محمد بن الحاج الصّادق(414) الذي حكم عليه — هو الآخر — «بالسّجن البسيط لمدّة عامين» (415).

تلك هي الإشارات المتعلّقة بالمعطى الطرقي في أحداث الزلاّج، فإلى أيّ مدى يمكن القول بأنّ الطريقة الشّاذلية قد ساهمت فيها؟

إذا انطلقنا من قول علي باش حانبة من أنّ حوالي ثلاثة أرباع سكّان مدينة تونس ينتمون إلى هذه الطريقة، وأنّ إثنان أو ثلاثة من المتّهمين — من جملة اثنين وسبعين متّهما — ينتمون إلى الطريقة الشّاذلية، فإنّنا نتبيّن الانخرام الواضح بين الوزن العددي للطريقة في الحاضرة والمساهمة الفعلية لها في تا'' الأحداث.
إذ أنّها مساهمة لا تتناسب مع ما تتمتّع به من نفوذ، خاصة وأنّ عملية التّسجيل — المزمع القيام بها — تستهدف مكانا يحتوي على الزّاوية الأمّ للطريقة.

ذلك أن إجراء التّسجيل من شأنه أن يكون كافيا لاستفزاز واستنفار جلّ أتباع الطريقة بالمدينة حتى يكون لهم دور أساسي في الدفاع عن زاويتهم، وبالتّالي مساهمة واضحة وجليّة في تلك الأحداث، وهو ما لا يمكن القول به إذا أخذنا بالاعتبار التّصنيف الطرقي للموقوفين إلا إذا اعتبرنا أنّ بحث واستنطاق المتّهمين لم يصل إلى معرفة الانتماء الطرقي لهم جميعا.

وحتّى إذا سلّمنا بأنّ وجود زاوية سيدي أبي الحسن الشّاذلي داخل المقبرة قد يكون زاد في تأجيج حماس الذين حضروا صبيحة 7 نوفمبر 1911، فإنّ التّصنيف الاجتماعي للمتّهمين يوضّح — إلى حدّ ما — طبيعة تلك الأحداث، وبالتّالي الأسباب التي كانت وراءها، والقوى التي كانت فاعلة فيها:
فمن جملة الواحد والسبعين متّهما الذين مثّلوا أمام المحكمة الفرنسية الجنائية

---

410) المرزوقي والجيلاني، المرجع السابق، ص 77.
411) نفس المرجع، ص 150.
412) نفس المرجع، ص 152
413) A.G.T., Affaire de Djellaz, E 565 - 1, p. 21, document n°= 270.
414) المرزوقي والجيلاني، المرجع السابق، ص 151.
415) نفس المرجع

هناك أربعة عشر من فئة العمّال اليوميين، وثلاثة عشر حرفيين، وعشرين من فئة التّجار، وثمانية حمالة، وأربعة فلاحين ومثلهم من العاملين بالمقاهي (416).

إنّ هذا يحملنا على القول بأنّ الذين كانوا فعلا طرفا فاعلا في أحداث الزلاّج هم ــ خاصة ــ أولائك المتضرّرين مباشرة من حصيلة السياسة الاستعمارية بعد ثلاثين سنة من الاستعمار الفرنسي للايالة.

وهي سياسة أفضت إلى انتزاع الملكيات، وتضرّر الحرفيين والعمّال من مزاحمة البضائع الأوربية، هذا بالاضافة إلى تفشّي البطالة والأجور المتفاوتة، والأعباء الضريبية.

وهي أوضاع زادتها تأزّما المحاصيل الرديئة والأوبئة وخاصة الأحداث الظرفيّة التي جدّت آنذاك كغزو الايطاليين لطرابلس الغرب، ممّا أوجد جوّا من الاستياء العام الذي جاء قرار التّسجيل ليفجّره.

هذا من ناحية، أمّا إذا أردنا أن نبحث المظهر السّلبي لبعض مشائخ الطرق الصّوفية من أحداث الزلاّج، فإنّه يمكننا الاستشهاد بأمرين:

* أوّلهما ما ورد في رسالة محمد الشّريف التّيجاني ــ شيخ زاوية بوعرادة ــ الى وزير الحربية الفرنسي، والتي ورد فيها قوله: «. . . **أثناء أحداث الزلاّج، وفي الوقت الذي كانت فيه كلّ البلاد التّونسية تقريبا في ثورة، كان أبي يأمر أتباعه بالهدوء والخضوع، وعدم المشاركة مع حركة الشباب التّونسي في أيّ تحرّك سياسي. . .**»! (417).

هل يمكن اعتبار هذا تمويهًا منه ومغالطة للسّلط الاستعمارية في حين أنّه قد يكون لعب دورًا مخالفا لما ذكره؟

إنّ هذا ما لا يمكن أن نرجّحه إذا علمنا مواقف التّأييد للاستعمار الفرنسي التي صدرت عنه في العديد من المناسبات، ومختلف الخدمات التي قدّمها له، والتي أشرنا إليها في مواقع مختلفة من هذا البحث.

* ثانيهما أن المسمّى ابن حملاوي أحمد بن علاّوة ــ مقدّم الطريقة التّيجانية أيضا ــ صرّح لمراسل أحد الصّحف بأنّ «أحداث الزلاّج لا علاقة لها بأحداث طرابلس. . .، وأنّ ما جدّ بمدينة تونس (يعني أحداث الزلاّج) لم يرض

416) **AYADI, Mouvement réformiste, ..., p. 187.**

417) **C.N.U.D.S.T.** , Le Chérif Tidjani au Ministre de la guerre à Paris; le 14/12/1930., Tunisie 1917 - 1940, dossier n°= 2..., f. 2.

عنه كلّ أحباء الحضارة. . . ، [مؤكدا] أن جزءاً من المقبرة القديمة (الزلاّج) يجب أن يزول، ويخصّص لبناء مستشفى للمسلمين»! (418).

ويقطع النّظر عمّا إذا كان هذا الموقف يعبّر عن وجهة نظر أتباع الطريقة التّيجانية أو هو ملزم فقط لصاحبه، أو ناجم عن الحقد الذي قد يكون شيخ التّيجانية هذا يكنّه للطريقة الشّاذلية المستقطبة لجلّ سكان مدينة تونس ممّا حال ـــ ربّما ـــ دون توسيع الطريقة التّيجانية هناك لقاعدتها الشّعبية، فإنّ الموقف المشار اليه ـــ رغم غرابته إذا أخذنا بالاعتبار الاطار الذي تنزّل فيه ـــ ينسجم مع الخطّ العام الذي عُرفت به بعض زوايا الطريقة التّيجانية في البلاد التّونسية سواءً في بوعرادة أو في الجنوب أو كذلك في الجزائر.

كل ذلك يدلّ على أنّ الذين تجمّعوا صبيحة يوم 7 نوفمبر 1911 قد حضروا ـــ قبل كل شيء ـــ ليعبّروا عن احتجاجهم على السّياسة الاستعمارية التي هم ضحاياها، وليعترضوا على تسجيل المقبرة التي لهم أموات بداخلها.

فهم ـــ حتّى وان كان من بينهم العديد من أتباع الطريقة الشاذلية أو غيرها ـــ قد حضروا بصفتهم كضحايا لسياسة استعمارية أوجدت وضعية إجتماعية متردّية، وليس بصفتهم كأتباع طريقة معيّنة، باعتبار أنّ المعطى الإجتماعي الذي يمسّ أكثر الفئات من شأنه أن يجمعها حول موقف واحد يهمّها كلّها، ويحملها بالتّالي على تجاوز انتمائها الطرقي، في حين أنّ المعطى الطرقي يبقى قاصرا على ذلك إذا أخذنا بالاعتبار التّنافس والتناقض بين الطـــرق.

وممّا يؤكّد ما ذهبنا إليه من أنّ المعطى الطرقي لم يكن هو العامل المحدّد أو البارز في أحداث الزلاّج أنّه لو كان مقام أبي الحسن الشّاذلي وراء تلك الأحداث لما تحرّك سكان المدينة في مقاطعة التّراموا ي التي لا علاقة لأبي الحسن الشّاذلي أو الزلاّج بها، وذلك رغم القمع والضّحايا، وخاصة الاجراءات التعسّفية التي تلت أحداث الزلاّج.

وهذا يحملنا على القول بأنّ النّقمة التي عمّت الأهالي حملتهم على الخروج من صمتهم ودفعتهم ـ شعوراً منهم بقوّتهم عندما يكونون متّحدين ـ إلى الإحتجاج على السّياسة الإستعمارية بل والإعتراض عليها بالفعل لا بالقول فقط كما كان الأمر سابقـــا.

"Les troubles de Tunis", Le Courrier de Tunisie, n° 2563, du 17/11/1911. (418

فكانت تلك الأحداث ــ بذلك ــ مناسبة «وقع فيها ــ لأول مرّة ــ التّعبير عن الشّعور القومي بواسطة الشّعب. . . .» (419).

ج ـ أحداث مقاطعة التّراموا ي (420).

في الوقت الذي كانت فيه الأنباء لا تزال تصل إلى الايّالة حول المعارك العثمانية الايطالية في طرابلس، وفي الوقت الذي لازالت فيه أحداث الزلاّج حاضرة حيّة في أذهان السكّان بالايّالة وخاصّة حاضرتها، جاء حادث دوس إحدى عربات التّراموا ي لطفل مسلم ــ يوم 8 فيفري 1912 ــ ليزيد الأنفس حنقا، والأوضاع تأزّما.

ذلك أنّ معلّقات باللّغة العربية عُلّقت في اللّيلة الفاصلة بين 9 و10 فيفري تدعو الأهالي إلى مقاطعة التّراموا ي (421).

وهي مقاطعة وجد فيها العمّال التّونسيون العاملون بالشركة فرصة للضّغط على هذه الأخيرة لتحسّن ظروف عملهم (422)، وتجعل أجورهم مساوية لأجور العمّال الأوربيين (423).

وبتوتّر العلاقات، سعى علي باش حانبة الى بعث «لجنة المقاطعة» كوسيط بين الشركة والسكان (424).

---

419) SAMMUT, **op.cit.**, p. 325.

420) حول تلك الأحداث، أنظر المرزوقي والجيلاني، المرجع السّابق، ص 171 ــ 180، وكذلك: C.D.N., Le boycottage des Tramways, 9 févrıer 1912, B - 1 - 37; de même au C.N.U.D.S.T., N.S., Tunısıe 1882 - 1919, N S 33, 12/1911 - 3/1912, N.S. 34 et 36, de même MAHJOUBI; Les **Origines...**, p. 135; SAMMUT; **op.cit.**, p. 329, AYADI, **Mouvement réformiste** ., p 223.

421) MAHJOUBI, Les **Origines**., p. 135., de même SAMMUT; **op.cit.**, p 329; AYADI, **Mouvement réformiste**.., p. 224.

422) حول الظّروف السّيئة للعمّال التّونسيين في شركة التّراموا ي، أنظر SAMMUT, **op.cit**, p. 329 - 330.

423) SAMMUT, **op.cit**, p. 332

424) **Ibid.**

وباستمرار المقاطعة طويلا، اعتبرتها السّلط الإستعمارية موجهة ضدّها، فعمدت إلى نفي عبدالعزيز الثّعالبي (425) وعلي باش حانبة ومحمد نعمان إلى مرسيليا.

في حين سلّم حسن القلاّتي ـ الجزائري ـ إلى السلطات الفرنسية لما وقع إرسال الشاذلي درغوث والصّادق الزّمرلي إلى الجنوب التونسي، أمّا المختار كاهية فإنّ قرابته من عائلة الباي إقتضت إيداعه سجن قصر باردو (426).

ذلك بإيجاز ما يتعلّق بأطوار الأحداث، ولنعرض فيما يلي إلى دور الطرق الصوفيّة سلبا أو إيجابا في أحداث التّرامواي.

لقد فُتح إكتتاب لفائدة عائلة ضحيّة الحادث القاتل (427)، فهل ساهمت فيه الطرق الصوفية ممثّلة في مشائخها أو أتباعها؟

لا شيء ـ إنطلاقا من المصادر التي أمكننا الاطّلاع عليها ـ يفيد ذلك.

ومن جهة أخرى فإنّ الكاتب العام للحكومة التّونسية أوضح في معلّقات علقت بالمدينة انّ المقاطعة قد انتهت، وأنّ كل من يعثر عليه يحرّض عليها يعاقب بشدّة، وقد تولّى شيخ المدينة قراءة ذلك النّص في المساجد (428).

فهل قرئ ذلك القرار أيضا فيَ الزّوايا الطرقية، وهل كان له وقع على أتباعها؟ لا شيء يمكننا من الإجابة على ذلك أيضا.

---

425) عبدالعزيز الثعالبي: ولد بتونس سنة 1874 من عائلة جزائرية الأصل استقرّت بتونس حوالي سنة 1830، أسس سنة 1895 جريدة «سبيل الرشاد»، سافر الى الشرق ثم عاد الى تونس أين حوكم سنة 1904 بتهمة التطاول على الأولياء والصالحين، أصبح سنة 1909 المحرّر للنشرة العربية لجريدة «التّونسي» اتّهم بوقوفه وراء مقاطعة التّرامواي سنة 1912، فتمّ نفيه إلى فرنسا، ومنها انتقل إلى تركيا ثم الشرق الأقصى حيث زار جاوة والهند وعاد الى تونس قبيل الحرب العالمية الأولى التي ساهم ـ على إثرها ـ في تأليف كتاب «تونس الشهيدة» ـ وبعث الحزب لاحرّ الدستوري التّونسي سنة 1920، غادر تونس سنة 1923 ملتحقا بإيطاليا ففرنسا ثم الشرقيْن الأدنى والأقصى وعاد الى تونس سنة 1937 والخلاف على أشدّه بين حربه و«الديوان السياسي». توفي أكتوبر سنة 1944، أنظر المرزوقي والجيلاني، المرجع السابق، ص 176 ـ 177، وكذلك MAHJOUBI, Les **Origines**..., p 201; AYADI, **Mouvement**. ., p 131

426) MAHJOUBI, Les **Origines**..., p. 138; AYADI, **Mouvement**..., p. 242.

427) "Souscription", **Le Courrier de Tunisie**, n°= 2658, du 16/2/1912, p. 1 ainsi que les n°= 2660, p 2, n°= 2663, p. 4.

428) C.D.N., Le boycottage..., p. 98; de même "le boycottage des tramways", **La Tunisie Française**; n°= 2378; du 12/3/1912; p. 1.

كما أنّ وزير القلم قد استدعى الأعيان والشّخصيات المرموقة في الحاضرة، وحثّهم على التدخّل لدى مواطنيهم لفكّ المقاطعة (429).

فهل كان مشائخ الطرق الصّوفية ـ بالحاضرة ـ أو بعضهم ضمن الحاضرين، وهل قاموا بما طلب منهم؟

تفيد بعض الإشارات إلى أنّ السّلط الإستعمارية ـ التي عملت على فكّ المقاطعة بعدّة وسائل ـ إلتجأت لمّا أعيتها الحيلة ـ إلى «شيوخ الأضرحة ليركبوا ويحثّوا النّاس على الركوب، فلم يفيدوها شيئًا في الموضوع...» (430).

من ذلك أنّ «الشيخ أحمد جمال الدّين الخياري ـ أحد مدرّسي جامع الزّيتونة...، ومن أصحاب الطريقة القادرية، دفع المال من جيبه لتلامذة زاويته ليركبوا، فخرجوا من عنده، واشتروا بما أخذوا منه الخضر...»! (431).

كما أنّ أحد مشائخ الطريقة الرّحمانية بمنطقة بجاوة بجهة ماطر قد نوّه بدوره في تلك المقاطعة، واعتبره من الخدمات الجليلة التي قدّمها للإستعمار (432).

وبذلك يبدو ـ من خلال هذه الإشارات الوجيزة ـ أنّ بعض مشائخ الطرق الصّوفية قد انحازوا إلى جانب السّلطات الإستعمارية.

على أنّ ما تجدر الإشارة اليه ـ في هذا المجال ـ أنّ العمل على فكّ المقاطعة قد صدر ـ على ما يبدو ـ عن بعض مشائخ الطرق وليس عن الأتباع:

ذلك أنّ أحد مشائخ الزّيتونة ـ السّابق الذكر ـ والذي كلّفته «الدّولة بأنّ يوصي المدرّسين والتّلاميذ بالعمل بما تحبّ في مسألة المقاطعة من الرّكوب والدّعوة إليه، أخذ يحثّ على ذلك بإخلاص واجتهاد...، ولكن المقاطعة [ظلّت] مستمرّة...، فكلّفت أكثر الأعوان الإداريين أن يركبوا، فركبوا بضع مرّات، فلم يقتد بهم أحد، فكلّفت [الدولة] شيوخ الأضرحة...، فلم يفيدوها شيئًا

429) C.D.N., Le boycottage., p 92.

430) المرزوقي والجيلاني، المرجع السّابق، ص 186، أنظر كذلك الطاهر الهمّامي، «العاصمة تقاطع شركة التّراموابي»، مجلة حقائق، تونس، شركة سنيب، عدد 57، ليوم 1985/2/15، ص 16 ـ 17، ص 17.

431) ابن الحقيقة، «مقاطعة المراكب الكهربائية وسببها»، مجلة المنار، مصر، مطبعة المنار، ج 5، م 15، عدد 17 ماي 1912، ص 389 ـ 391، ص 391.

432) OULED Med, op.cit, p. 98.

في الموضوع. . .»(433)، و«فشلوا - بدورهم — في جرّ الناس. . »(434).

لئن تدين هذه الإشارات بعض مشائخ الطّرق الصّوفية، فإنّها توضّح عدم التّطابق والإنسجام في المواقف بينهم وبين أتباعهم.

فهؤلاء — على ما يبدو — قد انسجموا مع الرأي العام الذي وقف موقفا موحّدًا يصعب على الفرد خرقه، خاصّة إذا علمنا الحرب النّفسية التي كانت تشنّ على الذين يركبون، وذلك كلعنهم (435) وخاصّة مواصلة طلاء أبوابهم بالأسود(436) إشارة إليهم، ممّا يلفت إليهم الأنظار، ويظهرهم بمظهر الخارجين عن المجموعة الوطنية.

إنّ هذا كلّه يحملنا على القول بأنّ نفوذ بعض مشائخ الطرق على أتباعهم كثيرا ما يقع تجاوزه تحت تأثير الشّعور الوطني — كما كان الشأن في مقاومة قبائل الوسط والوسط الغربي — أو التأثير المعنوي لما اتّفقت عليه المجموعة كما هو الحال في قضية مقاطعة التّراموای.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى جاءت أحداث هذه المقاطعة لتثبت مرّة أخرى أنّ نفوذ المشائخ على أتباعهم والذي راهنت عليه السّلط الإستعمارية للإستفادة منه لم يكن دائما موجودًا، وانّ أولائك المشائخ كثيرًا ما لا يمثّلون إلاّ أنفسهم فيما يصدر عنهم من مواقف وممارسات.

وهذا بدوره يوضّح فشل السّلط الإستعمارية في معرفة وتحديد القوى الضّاغطة فعلا في المجتمع التّونسي، والقادرة بالتّالي على التحكّم في أوسع فئاته وتحريكها.

وهو ما اتّضح أكثر في الأحداث التي تلت سنة 1930 كالمؤتمر الافخارستي وخاصة أحداث التجنيس.

---

433) المرزوقي والجيلاني، المرجع السّابق، ص 186.

434) الهمّامي، المرجع السّابق، ص 17.

C.D.N , Le boycottage..., p. 92. (335

AYADI, Mouvement..., p. 243 et 247 (436

د ـ أحداث التجنيس (437):

تعتبر من الأحداث البارزة في تاريخ تونس المعاصر، وبقطع النظر عن العوامل التي دفعت فرنسا إلى الإلتجاء إلى التجنيس(438)، أو أهمّ مراحله(439) ومختلف القوانين المتعلّقة به والتي ظهرت بالايالة (440) أو أهم الامتيازات التي ينالها المتجنّس (441)، نشير إلى أنّ مسألة التّجنيس كان لها صدى في أغلب جهات الايالة.

فلقد جدّت مظاهرات في توزر (442) والقيروان (443) والمكنين (444)، والمنستير (445)، وحمام الأنف (446)، وسوسة (447)،

---

437) حول تلك الأحداث أنظر رضا الكزدغلي، أحداث التّجنيس من خلال الصحافة في تونس سنتي 1923 و 1933، تحليل محتوى الصحف، «الأمة»، «النهضة»، «تونس الفرنسية»، «تونس الاشتراكية»، «العمل التونسي»، رسالة ختم الدروس الجامعية لسنة 1979 ـ 1980، (مخطوطة) تونس، معهد الصحافة وعلوم الأخبار، وكذلك: **C.D.N.**, Section Mouvement National, Naturalisation en Tunisie; B - 337; **A.G.T.**, E 580 - 4 et E 507 - 2, 6; TAHAR LAKHDAR, **Essai sur la Tunisie, Naturalisation Française et Nationalisme Tunisien**, thèse de Sciences politiques, Paris, 1932 (au **C.D.N.** , dossier A - 4 - 16); EL MENIF, (M.S.), **L'Islam face au colonialisme en Tunisie, le problème des Naturalisations**, Mémoire pour le Diplôme d'Etudes Supérieures de Sciences politiques (Dactylographié), université de Paris - I - Panthéon Sorbonne; Février 1974.

438) كزدغلي، المرجع السّابق، ص 43 وما بعدها، وكذلك EL MENIF, op.cit , p. 39.

439) EL MENIF, **op.cit.**, p. 48.

440) كزدغلي، المرجع السابق، ص 42.

441) نفس المرجع، ص 45 وكذلك: LAKHDAR, **op.cit.**, p. 47.

442) ح: ص. «توزر ومسألة التّجنيس»، لسان الشعب، عدد 522، ليوم 1933/4/19، ص 3.

443) محمد الهادي العامري، «مظاهرة القيروان»، نفس المصدر، عدد 523، ليوم 1933/4/26، ص 2 وكذلك «مظاهرة القيروان»، الزهرة، عدد 7777، ليوم 1933/4/25، ص 1، وكذلك، «الحكم في قضية المتظاهرين بالقيروان»، نفس المصدر، عدد 7781، ليوم 1933/4/30، ص 3.

444) مكاتب «التظاهر ضدّ التّجنيس بالمكنين»، لسان الشعب عدد 525، ليوم 1933/10/5، ص 3.

445) البشير الخنقي، «حوادث التّجنيس أيضا: قلاقل المنستير»، نفس المصدر، عدد 538، ليوم 1933/8/16، ص 1، وكذلك البشير الخنقي «انتهاء حوادث المنستير»، نفس المصدر، عدد 540، ليوم 1933/9/6، ص 1 ، و «حوادث كبرى بالمنستير»، نفس المصدر، عدد 537، ليوم 1933/8/9، ص 2

446) «مظاهرة شعبية بحمام الأنف»، الزّهرة، عدد 7772، ليوم 1933/4/19، ص 3.

447) «مظاهرة أهل سوسة الواقعة صباح يوم الثلاثاء ضدّ التّجنيس والفتوى الصادرة في شأنه»، نفس المصدر، عدد 7774، ليوم 1933/4/21، ص 2.

وقفصة (448)، بالإضافة إلى العاصمة، وهي حوادث زادت في إذكائها فتوى علماء الشّرع من المذهبين المالكي والحنفي (449).

فماذا كان موقف ودور الطرق الصّوفية في تلك الأحداث؟

لا شيء في إطار الوثائق والمصادر التي إطّلعنا عليها ـ يمكّننا من الإجابة على ذلك، لكن ـ رغم ذلك ـ هناك أمران يلفتان الإنتباه:

* **أولهما** أنّ بعض تلك الأحداث جدّت في مراكز عُرفت بنفوذ الطرق الصّوفية فيها كـقفصة التي تحتلّ المرتبة الأولى في جهة الجنوب من حيث العدد الجملي لأتباع الطرق بها سنة 1925، وكذلك توزر.

ولكن رغم ذلك لا نجد أثرًا لدور الطرق في تلك الأحداث، وهذا يحملنا على القول بأنّ هناك دوافع وقوى أخرى حلّت محلّها في تحريك الجماهير.

* **ثانيهما** أنّ تلك التحرّكات وردود الفعل لم تكن بارزة في مناطق الوسط الغربي والشّمال الغربي المجال الحيوي للطرق من حيث عدد أتباعها.

وحتّى وإن وُجدت (تلك الأحداث والتحرّكات) فإنّها لم تكن بنفس الحدّة التي سُجّلت بالمناطق الساحلية حيث عدد الأتباع أقلّ حسب إحصائيات 1925.

إنّ هذا الوضع يحملنا على القول بأنّه وإن كانت مناطق الشّمال الغربي والوسط الغربي تمثّل المجال التّقليدي لنفوذ الطرق، فإنّ المناطق السّاحلية والأوساط الحضرية بمميّزاتها وخصوصياتها مثّلت ـ على ما يبدو ـ مَنْبَتَ ونشأة الأحزاب السياسية التي أصبحت قادرة على تحريك أكثر النّاس، ليس فقط في المناطق السّاحلية، وإنّما أيضا في بقية أنحاءالايالة، ممّا زاد في توسّع قاعدتها الشّعبية على حساب الطرق الصّوفية.

لقد استقطبت قوانين التّجنيس العديد من التّونسيين المسلمين (450) من أوساط إجتماعية مختلفة.

فهل يمكن القوْل بأنّالعديد أو البعض من مشائخ الطرق أو أتباعها كانوا ضمن المتجنّسين؟

---

448) «تأثير فتوى التّجنيس بداخل المملكة»، نفس المصدر، عدد 7773، ليوم 1933/4/20، ص 3، وكذلك: "Echos de Gafsa", **La Voix du Tunisien**, n°= 574, du 1/4/1933, p 2

449) أنظر ذلك في آخر الفصل.

450) أنظر الاحصائيات المتعلّقة بالمتجنّسين في: EL MENIF, **op.cit**, pp. 53, 133, 136.

للإجابة على ذلك لابدّ من التعرّف على من اتّجهت إليه قوانين التّجنيس تبعا للسّياسة الإستعمارية:

لقد أوضح ذلك الفصل الرّابع من قانون التّجنيس الصّادر يوم 20 ديسمبر 1923 (451) والذي نصّ على أنّ الرّاغبين في التجنيس بالجنسية الفرنسية يجب عليهم «أن يثبتوا أنّهم يُحسنون الكتابة والتكلّم بسهولة باللّغة الفرنساوية إن لزم إثباته لذلك. . . [كما يشمل] الرّعايا الذين حصلوا على شهادة اللّيسانس في الأدب، أو في العلوم، أو في الحقوق، وشهادة الدكتوراه في الطبّ، أو شهادة في الصيْدلة من الرّتبة الأولى، أو لقب تلميذ مقيم بالمستشفيات يسمّى بعد مناظرة بمدينة توجد فيها كلية طبية، أو على الشهادة التي تصدر عن المدرسة الجامعة للفنون والمعامل. . .» (452).

وبهذا يمكننا القول بأنّ التّجنيس يتّجه بالدّرجة الأولى إلى النّخبة المثقّفة من التّونسيين، ليجلب لفرنسا ــ عناصر ــ ممتازة تساعدها على إنجاح سياسة الإندماج من جهة، ولتقطع تلك الفئة الواعية عن مجتمعها لتحول ــ بالتّالي ــ دون قيامها بالدّور التوعوي والنّضالي الوطني المرتقب منها من جهة أخرى.

وممّا يثبت ما ذهبنا إليه أنّ التّصنيف الإجتماعي للمتجنّسين بالايالة سنتي 1928 و1929 يبرز أنّ 85٪ منهم من الموظّفين، و12٪ من الفلاّحين (453)، وهي فئات متمركزة أساسا في المدن.

كلّ هذه المعطيات ــ إذا أخذنا بالإعتبار المستوى الثّقافي المتدنّي لجلّ أتباع الطرق الصّوفية وحتّى لأغلبية مشائخها ــ تحملنا على القول بأنّ هؤلاء لا يستجيبون للشّروط التي حدّدتها قوانين التّجنيس، وبالتّالي ليسوا الفئة المعنية بذلك بالدّرجة الأولى.

وهذا من شأنه أن يجعل عدد المتجنّسين ــ ضمن مشائخ الطرق الصوفية وأتباعها ــ ضئيلا وليس منعدما تماما.

إذ يمكننا الإشارة في هذا المجال إلى أنّ «هناك شخص متجنّس من سكّان قصيبة المديُوني، ومن أتباع الطريقة المدنية يُدْعى عبدالقادر مالك، رفع الى

---

451) أنظر فصول ذلك القانون في الكزدعلي، المرجع السابق، ص 138 وكذلك. LAKDHAR, op.cit., p. 50 et 51, de même EL MENIF, op.cit., p. 111.

452) الكزدغلي، المرجع السابق، ص 138، أنظر كذلك العدد 105 من الرائد الرسمي التّونسي، تونس المطبعة الرّسمية للبلاد التونسية ليوم 22 جمادي الأولى 1342/ الموافق لـ31 ديسمبر1923.

453) LAKDHAR, op.cit, p. 48.

بريفادي [رئيس مركز الشرطة] المنستير دعوى ملخّصها أنّ زمرة من السكّان أخذوا يحرّضـون النّاس على منعـه من الدّخول للجـامع يوم الجمـعة. . .، وأدلى على ذلك بشهود ثلاثة: شيخ الطريقة المدنية، وإمام الجامع، وشيخ القرية. .»!(454).

هذا مع العـلم بأنّ عـبدالقـادر المذكور المتـجنّس من الأتبـاع المخلصين لشيخ الطريقة المدنية (455) الذي ــ على حدّ قول المراسـل ــ أدلى بشهادته في القضية «باطلا. . . عند العامل. . .»!(456).

وهذا يحـملنا على القـول بـأنّ الشـيخ المذكـور ليس فـقط لـم ينكر التجنّس على أحد أتبـاعه، بل دافع عنه وأدلى بشهادته لصـالحه، وهذا في حدّ ذاته يعتبر موقفـا مساندًا للتّجنيس والمتجنّسين من طرف شيخ الطريقة المدنية بقصيبة المديوني.

ومن جهـة أخرى، وبعـد قرار السّلط الإسـتعـمارية القـاضي بإحداث مـقابر للمتـجنّسين في مختـلف أنحاء الايالة (457)، وقع في الجريصة تخصـيص قطعة أرض «للمـسلمين الفـرنسيين. . .، مسـاحـتـها سـبـعة مائة وثمـان وستّين متـر مـربع. . .، منحت مـجانـا للدّولة بتـاريخ التّاسع من أوت سنة 1933 من طرف أحـمد بوحـجر بـن عبـدالله الولي المعـتبـر بالجهـة. . .، والذي كـان قد قـدم من قـفصـة. . .، وأسّس في مـشيـخـة المسْكية زاوية فـرعـية لزاوية سـيـدي بوحجـر (الرّحمانية) بقفصة (458).

إنّ هذه المبادرة من الشّيخ المذكور لا توضّح موقـفه من التّجنيس فحسب، بل كذلك مساهمته في مساعدة السّلط الإستعمارية على إيجاد حلّ لتلك المعضلة.

على أنّ مـا تجـدر الإشـارة إليـه في هذا المجـال، أنّه في الوقت الذي كـانت تحدث فـيه مشـادّات بين الأهالي وقوّات الإحـتلال للحيْلولة دون دفـن المتجنّسين

454) المراسل المتجـوّل، «المتجنّسـون وجـوامع المسلمين»، لسان الشعب، السّنــة 14، عـدد 539، ليوم 1933/8/23، ص 3.

455) الكاتب المتحوّل، «شيخ طريقة يتكلم»، نفس المصدر، عدد 541، ليوم 1933/9/13، ص 3

456) «بيان حقيقة»، نفس المصدر، عدد 543، ليوم 1933/9/27، ص 3.

457) حول ذلك أنظر: MAHJOUBI, Les Origines., p 509

458) A.G.T., Note sur le Cimetière des Musulmans Français à Djérissa, par le C.C. du Kef au R G., le 27/12/1933, E 580 - 4.

في مقابر المسلمين كما حدث ببنزرت (459)، ومنزل بورقيبة (460)، وتونس(461)، كان الشيخ أحمد بوحجر ـ السّابق الذكر ـ يدفن ـ يوم 29 نوفمبر 1933 ـ أوّل مسلم متجنّس بالمقبرة التي أوجدها خصّيصا لذلك: حيث «صلّى عليه بنفسه (شيخ الطريقة) صلاة الجنازة ـ، ونضح قبره بالماء وزهر البرتقال وبالعطر، وهو الذي ـ أيضا ـ غسل جسده حسب الطّقوس القرآنية...»!(462) على حدّ قول المصادر الرّسمية نفسها.

تلك هي العناية والحُظْوة التي لقيها موْت متجنّس بالجريصة من قبل شيخ طريقة، بينما نلاحظ ـ في المقابل ـ أنّ اثنيْن من غسّالي الموْتى جلبهما المراقب المدني بتونس ـ غرّة ـ بعد موت المتجنّس موسى، وما ان تفطّنا إلى حقيقة الميّت حتى لاذا بالفرار، ممّا حتّم جلب اثنيْن آخريْن كُلّف شيخ باب سويقة بملازمتهما لحراستهما حتى يُكملا مهمّتهما، علما وأنّه لم يكن هناك من يصلّي عليه، ولا حتّى من يحمل جثمانه!.

إذ أنّ أربعة حمّالة ـ جُلبوا غرّة للغرض ـ قد لاذوا بالفرار، ورغم أنّ الحمّالين كانوا كثيرين في ساحة باب سويقة ـ قبل الحادثة ـ فإنهم سرعان ما اختفوا، ولم يعثر على واحد منهم (463).

وبالمقارنة بين ما جدّفي الجريصة وما حدث في باب سويقة - في نفس التّاريخ - نتبيّن المقاطعة التامة للمتجنّسين الأموات في كلّ كبيرة وصغيرة في باب سويقة، بينما هناك تعامل يبدو عاديا وطبيعيا معهم مع أحد مشائخ الصّوفية بالجريصة.

وهو ما يوضّح مخالفة بعض مشائخ الطرق لما كانت عليه أغلب فئات المجتمع التّونسي آنذاك، ويُبرز الوعي بالمقاطعة الذي شمل غسّالي الموْتى والحمّالة في المدن، في حين ظلّ ذلك الوعي معدومًا لدى بعض مشائخ الطرق الصّوفية في الآفاق، حيث حالت ممارساتهم تلك دون تجذير القطيعة بين المتجنّسين وبقيّة الأهالي.

(459) Le R.G. au Ministre des Affaires Etrangères à Paris, le 29/4/1933, **Revue WATHAIQ**..., p. 11.

(460) **Ibid.**, p. 21.

(461) **Ibid.**, pp. 19 - 21.

(262) **A.G.T.**, Note sur le Cimetière des Musulmans..., p. 1.

(463) **Ibid.**, Le Président de la ligue des Musulmans Français au C.C. de Tunis, Le 26/9/1933, pp 1 - 3, p. 1, E 580 - 4.

وهو ما جعل جنازة المتجنّس بالجريصة ــ التي أشرف على تجهيزها الشيخ أحمد بوحجر السّابق الذكر ــ «يتبعها عدد كبير من المسلمين غير المتجنّسين والذين لم يغضبهم أن يروا متجنّسا يدفن في أرض مقدّسة، كما شهد الجنازة كلّ الإطار الفرنسي ــ تقريبا ــ العامل بمنجم الجريصة أيْن كان الميّت يشغل خطّة محاسب وكيمياوي. . .»! (464).

إنّ المواقف التي كانت لبعض مشائخ الطّرق الصّوفية من أحداث التّجنيس لا تفسّر محدودية وقلّة المظاهرات الجهوية من التّجنيس ــ بمناطق الشّمال والوسط الغربييْن بالمقارنة مع الجهات الساحلية ــ فحسب، بل تُبرز مرّة أخرى موقفهم الرّسمي في إتّجاه يصادم التيّار العام للأحداث، ويخالف ما اتّفقت عليه المجموعة الوطنية، وما مات ــ آنذاك ــ من أجله العديد من الشّهداء، ممّا جعل أولائك المشائخ لا يستفيدون من تلك الأحداث.

ذلك أنّ أحداث التّجنيس كانت مناسبة وفرصة كان في إمكان الطرق الصّوفية إستغلالها وتوظيفها لصالحها، لكنّها وقفت منها مواقف دعّمت مواقع خصومها على حسابها.

أما فيما يخصّ المؤتمر الإفخارستي (465) فقد انعقد بقرطاج من يوم 7 إلى يوم 11 مـــاي 1930.

وقد اعتبره المسلمون- آنذاك- حملة صليبية جديدة بسبب المظاهر والممارسات والتّصريحات التي مثّلت تحدّيا سافرا للإسلام والمسلمين آنذاك(466).

وهو ما أدّى إلى إضراب تلامذة العديد من المؤسّسات التّعليمية بالحاضرة عن الدّروس، وتنظيمهم للعديد من المظاهرات والمسيرات، وإرسال رجالات الحزب الحرب الدستوري التونسي رسالة إلى الباي لدعوته إلى التخلّي عن الرئاسة

(464) **Ibid.**, Note sur le Cimetière des Musulmans .., p. 2.

(465) حول المؤتمر الافخارستي، انظر: **C.D.N.**, Section Mouvement National, le 30è Congrés Eucharistique de Carthage (7 au 11/5/1930), A - 4 - 5, de même au **C.N.U.D.S.T.**, Tunisie 1917 - 1940, dossier unique, 1/1930 - 11/1934, du f. 1 au f 247; ainsi que **MAHJOUBI**, **Les Origines...**, p. 466.

(466) حول أهمّ مظاهر التحدّي، أنظر «تنويه الصحافة الأجنبية بتسامح الاسلام»، الزهرة، السّنة 42، عدد 6871، ليوم 1930/5/5، ص 1، و «نشاط الكنيسة الكاثوليكية»، نفس المصدر، عدد 6863، ليوم 1930/4/25، ص 1، وكذلك بمركز التّوثيق القومي، الحركة الوطنية «مسودّات قضية المؤتمر الافخارستي، 8»، المؤتمر الافخارستي المنعقد في قرطاج يوم 7 الى 11 ماي 1930، أ ــ 4 ــ 5، وكذلك: MAHJOUBI, **Les Origines**.., p 468.

الشّرفية للمؤتمر (467) وكذلك، العديد من أعضاء حكومته (468).

ولكن رغم تتبّعنا لجرائد تلك الفترة (469)، والاطلاع على العديد من المصادر المتعلّقة بتحضيرات وأشغال ذلك المؤتمر وردود فعله، فإنّنا لم نعثر على ما من شأنه أن يوضّح لنا موقف الطّرق الصّوفية أوْ بعضها من ذلك الحدث البارز في تاريخ تونس المعاصر.

فهل أنّ شيوخ مشائخ بعض الطرق الصّوفية القارّين بالحاضرة، بالاضافة إلى 9.172 العدد الجملي لأتباع مختلف الطرق بالحاضرة حسب احصائيات 1925 لم يكن لهم موقف واضح من ذلك الحدث البارز الذي دارت وقائعه قريبا منهم، وأثار ردود فعل داخلية وخارجية؟

لا شيء — في حدود إطّلاعنا — يمكّننا من الإجابة على ذلك.

من خلال كلّ ما سبق يمكننا القول بأنّ بعض الطرق الصّوفية بوقوفها مواقف مصادمة للرّأي العام في أغلب الأحيان ولمسار الأحداث في تاريخ الحركة الوطنية — كما كان الشأن بالنّسبة لأحداث الزلاّج أو مقاطعة التّراماواي أو التّجنيس — ، أو — كذلك — بسكوتها كما كان الحال بالنّسبة للمؤتمر الافخارستي، يظهر أنّها أضاعت على نفسها ظروفا كانت فيها المشاعر الدينية لدى الأهالي في أوجها، وكان أولى بتلك الطرق — لانتسابها للدّين — أنّ تلفّ حولها الجماهير، وتوسّع بالتّالي قاعدتها الشّعبية، وتقطع الطريقة على الأحزابالسياسية المنافسة لها، أو تسايرها على الأقل، إلاّ أنّ شيًا من ذلك لم يقع.

---

467) مركز التوثيق القومي، الحركة الوطنية «مسودّات قضية... 4» ص 2 — 5، وكذلك: MAHJOUBI, Les Origines.., p. 470 - 471.

468) نفس المصدر، ص 5 — 6 وكذلك: MAHJOUBI Les Origines..., p. 471.

469) من تلك الجرائد بالعربية، الزّهرة، من العدد 6767 ليوم 1930/1/1 الى العدد 6917 ليوم 1930/6/30، و جريدة الصّواب، من العدد 608 ليوم 1930/1/3 الى العدد 645 ليوم 1930/12/26، وجريدة النديم، تونس، المطبعة التّونسية من العدد 432 ليوم 1930/1/4 الى العدد 476 ليوم 1930/12/27، وجريدة النهضة، تونس، مطبعة النّهضة من العدد 2087، ليوم 1930/1/1 الى العدد 2263 ليوم 1930/7/31 ومن الجرائد الناطقة بالفرنسية: Tunis Socialiste, Imp. de Tunis; du n° 2508 au n° 2748, La Dépêche Tunisienne, du n° 14065 au n° 14125; La Tunisie Française, du n° 7882 au n° 8263.

فقد استغلّت التّشكيلات السّياسية وخاصّة الحزب الحرّ الدستوري التّونسي جلّ تلك الأحداث وبالخصوص أحداث التّجنيس التي مثّلت بالنّسبة إليه أداة عمل وظّفها في تكثيف اتصالاته بالنّاس بعقد الاجتماعات المتتالية، وتحرير العرائض، وتنظيم المسيرات، والاتّصال ببعض الأعيان في الايالة، والتّركيز على أنّ التخلّي عن الجنسية هو تخلٍّ عن الدّين، وأنّ «الدّفاع عن الإسلام لا ينفصل عن الدّفاع عن الأمّة، ممّا جعل الشّعور الوطني ــ أثناء انعقاد المؤتمر الإفخارستي يمتزج بالشعور الدّيني. . .» (470).

وهذا الأمر ألهب حماس الجماهير، وجعلها تشعر بخطر الإندماج وذوبان هويتها، فخرجت إلى الشّوارع ــ في مختلف جهات البلاد معبّرة عن رفضها للتّجنيس والمتجنّسين، متجاوزة حتى «العلماء الرّسميين» الذين لم يصدروا فتوى تُدين التّجنيس (471)، وبلغ الأمر حدّ مقاطعة الصّلاة وراءهم.

كلّ هذا يبرز تخلّف الطّرق عن القيام بدورها، وتقدّم الأحزاب السياسية للأخذ بزمام المبادرة، واستقطابها لاهتمام أوسع الفئات الشعبية بما في ذلك أتباع الطرق ممّا سيؤدّي ــ تدريجيا ــ إلى ضعف سلطة هذه الأخيرة.

على أنّ ما تجدر الاشارة إليه ــ في ختام هذه الفقرة ــ هو أن وقوف بعض مشائخ الطرق ــ من العديد من الأحداث ــ مواقف تتناقض مع ما عبّرت عنه الجماهير، أو سكوتهم وسلبيتهم ليس تجاه المؤتمر الافخارستي فحسب، بل إزاء العديد من الأحداث البارزة كتأسيس «جامعة عموم العملة التّونسية» (472)، أو

470) MAHJOUBI, Les **Origines..**, p. 473.

471) حول موقف علماء الشرع من التجنيس، أنظر، ش، «مثال متجنّس»، لسان الشعب، السّنة 13، عدد 513، ليوم 1933/1/11، ص 3، البشير الخنقي، «مسألة التّجنيس والمشاكل النّاجمة عنها»، نفس المصدر، عدد 521 ليوم 1933/4/9 ص 1، البشير الخنقي، «حول فتوى التّجنيس والمشاكل النّاتجة عنها»، نفس المصدر عدد 523، ليوم 1933/4/26، ص 1، وكذلك عدد 524 ليوم 1933/5/3، ص 1 والعددين 525 ص 1، و527، ص 1 .

472) حول جامعة عموم العملة أنظر، الطاهر الحدّاد، العمّال التّونسيون وظهور الحركة النقابية، تونس مطبعة العرب، 1927، وكذلك: HERMASSI (A.), **Mouvement Ouvrier en Société coloniale, la Tunisie entre les deux guerres**, Thèse de doctorat de 3è cycle (non publiée), Ecole Pratique des Hautes Etudes, 6è Section, Sciences économiques et Sociales, Paris, 1966; de même KRAIEM (M.), **Nationalisme et syndicalisme en Tunisie, 1918 - 1929**, Tunis; Imprimerie U.G.T.T. 1976, ainsi que LOUZON (R.), "De Mohamed Ali à Farhat Hached: l'action ouvrière en Tunisie", **La Révolution Prolétarienne**, n° 72 (mai 1953), pp. 129 - 132.

التـصدّع الذي حـصل داخل الحـزب الحر الـدستـوري التّونسي (473)، وخاصـة أحداث أفريل 1938 (474)، يعود أساسا إلى طبيعة مهمّة مشائخ الطرق، ودورهم ــ في الغـالـب ــ كـجهـاز رسـمي، ونظرا كذلك لـطبيـعـة الفكر الطرقي، والذي بوسائله التربوية المتميّزة ــ كالأذكار، والأوراد والضّرب على الدفّ وغيره، مع ما يصاحب ذلك من حـالات الجذب والوجد ــ أوجـد عند أتباعه إنصرافًا شبه كلّي عن الإنشغال بالدّنيا.

ذلك أنّ الفكر الـطّرقي ركّز في حـيـاة المريدين على جـانـب العـبـادات على حسـاب جانب المعامـلات، مسـاهما بذلك في الإنغلاق الفـكري، والحيْلولة دون فتح باب الاجتهاد، ممّا أدّى الى الوقوع في التّقليد عوضا عن التعامل مع نصوص الشريعـة بطريقة منتـجة تسـاعد على دفع الحـياة الاجتـماعـية إلى الأمـام في إطار مقاصدها التي جاءت من أجلها.

إنّ هذه الأزمـة ــ وإن كانت ليـست أزمة الـفكر الطرقي فحـسب وإنما أزمة الـفكر الإسلامي عـامة في عـصور الإنحطاط ــ جـعلت الفكر الطرقي غـير مهتمّ بواقع المستغَلّين عامّة، ضحايا تغلغل الراسمال الإستعماري الذي ابتزّ ثروات البلاد، وفتحها لمشاريعه، وزاد في حدّة الفوارق الإجتماعية.

كما عمد الإستعمار الفرنسي بالبـلاد التّونسية إلى انتهاج سياسة «الإندماج»، والعمـل على ضرب الهـوية الإسلاميـة للأهالي، وهي أمـور أدّت إلى عدّة ردود فعل شعبية ضخمة شدّت إليها الإنتباه محلّيا وخارجيا.

ولكن رغم ذلك فـإنّ بعض الطرق الصّوفـية لم تفـوّت على نفـسهـا فرصـة استغـلال تلك الأحداث فحسب، بل مكّنت منافـسيها من التّشـهير بها وإقـصائها تدريجيا خاصة بعد مواقف بعض تلك الطرق من الحركة الوطنية.

473) حول ذلك الانشقاق والتصدّع وأسبابه أنظر: MAHJOUBI, Les Origines.., pp 514 - 535

474) حول أحداث أفريل 1938 أنظر: CHERIF, "L'Organisation des masses populaires par le Néo-destour en 1937 et au debut de 1938, les Journées d'avril 1938 à Tunis", **Mouvements Nationaux d'Indépendance et Classes populaires aux XIXè et XXè siècles en Occident et en Orient**, Paris, Armand Colin, 1971, pp 264 - 294

3) مواقف الطرق الصّوفية من الحركة الوطنية:

لئن كان وجود الطّرق الصّوفية ـــ زمنيا ـــ سابقا لانبعاث الحركة الوطنية، فإنّه كان من المفروض على الطرق أن تساندها، أو على الأقلّ أن تلازم الحياد في صراع تلك الحركة مع الاستعمار الفرنسي بالبلاد.

فما هو الموقف الذي اختارته في النهاية؟

انّ المتتبّع لمواقف الطرق الصوفية من هذه المسألة يتبيّن أمريْن:

* **أوّلهما**: قلّة تلك المواقف ـ حسب الوثائق التي إطّلعنا عليها ـ حتى فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى باستثناء ما صدر عنها أثناء أحداث الزلاّج أو مقاطعة التّراماواي.

* **ثانيهما** أنّ تلك المواقف ـــ إنطلاقا من نفس الوثائق ـــ كثرت نسبيا، وتوضّحت خاصة منذ سنة 1930.

لقد صدرت تلك المواقف أساسا عن بعض مشائخ زوايا الطريقتيْن التّيجانية والقادرية: فبالنسبة إلى الأولى يمكننا تبيّن بعض مواقفها ممّا ذكره شيخ زاويتها ببوعرادة، أما الثانية فيمكننا أن نتتبّع مواقفها من خلال ما صدر عن شيخ زاويتها بالكاف.

أ ـ مواقف بعض الطرق من النّضال الوطني بين 1920 و 1933:

في ما يتعلّق بمواقف الطرق الصّوفية من التأسيس الفعلي للحزب الحرّ الدستوري التونسي سنة 1920، فإننا لا نجد من تلك المواقف إلا موقفا واحدا انفرد به شيخ زاوية الطريقة التّيجانية ببوعرادة الذي ورد قوله: «**أثناء التحرّكات الدستورية المطالبة بإخراج فرنسا، وحكومة مسؤولة وبرلمان... ـ حيث كان مع تلك الحركة باي تونس الذي مات، والقاضي الصادق النّيفر(ت. 1937)ـــ...، كان والده يصرّح بمساعدته لفرنسا حتى النهاية، ويوصي أتباعه بذلك، وأن لا**

يشاركوا الدستوريين، الأمر الذي جعل هؤلاء يشنّون عليه حربا . . .»! (475).

فواضح من خلال هذا أنّه في الوقت الذي توصّل فيه الوطنيون إلى تكوين حزب سياسي كوسيلة نضال مكّنتهم من إرسال الوفود إلى باريس والاتّصال بالباي للتّحسيس محليا وخارجيا بالقضية الوطنية، كان شيخ زاوية التّيجانية ببوعرادة يظهر في نشاز وتناقض مع كلّ ذلك.

كما نستنتج من نفس موقف الشيخ السّالف الذكر تجريده للمطالب الوطنية آنذاك بل وتشويهها، حيث استهلّها بـ «إخراج فرنسا l'expulsion de la France»، في حين أنّ المتأمّل في تلك المطالب (476) يجدها تتمحور في عدة إصلاحات في إطار نظام الحماية نفسه (477).

وهو ما يوضّح التّحامل الواضح على الوطنيين آنذاك، وتهويل تلك المطالب بإظهارها بمظهر المهدّد للوجود الفرنسي بالبلاد، لا لشيء إلاّ لاستفزاز السّلط الإستعمارية، وتحريضها على ضرب ذلك التجمّع السياسي قبل تجذّره.

كما نتبيّن من نفس الموقف تعمّد ذلك الشّيخ الى كشف المتفاعلين والمتعاطفين مع الدستور ومطالبه، أمثال «باي تونس»، ولعله يقصد ـ بذلك ـ محمد النّاصر باي (ت. 1922) الذي عرف بحبّه للإصلاح، وتفاعله مع المطالب الدستورية (478)، الأمر الذي جعل الحزب الحرّ الدستوري التونسي يرسل إليه وفداً (479) لكسبه أكثر، تدعيما للنّضال الوطني حتى يكسب مزيداً من الشرعية، لما للباي من قيمة وأهمّية في نظر أهالي الايالــــة.

لقد اتّضح تبنّي الباي المذكور للمطالب الوطنية في سلسلة المطالب التي قدّمها كشرط لتراجعه عن التنازل عن العرش (480)، حيث جاءت تلك الشروط ممثّلة ومشتملة على المطالب التي كان تقدّم بها الحزب الحرّ الدستوري التّونسي (481).

---

475) C.N.U.D.S.T., Le Chérif Tidjani au Ministre de la guerre à Paris, Le 14/12/1930, Tunisie, 1917 - 1940, dossier n°= 2.., f 3.

476) أنظر تلك المطالب في: MAHJOUBI, Les Origines.., p. 210 - 211

477) Ibid, p 226 - 227.

478) Ibid, p 233 - 234.

479) أنظر المدني، المرجع السابق، ج 1، ص 180 ـ 183 وكذلك. MAHJOUBI, Les Origines .., pp 233 - 236

480) حول تنازل الباي عن العرش وما عرف بـ «أزمة أفريل1922» أنظر المدني، المرجع السابق، ج. 1، ص 247 ـ 261، وكذلك. MAHJOUBI, Les Origines. , pp. 280 - 300.

481) MAHJOUBI, Les Origines .. p 289

إنّ تعمّد شيخ زاوية التّيجانية ببوعرادة كشف ذلك أو الإشارة إليه، يُوحي بإنكاره لذلك، كما يمثّل تهويلا منه للحزب المذكور الذي وصل نفوذه على حدّ قوله إلى كسب «باي البلاد والقاضي الصّادق النيفر».

كلّ ذلك إثارة للسّلط الإستعمارية وتخويفا لها من الخطر الذي أصبح يتهدّدها، وهو أمر أصبح أكثر وضوحًا منذ مطلع سنة 1930 خاصّة.

ذلك أنّ مواقف بعض الطّرق الصّوفية لم تعد تكتفي بالإشارة أو التّلميح، بل صار بعض مشائخها يكشفون بوضوح الخطر الذي يمثّله الوطنيون عليهم وعلى الإستعمار.

من ذلك أنّ شيخ زاوية التّيجانية ببوعرادة وصف «الدستوريين» بأعداء والده، وأعداء الهيمنة الفرنسية على تونس، مُبيّنا أن لا همّ لهم إلاّ عرقلة نشاطه، حيث يريدون ــ على حد قوله ــ إبعاده والقضاء عليه، لأنّهم يخشون نفوذه على أتباعه الذين عمل الدستوريون على جلبهم إليهم (482).

ويزداد موقف الشّيخ المذكور خطورة عندما عمد إلى كشف مواقف «الدستوريين»، والمسؤوليات التي يتحمّلها الكثيرون منهم في صلب مؤسّسات الدولة.

فلقد جاء في رسالة منه إلى وزير الحربية الفرنسي قوله: «إنّ الدستوريين أصبح منهم القايد والخليفة، كما صاروا في حاشية البايات، والوزير الأوّل، وفي الدّاخلية...، والعدلية، وفي كلّ مكان تبعًا لسياسة المقيم العام...» (483)، مضيفا أنّ «الدستوريين» ــ بالسّلطات التي صارت لهم ــ يهدفون الى تقويض «تونس الفرنسية، وجعل حكومتها في صالح أهدافهم المستقبلية، وضدّ الإسلام الحقيقي الذي يجب أن يكون كلّيا لفرنسا ومع فرنسا...» (484) على حدّ قوله.

(482 A.M.A.E.F., Le Cheikh El Manoubi Tidjani au Chef du Secrétariat particulier du Minsitre des Affaires Etrangères Française à Paris, le 7/11/1929, Tunisie 1917 - 1940, vol 316.., f. 265.

(483 C.N.U.D.S.T, Le Chérif Tidjani au Minisitre de la guerre, le 14/12/1930, Tunisie 1917 - 1940..., f. 3

(484 Ibid.

أما في رسالته إلى المقيم العام الفرنسي فقد أشار إلى أنّ «البلاد خربّها الدستور، وأنّ الدستوريين متواجدون في كلّ الإدارات. . . ، في الدّاخلية، والعدلية، وحتى المالية، والفلاحة، والأمن العمومي، وفي الدّيوان، وضمن أوسع جماهير المساجد، وفي المحكمة المختلطة. . . ، وكذلك ضمن المحامين، والصيّادلة، والصحافيين، والوكلاء. . . ، والمجالس وغرف الفلاحة والتّجارة. . .» (485).

ومن جهة أخرى فإنّ أحمد قدّور ـ شيخ زاوية القادرية بالكاف ـ أشار هو الآخر إلى ما فعله «الدستور» في البلاد، مؤكّدًا على تواطئ بعض المسؤولين مع «الدستوريين».

وهو ما ساهم ـ على حدّ قوله ـ في «انتشار الأفكار الدستورية ضمن السكّان المحلّيين لجهة ڤعفور، ممّا يمثّل ضررًا على الحكومة. . .»! (486).

ولمعالجة تلك الظّاهرة يرى أحمد قدّور أنّه «لا يمكن للحكومة أن تحدّ نهائيا من توسّع تحرّكات «الدستوريين» إلاّ بإقرارها لعقوبات ضدّ كلّ من يساهم في ذلك»! (487).

وبقطع النّظر عن مدى صحّة ما ذهب إليه شيخا الزّاويتين المذكورتين، وكذلك عن خلفيات ودوافع كل ذلك، فإنّ مواقفهما عبّرت عن العداوة التي بينهما وبين الحزب الحرّ الدستوري التّونسي، وهي عداوة مدارها الصّراع بين الطرفين على استقطاب المزيد من الأتباع على حساب الآخر.

من ذلك أنّ شيخ زاوية التّيجانية ببوعرادة وصف «الدستوريين» بأعدائه وأعداء والده، مؤكّدا أنّه لا همّ لهم إلاّ عرقلة نشاطه والقضاء عليه لخشيتهم ـ على حدّ قوله ـ لنفوذه على أتباعه الذين عملوا على جلبهم إليهم.

كما أوضح أنّ «الدّستوريين» عملوا على الإنتقام من روح والده في قبره بالإنتقام من ولده وعائلته (488).

أمّا شيخ زاوية القادرية بالكاف ـ السّالف الذكر والذي ساءه صدّ إبراهيم بن حسن من ڤعفور لحوالي مائة وخمسين من أتباعه بالجهة المذكورة عن زيارة زاويته

(485 Ibid , Le Chérif Tidjani à Marcel Peyrouton le R.G., le 1/1/1934, D 156 - 21.

(486 A.G.T , Ahmed Kaddour El Mizoun, au C C. du Kef, le 21/3/1931, D 97 - 2.

(488 C N.U.D.S.T , Le Chérif Tidjani au Ministre de la Guerre ., f 4

بالكاف ــ فقد كتب الى المراقب المدني بالكاف يقول: «إنّ المحرّك الحقيقي لتلك الحادثة هو المسمّى إبراهيم بن حسن. . .، الذي ينتمي إلى الدّستور، ولا يخفى عليكم ما فعله الدّستور، والعداوة التي يكنّها لكلّ الطرق بدعوى أنّ مشائخها أعوان للحكومة الفرنسية. . .، وحسب بعض الأهالي المعنيين بالأمر فإنّ الدستوري إبراهيم بن حسن يطلق على بعض الأتباع اسم الكلب. . .، كما لا يتردّد في شتمهم وشتم الزّاوية في نفس الوقت. . .»! (489).

هذا مع العلم أنّ ابراهيم هذا ــ حسب ما أورده عامل تبرسق ــ «مشهور بالعجرفة مع أولي الأمر، والتطرّف مع السّلطة، وقد كان استلفت النّظر أثناء الحرب بتصريحاته ضدّ الحكومة، ووقع إيقافه مدّة شهر على ذمّة السّلطة الحربية ولم يرتدع. . .»! (490).

جاء ذلك تعقيبا من عامل تبرسق على الشّكاية التي قدّمها أحمد قدّور ضد ابراهيم المذكور بتاريخ 23 ماي 1931 (491).

وهذا يكشف مدى العلاقات المتوتّرة بينهما، وهو توتّر مصدره شعور بعض مشائخ الطرق بالخطر الذي يمثّله استقطاب الحزب الحرّ الدستوري لأتباعهم.

من خلال ما سبق، يمكننا القول بأنّ المتأمّل في مواقف بعض مشائخ الطرق الصوفية من الحركة الوطنية لا يتبيّن عداوتهم فلها فحسب، بل يلاحظ تعمّد بعض أولائك المشائخ تضخيم شأن «الدستوريين»، وإبرازهم بمظهر المهيمنين على جلّ المؤسّسات بالبلاد، بما في ذلك الحسّاسة منها جدّاً.

وهو تضخيم يدخل ــ كما أسلفنا ــ في إطار الصّراع بين بعض الطرق والأحزاب السياسية على استقطاب الأنصار والأتباع كلّ على حساب الآخر.

وبتلك المواقف عبّر شيخا زاويتيْ التّيجانية ببوعرادة والقادرية بالكاف عن تحالفهما مع الإستعمار، وإعطائهما الأولوية للخيار المصلحي على حساب الخيار الوطني.

A.G.T , Ahmed Kaddour au C C. du Kef .. (489

Ibid. (490

Ibid. (491

كما أنّهما بتلك المواقف قد أثبتا عجزهما على إدراك حقيقة الأحداث، والإتّجاه الصّحيح لها، وخاصّة القوى الفاعلة فيها، والنّتائج التي قد تتمخّض عنها.

وبذلك وعوض أن يعمل كل من شيخ زاويتي بوعرادة والكاف على الإستفادة من تلك الأحداث وتوظيفها لصالحهما - كما فعل الحزب الحرّ الدستوري آنذاك - وقفا يشهّران «بالدستوريّين»، ففوّت كلّ منهما على نفسه فرصة الإستفادة من عدّة أحداث لها صلة وثيقة بالدّين، وفّرت للمنتسبين إليه وخاصّة مشائخ الطرق مجالاً فسيحا للتحرّك.

فمن تلك الأحداث على المستوى المغربي لسنة 1930 طرح مسألة «الظّهير البربري» بالمغرب الأقصى (492)، والإحتفال بمائوية الإستعمار الفرنسي بالجزائر (493).

أمّا على مستوى الإيالة فقد انعقد المؤتمر الافخارستي بقرطاج، كما شُرع في الإعداد للإحتفال بمرور خمسين سنة على الإحتلال الفرنسي للبلاد التّونسية.

إلى كلّ هذا تضاف إثارة قضية التّجنيس من جديد في أواخر سنة 1932 بعد ان مات أحد المتجنّسين ببنزرت، وأفتى شيخها إدريس الشّريف (494) بالردّة،

---

492) الظهير المغربي: قوانين تتعلّق بالزّواج والطّلاق والمواريث بين المسلمين والبربر بالمغرب الأقصى، سنّتها السلط الاستعمارية هناك يوم 1930/5/16، حول ذلك أنظر: «حول مسألة البربر في المغرب الأقصى، هفوة يجب أن تتدارك»، لسان الشعب، السّنة 11، عدد 407، ليوم 1930/9/17، وكذلك:

EL KHLIL, "Le Maroc ne veut pas de l'evangelisation", **La voix du Tunisien**, Tunis, imp de Tunis, 1er Année, n° 23 - 24, du 19/9/1930,p 1 - 2; de même, PELLEGRIN (A.), "Une Loi Française et un Dahir Marocain", **Tunis Socialiste**, n° 2563, du 28/2/1930, p 1

493) حول ذلك الاحتفال، أنظر:

LAUZAN(S), "Le Centenaire de l'Algérie et le Cinquantenaire de la Tunisie", **La Tunisie Française**, 44è Année, n° 7882, du 3/1/1930, p.1; de même T F., "Le Centenaire de la Conquête d'Algérie", **La Tunisie Française**, n° 7913, du 3/2/1930, p. 1.

494) إدريس الشّريف، ولد ببنزرت يوم 1867/12/29 من عائلة أصلها من الجزائر، هاجرت الى بنزرت حوالي سنة 1846. حصل سنة 1896 على التطويع بجامع الزّيتونة وسنة 1897 كلّف بتصحيح المطبوعات بالمطبعة العربية الرّسمية. ونظرا لكفاءته أسندت اليه النّظارة العلمية خطّة التّدريس المالكي بالجامع الكبير ببنزرت، وفي سنة 1924 أسندت له خطّة الإفتاء واستمرّ مع ذلك في القاء =

ويعـدم الدّفن في مـقـابر المسلمين، ممّا حـمـــل السّلط عـلى دفنه في مـقـبـرة الصّربيين(495).

وللسّيطرة على الـوضع، وسعـيـا منهـا إلى الحـدّ من تأثيـر فتـوى الشـيخ إدريس المذكـور حصلت السّلط الإسـتعـمـارية على فتـوى من شيخ الاسـلام المالكي الطّاهر بن عاشور (ت. 1973).

لكن رغم ذلك زاد الوضع الدّيني بالبلاد تأزّما بعـد إعلان طلبة جامع الزّيتونة الإضراب، واتّفـاق «الناس على عدم الإقتداء ـ في الـصّلاة ـ بجميع الأيمّة الذين شـاركوا في تلك الفـتوى، وأن لا تقـام الصّلاة وراءهم. . . ، بالجوامع التي هم أيمّتها. . .» (496).

لقد ساهمت كلّ تلك الأحداث في شفافية الشّعور الدّيني وإذكائه لدى أغلب سكّان الإيالة الذين صـاروا يـشعـرون بـاعتـداء الأجـنبي على دينهم ومـقـوّمـات ذاتيتهم، فزاد ذلك في عدائهم له.

لقد وفّرت تلـك الظّروف ـ للعمل السـياسي ـ الأرضيـة الخصـبة للتـحرّك واسـتقطاب الجـماهيـر وتجمـيعـها، وبالتّالي الـعمل على تأطيـرها وتوظيفـها ضـدّ الإستعمار.

ب ـ تدعّم النّشـــاط الـوطني وإجـــراءات 1934 التـعسّفـيـة ومـوقــف الطـرق مـن كــلّ ذلـــك:

لقـد زاد التحـرّك الوطني تدعّمـا بعـد أن انضمّت للحـزب الحـرّ الدسـتـوري التّونسي عناصر جـديدة التحقت به بعد انعـقاد مؤتمره يوميْ 12 و13 ماي 1933، وهو ما وفّر إمكانيات أكثر للتحرّك.

= دروسـه اللّيليـة للعامّة ودروس الـعلم لطلاّبه. ألّف تآليف عـديدة منهـا رسالة سـمّاها «الورقـات الزاهرة الغـصـون»، توفّي سنة 1934، أنـظر حـسن بن صالح ابن الغـربية «ترحـمة المـقدّس المبرور سيدي ادريس الشريف مفتي بنزرت» الزّهرة السّنة47، عدد 8236، ليوم1934/10/26، ص3

495) ش. «مثـال متـحتّس»، لسان الـشعـب، السنة 13، عدد 513 ليوم 1933/1/11، ص 3، أنظـر كذلك MAHJOUBI, Les Origines ..., p. 486

496) «الحملة الصّليبية على الاسلام في شمال افريقيا»، مجلّـة الفتح، السّنة 7، عدد 348، ليـوم 14 صفر 1932/1352، ص 1 ـ 3 و 14 ـ 15، ص 1، أنظر كذلك مركز التوثيق القومي، الحركة الوطنية مسألة التّجنيس في مختلف أطوارها 1909 ـ1933، مسودّات قضية التّجنيس موضوع 6، ص 3، أ ـ 4 ـ 3، وكذلك: MAHJOUBI, Les Origines ... p. 487.

وبذلك كانت سنة 1933 سنة تململ واضطرابات متوالية شملت الأوساط الطلاّبية الزّيتونية والصّادقية، الأمر الذي دفع بالمقيم العام والباي ــ يوم 6 ماي 1933 ــ إلى الإمضاء على أمرين يقضيان بفرض الرّقابة الإدارية، وضرب الصّحف التّونسية الصّادرة باللّغة العربية.

وزادت تلك الإجراءات القمعية حدّة بتحجير كلّ الصّحف الوطنية يوم 27 ماي 1933، وبإقدام المقيم العام على حلّ الحزب الحرّ الدستوري التّونسي يوم 31 ماي (497).

فزاد ذلك في تكثّف النشاط الوطني، بعقد اجتماعات وقعت فيها الدّعوة إلى مقاطعة البضائع الفرنسية كالشّاي والقهوة والتّبغ، وفي نفس الفترة توقّفت الدروس بجامع الزيتونة، ووقع تتبّع بعض مشائخه.

ويوم 1 جوان 1933 شنّ عمّال الرّصيف إضرابا شلّ حركة ميناء تونس، ممّا دفع بالمقيم العام الفرنسي إلى وضع عدد من الدّستوريين تحت المراقبة.

إلاّ أنّ الأوساط الإستعمارية في الإيالة ــ آنذاك ــ طالبت بسياسة أكثر صلابة، فتمّ لذلك تعيين مارسال بيروطون كمقيم جديد يوم 29 جويلية 1933.

فعمل على إذكاء الخلافات وتفجيرها بين الحزب الدّستوري، و«جماعة العمل التونسي»، ممّا أدّى ــ إلى جانب أسباب أخرى ــ إلى انعقاد مؤتمر قصر هلال يوم 2 مارس 1934 الذي انبثق عنه «الحزب الدّستوري الجديد» (498).

فبادر إلى «الاتّصال المباشر بالشّعب، وبالشخصيّات الفرنسية، والأوساط السياسية، ووصل [في سياسته] إلى حدّ اعتماد الإضرابات، ومقاطعة السّلع الفرنسية، وحتّى دفع الضّرائب...» (499)، الأمر الذي دفع بالمقيم العام ــ يوم 3 سبتمبر 1934 ــ إلى إبعاد سبعة من قادة الحزب الجديد إلى الجنوب التّونسي، كما صودرت جريدة العمل، ومنعت الإجتماعات.

إلاّ أن ذلك زاد الأوضاع توتّرا باندلاع الإضطرابات في أغلب جهات البلاد،

---

497) «بلاغ»، الزهرة، السّنة 45، عدد 7810، ليوم 1933/6/2، ص 1.

498) حول ظروف نشأة الحزب الدستوري الجديد، أنظر: MAHJOUBI, Les Origines..., p. 514.

499) KASSAB, op.cit, p. 418

كأحداث المكنين يوم 5 سبتمبر 1934 (500).

لقد كان بإمكان الطرق الصوفية ان تستغلّ تلك الأحداث وتوظّفها ضدّ السّلط الإستعمارية، وتساير ـ بالتّالي ـ التيّار العام خاصّة وأنّ هيجان المشاعر الدينية قد وصل أوجه.

إلاّ أنّها ظلّت غير مبالية بالواقع المتحوّل الذي لم تعد هي الطرف الوحيد الفاعل فيه، ممّا ساهم في عُزلتها خاصّة بعدما وقف بعضها مرّة أخرى إلى جانب السّلط الإستعمارية يبارك قوانينها التعسّفية.

ذلك أنّه بعد تكثّف النّشاط الوطني ـ خاصّة في المساجد ـ أصدر المقيم العام الفرنسي منشور10 أكتوبر 1934، يدعو إلى منع الإجتماعات في المساجد والزّوايا وإلى تخصيصها للصّلاة فقط، محمّلا أيّة تلك الأماكن وكامل رجالها مسؤولية ما يجدّ داخلها (501).

فماذا كان ردّ فعل الطرق الصّوفية على تلك الإجراءات الإستعمارية؟

لقد أعرب أتباع التّيجانية بعين دراهم للمقيم العام الفرنسي عن استنكارهم - بالإجماع - لتصرّفات «الدستوريين الجدد» المنافية لأبسط مصالحهم، وإقرارهم لكلّ الإجراءات التي اتخذتها الحكومة و«الكفيلة - وحدها - بإقرار جوّ عادي من السّلم، والاستقرار اللاّزمين لازدهار البلاد»! (502) على حدّ قولهم.

أمّا أتباع ومقدّمو ـ نفس الطريقة ـ بهنشير سيدي الرّوماني - بسوق الخميس - فقد أعربوا - بدورهم - عن ولائهم الدّائم لفرنسا، وعن وضعهم لثقتهم المطلقة في المقيم العام الفرنسي وحكومته، مكْبرين جهوده الرّامية إلى استتباب الأمن «ضدّ محترفي الإخلال بالنّظام، وذوي الأعمال السيّئة التي تبرأ منها كلّ

---

500) حول أحداث المكنين، أنظر، «حوادث دامية بالمكنين»، الزهرة، السنة 47، عدد 8194، ليوم 1934/9/7، ص 2، وكذلك «حول حادثة المكنين»، نفس المصدر، عدد 8195، ليوم 1934/9/9، ص 2

501) A.G.T., Le Premier Ministre aux Caïds, Kahias et Cheikh El Médina, le 10/10/1934, D 97 - 3.

502) Ibid., Télégramme des Fidèles de la Confrérie des Tidjania de la région d'Aïn - Draham au C.C. de Tabarka, le 30/10/1934, D 156 - 21
أنظر الملحق رقم 9،

المواطنين. . .»! (503) على حدّ قولهم.

وهو نفس المـوقف الذي صدر عن أتباع نفس الطريقة بمنشار وقـصر مزوار ـ بجهة باجة ـ ، والذين ـ ندّدوا بدورهم ـ بممارسات «الدستوريين الجدد»، وتمنّوا الإبقـاء على تلك «الإجـراءات الأمنيـة» بشيء من الحـزم اللاّزم لإعـادة الطمـأنينة والأمن للبلاد، كـما استنكروا تصـرّفات أولائك «الذين يستغلّون طيـبة السكّان لتوظيفهم في أغراضهم الشـخصية. .»! (504).

تلك هي مواقف بعض مشائخ الطرق الصوفـية من قوانين القمع والإضطهاد للوطنيين، وضرب النضال الوطني في وقت عمّت فيـه الإحتجاجات والإضرابات أنحاء عديدة من البلاد للتّـعبير عن رفض تلك الإجـراءات نفسها ـ وخاصة منها إبعاد سبعة من قادة الحزب الجديد إلى الجنوب ـ والتصدّي لها.

فلقد نُظّمت مظاهرة سـلمية في القلعـة الكبرى (505)، وأخرى بتـونس أمام الإقامة العـامّة شارك فيها مـا يقرب عن ثلاثة آلاف شخص (506)، في حين قُدّر عدد المشاركين في مظاهرة توزر بحوالي مائة من الأهالي (507).

هـذا بـالإضـافـة إلى مظـاهرات أخـرى بـكلّ من الجـمّ قـام بـهـا أربعمـائـة شخص (508)، والمرسى التي ساهم فـيها ألفان وخـمسمائة فـرد أمام القـصـر الملكي يوم 4 سبتـمبر 1934 (509)، ومنزل تميم حـيث عـمـد أربعـمـائة شخص إلى منع انتصاب السّوق هنـــاك.

وكذلك صفـاقس أين نُظّمت مظاهرة أمام المراقبة المدنية، والقـيروان، وطبلبة التي ساهم في مظاهرتها مائتـان وخمسون شخصا، في حين بلغ العـدد خمسمائة

---

503) Ibid., Les Adeptes de la Confrérie des Tidjania à Souk-el-Khemis au R.G., le 1/4/1935, D 156 - 21. أنظر الملحق رقم 10، وكذلك الملحق رقم 11 ،

504) Ibid., Les Fidèles de la Confrérie des Tidjania de la région de Béja (Munchar et Ksar Mesouar) au C.C. de Béja, Le 7/11/1934, D 156 - 21.
أنظر الملحق رقم 12

505) «مكاتبات الجهات»، الزّهرة، السنة 47، عدد 8195، ليوم 1934/9/9، ص 3

506) «رجوع الهدوء في داخل الايالة»، نفس المصدر، عدد 8198، ليوم 1934/9/12، ص 2.

507) نفس المصدر.

508) نفس المصدر.

509) نفس المصدر.

شخص في مظاهرة المهدية، بينما وصل عدد المتظاهرين في سوسة الى ألفين وكذلك المكنين، علمًا وأنّ تلك التحرّكات شملت كذلك غلق الدّكاكين في قرنبالية ومنزل بوزلفة، ومنزل تميم، وطبرقة، والمهدية، والسّواسي، والقلعة الكبرى ومساكن وسوسة وجمّال والمنستير والمكنين وقابس واريانة ونابل وخاصّة القيروان أيْن أغلق ثلاثة أرباع الدّكاكين (510).

إنّ هذا يبرز حجم ردود الفعل الشّعبية على تلك القوانين والإجراءات التعسّفية التي انفرد أتباع الطريقة التّيجانية ـــ السّالفي الذّكر ـ بتأييدهم لها والمطالبة بالإبقاء عليها، والسّهر على تطبيقها، ممّا يوضّح مدى تناقضهم مع ما أجمع عليه أغلب سكّان البلاد.

إلاّ أنّ تلك المواقف الطرقية لم تقف عند ذلك الحدّ:

ففي الوقت الذي أبْعد فيه بعض زعماء الحركة الوطنية، وصدرت فيه الإجراءات التعسّفية، وصودرت فيه الصّحف، وعمّت معظم جهات البلاد المظاهرات والمسيرات، كان بعض «أصحاب الطّرق» يشاركون في «المواكب الرّسمية» كما حدث أثناء جولة المقيم العام الفرنسي في بعض أنحاء الإيّالة، والتي شرع فيها يوم 21 سبتمبر 1934، سعيًا منه لامتصاص النّقمة الشّعبية، وتهدئة الخواطر، حتى يُنسي الأهالي ما قام به في الثّالث من نفس الشهر تجاه زعمائهم وبلادهم.

لقد كان كلّ ذلك يفرض ـــ آنذاك ـــ على كلّ وطني أن يقاطع «المواكب الرسمية» التي نُظّمت لاقتبال المقيم العام بالمناطق التي سيحلّ بها، غير أن «بعض أصحاب الطرق» لم يقاطعوها.

من ذلك أنّه يوم الرّابع والعشرين من سبتمبر سنة 1934 قصد المقيم العام الفرنسي جبنيانة، وفي «الطريق... تقدّم وفد تتقدّمه **أعلام أصحاب الطرق**، وأوْقفوا الموكب السّفيري، وتلوْا الفاتحة لحفظ فرانسا وممثّلها بالبلاد التّونسية [ثم] استأنف الموكب طريقه الى جبنيانة، ولما وصل الشابّة **اقتبله جماعات الطرق** والأعيان...»! (511).

كان ذلك بعد أنْ صرّح المقيم العام نفسه ـ قبل تلك الزيارة ـ بأنّ «بعض المُبْعَدين فقط ستُرجع لهم حرّيتهم، وجريدة **العمل** تبقى معطّلة...، وستكون

---

510) كل هذه المعلومات من نفس المصدر.

511) «تنقّلات جناب العميد في المنطقة الخامسة»، نفس المصدر، عدد8210 ليوم 1934/9/26، ص2.

المظاهرات والجولات، وجمع الأموال محجّرة بمقتضى النّصوص الجاري بها العمل. . . ، وفي صورة إذا عاد الهيجان، ــ مهما كان الذي يثيره وفي أيّ مكان تظهر آثاره ــ فإنّ الحكومة تتّخذ حالا التّدابير الصّارمة. . .»! (512).

وكنتيجة لتلك التّصريحات أصبحت «أسواق المدينة العربية بالحاضرة ومحلاّتها التّجارية، ومصانعها ودكاكينها مغلقة [يوم 22 سبتمبر 1934]، وساد السّكون. . . ، فأينما سار الإنسان في الأحياء العربية إلاّ ووجد الفراغ من حوله كأنّ المدينة قد خلت من سكانها. .» (513).

كما حصل نفس الشّيء «ببعض بلدان المملكة [التي] أقفلت محلاّتها التّجارية أيضا إعرابا عن الإستياء الحاصل للتّونسيين من لهجة البلاغ السّفيري الأخير. . .» (514).

على أن تلك المشاركة الطرقية في «المواكب الرسمية» نجد لها صدى كذلك فيما بعد أثناء زيارة المقيم العام الفرنسي لبعض جهات البلاد سنة 1936 أيضا.

من ذلك أنّه عندما «اجتازت سيارته سوسة بسرعة ــ يوم 10 ماي 1936 ــ ، وعند مرورها من مساكن كان أصحاب الطّرق ينتظرون قدوم جناب العميد، ولمّا وصلت السيّارة حيّوْا جنابه ومن معه بكلّ حفاوة وتعظيم. . .»! (515).

وكذلك كان شأنهم لما حلّ بصفاقس (516)، وأيضا عند مبارحته لها قاصداً قابس (517).

أما جربة، فما أن وصلها حتى «ثارت عواصف الهتاف من طرف الخلائق، وكان أصحاب الطرق بأعلامهم الملوّنة. . . ، في مقدّمة الجميع إحتفاءً بقدوم العميد. . .» (518).

512) «بلاغ»، نفس المصدر، عدد 8206، ليوم 1934/9/21، ص 2

513) «ماذا كان تأثير البلاغ السّفيري في الأوساط التونسية؟»، نفس المصدر، عدد 8207، ليوم 1934/9/23، ص 1.

514) «بعد صدور البلاغ السّفيري»، نفس المصدر، عدد 8208، ليوم 1934/9/24، ص 3.

515) «الرّحلة الأولى الرّسمية لجناب العميد في الجنوب»، نفس المصدر، عدد 8734، ليوم 1936/5/12، ص 2.

516) نفس المصدر.

517) «رحلة جناب العميد الى الجنوب التّونسي»، نفس المصدر، عدد 8735، ليوم 1936/5/13، ص 2.

518) «رحلة جناب العميد الى الجنوب التّونسي»، نفس المصدر، عدد 8736 ليوم 1936/5/14، ص 2.

كما أنّه في نطاق التّحضير لزيارة المقيم العام إلى جمّال «إستدعى الكاهية بعض أنفار منهم أصحاب الأحزاب العيساوية والسّلاّمية وغير ذلك من الطرق. . .، وأعلمهم بذلك، واقترح عليْهم أن يشرعوا. .، في تحضير أنفسهم. .»!(519).

وفي المقابل، فإنّ بعض أصحاب الطرق الصّوفية الذين تكرّرت مشاركتهم في «المواكب الرسمية» التي نُظّمت لاقتبال المقيم العام الفرنسي أثناء تنقّلاته لم نجدهم ضمن المشاركين في الاستقبال الذي خصّت به بعض جهات البلاد بعض زعماء الحركة الوطنية كالحبيب بورقيبة والبحري قيقة أثناء زيارتهما لصفاقس يوم التّاسع من سبتمبر من سنة 1936 (520).

فهل يعني ذلك إنحياز معظم أصحاب الطرق للإستعمار؟

ذلك ما أمكننا أن نكتشفه إعتمادًا على الوثائق التي إطّلعنا عليها، وهو وان كان خاصّا ببعض الطرق ومشائخها فإنّنا لا ندري إلى أيّ حدّ هو ممثّل لكلّ الطرق الصّوفية ومشائخها على مستوى البلاد التّونسية في الفترة التي ندرسها.

على أنه تجدر بنا ــ قبل إنهاء الحديث عن هذا العنصر ــ الإشارة إلى أمريْن:

* **أوّلهما** أن بعض مشائخ الزّوايا الطرقية الذين كانوا يركّزون هجوماتهم ــ قبل سنة 1934 ــ على الحزب الحرّ الدّستوري التّونسي أصبحوا بعد ذلك التّاريخ يستهدفون في هجوماتهم «الدّستوريين الجدد».

فهل يُمكننا أن نعتبر ذلك تأييدًا ضمنيا ــ منهم ــ «للّجنة التّنفيذية»، أم هو موقف جديد من «الحزب الدستوري الجديد» الذي قد يكون أصبح يمثّل ــ في نظرهم ــ الجناح الأكثر خطرا عليهم في الحركة الوطنية آنذاك؟

إنّ ما نرجّحه هو الإحتمال الثّاني، لأنّ بعض أولائك المشائخ لم يكونوا قبل ظهور «الحزب الدستوري الجديد» قريبين من الحزب الحرّ الدستوري التّونسي والذي ــ كما رأينا ــ عبّروا عن مواقفهم العدائية من برنامجه سنة 1920، وكذلك بمناسبة مواقفه من اصلاحات سنة 1922، وخاصة فيما بين 1929 ومستهلّ سنة 1934.

---

519) «حول زيارة جناب العميد الى بلد جمّال»، نفس المصدر، السنة 49، عدد 8795، ليوم 1936/9/21، ص 3.

520) «يوم الزّعماء بصفاقس»، نفس المصدر، عدد 8866 ليوم 1936/9/21، ص 3

وبذلك يكون تركيز أولائك المشائخ في تهجّماتهم على «الدستوريين الجدد» يندرج في إطار ظهور هؤلاء ـــ بالنّسبة إليهم ـــ بمظهر ذوي الوسائل والأشكال النّضالية «الرّاقية» و«المتجذّرة»، البعيدة عن «الجمود وأشكال النّضال التقليدية»(521)، والقادرة ـــ بالتّالي ـــ (الأشكال) على جمع أوسع الفئات الشعبية حولهم (522).

* ثانيهما: أنّ السّلط الإستعمارية في الايالة ـــ شعوراً منها بتناقض الطّرق الصّوفية مع نضالات الحركة الوطنية، وتقديراً منها للأهميّة التي يمثّلها توظيف تلك الطرق واستعمالها في شقّ صفوف الوطنيين وتشتيتهم، أو على الأقلّ إضعافهم وتهميشهم بصراعات داخلية تكون الطرق العنصر الفاعل فيها ـــ عملت على توحيد مواقف الطرق من كل ذلك بتنظيم مؤتمر طرقي بالجزائر سنة 1939.

فلقد أفاد المراقب المدني بقفصة أنّ «مشائخ زوايا مختلف الطّرق ـــ بجهته ـــ قد تلقّوا إستداعاءات واردة من الجزائر لحضور أشغاله»! (523).

هذا مع العلم وأنّ ذلك المؤتمر الطرقي المذكور ـــ والذي سبق في انعقاده المؤتمر الافخارستي بالجزائر ـــ كانت الغاية منه ـــ بالاضافة الى ما ذكرناه ـــ مغالطة الرّأي العام الجزائري بحمله على الإعتقاد بأنّ فرنسا ـــ بعد مضي سنة على تحجيرها التّعليم القرآني الحرّ بالجزائر بمقتضى أمر الثامن من مارس سنة 1938 ـــ مهتمّة بالإسلام والمسلمين (524).

ورغم عدم عثورنا ـــ في حدود إطّلاعنا ـــ على ما يثبت حضور مشائخ الطّرق الصّوفية بجهة قفصة لذلك المؤتمر أو عدمه، فإنّ انعقاده واستدعاءهم لحضوره ينمّ على إدراك السّلط الإستعمارية لعدائهم وتناقضهم مع الوطنيين في تونس والجزائر واستعداد بعض مشائخ الطرق للمساهمة في كل عمل أو تخطيط

---

(521) حول اختلاف أشكال النّضال وطرقه بين الحزبيْن المذكوريْن أنظر: MAHJOUBI; Les Origines..., pp. 514 - 535.

(522) حول استقطاب الحزب الدّستوري الجديد للجماهير، أنظر: CHERIR, "L'Organisation des massses ".

(523) A.G.T., le C.C. de Gafsa au R.G., le 12/4/1939, D 182 - 2.

(524) C.D.N., l'Action Nord Africaine, du 14/5/1939, p. 4, Section Mouvement National, le Congrés Eucharistique International de Carthage (7 au 11/5/1930), A - 4 - 5.

لعرقلة نشاط الوطنيين من جهة، ومراهنة السّلط الاستعمارية ـ بالتّالي ـ على القرارات التي ستتمخّض عن ذلك المؤتمر.

إلاّ أنّ هذا الأخير لم يفعل شيئا (525).

وخلاصة القول أنّ مواقف بعض الأطراف الطرقية ـ وان كانت لا تعكس بالضرورة وجهة نظر كل الطّرق، ولا كلّ الأتباع من جُلّ الأحداث التي جدّت بالبلاد، أو من الحرب العالمية الأولى، أو من الحركة الوطنية، فإنّها تعبّر بالدّرجة الأولى على مواقف بعض مشائخها الذين رغم الأضرار التي ألحقتها بهم السّياسة الإستعمارية ظلّوا في انحيازهم لحكومة الإحتلال. وكنتيجة لذلك، ولتطوّر العقليات من جرّاء التّعليم، أصبحوا عرضة للإنتقادات اللاّذعة.

وهو ما مكّن خصومهم من تكثيف نشاطاتهم، وتوسيع قاعدتهم تبعًا لوطنيتهم ونقمتهم على الإستعمار مقابل تقلّص نفوذ مشائخ الطرق وعدد أتباعهم لاتّضاح عمالة العديد منهم للإستعمار، وولائهم له وتنسيقهم معه، ممّا ساهم في ضعف الطرق الصوفية.

---

(525) OULED Mohamed, op. cit., p. 94.



الفصل الرّابع

ضعف الطرق الصّوفية



إن المتأمل في تاريخ الطّرق الصّوفية في البلاد التونسية ـ إذا ما قارن بين الوضعية الإقتصادية والبشرية التي كانت عليها في نهاية القرن التّاسع عشر، وما آلت إليه مع نهاية العقدين الأوّلين من القرن العشرين ـ يلمس العديد من الحقائق الدّالّة على بداية فقدانها ـ ولو نسبيا وباختلاف الطّرق ـ لأهمّيتها وقيمتها في الحياة الإجتماعية للبلاد.

فما هي مظاهر ذلك الضّعف وما هي أسبابه؟

I ـ مظاهر ضعف الطرق الصّوفية:

تتمحور تلك الحقائق حول معطيات تبيّن تراجُعًا في النّفوذ الذي كانت تتمتّع به، مقابل رُجْحان كفّة التّنظيمات السياسية خاصّة منذ سنة 1930.

1) تقلّص نفوذ الطّرق الصّوفية:

شمل هذا التقلّص عدّة جوانب أهمّها:

أ ـ الرّكيزة الإقتصادية:

لقد أدّت السياسة الإستعمارية المتمثّلة في مراقبة مشائخ الطرق ومنعهم من التنقّل إلاّ بعد الحصول على ترخيص مسبّق، يضاف إلى ذلك إلغاء الزّيارات والتّفويت في الأحباس العامّة والخاصّة، في الفترة التي ندرسها، وما نتج عن ذلك من أضرار ماديّة ملموسة أدّت كلّها إلى تفقير العديد من الطرق ومشائخها إلى درجة صار بعضهم عاجزا عن توفير حاجياته الحياتية فالتجأ إلى رهن أملاكه.

وبفقدانهم لسندهم المادّي، فقد بعض مشائخ الطّرق مصدر نفوذهم لدى السّلط الإستعمارية ولدى أتباعهم الذين لم تعد لهم معهم زيارات دَوْرية، ممّا أدّى ـ بطول المدّة ـ إلى فتور العلاقات بين القمّة والقاعدة، تبع ذلك تسيّب الأتباع وتشتّتهم بعد ضعف الرّابطة الرّوحية التي كانت تجمعهم.

ب ـ القاعدة الشّعبية:

إنّ حظر السّلط الإستعمارية للإتّصالات الدّورية بين المشائخ وأتباعهم لم يؤدّ إلى تفرّقهم فحسب، بل أصبحوا عرضة للإستقطاب من جانب أطراف أخرى كالأحزاب السياسية التي أضحت أخطر منافس للطّرق في كسب الأتباع، سيّما وأنّ بعض الطّرق بمواقفها من النضال الوطني قد ساهمت في تهميش ذاتها، وفسح المجال لخصومها للعمل على حسابها، حتّى أنّ الأمر لم يصل الى «انفضاض النّاس من الزّوايا ليعمروا الشّعب الدّستورية» (1) فحسب، وإنّما بلغ الى حدّ استغلال بعض زوايا الطّرق لعقد اجتماع سياسي مثلما وقع لزاوية القادرية بمنزل جميل (2).

كما نستشفّ بداية فقدان الطّرق الصوفية لنفوذها في المجتمع من خلال الإنتقادات العلنية اللاّذعة ـ على صفحات الصّحف ـ للفكر، والممارسات، والمعتقدات الطرقية عامّة، دون أن يصدم ذلك الرّأي العام.
على أنّ مثل تلك المواقف المعادية للطّرق الصوفية كانت ـ من قبل ـ تعدّ جريمة نكراء في نظر المجتمع.
من ذلك أنّ عبدالعزيز الثّعالبي كان قد حكم عليه بالسّجن ـ مدّة شهرين ـ بتهمة شتم الدّين والأولياء الصّالحين على إثر تأليفه لكتابه «الرّوح الحرّة للقرآن»(3)، حدث هذا عندما كانت للطّرق والزّوايا كلمة تسمع ومكانة تحترم، وهو ما لم يعد موجوداً ـ على الأقلّ بنفس الحجم ـ في نهاية العقد الثّاني من القرن العشرين، تاريخ بداية تبلور وعي سياسي بدأ يشدّ إليه أوسع الجماهير الشّعبية التي عرفت زعامات الحركة التحريرية كيف تستقطبها.

2) تكثّف النّشاط الوطني:

ومن مؤشّرات ضعف الطّرق الصوفية كذلك تكثّف النّشاط الوطني، ممّا يدلّ على أنّ تلك الطرق ـ التي كانت في وقت ما متّصلة بأوسع الفئات الإجتماعية، والقوّة المستقطبة لها، والمؤثّرة فيها ـ أصبحت تجد منافسة خطيرة من قبل التّشكيلات السّياسية التي إستفادت من عدّة ظروف، كتغيّر العقليات بالتّعليم،

1) **A.G.T.**, Note très Confidentielle datée du 3/6/1934, D 116 - 5.

2) **Ibid.**, Le Caïd de Bizerte à son C.C., le 17/2/1934, D 100 - 5.

3) المرزوقي والجيلاني، المرجع السّابق، ص 176.

وكالتّحــوّلات الإجتمـاعـية والإقـتصاديـة التي عـرفـتـها البلاد بسـبب النّزوح إلى المدن، ومـا انجـرّ عنه مـن تضـخّم سكاني بهـا مـقـابل النّقـص الفـادح في سكان الأرياف.

كل تلك الظّروف وجـدت فـيـهـا الأحزاب الـسيـاسـيـة المجـال المناسب للتحـرّك، وتكثيف نشاطهـا، حتى أنّ الحزب الدّستـوري الجـديد لم يلبث ــ في ظرف أقلّ من أربعة سنوات مرّت على تأسيسه ــ أن أصـبحت له أربعمائــة شعبة و70.000 منخرط(4). وان لم تسـتفـد الطرق الصـوفيـة من تلك الأحـداث الت عرفـتها البلاد التّونسـية منذ سنة 1930، فإنّ بعض الأحـزاب السيـاسية كـانت قد أخذت بزمام المبادرة.

فلم تعد تقتصر في مجال تحرّكها على المراكز العمومية كالمقاهي والنّوادي، بل شمل نشـاطها ــ أيضا ــ مـجالاً حسّاسـا وهو المسجد الذي كـان من المفروض ان يبقى بجماهيره أقرب الى الطرق لتؤثّر في الذين يرتادونه تبعا لصبغتها الدّينية.

لقـد شكّل تغلغل النشاط الوطـني في الأوساط المسـجدية عـامّة، والزيتونيـة كالطلبـة خاصة (5) مـؤشّر توسّع وامتـداد للعـمل السـياسي مـقـابل بداية تقلّص وضُمور للعـمل الطرقي الذي أضاع معـاقل ومجالات ظلّت وقـتًا طويلا في ولائها التقليدي له.

ذلك أنّ المساجـد ــ بعد إغـلاق سلط الاحتلال لمحـلاّت الدستـور ــ لم تعد مكانا للصّلاة فحـسب ــ كما عـهدها المسلمون عندما ابـتعدوا عن الفهم الصـحيح لمبادئ دينهم ــ بل صارت مكانًا لعقد الإجتماعات، وتحسيس الرّأي العام بتطوّرات القـضية الـوطنية، وآخـر مسـتجدّاتهـا، وجمع الـتبرّعـات، والإتّفاق حـول بعض الأشكال النضالية، ممّا جعل للمسجد آنذاك مهمّة مركزية في العمل الوطني، الأمر الذي سـاهـم في وضع حدّ لمفـهـوم الفصل بين الدّين والسـيـاسة في ذهنيـة بعض التّـونسيين المسلمين آنذاك.

وبدأ يتغـير ــ بذلك ــ الخطاب المسجـدي، فصار يعـالج قضايا تمسّ مـشاغل أوسع الفئات الاجتماعية، بعد أن كان مقتصراً على قضايا فقهية في الأغلب.

وهذا التحوّل ساهم فيه أفراد ينتمي بعضهم إلى الوسط الزّيتوني، كانوا سابقا ينعتون بالتحجّر والرّجعية، وعدم الجرأة على الخوض في المسائل السياسية.

---

4) CHERIF "L'Organisation des masses...", p. 262.

5) Ibid., p 264 - 265

من ذلك أنه في الإجتمـاع الذي انعقد يوم 24 سبتمبر 1934 بجامع عقبة بن نـافع بالقيـروان والـــذي حضـره حـوالي 1.500 شخص، أشـار أحد المتـدخّلين، ــ وهو طالب بجامع الزيتونة كان في العطلة عند أهله بالقيروان ــ أشار الى المنزلة التي وصل إليها المسلمون عندما كانوا متّحدين، داعيا إلى الإقتداء بهم للوصول إلى ما كانوا قـد وصلوا إليه، في حين أكّد محمـد عليلو ـ وهو بدوره طالب زيتوني ـ على شرعية الحقوق الوطنية، داعـيًا الى رصّ الصّفوف، بينما قدّم عثمان الددّوش ــ وهو صانع غرابل بالقيـروان ــ قدّم مسحا عن الوضع الإجـتماعي المتردّي الذي عليه سكّان البـلاد تحت سيطرة المستـعمرين الذين لا يجب ـ على حـدّ قوله ــ أن ترهب أسلحتهم أحدًا (6).

أما في الإجتماع المنعقد يوم 22 سبتمبر 1934 ــ في نفس الجامع ــ فقد أخذ الكلمة المدعـو هذيلي بن محمـد، فأوضح أنّ على التّونسيين أن يـكونوا في حداد بعـد إبعاد زعـمائهـم بدون سبب، ممّا يفـرض عليـهم أن يواصلوا النّضال بإغـلاق المغازات، مؤكّدًا أنّه على المسلمين الحقـيقيين أن لا يدخّنوا، أو يشربوا الشّاي، إذ أنّ تلك المواد مضرّة بالصحّة، والمال، «والقرآن الكريم حجّرها» على حدّ قوله!.

وبانتهـاء الإجتمـاع، وفي مخرج الجـامع وقف المدعو مـحمد الخـرّاط يجمع التبرّعات «للحزب الدستوري الجديد» (7).

إنّ هذه الأمـثلة تكشف التـحوّل الذي حـدث في دور المسـجد، وهو تحـوّل سـاهم إلى حـدّ بعيـد في وضع حـدّ للزّعـامـة الأحـادية التي ظلّ مـشـائخ الطرق يمارسونها علـى الجماهير باسم الدّين، كمـا توضّح تلك الأمثلة التحوّل فـي عقلية مـرتادي المساجـد، حيث أصـبح لا انفصـام في أذهان أغلبـهم بين المسائل الدينيـة والمطالب الوطنية، حتّى أنّ الدّين قد صار ــ في إطار مؤسّساته ــ من أكبر العوامل المعتمدة لتجذير القطيعة بين الجماهير والاستعمار، بالدّعوة الى مقاطعة بعض مواده (الاستعمار) التي «حجّرها القرآن».

وهو ما اعتبرته السّلط الاستعمارية تسّييسًا للدّين، فردّت بإجراءات 10 أكتوبر 1934 (8) للحدّ من توظيف الوطنيين للمساجد في تحـرّكهم السّياسي، خاصة وأنّ

(6 A.G.T., Rapport de police au C.C de Kairouan, le 24/9/1934, D 97 - 10

(7 **Ibid** , Rapport de police au C.C. de Kairouan, Le 22/9/1934, D 97 - 10

(8 OULED Mohamed , **op.cit**, p. 93.

الشكل النضالي ــ هذا ــ قد انتشر بسرعة في عدة جهات من البلاد كـ «الساحل، وتونس. . . ، وبنزرت، والوطن القبلي. . .».

إنّ الطرق الصّوفيـة التي بدت لنا ــ فـي الفصـل السّابق من هذا البـحث ــ كظاهرة ريفية أكثر منها حضرية باعتـبار تمركز أغلب أتباعها حسب إحصائيات 1925 في مناطق الشّمـال والوسط الغربيين ــ أصبـحت تبعا لمواقـف بعض مشائخـها من العديد من القـضايا والأحداث بالإيالة ــ مـحلّ انتقاد لاذع من طرف التـشكيلات السياسية التي تبدو في المقابل كظاهرة حضرية باعتبار نشأتها ومركزية نشاطها خاصة في النصف الشرقي من البلاد في بادئ الأمر، وتشهير بممارساتها وتحرّكاتها (9).

وحملها بالتّالي على الإنزواء والحياة بعيدا عن التحرّكات التي يقودها كل من الحزبين السياسيْين في البلاد.

بل مكّن كلّ ذلك تلك التّشكيـلات ــ التي نمت وقويـت في أوساط حضـرية للطرق الصوفـية فيـها نفوذ مـحدود من الزّحف ــ في مسـتوى ثان ــ على المعاقل التّقليدية للنّفوذ الطرقي.

ويمكن إثبات ذلك ــ مثلا ــ إنطلاقًا من الجهات والمناطق التي عقد بها بعض زعماء الحركة الوطنية إجتماعات:

من ذلك أنّ المنجي سليم أشرف علـى اجتماع ــ يوم الثـاني من أفريل 1937 ــ حضـره حوالي مائتي شخـص، في حين حضر إجتـماع يوم 4 أفـريل ــ الذي أشـرف عليه سليـمان ابن سليـمـان ويوسف الرّويسي بسكُّرة ووادي مليز (سـوق الإربعاء) حوالي ألف وخمسمائة شخص.

وأمام استـدعاء كـاهية غـار الدّمـاء للمنظّمين للإجـتـماع للـتثبّت من هويتهم، تبعـهم «ستمائة شخص يطلقـون صياحا تحريضيـا. . . ، ممّا جعل الكاهية يحتمي بالمخفر. . .» (10).

هذا مع العلم وأنّ الاجتـماع الذي ترأسـه ــ بغـار الدمـاء - رئيس شعبـتهـا الدستـورية انتهى بموكب يتـألّف من ثلاثة آلاف شخص اتجهـوا إلى مقرّ الخليـفة، والمراقب المدني، حيث سلّموا له مذكّرة احتجاج (11).

(9 C.N.U.D.S.T., Le R.G. au Ministre des Affaires Etrangères à Paris, le 11/8/1938, Tunisie 1917 - 1940, dossier n°= 3, 8/1938 - 10/1938, f. 83 et 84.

(10 Ibid., Le R.G. au Ministre des Affaires Etrangères à Paris, le 9/4/1938, Tunisie 1917 - 1940, dossier n°= 2 (avril 1938), f. 169

(11 Ibid., f. 170.

كما شملت تلك الإجتماعات مجاز الباب (12)، والكاف أين شارك فيها ـــ يوم 30 مارس 1937 ـــ كلّ من صالح بن يوسف ومحمود بورقيبة، والهادي نويرة(13)، والقلعة الجرداء، ووادي سراط، والقصور (14)، وكذلك أشرف كلّ من صالح بن يوسف ومحمود بورقيبة على اجتماعين بسبيبة وحيدرة يوم غرة أفريل.

وفي الثّالث منه ألقى صالح بن يوسف ـ في بعض المئات من الحاضرين في الهواء الطلق ـ خطابا عنيفا، وكذلك كان الشّأن بالنّسبة لخطابه بمكثر أمام خمسمائة شخص(15).

إنّ هذه الأرقام والمعلومات، رغم إقرارنا المسبّق بتعمّد السّلط الإستعمارية تضخيمها تهويلاً لخطر تحرّكات بعض قادة الحركة الوطنية ـــ تعطينا فكرة ولو نسبية ـــ على المجال الحيوي لتحرّك هؤلاء والذي لم يعد مقصورا ـــ كما عهدناه أثناء المظاهرات الجهوية ضدّ التجنيس، أو المظاهرات وغلق الدّكاكين التي جدّت في سبتمبر 1934 ـــ على النّصف الشرقي من البلاد خاصّة، بل أصبح يشمل مناطق ظلّت طويلا بمعزل ومنأى عن أن ينالها نشاطهم فضلا على نفوذهم.

كل تلك المظاهر توضّح تطوّر العمل السياسي باستخدامه للمؤسّسات الدينية، واستقطابه لجماهيرها، ولسكّان مناطق جديدة تضاف إلى تلك التي صارت ـــ بالممارسة ـــ حكرًا عليه.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ تلك المظاهر تكشف عن انحصار نفوذ الطرق ـــ تدريجيا ـــ، وقصورها عن مسك المشاعر، وتحريك الشّارع، حيث أصبح زمام المبادرة العملية بيد قوى لا عهد للطّرق بها من قبل.

وبالتّالي يمكن القول بأنّ الطّرق الصّوفية بعجزها عن الفعل في واقع البلاد المتغيّر والمتحوّل باستمرار قد زادت في تقوقعها، وفسحت المجال للتّشكيلات السياسية للبروز وملء السّاحة على حسابها.

(12 Ibid.

(13 Ibid.

(14 Ibid.

(15 Ibid. p. 171.

II ـ أسباب ضعف الطرق الصوفية :

لا يمكن إرجاع أسباب الضعف ـ البيّن ـ للطرق الصّوفية منذ 1930 الى التحوّلات الاجتماعية والسياسية التي عرفتها البلاد آنذاك، وهي عوامل خارجية، وإنّما ترجع ـ أيضا ـ الى خصائص الفكر الطرقي، ومميّزاته، وهي عوامل داخلية.

1) الأسباب الخارجية :

ونقصد بها تلك التي تخرج على نطاق الطرق الصّوفية، وتعود بالدّرجة الأولى الى ما أصبح عليه واقع البلاد في مطلع الثّلاثينات من القرن العشرين، خلافًا لما كان عليْه في نهاية القرن التّاسع عشر.

ويمكن حصر تلك الأسباب فيما يلي:

أ ـ التّعليم وتبدّل العقليات :

تشير عدّة دلائل إلى أنّ الأمّية ـ حتى نهاية القرن التّاسع عشر ـ كانت تسود الأوساط الشّعبية، وأنّ معرفة الدّين تكاد تكون مقصورة على المدن والقرى التي بها زوايا.

في حين أنّ «السّواد الأعظم من سكّان البوادي لا يعرفون من الدّين إلاّ النّطق بالشهادتيْن، كما أنّ البعض منهم لا يعرف حتّى عدد وأوقات الصّلوات، وكذلك بقية الفرائض الأخرى..»!(16).

وهذا الجهل أوجد حقلا خصبا للطّرق:

ذلك أن مشائخها تمكّنوا من التأثير – بما أضفوه على أنفسهم من الهالة والقدسية، والكرامات – على عقليات العامّة وحتّى الخاصّة، في حين ظلّت الفئة المثقّفة– بالنّسبة للطّريقة العيساوية مثلا – غير مبالية بما يأتيها أتباعها من الأعمال التي تشدّإليْها الأمّيين من النّاس (17).

KRAIEM (M.), La Tunisie précoloniale, Tunis, S T.D., 2t., t2, 1973, p. 117. (16

A.G.T , Confrérie des Aissaouia, p 6, D 97 - 3. (17

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلاّ أنه بتزايد المؤسّسات التّعليمية مع نهاية القرن التاسع عشر وخاصّة بداية القرن العشرين، وظهور بوادر حركة إصلاحية بالبلاد تحت مؤثّرات داخلية وخاصّة خارجية شرقية ــ ظهر تحوّل فكري واجتماعي ستتّضح نتائجه مع نهاية العقد الثّاني من القرن العشرين.

ذلك أنّ الحركة الإصلاحية التي بدأت بالمشرق على يد جمال الدّين الأفغاني كانت من أهمّ مبادئها العمل على «معالجة الواقع المادّي الذي يعيشه المسلمون. . .، وتوفير حلول عملية شرعية لكلّ مُعضلاته. . .، وإصلاح الفكر الدّيني. . .، بتخليصه من كلّ شوائب البدع والخرافات التي كان يشيعها أصحاب الطرق من المُتصوّفة. . .»! (18).

وهي نفس المبادئ التي نادى بها محمد عبده وتلميذه رشيد رضا (ت. 1935) الذي «لا يقرّ الطرق البتّة ويعتبرها مضرّة بالعقيدة، ولا يسلّم بها إلاّ جهلة العوام، لأنهم أسرى التّقليد الأعمى، وينتهي به الأمر إلى تكفير كل من يسلّم بصحّة كرامات الأولياء والمتصوّفين وخوارقهم. . .» (19).

لقد كان لكلّ هذه الأفكار الإصلاحية رواج كبير ــ آنذاك ــ في البلاد التّونسية ليس فقط بواسطة مجلّة المنار (أسّست سنة 1898)، التي بلغ من «تعلّق التّونسيين بها أن العدد الواحد منها كان يدار على عشرات النّاس» (20)، وإنّما كذلك بفضل زيارتيْ محمد عبده نفسه لتونس (21):

مرّة أولى في نوفمبر من سنة 1884، وألقى محاضرات بجامع الزّيتونة، ومرّة ثانية في صائفة سنة 1903، وألقى محاضرته في الخلدونية حول «العلم وطرق التّعليم»، وبذلك أصبحت علاقة صاحب المنار ــ منذ ذلك التّاريخ ــ «شديدة الرّوابط بالزّيتونيين المتفتّحين على الإصلاح. . .، وقد ازداد عدد هؤلاء

---

18) محمد صالح المرّاكشي، تفكير محمد رشيد رضا من خلال مجلة المنار 1898 ــ 1935 تونس، الدار التونسية للنشر، نوفمبر 1985و ص 61.

19) نفس المرجع، ص 190.

20) نفس المرجع، ص 40.

21) حول رحلتيْ محمد عبده الى تونس، أنظر المنصف الشنّوفي، «مصادر عن رحلتي الأستاذ الامام الشيخ محمد عبد ه الى تونس»، حوليات الجامعة التّونسية، تونس، المطبعة الرّسمية للبلاد التونسية، عدد 3، 1966، ص 71 ــ 102، وكذلك الشنوفي «علائق رشيد رضا، صاحب مجلة المنار مع التونسيين (1898 ــ 1935)»، نفس المصدر، عدد 4، 1967، ص 121 ــ 151.

المتأثّرين بعبده وتلميذه رضا بمرور الأيّام، وأصبح أعضاء النّخبة الإصلاحية بتونس يراسلون الشّيخ عبده قبل وفاته. . .» (22).

هذا بالإضافة الى تأثير الحضارة الأوربيّة من خلال زيارات العديد من التّونسيين إلى أوربا، والبعثات الطلاّبية، وكذلك المؤسّسات التّعليمية الحديثة التي أنشأتها بعض الدّول الأوربية بالايالة منذ مطلع الثّلث الثّاني من القرن التّاسع عشر للميلاد.

يضاف إلى ذلك كلّه وصول العديد من المؤلّفات الايطالية والفرنسية خاصة إلى البلاد وتكثّف حركة التّرجمة.

لقد كان لكلّ تلك التأثيرات الخارجية ــ إلى جانب الشّعور بالحاجة الملحّة للإصلاح في الداخل ــ الفضل الكبير في تغيير مناهج التّعليم عامّة، والزّيتوني خاصّة، بالتّركيز على العلوم العصرية كالرّياضيات، والعلوم الطبيعية، واللّغات الأجنبية، بالإضافة إلى إرسال البعثات الطلاّبية إلى الخارج قصد التخصّص واستكمال الدّراسة.

كما تمّ بعث مؤسّسات تعليمية جديدة بعد المدرسة الصّادقية (1875)، كالخلدونية سنة 1896، وهي التي ساهمت في بلورة العديد من المفاهيم والآراء الإصلاحية.

كما ازداد عدد التّلاميذ التّونسيين المسلمين الذين يتلقّون تعليما عصريا، حيث وصل عددهم سنة 1897 إلى حوالي 4.656 مقابل 2.683 من الفرنسيين(23)، علما وأن التّعليم قد شمل أيضا البنات بتأسيس «المدرسة التّونسية للفتيات المسلمات»، والتي كانت تضمّ سنة 1909 حوالي مائة تلميذة (24).

لقد ساهمت كلّ تلك العوامل وغيرها في زرع بذور حركة فكرية وإصلاحية تهدف إلى إيجاد وعي سياسي واجتماعي، قوامه تخليص المجتمع من الإستبداد والرّكود، والإنغلاق على مفاهيم سلطوية متحجّرة، بمقاومة البدع والخرافات، والعودة بالمسلمين إلى الأسس التي انبنت عليها حياة أسلافهم، ونبذ كل ما ليس له

22) المرّاكشي، المرجع السابق، ص 397.

23) KASSAB, op.cit., p 221.

24) البشير العربي، الدور الاجتماعي لمثقفي المجتمع التّونسي في فترة الاحتلال الفرنسي حتّى سنة 1956، شهادة الكفاءة في البحث، مخطوطة، تونس، كلية الآداب والعلوم الانسانية، سبتمبر 1984، ص52.

علاقة بالدّين كالطرق الصوفية.

وهو أمر «أثار غضب المحافظين...، حتّى أنّ الشّيخ الثّعالبي...، بمجرّد رجوعه إلى تونس حوكم بتهمة التّطاول على الأولياء، ومهاجمة الصّالحين، وقضي بسجنه مدّة شهرين، إلى جانب عزل الشّيخ محمد شاكر من التّدريس لتطاوله على الزّوايا والطرق...»! (25).

وهذا الأمر يمكن اعتباره كثمرة آجلة لتلك الحركة الإصلاحية السابقة الذّكر التي أتت أكلها مع نهاية سنة 1920 تقريبًا.

لقد كانت البداية بتأسيس «جمعية مقاومة البدع والاسراف» يوم 21 ديسمبر 1921 (26) والتي لقي تأسيسها صدى كبيراً أشار إليه رئيسها الوقتي في افتتاحه للجلسة التي عقدتها تلك الجمعية لعرض مسودّة القانون الأساسي لها(27).

إنّ المتأمّل فيما آلت إليه الأمور ــ بعد الحرب العالمية الأولى ـ يلاحظ في الإيالة تحوّلاً في نمط التّفكير، قوامه التّركيز على محاربة البدع، والإنحرافات بأسلوب فيه شيء من الحدّة والسّخرية، باعتبارها لا علاقة لها بالدّين «الذي اتّهم باطلا بأنّه يدعو إلى ترك الأعمال الدّنيوية، لتعاطي التّقاليد الجذبية عوضا عنها، كالمصارعة بالزّوايا، وضرب الطبول، وقرع الدّفوف، بدعوى إتّباع الطرق، والامتثال لتعاليم يتلقّاها الناس صغيراً عن كبير، يزعمون أنّها من أصول الدّين، بينما لم يأت بها الكتاب الكريم، ولا السنّة النّبوية...» (28) على حدّ قول أحد المنتقدين على الطرق.

---

25) نفس المرجع، ص 47.

26) «مقاومة البدع والاسراف»، جريدة النديم، عدد 44، ليوم 1921/12/21، ص 2، أنظر كذلك، «جمعية مقاومة البدع والاسراف»، جريدة لسان الشعب، السنة الثانية، عدد 44، ليوم 1921/12/27، ص2.

27) «مقاوم ة البدع والاسراف»، جريدة الوزير، تونس، المطبع ة الأهلية، السّنة الثانية، عدد 85، ليوم 1922/1/23، ص 2.

28) الطيب ابن عيسى، «البدع والاسراف»، نفس المصدر، ص 1.

وتعدّى الإستنكار والنّقد إلى مظاهر طرقيّة أهمّها «الزّردة» التي قال فيها ــ بالعامية ــ أحدهم: «. . . أصل العوايد هيَ سبَبْ الفتنَهْ، راسْ الفتنَهْ عوَايدْ الزرَادَهْ، نبْغضْ الزّرْدَهْ لسيدي طيّابْ العيشْ وأمّي وريدَهْ. . .» (29)، أو قوله أيضا: «خيَارْ الزّرْدَهْ هكَاكْ ولاَ لاَ لاَ، إشّايْ للّهْ يا رْجَالْ الدّالَهْ، قالُو زرْدَهْ، فزْعُو الكُلْ قْدَى طويلْ الرَّقْدَهْ، الشّابَهْ والدّابَهْ والفرْدَهْ، وتْخلّطتْ نسْوانْ معَ رجَّالَهْ. . .، مشَاوْ يزُورُو، كُلّ حدْ في نغْمتُو وطَنبُورُو، نساء ورْجَالْ مخلّطينْ يدُورُو. . . هَاذي الزّرْدَهْ هي سبَبْ العلّهْ، تتلاَقَى ثَمّ شَابّهْ وهجّالَهْ. . .، ويعُودْ دَقْ النّابْ عَاملْ حَالَهْ. . .» (30).

كما شمل التهكّم أيضا ما يأتيه أتباع الطرق من الرّقص ومن التّصفيق، ويظهر ذلك فيما جاء على لسان أحد الذين حضروا حضرة العيساوية بمقام سيدي أبي سعيد في قوله: «إنّ الواقفين يؤلمون الأرض بأرجلهم «أثناء شطحاتهم»، والقاعدين يؤلمون أكفّهم تصفيقا، والحضور يموجون خشوعًا، وأنا أحلف بألية مغلّظة أنّ الأرض ستحاسبهم حسابا عسيراً يضاف إلى أصل الحساب»!(31).

أما المحور الثّاني الذي شمله التهجّم فهو التّركيز على مشائخ بعض الطرق الذين ــ حسب ما يقال عنهم ــ فيهم «الكثير من الدّجّالة والمتحيّلين، والمحتالين الذين يأكلون أموال النّاس بالباطل، ويستفيدون من الإعانات والتبرّعات، والصّدقات والإنذارات والنّذور، والأوقاف، والوصايا والهبات، ولا يقومون بعمل صالح ينفع العباد، أو يرقى بالبلاد، سوى بثّ فكر الزّهد، والقنع والتّواكل، والإنقطاع لخدمة أولائك الأولياء الأموات، ومشائخ الزّوايا الأحياء بصفتهم أحرار، بل هم عبيد، ديدنهم الإمتثال والطّاعة. . .» (32).

كما وقع التّشديد على الأعمال «التي يقوم بها الدّجاجلة، وأصحاب الزّوايا الذين هم أصل كل مفسدة في الدّيانة الإسلامية. . .» (33)، فتهكّم عليهم أحد الشعراء قائلا(34):

29) عبدالرحمان الكافي، «ملزومة»، النديم، عدد 77، ليوم 1922/9/3، ص 4.

30) الكافي، «ملزومة الزردة»، نفس المصدر، عدد 79، ليوم 1922/9/16، ص 4.

31) «اعتداء على الأرض»، نفس المصدر، عدد 74، ليوم 1922/8/16، ص 2.

32) ابن عيسى، المصدر السّابق، ص 1.

33) صالح كرّو القفصي «الدّين والبدع»، الوزير، عدد 89، ليوم 1922/2/20 ص 2.

34) سعيد أبوبكر، «البدع والاسراف»، نفس المصدر، عدد 83، ليوم 1922/1/9، ص 3.

كـــــن مـــــع المولـــــع بالـــــدف ومـــــن
حبّـــــذوا أعمالـــــه وهـــــي الشّـــــرور
واسمـــــع الحكمـــــة منهـــــم وانظـــــرنّ
عمـــــلا قالـــــوا لنـــــا هـــــو الحبـــــور
نبـــــذوا فرضـــــا، وحـــــادوا عـــــن سنـــــن
وأطاعـــــوا الشيـــــخ مـــــن غيـــــر فتـــــور
كلّـــــمـــــا مـــــرّ اسمـــــه ذرى الخضـــــوع
فوقهـــــم رأيتـــــه خـــــوف الوعيـــــد

إنّ هذه الأمثلة لا تدلّ على الجرأة والتحدّي الذي أصبح واضحا وشبه عادي ــ على ما يبدو ــ في التهجّم على الطرق ومشائخها دون أن يصدر عنهـا ردّ فعل كما كان الشأن في مطلع القرن العشرين مع الثّعالبي ومحمد شاكر، بل توحي كذلك بظهور عقلية جديدة مستنيرة ومتفتّحة، وبعيدة عن السّيطرة الطرقية، حتى أصبحت أحيانا تنفّر النّاس من الذهاب لزيارة الزّوايا والمشائخ مثل ما وقع لأتباع سيدي قدّور.

كما أنّ شيخ زاوية التّيجانية ببوعرادة قد اشتكى من أعمال «الدّستوريين» الرّامية ــ على حدّ قوله ــ إلى افتكاك أتباعه، وهي كلّها نتائج كان للتّعليم الدّور الأساسي في إبرازها، ممّا ساهم ــ إلى حدّ ما ــ في تقليص القاعدة الشّعبية للطّرق.

ب ـ السّياسة الإستعمارية:

إن تطوّر العقليات بفضل التّعليم ومواقف بعض الطرق الصوفية المعادية للنّضال الوطني لم تكن وحدها كافية لتفسير بداية فقدان الطرق لنفوذها وأهمّيتها بالمقارنة مع ما كانت عليه في نهاية القرن الماضي، وبداية القرن الحالي لو لم تساهم السّلط الإستعمارية بسياستها تجاهها في إضعافها ظنّا منها أنها موطن الخطر ومصدره الوحيد.

فسلّطت على مشائخها ضغوطات ومراقبة شديدة، وحالت دونهم وأتباعهم بتحجيرها للزّيارات، وضربها لأهمّ موارد الطرق كالأحباس العامّة والخاصّة، ممّا أفقدها مقوّماتها المادية وبالتّالي نفوذها الإجتماعي.

كما أنّ كثرة استعمال السّلط الإستعمارية للعديد من المشائخ في مهام مختلفة، وتوظيفهم لصالحها قد تسبّب ــ على الأقلّ بالنّسبة للبعض ــ في فقدانهم ــ تدريجيا ــ لأهمّيتهم وهيْبتهم في مجالات نفوذهم.

2) الأسباب الدّاخلية:

وهي أسباب تعود بالدّرجة الأولى إلى الطرق الصوفية نفسها من حيث تركيبتها وممارسات بعض مشائخها، ويمكن تلخيص تلك الأسباب فيما يلي:

أ ـ الصّراعات الدّاخلية:

أدّى التّنافس بين مختلف الطّرق ــ على اكتساح الفضاء الواحد وكسب أكثر ما يمكن من الأتباع، والزّيادة في المداخيل ـ إلى صراعات بين الأطراف المتقابلة، كما وتّرت العلاقات بينها.

ويمكن الإستشهاد ــ في هذا المجال ــ بالصّراع الذي حدث بين سعد القاضي ـ مقدّم التّيجانية ـ ،وعلي بن محمد عريفات ـ مقدّم القادرية بجهة تطاوين(35)ـ، والعربي ابن سالم مشارك ــ مقدّم الطريقة التّيجانية بجرجيس ــ والذي «كان يثير أتباعه ضدّ أتباع طرق أخري...» (36).

أمّا بعض أتباع الطّريقة التّيجانية فكانوا ينكرون صحّة بقيّة الطرق (37).

هذا بالاضافة إلى الخلاف الذي حدث في بني خيار بزاوية سيدي مسعود بين السّلاّميّة والقادرية (38)، علما وأنّ هذه الصّراعات لم تكن بين طريقة وأخرى فحسب، بل كانت أيضا داخل الطريقة الواحدة في إطار الصّراع على منصب شيخها وغير ذلك، وهو صراع كان يحدث دائما.

وبالنّسبة إلى الفترة التي ندرسها فكثيراً ما يؤول ذلك الصّراع إلى انشقاقات حتى بين الأشقّاء في الأسرة الواحدة، مثلما حدث داخل الزاوية القادرية بنفطة

35) خزينة الوثائق التّونسية، س. د. ، صد. 111، مل. 5.

36) A.G.T , Le Capitaine Thivetwi, au R.G., le 26/2/1936, D 156 - 21.

37) خزينة الوثائق التونسية، محمد بن الحاج الطيّب الحليدي، الى الوزير الأكبر، بتاريخ 18 ربيع الثّاني 1334 /1916/2/23، س. د، صد. 153، مل. 3.

38) نفس المصدر، س. د. ، صد. 153، مل. 11

سنة 1907 حيث تمّت إقالة محمد الكبير من مشيختها ــ بعد اتهامه بتدليس رسوم رهن عند الغير ــ وتعويضه بأخيه محمد العربي (39).

لقد انتهى الأمر بهذا الشّيخ الجديد إلى مراقبة تحركات أخيه، والبعث بها ألى الكتابة العامة للحكومة التّونسية.

فممّا جاء في إحدى رسائله ــ هذه ــ قوله، «إنّ محمد الكبير (أخوه). . .، توجّه الى القصورمن عمل تاجروين، ومنها يريد التوجّه الى تبسّة. . . أعلمناكم بأمره خشية من غوائله. . .»! (40).

لقد وجدت الإدارة الإستعمارية في تلك الأجواء المشحونة والمتوتّرة أفضل وسيلة لإذكاء التّنافس، وتدعيم التّناقضات، وضرب الأطراف المتصارعة بعضها ببعض، وهو ما أدّى إلى انقسام العديد من الطرق:

من ذلك أن «قسم من أتباع الطّريقة الشّابية بتونس رفض الإعتراف بمشيخة الحاج ابن محمد ابراهيم، ومنذ ذلك الحين إنقسم الأتباع بين شيخين متنافسين عمل كلّ منها على الايقاع بالآخر. . .»! (41).

وكذلك كان الشّأن بالنّسبة للطريقة الرّحمانية بزاوية نفطة، حيث انقسمت «عائلة ابن عزّوز ــ بعد الصّراع الذي حدث داخلها ــ بين مصطفى والتّارزي، ممّا أدّى بهذا الأخير الى مغادرة نفطة والإستقرار بالقسطنطينية أين توفّي. . .» (42).

أما في الحاضرة فإنّ الطريقة العيساوية قد انقسمت بعد «معركة كبيرة. . . بين جماعة العيساوية الواردين من سيدي الحاري، والواردين من طبربة اندلعت بصحن زاوية سيدي أبي سعيد، حيث أوسعوا بعضهم بعضا بالضرب. . .»(43).

كما جدّت نفس الحادثة ــ تقريبا ــ «بين فقراء العيساوية من جماعة

39) نفس المصدر، نسخة اعلام للادارة العدلية، بتاريخ 1910/6/20، س. د، صد. 106، مل. .

40) نفس المصدر، رسالة بلقاسم بن محمد العربي الى الكاتب العام للحكومة التّونسية بتاريخ 1910/3/10، س. د، صد. 106، مل. 4.

41) A.G.T., Le Gouverneur Général de l'Algérie au R.G. de la France en Tunisie, le 22/4/1904, D 172 - 4

42) Ibid., Le C.C. de Gafsa au R G , le 6/11/1906, D 172 - 3.

43) خزينة الوثائق التونسية، رسالة من عامل أحواز الحاضرة الى الوزير الأكبر، بتاريخ 15 صفر 1891/9/20/1309، س. د، صد، 126، مل. 1.

الصفاقسية، وبين فقراء العيساوية من أهل باجة بزاوية الحواريين بالبلد المذكور. . .»(44).

إن تلك الصّراعات ـــ بين الطّرق وداخل الطريقة الواحدة ـــ لم تؤد إلى تشتّت الأتباع، وتوتّر العلاقات بينهم فحسب، بل ساهمت إلى ـــ حدّ ما ـــ في إضعاف نفوذ وهيبة العديد من الطّرق الصّوفية التي استنفدت طاقاتها في معارك داخلية ألهتها عن استقطاب العديد من الأتباع، وحدّت من إشعاعها الخارجي.

وهذا ما آل إليه ـــ مثلا ـــ أمر الزّاوية القادرية بنفطة (45)، والزّاوية الرّحمانية بها (46)، علما وأن هذه الأخيرة ـــ إبّان تأسيسها سنة 1843 ـــ قد نافست ـــ في النّفوذ ـــ زاوية الرّحمانية بالكاف، وحدّت نسبيا من نفوذها كما سبق أن أوضحنا في الفصل الأوّل.

ب ـ ممارسات بعض مشائخ الطّرق:

لئن كان شيخ الطريقة ـــ في المنظور الصّوفي ـــ هو الطبيب العارف بتشخيص علل المريد، وتحديد وسائل علاجها، والقدوة التي ينسج على منوالها أتباع الطريقة، فإنّ توارث «الولاية والصّلاح» في صلب الطرق ـــ عند موت المشائخ الأوائل المؤسّسين للزّوايا ـــ «مكّن الكثير من الأدعياء والسّخفاء البسطاء من أن يحتلّوا في النّاس مكان القيادة الرّوحية بانتسابهم للزّوايا والطرق، والولاية والصّلاح، فانحرفوا بالزّوايا عن وظائفها السّامية، إذ ليس لهم ما يقدّمون للنّاس من توجيه وإصلاح، وفاقد الشيء لا يعطيه. . .»(47).

وقد تجسّد إضرارهم بالطّرق على مستويين:

* على مستوى سيرتهم الشّخصية: حيث حاد بعضهم ـــ على ما يبدو ـــ عن دورهم التّربوي الإجتماعي، وأصبحوا لا همّ لهم إلاّ جمع الأموال، فارتكبوا ممارسات تتنافى ومكانتهم الدّينية والإجتماعية مثل مصطفى بن

---

44) نفس المصدر، رسالة من عامل باجة إلى الوزير الأكبر، تاريخ 9 جمادي الأولى 1892/12/9/1310، س. د، صد. 127، مل. 1.

A.G.T., Renseignements Fournis par le C.C. de Gafsa, (sans date), D 106 - 4. (45

Ibid., Le C.C. de Gafsa au au R.G , Le 6/11/1901, D 172 - 3. (46

47) الميساوي، المقال السابق، ص 64.

الشيخ أحمد قدّور ــ شيخ زاوية القادرية بالكاف ــ الذي حُوكم عدّة مرّات، ممّا اضطرّ الوزارة الكبرى الى إقصائه من مهامه الدينيـــة.

* على مستوى تصرّفهم في ثروات الزّوايا:

لم تكن سياسة التّفقير ــ التي مارستها السلط الإستعمارية ضدّ الطرق الصوفية ــ العامل الوحيد الذي أدّى إلى تفقيرها، بل ان إدارة بعض المشائخ لأملاكها قد أضرّت بها ــ كذلك ــ اقتصاديا.

وهو ما حدث مثلا للزّاوية الرّحمانية بالكاف، وزاوية الرّحمانية بنفطة بسبب تصرّف شيخها الأزهاري بن مصطفى، وــ كذلك ــ زاوية القادرية بنفطة التي اضطرّ شيخها الى رهن حجج أحباسها عند أصحاب ديونه.

إنّ مثل ذلك التبذير قد ساهم ــ الى جانب سياسة التفقير ــ في حرمان بعض الطرق من موارد مالية هامّة، ولعلّ ذلك ما تسبّب ــ كما أشرنا سابقا ــ في اندثار بعض الزوايا التي لم تذكر في إحصائيات سنة 1925.

ج - مواقف مشائخ بعض الطرق من الإستعمار وعلاقتهم به:

إنّ ولاء بعض الطّرق للإستعمار ــ سواء في سلبيتها تجاهه عند دخوله البلاد، أو تواطئها معه أثناء ذلك، أو تعاملها فيما بعد ــ قد أساء إلى سُمعتها، وورّط بعض مشائخها الذين وقفوا إلى جانب قواته في الوقت الذي كانت فيه ــ هذه الأخيرة ــ تبيد المقاومين. فخالفوا بذلك التوجّه العام للبلاد، وأفقدوا أنفسهم صفة الوطنية.

كما أنّ مواقف العديد منهم من مختلف مظاهر صراع الشّعب مع الاستعمار الفرنسي ــ كأحداث الزلاّج، ومقاطعة التّراموواي، والتّجنيس وخاصة من الحركة الوطنية ــ جعلتهم يبرزون كفئة معادية لطموحات الجماهير الشعبية، وحقّها في الحرية والكرامة، ورفض الإحتلال الأجنبي.

وهي كلّها أهداف ناضلت من أجلها طويلا، وقدمت ــ للحصول عليها ــ أعداداً كبيرة من الشهداء.

لقد أضفت تلك المواقف على بعض المشائخ صفة «الفئة الرسمية» الواقفة إلى جانب الإستعمار، ممّا أحرج أتباعها، وفسح المجال للأحزاب السياسية لتنمو على حسابها بعد أن ملكت زمام المبادرة الميْدانية خاصة بعد اقتحامها للأوساط

المسجدية التي ظلّت طويلا غير فاعلة في النّضال الوطني كما ينبغي.

وبذلك بدأ ــ تدريجيا ــ إنحصار آفاق العمل الطّرقي بعد أن أصبح عاجزاً على مسك الواقع الذي صار التحكّم فيه موكولاً في ــ الأغلب ــ للأحزاب السياسية.

وهو ما دفع الطّرق الصّوفية إلى التحرّك وتوحيد المواقف وأشكال التصدّي عساها تتدارك الوضع بالعمل على عقد مؤتمر طرقي بالجزائر دعي له بعض مشائخ الطرق بالإيالة التّونسية لكن المؤتمر الطرقي لسنة 1939«لم يفعل شيئا»، مسجّلا بذلك الإقرار الضمني بفوات الأوان، وبداية دورة جديدة في حياة البلاد على مستوى القوى الفاعلة فيها.

* الخاتمــــــة :

لقد حـاولت ــ على مدى الفـصول الأربعة لهـذا البحث ــ أن أتتبّع مراحل تطوّر أهمّ الطرق الصـوفيـة في البلاد التّونسيـة منذ نشأتهـا، وأهمّ أماكن تواجـد أتباعها، وأن أركّز على سياسة الإستعمار الفرنسي تجاهها.

هذا بالإضافة إلى مواقف الطرق منه ومن مـختلف القضايا التي عرفـتها البلاد طيلة الفـترة التي ندرسهـا، وأنهيت البحث بتـوضيح ما آل إليـه أمر الطرق الصّوفية قبيل الحرب العالمية الثانية.

ومن خلال كل ذلك أمكنني تسجيل الإستنتاجات التالية:

* ان الطرق الصوفية التي وجدت بالبلاد التونسية في الفترة التي يغطّيها هذا البحث لـيست ــ من حيـث منشئهـا الأوّل ــ نابعة من واقع الـبلاد، وإنما وردت إليها إمّا من المشرق أو من المغرب (ونعني به الجزائر أو المغرب الأقصى)، بواسطة تونسيين أو غيرهـم أدخلوا مبادئها وأورادها الى البلاد.

وبذلك أسّسوا طرقـا فرعية نـسبوها الى أنفسـهـم، حيث تسمّت بأسـمائهم، وعُدّت امتداداً لطرق أصلية.

وهو ما يوضّح تفـاعل تونس وتفتّحـها الحضـاري على جلّ التيّارات المذهبـية التي تبرز في شرق البلاد الاسلامية أو غربها.

* انّ بعض الطرق الصـوفيـة ــ رغم المبادرة المبكّرة للـسيـاسة الاستـعمـارية الرّاميـة الى تحجـيمـها والقـضاء عليـها تدريجيـا بأضعـافهـا ــ راهنت على السّلط الإسـتعـمارية، فلـم يعمل بعض مـشائـخهـا على الإنحيـاز إلى الجـماهيـر وربط مصيرهم بها.

فكانت تلك الطرق ــ بمواقفها تلك ــ كمن «سعى إلـى حتفه بظلفه»، معبّرة بذلك عن طبيعة الفكر الطرقي العديم الوعي السـياسي، والعاجز عن قراءة الواقع قراءة صحيحة.

* انّ السلط الإسـتعـمارية - رغم إحـصائيـاتها المتـعدّدة، ودراساتـها الميدانـية المتنوّعة، والإمكانيات التي تملكها لتحديد القوى الفاعلة والخطيرة عليها في البلاد - ظلّت تعتبر الطرق الصوفية مصدر كل خطر متوقّع.

لذلك مارست ضـدّ مشائخـها سياسـة كانت من أهمّ العوامل في إضعـافها،

وفقدانها لوزنها على السّاحة وذلك رغم قابلية الطرق للتّوظيف من قبل الإستعمار، والخدمات التي قدمها بعض مشائخها له كما مرّ بنا في هذا البحث، والسّلط الإستعمارية بهذا كله قد أضرّت ـ من خلال ذلك ـ بالعديد من حلفائها من بين المشائخ، وساهمت من حيث لا تشعر في تحطيم الانغلاق الفكري الذي كرّسته بعض الطرق الصّوفية، وفتحت المجال أمام تنامي الوعي الذي كان من أكبر المكاسب التي استفادت منها الحركة التّحريرية على حساب الإستعمار الفرنسي في البلاد، والطرق الصوفية فيها.

* انّ عدم قدرة السّلط الاستعمارية على تشخيص عدوّها الحقيقي والفعلي جعلها تركّز اهتمامها على مراقبة الطرق، والانشغال بالقضاء عليها تدريجيا باعتبارها ـ في نظرها ـ مصدر الخطر الحقيقي.

ففسحت بذلك المجال لنشأة الأحزاب وتطوّرها، فما ان حلّ مطلع الثّلث الثاني من القرن العشرين حتّى أخذت الطرق الصّوفية تضعف بالمقارنة مع ما كانت عليه في نهاية القرن التّاسع عشر وبداية القرن العشرين.

وفي المقابل كانت الأحزاب السياسية ـ نسبيا ـ تتنامى شيئا فشيئا حتّى صلب عودها، فعملت السّلط الاستعمارية على تدارك الوضع، لكن يبدو أنّ ما قامت به جاء متأخرًا، فلم يُجْدِها نفعا.

* انّ الطرق الصوفية كانت حتّى بداية هذا القرن ـ تشكّل قوّة بشرية واقتصادية لها وزنها وأهميّتها في البلاد، وهو ما دفع بالإستعمار للعمل على كسب العديد منها وتوظيفها والإستفادة من قوّتها تلك، في حين لم تقم الحركة التحريرية بنفس ذلك العمل، الأمر الذي جعلها تُحرم من قوّة كانت في أمسّ الحاجة إليْها، كما لم تتمكّن من انتزاع ذلك السّلاح من الإستعمار الذي كثيراً ما كان يستعمله ضدّها.

* إنّ العامل الطرقي إذا انسجم مع طموحات السكّان في التحرّك نحو الحرية والانعتاق زاد الأهالي انسجاما وتوحيداً، والأنفس حماساً وشجاعة كما حدث في معركة كدية الحلفاء، وخاصّة في ثورة الفراشيش سنة 1906.

أمّا إذا جاء متناقضاً مع كلّ ذلك وضدّ الرّغبة العامّة، فإنّه كثيراً ما يُتجاوز، ويفقد وزنه أمام «الشعور الوطني الفيّاض»، كما حدث في مقاومة قبائل الوسط والشّمال والوسط الغربييْن سنة 1881، وكذلك أثناء حوادث الزلّاج ومقاطعة التّراموای.

* ان مواقف بعض الطرق الصوّفية من العديد من القضايا ــ التي أثرناها في هذا البحث ــ كثيرا مـا تعبّر عن مـواقف مشائخـها أكثـر ممّا تعبر عن وجـهة نظر أتباعهم الذين غالبا ما تكون مواقـفهم منسجمة مع الرّأي العام، ومناهضة لمواقف العديد من المشـائخ المخالفين، وهو أمـر يبرز أنّنفـوذ بعـض الطّرق الذي راهنت السّلط الاستعمارية على توظيفه كثيراً ما كان غير مجدي.

الملاحق





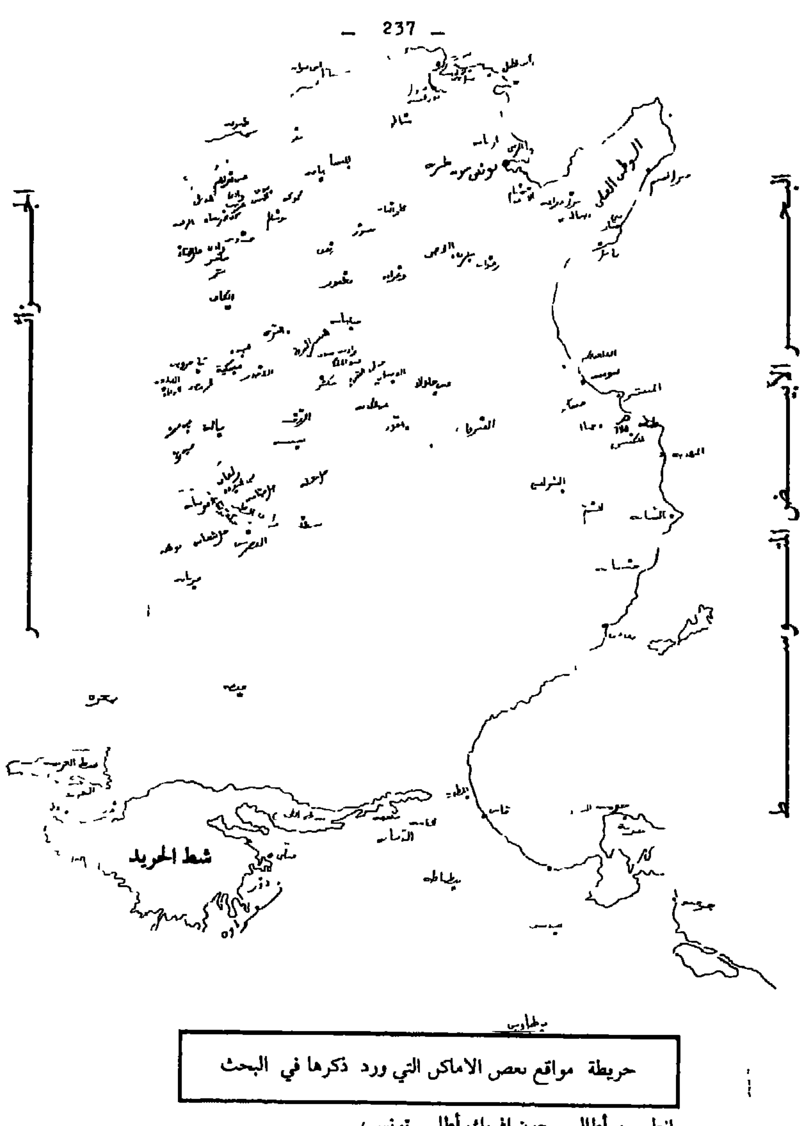
محمد الشريف بن الشيخ المنّوبي التيجاني

شيخ زاوية التيجانية ببوعرادة

خزينة الوثائق التونسية، س. د. صند. 156، مل. 21.



ملحـــق رقـــم 1

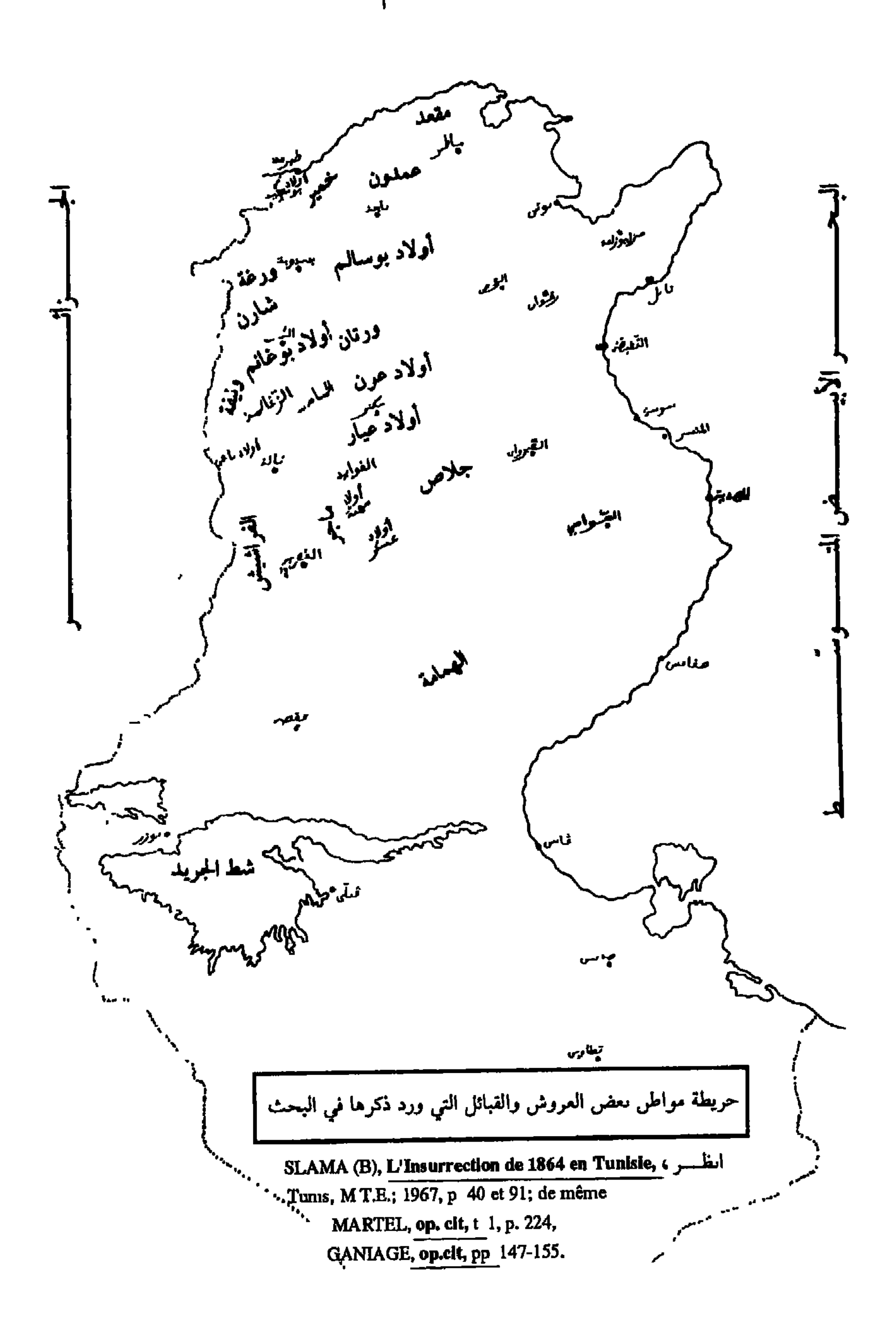


حريطة مواقع بعض الاماكن التي ورد ذكرها في البحث

انظـــر، أطالس جون افريك أطلس تونس، باريس، منشورات جون افريك، 1980م ص 6 - 7 وكذلك الخريطة الموجودة في اخر كتاب MONOCHICOURT, La region du Haut-tell...,



ملحـــق رقـــم 2



حريطة مواطن بعض العروش والقبائل التي ورد ذكرها في البحث

انظـــر، SLAMA (B), **L'Insurrection de 1864 en Tunisie,** Tunis, M.T.E.; 1967, p 40 et 91; de même

MARTEL, **op. cit,** t 1, p. 224,

GANIAGE, **op.cit,** pp 147-155.



ملحـــق رقـــم 3

كشف في ممتلكات محمد الكبير ــ شيخ القادرية بنفطة ــ وفي ديونه ودائنيه

خزينة الوثائق التونسية ، س. د، صند ، 102، مل. 4.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ملحـــق رقـــم 4

جدول محوصل لمختلف الموارد السّنوية للطرق الصّوفية في البلاد التّونسية سنة 1925

TABLEAU RECAPITULATIF

des

RESSOURCES DES CONFRERIES RELIGIEUSES MUSULMANES DE TUNISIE

-:-:-:-:-:-:-:-:-:-

(d'après les renseignements officiels fournis en 1924-25 par les Contrôles Civils et les Bureaux Militaires des Affaires Indigènes)

NB. Ces renseignements sont incomplets; les données exactes pour Tunis, Sfax font défaut dans d'autres régions des données précises n'ont pu être données que sous réserve.

Ce tableau ne peut donc être ~~considéré~~ consulté que pour information relative

-:-:-

Colonne 1 Désignation des confrérie	Colonne 2 Biens immobiliers (non productifs) capital estimé à	Colonne 3 Biens immobiliers revenus annuels de ce capital	Colonne 4 Montant annuel des aumônes quêtes cotisations	Colonne 5 Totaux des revenus annuels (colonnes 3 et 4)	Biens immobiliers de quelques cheikhs (les plus importants) de c confrérie capital estimé à	revenus annuels ces capit
	estimation en francs			estimation en francs		
KADRIA	2.000.000.-	44.000.-	120.000.-	164.000.-	3.000.000.-	100.00
RAHMANIA	3.875.000.-	93.000.-	97.000.-	190.000.-	2.550.000.-	80.00
AISSAOUIA	840.000.-	16.800.-	56.310.-	73.110.-	1.200.000.-	36.00
TIDJANIA	1.191.500.-	23.830.-	24.000.-	47.830.-	1.702.000.-	51.06
SOULAMIA	556.400.-	39.626.-	62.445.-	102.071.-	....	.....
BOU ALIA	380.000.-	7.600.-	24.570.-	32.170.-	....	.....
MEDRIA	907.000.-	50.450.-	11.855.-	62.305.-	....	.....
BEN AYED	1.300.000.-	26.000.-	10.000.-	36.000.-	....	.....
ALAOUIA	....	~~XXXXXXX~~	20.020.-	20.020.-	....	.....
AMARIA	70.000.-	3.400.-	9.570.-	12.970.-	....	.....
CHADLIA	455.000.-	9.100.-	31.270.-	40.370.-	....	.....
AZZOUZIA	1.000.000.-	50.000.-	6.200.-	56.200.-	....	.....
TEBABSA	100.000.-	2.000.-	4.630.-	6.630.-	....	.....
TAIBIA	120.000.-	2.400.-	4.520.-	6.920.-	..500.000.-	.15.00
MADANIA	....	~~XXXXXX~~-	5.000.-	5.000.-	....	.....
MAGUINIA	13.000.-	260.-	2.710.-	2.970.-	....	.....
MERAINIA	....	....	3.640.-	3.640.-	....	.....
SENOUSSIA	....	....	......	......	....	.....
HAFNAOUIA	....	....	......	......	....	.....
		....	......	......	....	.....
totaux	12.807.900.-	368.466.-	493.740.-	862.206.-	8.952.000.-	282.0[illegible]

Valeurs approximatives des biens immobiliers des Cries : 12.807.900.- francs

Revenus annuels de ces biens : 368.466.-francs
Montant annuel des aumônes etc. 493.740.- d°

Soit au total ressources annuelles: 862.206.- francs

Fortunes des cheikhs les plus importants : 8.952.000.- d°
Revenus annuels de ces biens : 282.060.- d°

خزينة الوثائق التونسية ، س ، د، صند ، 93، مل. 3



ملحـــق رقـــم 5

حوالة بريدية بمبلغ 800 فرنك موجّهة

من روا الى سيدي قدّور

حوالة بريدية بمبلغ 800 فرنك موجّهة من روا الى سيدي قدّور

الحمد لله نسخة مكتوب من جانب الكاتب العام للدولة التونسية الى الاخ الزين الشيخ سيدي قدور المازوني في 27 ربيع الاول و 22 جويلية 1900

/6/

وبعد فانه بناء على ما تقرر لدى الدولة من الاعتبار لزاويتكم الشهيرة بالكاف اصدرت ما نسخه في فرنكا 800 اعانة للزاوية تصل جنابكم صحبة هذا للاستخلاص [illegible] امرا يتعلق بطلب اعطاء جوابكم من [illegible] وقع الانبساط في ذلك في هذا العمل ونؤمل من جنابكم ان لا تعلموا بهذا احدا حيث انه من الامور الخصوصية التي يجب كتمانها كما نؤمل الدعاء لنا بخير كما هو المعهود من شيمكم الكريمة ودمتم بحفظ الله ورعايته

حرر في [illegible]

حزينةالوثائق التونسية ، س د، صد ، 102، مل 3



ملحـــق رقـــم 6

حوالة بريدية بمبلغ 500 فرنك

موجّهة من روا الى سيدي قدّور

العمالة التونسية

الوزارة الكبرى

من جناب الكاتب العام بالدولة التونسية

الحمد لله نسخة مكتوب لجناب [illegible]

شيخ الطريقة القادرية [illegible]

[illegible] والاعتبار [illegible]

الانعام فبناء على ما يحصل لي من [illegible] والاعتبار [illegible]

عناية الدولة بكم وبزاويتكم التي اشتهرت بفضلها [illegible]

والهداية [illegible] بتوجيه ما يلزم لكم من مبلغ 500 فرنك

على وجه الإعانة للزاوية وهي الواصلة لسيادتكم صحبة هذا ليقع

صرفه فيما يلزم من [illegible] المتعلقة بالأكل والرعي

من [illegible] تصحيح الدرجة المطلوبة للفائدة الزكية ونحن حفظكم الله

و[illegible] وتتذكرونا بالدعاء الصالح ودمتم في أمن الله

[illegible]

خزينةالوثائق التونسية ، س. د، صند. ، 102، مل 3.



ملحق رقم 7

رسالة الأزهاري بن مصطفى بن عزوز ـ شيخ الرحمانية ـ الى الوزير الأكبر، يعدّد له فيها الخدمات التي قدّمها الى الاستعمار الفرنسي

تونس في ٢٨ ابريل سنة ١٩٢٥

سيدي الوزير أطلب بفضلكم في منشور الرحمانية لشيخ مشائخ
الطريقة الرحمانية التي أسسها والدي وجدي الطريقة
وقد وقع بعدة [illegible] وأنا بالله بذلك الدولة التونسية والقطر
الجزائري وأنا الآن قبل لي فيشيخ احمد [illegible]
الى وأنا
والمطلوب انظاركم سيدي الوزير الى ابائي الذين
قمت بها نحو الحكومة [illegible] الموجودة
في عائلتي الذين [illegible] واحد [illegible] رأيه في
أن جدي [illegible] والدي هو الذي [illegible]
القبض [illegible] الحماية الفرانسا [illegible]
[illegible] على [illegible] اهم الشخص الذي [illegible]
[illegible] الطاعة في وجه [illegible] العصر
ووقع تكليفي [illegible] من طرف الوزير
سيدي مصطفى بن اسماعيل بأن أبلغ الواجب
المرحوم سيدي الجنيدي [illegible] موجود الآن
[illegible] الا بعد [illegible] التي [illegible]
[illegible] الفرنسا [illegible] من طرف
من سكان جبل خمير
ومن الحرب الاخيرة [illegible] العام
وكلفني من طرف الوالي العام للقطر الجزائري [illegible]
الامن بين بعض [illegible] وكذلك [illegible] الدولة
بما [illegible] من الجبل [illegible] على
الانجليز [illegible] الجندي وقد قمت [illegible] المأمورية
[illegible] و [illegible] وقع [illegible]
[illegible] الاستعمار [illegible] على
[illegible] للحصول على الخطة التي [illegible]
والتي [illegible] امدكم احترامي
الخالص والسلام من
الشيخ الازهري بن مصطفى بن عزوز شيخ الطريقة الرحمانية
[illegible]

خزينة الوثائق التونسية، س د، صند.، 12/1، ملف 9.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ملحـــق رقـــم 8

دور شيخ زاوية بوعرادة ــ التّيجانية ــ

أثناء الحرب العالمية الأولى

الى جناب [illegible] والجمهورية
من الشيخ [illegible]

الشيخ العالم الاوحد سيدي الوزير المقيم العام بالايالة [illegible] الفرنساوية اعزه الله آمين بعد
اهدى التحية اللائقة بمقام [illegible] من العبد الفقير شيخ التجانية بابي [illegible] يعرض
على اعتابكم [illegible] التي [illegible] الفرنساوي بالصبر والكرامة [illegible] الكامل [illegible]
[illegible] موكب [illegible] العام الجديد [illegible] وبموجب ذلك [illegible] من [illegible]
[illegible]

جناب [illegible] الفرنساوي : [illegible] التهاني بالعام الجديد : ان شاء الله
يكون [illegible] ويعود [illegible] للدولة بالنصر [illegible] التجانية : [illegible]
[illegible] : وكما [illegible] بحلول هذا العام المبارك الجديد : ان
شاء الله يعود [illegible] للدولة [illegible] : الذي [illegible] من [illegible]
[illegible] كل [illegible]
[illegible] كل [illegible] وما كان من [illegible] مكسور : ولا [illegible]
[illegible] : كما [illegible] من [illegible] وان لعساكر [illegible]
[illegible] بلا نقصان : [illegible] للدولة بالاخوان : وبموجب هذا العام
الجديد [illegible] الالمان : [illegible] : [illegible] الالمان :
[illegible] في كل مكان : [illegible] الدولة [illegible] :
[illegible] حتى [illegible] من [illegible] : وان شاء الله هذا
العام يعود على دولة الالمان بالهم [illegible] : وان شاء الله [illegible]
عليهم [illegible] للدولة [illegible] الله [illegible]
[illegible] : [illegible] الدولة [illegible] :
الا يا [illegible] الفرنساوي [illegible] : [illegible] بادا الواجبات :
[illegible] بجميع المخلوقات : ومن [illegible] :: فقاتلوا [illegible] الالمان
[illegible] : [illegible] حتى لا [illegible] :
[illegible] المخلوقات [illegible] :

اللهم اهلك [illegible] وما [illegible] : [illegible] وما جمعوا : [illegible] :
[illegible] : واهلك [illegible] واجعل ما [illegible] الفرنساوية : وعساكرهم ورجالهم [illegible]
[illegible] : واولادهم ونساءهم [illegible] التجانية

[illegible]
[illegible]
زاوية بوعرادة
[illegible]

خزينةالوثائق التونسية ، س د، صند ، 156، مل. 21.



ملحـــق رقـــم 9

موقف أتباع الطريقة التّيجانية بعين دراهم من نشاط الوطنيين وإجراءات 1934/10/10

700

Taxe principale	—	—
Taxes accessoires	--	—
TOTAL	--	—

INDICATIONS DE RÉCEPTION

TÉLEGRAMME

TABARKA * 30-10 34

INDICATIONS DE TRANSMISSION

Pour — de Aïn Draham N° 303 Mots 169 Dépôt le 30 à 11 h

Monsieur le Contrôleur civil de Tabarka avec prière de bien vouloir la transmettre à Son Excellence Monsieur Marcel Peyrouton Résident Général de France à Tunis.

Les fidèles de la Confrérie des Tijania de la Zaouia Sidi Salah Tijani de Bou Arada de la région d'Aïn Draham réunis ce jour par leur chef vénéré le Cheikh Sidi Cherif Tijani repoussent d'un unanime accord les agissements des Néo-Destouriens contraires à leurs intérêts les plus élémentaires approuvent au contraire toutes les mesures prises par le Gouvernement comme seules susceptibles de créer et maintenir l'atmosphère habituelle de paix et de sécurité nécessaires à la prospérité du pays et au bien être de tous. Ils sont heureux de l'occasion qui leur est offerte de vous assurer de leur infinie gratitude pour les sages et énergiques mesures prises qui améliorent la situation économique en général et des fellahs en particulier. Ils confirment à votre excellence leur confiance absolue en son administration et leur indéfectible loyalisme envers la Grande France éducatrice et protectrice.

AVIS — Dans les dépêches imprimées en caractères romains par l'appareil télégraphique, le premier nombre qui figure après le nom du lieu d'origine est un numéro d'ordre, le second indique les mots taxés, les autres désignent la date et l'heure du dépôt.

IMP. DE TUNIS - 1932

خزينةالوثائق التونسية ، س. د، صد.، 156، مل. 21



ملحـــق رقـــم 10

موقف أتباع الطريقة التيجانية بسوق الخميس من نشاط الوطنيين واجراءات 1934/10/10

TUNIS

Excellence

Les adeptes de la Confrérie des Tidjania de la région de Souk-El-Khemis, réunis ce jour a l'henchir Sidi Romani au domicile du doyen des Mokadems Si El Hadj Ali ben Mohamed ben Salem, sous la présidence de leur chef le Cheik Sidi Cherif Tidjani de la Zaouïa de Bou-Arada, d'un commun accord reprouvent les agissements des Néo-destouriens et de tous les agents de désordre.

Approuvent toutes les mesures prises par le Gouvernement en vue de faire cesser les troubles et de permettre aux éléments sains de la population de travailler en sécurité sous la protection tutélaire de la France

Affirment leur loyalisme integral et leur confiance absolue envers votre personne et envers la France protectrice.

Le Doyen Hadj Ali ben Mohamed, le mokadem Salah ben Hadj Ali

les Mokadems:

Mahmoud ben Larbi
Ali ben Abdellah
Saleh ben Mosbah
Ezzine essahnane
Ali ben Ahmed
Ahmed ben Ammar
Amor ben Mhamed
Abdallah ben ali essalah
Mohamed ben youssef
Hamadi ben Larbi
Abid ben Mhamed
Abdallah ben el ameri
Bnoussi ben Mohamed
Hassine ben Boukris
Mohamed ben oune
Slimane ben Hattab
Mohamed Boughanaia
Youssef ben Larbi
Amor ben Bacha
Béchir ejemaie
El Adel ben Abdellah
Kabloüti ben [illegible]
Salah ben [illegible] [illegible]
Djedidi ben [illegible]
[illegible]

Ali ben Romdane
El Abidi ben Attia
El Abidi ben Bouraal
Ahmed ben Hellal
Abdellah ben Amery
Kmis ben salem
Khémis ben Hadj Salah
Younés ben Smail
Taïb ben Ali ben maneï
Boudjema ben Aoid
Mohamed Salah ben Bacha
Hafsi ben hadj Mhamed
Mohamed Salah ben Chabane
Hasine ben Messaoud
Bechir ben Mohamed
Jaafar ben Hamouda
El Abidi ben Hadj Salah
Ali ben Amor Ezouagni
Ahmed ben abdellah el Hourani
Ammar ben ali ben asghair
[illegible] ben [illegible] erakrouki
Ottomane ben Amor ben Mansour
Ahmed ben [illegible] saïri
Ali ben Abdellah [illegible]

خزينةالوثائق التونسية ، س. د، صند.، 156، مل 21.



ملحـــق رقـــم 11

موقف أتباع الطريقة التّيجانية بسوق الاربعاء من نضالات الوطنيين

Indications de service

Le facteur doit délivrer un récépissé à souche lorsqu'il est chargé de recouvrer une taxe

TÉLÉGRAMME

N°

Timbre à date

SOUK EL ARBA 16 15 1 35 4 TUNISIE

Monsieur Gazou

Contrôleur Civil

SOUK EL ARBA

A DÉCHIRER

Pour ___ de Souk el Khemis 426 183 17 14 20

Nous vous prions de bien vouloir transmettre d'urgence le telegramme suivant. Son Excellence Monsieur Marcel Peyrouton resident General France Tunis. Adeptes et Mokademes Confrerie Tidjania reunis au domicile du doyen des mokadems qui age 104 ans Si Hadj Ali ben Mohamed ben Salem Djamazi, Henchir Sidi Bouzmane Souk el Khemis sous presidence venere Grand chef Sidi Cheikh Tedjani vous prient respectueusement recevoir leurs chaleureuses et sinceres felicitations pour votre grande defense vigoureuse [illegible] interets [illegible] dont vous avez bien merite



ملحق رقم 11 (تابع)

Le port est gratuit

Le facteur doit délivrer un récépissé à souche lorsqu'il est chargé de recouvrer une taxe

TÉLÉGRAMME

Indications de service

N°

Timbre à date

SOUK-EL-ARBA 18 15 4 35 TUNISIE

SOUK EL ARBA

A DÉCHIRER

Pour — de — N° — Dépôt le — à — h.

Stop nous vous assurons notre indefectible loyalisme stop nous mettons notre grand confiance absolue a votre excellence et Gouvernement de la Republique Française pour traduire acte vos nobles efforts et maintenir paix Française contre les perturbateurs professionnels dont action nefaste desavouee par toute la population entierement desolidarisee des menees malsaines de ces veritables ennemis des interets de notre pays

= Mokadem Salah ben el Hadj Ali ben Med ben Salah proprietaire Henchir Sidi [?] = Ahmed ben Mohed el Hadj el [?] proprietaire [?] = Mokadem ben Abdallah proprietaire = Mokadem [?] ben Med ben [?] proprietaire = [?] Mohed ben Youssef =

Hababou & C - Tunis - 6-28

خزينةالوثائق التونسية ، س. د، صند. ، 156، مل 21

ملحـــق رقـــم 12

موقف أتباع الطريقة التّيجانية بمنشار وقصر مزوار ـ باجة ـ من نشاط الوطنيين واجراءات 1934/10/10

Télégramme.

Ksar Mezouar le 7 Novembre 1934,

A Monsieur le Contrôleur Civil de Béja avec prière de bien vouloir le transmettre à Son Excellence Monsieur Marcel Peyrouton, Résident Général en Tunisie

Les Fidèles de la Confrérie des Tidjania de la Zaouia Sidi Salah Tidjani de la région de Béja (Munchar et Ksar Mezouar) réunis ce jour sous la tutélaire et bienveillante autorité de leur Chef vénéré le Cheick Cherif Tidjani approuvent chaleureusement les mesures prises par le Gouvernement pour rétablir l'ordre en Tunisie malgré les agissements des néo-destouriens et autres agents de désordre.

Ils souhaitent vivement que ces mesures soient maintenues avec toute l'énergie nécessaire pour ramener la confiance et la sécurité dans ce pays placé sous l'égide de la France

Ils réprouvent les agissements de quelques meneurs intéressés qui abusent de la bonne foi d'une population paisible et loyale pour la contaminer et la détourner du droit chemin tout en prétendant la servir

Ils saisissent cette occasion pour vous assurer à nouveau de leur confiance et de leur respect envers votre personne représentant dignement la France bien aimée -

(En marge :) pour 40 indigènes domiciliés à El-Houfia [signature]

[illegible] Abed el Ali - Tahar ben Salah - Mohamed ben Belgacem Salti, Mohamed el Amri - Othman el Amri - Amor el Belgacem [illegible] - Le Cheikh de Munchar

Je signe pour 25 indigènes de Ksar Mezouar [signature]

Je signe pour 70 indigènes [illegible] [signature]

Pour 25 indigènes domiciliés à Bou Dokan [signature]

خزينة الوثائق التونسية، س. د، صند. 156، مل. 21



المصادر والمراجع



وصف المصادر والمراجع

I ـ الوثائـــــــق:

1. خزينة الوثائق التونسية:

تمثّل بالنّسبة لبحثنا أهمّ مصدر غطّت معطياته ـ تقريبا ـ كامل الفترة التي شملها البحث، وتوجد جلّ المعلومات تقريبا بالسلسلة ـ د ـ التي تشمل كلّ الطرق الصوفية بالايالة من حيث تنظيمها ومواردها، وخاصة مواقفها من بعض القضايا التي يدور حولها موضوع البحث.

وفي هذا الاطار يعتبر الصّندوق 97 ـ من السلسلة المذكورة ـ بملفّاته العشرة الأولى الى جانب الصندوق 156 من المواضع التي وفّرت لنا عدّة معلومات هامّة، علما وأنّ عملية المسح شملت كامل الصّناديق من 97 الى 182.

هذا بالإضافة الى بعض المعطيات الضّئيلة نسبيا في السلسلة (E) وكذلك (G3).

2. خزينة وزارة الخارجية الفرنسية (الكي دورسي):

مكّننا الاطّلاع على وثائق هذه الخزينة من إثراء البحث وتوضيح بعض المسائل، وخاصة سلسلة المراسلات السياسية (Correspondances politiques)، وسلسلة: تونس 1917 ـ 1940، الى جانب الصندوق 1218 من سلسلة «الاستعمار الفرنسي لتونس» والمتعلّقة بالطرق الصّوفية من سنة 1888 الى 1911.

3. خزينة وزارة الحرب الفرنسية (قصر فانسان ـ باريس):

تحتوي سلسلة (2 H) على معلومات عدية متعلّقة ببعض الأحداث التي جدّت بالايالة، وتتعلّق ـ تلك التي لها علاقة بهذا البحث ـ أساسًا بثورة تالة سنة 1906 خاصة.

4. المركز القومي الجامعي للتّوثيق العلمي والتّقني (تونس):

مثّلت وثائقه ـ بالنّسبة لنا ـ مصدرًا أساسيًا للعديد من المعلومات المتعلّقة بعدّة أحداث جدّت بالإيالة والتي لم نطّلع عليها في خزينة وزارة الخارجية الفرنسية.

هذا بالاضافة الى معلومات مهمّة حول بعض الطرق الصوفية كالتّيجانية وخاصة فيما يتعلّق بمواقف بعض مشائخ زواياها بالبلاد التونسية من أحداث هامّة كالحرب العالمية الأولى وتطوّر النّضال الوطني في تونس.

5. مركز التّوثيق القومي (تونس):

توجد عدّة ملفّات في «سلسلة الحركة الوطنية» "Section Mouvement National" حول العديد من الأحداث كأحداث الزلاّج ومقاطعة التّراموّاي والتّجنيس وغيرها من التي لها علاقة بهذا البحث. وقد مكّننا الاطلاع عليها من توضيح عدّة جوانب من الأحداث المذكورة وبالتّالي إثراء البحث.

II ــ كتب ودراسات مطبوعة:

1. المراجع العربية:

وقع الاعتماد على عدّة كتب تتعلّق أساسا بتاريخ التصوّف في الاسلام، وقد شكّلت أهم مصدر ــ بالنّسبة لنا ــ في الإلمام بالتصوّف من حيث نشأته وتطوّره وكلّ ما يتعلّق بالعنصر الأوّل من الفصل الأوّل من هذا البحث.

2. المراجع باللّغة الأجنبية:

توجد عدّة مراجع باللّغة الفرنسية تتعلّق بجلّ الطرق الصّوفية من حيث تاريخها، وأهمّ مراحل تطوّرها، ومختلف مواقف العديد منها من الاستعمار الفرنسي بالجزائر، والتي تحتوي ــ أحيانا ــ على معلومات تتعلّق ــ كذلك ــ بالطرق في تونس.

وفي طليعة هذه المراجع كتاب ديبون وكوبولاني حول «الطرق الدينية الاسلامية بالجزائر» **"Les Confréries religieuses musulmanes en Algérie"**، الى جانب كتب كل من رين Rinn، وسيميان Simian وغيرهما.

هذا بالاضافة الى العديد من الرّسائل الجامعية المخطوطة، والأطروحات المطبوعة والمخطوطة أحيانا، والمتعلّقة بمحاور مختلفة من تاريخ البلاد التّونسية الحديث والمعاصر.

3. المجلاّت والدّوريـــــــات:

أمكننا الاطـلاع على عدّة مـقالات في مـجلاّت مختلفة وخاصة المسح الذي قمنا بـه للعديد من الجرائد بـالعربية والفـرنسيـة ـ في فترات مـختلفـة لها علاقـة بأحداث شديدة الارتبـاط بموضوع البحث ــ من الحصول على مـعلومات كانت أفـضل معين لنا على إثراء عدّة جـوانب من هذا البحث وخاصـة في فصله الثّالـــث.

وخلاصة القول أنّ مختلف هذه المصـادر بما احتوت عليه من معلومات مكمّلة لبعـضهـا البعض مكّنتنا من إخـراج هذا البحث في صـيغة نأمل أن تكـون شاملة ومتكاملة.



ثبت بالمصادر والمراجع

I ـ الوثائق :

1. خزينة الوثائق التونسية :

سلسلة د: D

اسم الطريقة	السلسلة	الصندوق	رقم الملف
القادرية	د	97	9، مكرر 8،6،4،3،2،1
	-	100	5،2
	-	101	6
	-	102	9،4،3،2
	-	106	4،2
	-	107	2
	-	108	2
	-	109	8
	-	111	11 ،5
الرحمانية	-	112	9،2
	-	116	5
	-	120	2
	-	121	2
العيساوية	-	126	21 ،17 ،7 ،5
	-	127	1
	-	130	4
	-	134	1
السلامية	-	140	12 ،5
	-	152	11
	-	153	7،3
سيدي بوعلي النفطي	-	155	7
التيجانية	-	156	31 ،21 ،1
الدركاوية	-	163	5،4،3،2،1
شخصيات دينية	-	172	4،3،1
شخصيات دينية جزائرية	-	178	5،4
	-	179	2
شخصيات دينية طرابلسية	-	179	2
متفرقات	-	182	3،2

* سلسلة .E

SERIE	CARTON	TITRE	DOSSIER
E	507	Missions explorations	2,6
E	509	Associations	180
E	534	Rapports sur la Tunisie	1,2
E	550/30	Panislamisme	1
E	565	Affaire du Djellaz	1
E	580	Questions Générales	4
E	550 - 30/15	Dossier d'El Mekki BEN AZOUZ	894
A	284	Naturalisation	3

* سلسلة .G

G3, Circulaires divers, d. 33

2 . خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية (الكي دورسي ـ باريس)

Archives du Ministère des Affaires Etrangères Françaises (A.M.A.E.F.):

SERIE	VOLUME	TITRE	DATE
Protectorat Tunisie 1 er versement.	1218	Ordres religieux Musulmans	1888 - 1911
Tunisie 1917 - 1940	66	Campagne de Télégrammes contre les réformes administratives	11/7/1922 30/9/1923
	316	Particuliers Indigènes	1/1927-12/ 1929

Correspon-dances Politiques C.P. :	57	Correspondances Télégraphiques entre le consulat général et l'Agent consulaire du Kef	24-25 et 26 avril 1881
	74	Dépêches Télégraphiques	1871-1896 Tunis - Mai - juin 1883
	75	Dépêches Télégraphiques	(1871 - 1896) Juil. - Août 1883
Nouvelle Serie (N.S.)	77	Tunisie Affaires du Sud Affaires Mores I	30/3-27/7/ 1896
	78	Tunisie Affaires du Sud Affaires Mores II	28/7/1896-23/8/1898
	79	Tunisie Affaires du Sud Affaires Mores III	24/8/1893-15/9/1902
	127	Cultes Musulmans; Sectes religieuses; Panislamisme	1886 - 1891
	128	Cultes Musulmans; Sectes religieuses; Panislamisme	8/1891-10/ 1897

3) خزينة وزارة الحرب الفرنسية (قصر فانسان ـ باريس)

Archives du Ministère de la Guerre; Château de Vincennes (A.M.G.):

Série: - 2 H 25 - 4.
- 2 H 29 - 2.
- 2 H 52 - 1.

4. المركز القومي الجامعي للتوثيق العلمي والتّـقني (تونس)

Centre National Universitaire de Documentation Scientifique et Technique (C.N.U.D.S.T.)

SERIE	VOLUME	TITRE	DATE
Tunisie 1917-1940	664	Le 30è Congrès Eucharistique International de Carthage	1/1930-11/ 1934
	668	La Confrérie Tidjanya	12/1930-7/ 1938
	392	Confréries Religieuses	8/1930-10/ 1938
Tunisie 1885-1916	325	Historique des événements de l'Affaire Kasserine - Thala	4/1906-7/ 1906
Tunisie; Guerre 1914-1918	1651	Propagande Germanique; attitude des confréries face à la détérioration des relations Franco - Turcs.	8/1914 11/1914
Tunisie; Nouvelle Série	33	Affaire du Djellaz Affaire du Tramway	1882 - 1912

5. مركز التّوثيق القومي (تونس)
Centre de Documentation Nationale (C.D.N.)

DOSSIER	REFERENCE
L'Affaire du Djellaz (7/11/1911)	B - 3-27
Le boycottage des Tramways (9/2/1912)	B - 1-37
Naturalisation en Tunisie	B - 3-37
Evénements 1911 (Novembre - Décembre 1911)	A - 1-42
Le 30è Congrés Eucharistique International de Carthage (7 au 11/5/1930)	A - 4-5
Dossier	A - 4-16

II ـ كتب ودراسات أوّلية مطبوعة:

1 المراجع العربية مرتّبة حسب التّسلسل الأبجدي لأسماء مؤلفيها:

ـ ابن أبي الضياف، أحمد، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق لجنة من كتابة الدّولة للشؤون الثقافية والأخبار، تونس، المطبعة الرسمية للبلاد التونسية، 8ج، 1964.

ـ الشّعراني، عبدالوهاب، الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصّوفية، حقّقه وقدّم له طه عبدالباقي سرور، القاهرة، المكتبة العلمية، ط. 1، 1962

ـ الغزالي، أبوحامد، إحياء علوم الدين، (لا ط.)، دار احياء الكتب العربية، 4ج، (لات.).

ـ القشيري، أبوالقاسم عبدالكريم هوازن، الرّسالة القشيرية في علم التصوّف، القاهرة، مطبعة محمد علي صبح، 1972.

ـ المرزوقي، محمد، صراع مع الحماية، تونس، دار الكتب الشرقية، 1973.

- المرزوقي، محمد ، دماء على الحدود، تونس - ليبيا - الدار العربية للكتاب، 1975.
- المرزوقي، محمد والجيلاني بن الحاج يحيى، معركة الزلاّج 1911، تونس، مكتبة المنار، ط. 1، 1961.
- مخلوف، محمد بن محمد، شجرة النّور الزّكية في طبقات المالكية، القاهرة، المطبعة السلفية، 1929.
- محمود، عبدالحليم، المدرسة الشاذلية الحديثة وإمامها أبوالحسن الشّاذلي، القاهرة، دار النصر للطباعة، (لات.).
- النيّال، محمد البهلي، الحقيقة التّاريخية للتصوّف الاسلامي، تونس، النجاح، 1965.

2. المراجع الأجنبية مرتّبة حسب التسلسل الأبجدي لأسماء مؤلفيها:

- AYADI (T.), ***Mouvement réformiste et mouvements populaires à Tunis (1906-1912)***, Tunis, Imp. Officielle de la République Tunisienne, 1986.
- DEPONT (O.), et COPPOLANI (SC.), ***Les Confréries religieuses Musulmanes en Algerie,*** Alger, Adolphe Jourdan, 1897.
- GOLDSTEIN (D.), ***Libération ou annexion: aux chemins croisés de l'histoire Tunisienne, 1914 - 1922***, Tunisie: Maison Tunisienne de l'Edition (M.T.E.), 1978.
- GREEN (AH.), ***the Tunisan Ulama 1873-1915, Social structure and response to ideological currents,*** E.J. Brill, 1978.
- KASSAB (A.), ***Histoire de la Tunisie, l'époque Contemporaine***, Tunis, S.T.D., 1976.
- MAHJOUBI (A.), ***Les Origines du Mouvement National en Tunisie, 1904-1934***, Tunis: Publications de la Faculté des Lettres, 1982.
- MAHJOUBI (A.), ***l'Etablissement du protectorat Français en Tunisie***, Tunis: Publications de l'Université de Tunis, 1977.
- MARTEL (A.), ***Les Confins saharo-Tripolitains de la Tunisie (1881-1911),*** Paris, P.U.F., 2t., 1965
- MERAD (A.), ***Le reformisme Musulman en Algérie, 1925-1940, Essai d'histoire religieuse et sociale***, France, Mouton, 1967.
- MHALLA (M. El Moncef), ***La Crise de 1929 en Tunisie***, Memoire de maîtrise d'histoire (dactylographié), Université Paris VII, 1974-1975.

- MONCHICOURT (CH.), *La région du Haut-tell en Tunisie, (le Kef, Teboursouk, Maktar, Thala), essai de monographie géographique,* Paris, Librairie Armand Colin, 1913.

PONCET (J.), *La Colonisation et l'Agriculture Européennes en Tunisie depuis 1881*, Paris, l'Imp. Herissey, 1961.

- RINN (L.), *Marabouts et Khouans, étude sur l'Islam en Algerie,* Alger, Imp. Adolphe Jourdan. 1899.

- SAMMUT (C.), *l'Impérialisme capitaliste français et le nationalisme tunisien* (1881 - 1914), Belgique, Les Presses de GEDIT à Tournai, 1983.

- SIMIAN (M.), *Les Confréries Islamiques en Algérie (Rahmanya - Tidjanya),* Alger, Adolphe Jourdan; 1910.

- TIMOUMI (H.), *Paysannerie Tribale et Capitalisme Colonial, (l'exemple du Centre - Ouest Tunisien, 1881 - 1930),* Thèse pour le Doctorat de 3ème cycle (dactylographiée), Université de Nice, 1974 - 1975.

- ZACCONE (P.), *Note sur la Régence de Tunis,* Paris, Librairie pour l'Art militaire, Les Sciences et les Arts, 1875.

III ـ كتب ودراسات ثانويـــة :

1 . الكتب العربية مرتّبة حسب التّسلسل الأبجدي لأسماء مؤلّفيها :

ـ ابن عـاشور، الفـاضل، تراجم الاعلام، تونس، الدار التـونسيـة للنشر، 1970 .

ـ ابن النّوري، محمد الطّيب، الوضع الاقتصادي والاجتماعي في توزر خلال النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر، 1856 ـ 1880، شهادة الكفاءة في البحـث، مخطوطـة، تونـس، كليـة الآداب والعلوم الانـسانيـة، سبتمبر 1977 .

ـ جـلاب، الهـادي، المجلـس الكـبيـر للبـلاد التّونسيـة، القسـم التّونسي، 1922 ـ 1954، شـهادة الكفـاءة في البحث، مخطوطة، تونس، كلية الآداب والعلوم الانسانية، 1984

ـ الجنحاني، الحبيب، محمد باش حانبة، تونس، الدّار التّونسية للنشر 1968.

ـ الحدّاد، الطاهر، العمّال التّونسيون وظهـور الحركة النّقابية، تونس، مطبعة العرب، 1927 .

ـ الرياحي، عمر بن علي، تعطير النّواحي بترجمة سيدي ابراهيم الرّياحي، تونس، مطبعة بكّار، 1904.

ـ السّنوسي، محمد، مسامرات الظريف بحسن التّعريف، تاريخ فقهاء الدّولة الحسينية بتونس المحميّة، تونس، (لا ت.).

ـ السّنوسي، محمد الطّاهر، مجلّة الاجراءات الجزائية، تونس، المطبعة الرّسمية، ط. 1، 1969

ـ الشّابي، علي، العارف بالله أحمد بن مخلوف الشّابي وفلسفته الصّوفية، تونس، الدّار التّونسية للنّشر، 1979

ـ العجيلي، التليلي، الوهّابية والبلاد التّونسية زمن حموده باشا، شهادة الكفاءة في البحث، ، مخطوطة، تونس، كلية الآداب والعلوم الانسانية، 1983.

ـ العربي، البشير، الدّور الاجتماعي لمثقّفي المجتمع التّونسي في فترة الاحتلال الفرنسي حتى 1956، شهادة الكفاءة في البحث، مخطوطة، تونس، كلية الآداب والعلوم الانسانية، 1984.

ـ الغُـزّي محمد الهادي، الأدب التّونسي في العهد الحسيني 1705 ـ 1881، تونس، الدار التّونسية للنّشر، 1972.

ـ كرّو أبوالقاسم محمد، اعلامنا، محمد الخضر حسين، تونس، مطبعة الاتّحاد العام التّونسي للشّغل، 1973.

ـ كسراوي، الأزهر بن أحمد بدر الدّين، الطرق الصّوفية بصفاقس، مواردها الاقتصادية ومعالمها الأثرية خلال القرنين الثّاني عشر هجري ـ الثّامن والتاسع عشر ميلادي، شهادة التعمّق في البحث، مخطوطة، تونس، كلية الآداب والعلوم الانسانية 2ج. 1984.

ـ الكزدغلي، رضا، أحداث التّجنيس من خلال الصحافة في تونس سنتي 1923 و1933، تحليل محتوى الصحف: «الأمّة»، «النّهضة»، «تونس الفرنسية»، «تونس الاشتراكية»، «العمل التّونسي»، رسالة ختم

الدروس الجامعية، مخطوطة، تونس، معهد الصحافة وعلوم الأخبار، 1979 ـ 1980.
ـ كينيتز، ارنستو، قناة السّويس، القاهرة، دار القاهرة للطباعة، 1957
ـ لياس، محمود، ابراهيم الرّياحي مفكّرا وأديبًا، شهادة الكفاءة في البحث، مخطوطة، تونس، الجامعة التّونسية، 1978.
ـ المدني، أحمد توفيق، حياة كفاح (مذكّرات)، الجزء الأول في تونس 1905 ـ 1925، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتّوزيع، 1976
ـ المرّاكشي، محمد صالح، تفكير محمد رشيد رضا من خلال مجلّة المنار 1898/1935، دكتوراه دولة، تونس، الدّار التّونسية للنّشر، نوفمبر 1985.
ـ المرزوقي، فتحي، بعض المؤسّسات الدّينية ومكانتها الاقتصادية بتونس في القرن الثامن عشر، شهادة الكفاءة في البحث، مخطوطة، تونس، كلية الآداب والعلوم الانسانية، 1984.
ـ مواعده، محمد، محمد الخضر حسين، حياته وآثاره 1873 ـ 1958، تونس، الدّار التّونسية للنّشر، 1974

2. الكتب الفرنسية مرتّبة حسب الترتيب الأبجدي لمؤلّفيها:

-ANDRE (F.P.J.), ***Contribution à l'étude des Confréries Religieuses Musulmanes,*** Alger, Maison des livres, 1956.

- BROSSELARD (CH.), ***Les Khouans et la Constitution des ordres religieux Musulmans en Algérie,*** Alger, Imp. A. Bourget, 1859.

- DAUDET (E.), ***Les Arabes et la guerre,*** Paris, Imp. Artistique "Lux", 1915.

- DOUTTE (E.), ***Notes sur l'Islam Maghrébin, les Marabouts,*** Paris, 1900.

- DUVEYRIER (H.), ***La Confrérie Musulmane de Sidi Mohamed Ali Es-senousi et son domaine géographique en l'année 1300 de l'Hégire, 1883 de notre ère,*** Paris, Société de Géographic, Imp. Réunies, 1884.

- EL MENIF (M.S.), ***l'Islam face au colonialisme en Tunisie, le problème des naturalisations,*** Mémoire pour le Diplôme d'Etudes Supérieures de Sciences politiques (Dactylographié), Université de Paris I, Panthéon Sorbonne, février 1974.

- ESTOURNELLES (P.), ***les Congrégations religieuses chez les Arabes et la conquête de l'Afrique du Nord,*** Paris, Imp. Burdın, 1887.
- GANIAGE (J.), ***les Origines du protectorat Français en Tunisie, (1861 - 1881),*** Paris, P.U.F., 1959.
- HANOTEAU (G.), ***Histoire des Colonies Françaises et de l'expansion de la France dans le monde,*** Paris, Imp. Parıs - Vanves, t. 3, 1931.
- HERMASSI (A.), ***Mouvement ouvrier en société coloniale: la Tunisie entre les deux guerres,*** thèses de Doctorat de 3è cycle (non publiée), Ecole Pratique des hautes Etudes, 6è Section, Sciences économıques et socıales, Paris, 1966.
- KRAIEM (M.), ***Nationalisme et syndicalisme en Tunisie, 1918 - 1929,*** Tunıs, Imp. de l'U.G.T.T., 1976.
- KRAIEM (M.), ***La Tunisie Précoloniale,*** Tunis, S.T.D. 2t. , 1973.
- LAKHDAR (t.) ***Essaie sur la Tunisie, Naturalisation Française et Nationalisme Tunisien,*** Thèse de Scıences polıtiques, Paris, 1932.
- MAHJOUBI (A.) et KAROUI (H.), ***Quand le soleil s'est levé à l'Ouest, TUNISIE 1881, Impérialisme et résistances,*** Tunis, Cerés production, 1983.
- MIEGE (J.P.), ***Expansion Européenne et décolonisation de 1870 à nos jours,*** Paris, P.U.F, 1973.
- SANHOURY, ***Le Califat: son évolution vers une société des Nations Orientales,*** Paris, Geuthner, 1926.
- SLAMA (B.), ***l'Insurrection de 1864 en Tunisie,*** Tunıs, M.T.E , 1967.
- STODDART (L), ***Le nouveau monde de l'Islam,*** traduit de l'anglais, Parıs, Payot, 1923.
- ZMERLI (S.), ***Figures Tunisiennes, Les Successeurs,***Tunis, M.T.E., 1967.
- ZOUARI (A.), ***Les relations Commerciales entre Sfax et le Levant aux XXIIIè et XIXè siècles,*** Thèse de Doctorat de 3è cycle (Dactylogıaphıée), Université de Provence, 1977.

المجلات والدّوريـــــات :

1 . المجـلات والدوريات العـربيـة مرتّبـة حسب التـرتيب الأبجـدي لأسمـاء أصـحاب المقـالات الواردة فيـها، وعند افـتـقاد الاسم يقع التـرتيب حسب أسمـاء الدوريات نفسـها آخـذين بالاعـتبـار في نفس الوقت تاريخ صـــدورها .

ـ الامام، هيفاء، «مقارنة بين مؤسّسي الطرق الصوفية التالية : التّيجانية، السّنوسية، والمهدية»، **المجلة التاريخية المغربية**، تونس، مطبعة الاتحاد العام التّونسي للشّغل، عدد 4، (جويلية 1975)، ص 122 ـ 123.

ـ ابن ابراهيم، محمد الهاشمي، «نداء السيد محمد الهاشمي بن ابراهيم ـ شيخ الطريقة القادرية في زاويتي توغرت وعميش ـ الى كافة اخوان طريقته»، **مجلة العالم الاسلامي** ***(Revue du Monde Musulman)*** باريس، ارنيست لرو، 1، م. 29، ديسمبر 1914، ص 240 ـ 242.

ـ ابن الحقيقة، «مقاطعة المراكب الكهربائية وسببها»، **مجلة المنار**، مصر، مطبعة المنار، ج 5، م. 15، عدد 17 ماي 1912، ص 389 ـ 391.

ـ ابن سيدي محمد البشير، محمود، «وصية السّيد محمود بن سيدي البشير بن القطب الأكبر سيدي أحمد التّيجاني لأحباب الطريقة التّيجانية أينما كانوا»، **مجلة العالم الاسلامي**، (R.M.M.)، ج 1، م. 29، ديسمبر 1914، ص 202 ـ 204.

ـ ابن شعبان، محمد، محمد البشير الشّريف، «شواهد الاخلاص»، **الزهرة**، تونس، المطبعة التّونسية، السنة 26، عدد 20399، ليوم 1914/11/17، ص 2.

ـ ابن شعبان، مصطفى، «المجاعة والبطالة»، جريدة **لسان الشعب**، تونس، المطبعة التّونسية، السنة 14، عدد 559، ليوم 1934/3/7، ص 2.

ـ ابن الشّيخ، عمر، «رسائل الاخلاص»، **الزّهرة**، السنة 27، عدد 2053، ليوم 1914/12/1، ص 2.

ـ ابن عبدالملك، حسونة، «رسائل الاخلاص»، **الزّهرة**، السنة 27، عدد 2054، ليوم 1914/12/2، ص 2.

ـ ابن عزّوز، عبدالحميد، «رسائل الاخلاص»، **الزّهرة**، السنة 27، عدد 2056، ليوم 1914/12/4، ص 2.

ـ ابن علي بن عيسى، حمده، «رسائل الاخلاص، **الزّهرة**، السنة 27، عدد 2049 ليوم 1914/11/27، ص 2.

ـ ابن عيسى، الطيّب، «البدع والاسراف»، جريدة الوزير، تونس، المطبعة الأهلية، السنة الثانية، عدد 85، ليوم 1922/1/23، ص 1.

ـ ابن الغربية، حسن بن صالح، «ترجمة المقدّس المبرور سيدي ادريس الشّريف مفتي بنزرت»، الزّهرة، السنة 47، عدد 8236، ليوم 1934/10/26 ص 3.

ـ أبوبكر، سعيد، «البدع والاسراف» الوزير، عدد 83، ليوم 1922/1/9، ص3.

ـ بلحسن، محمد، «شواهد الاخلاص»، الزّهرة، السنة 27، عدد 2047، ليوم 1914/11/25، ص 2.

ـ حسن حسني، عبدالوهاب، «الطبّ العربي في افريقية»، مجلة الفكر، تونس، الشركة التونسية لفنون الرسم، السّنة 3، عدد 1، (جويلية 1958)، ص 7 ـ 16.

ـ ح. ص.، «توزر ومسألة التّجنيس»، لسان الشعب، عدد 522، ليوم 1933/4/19، ص 3.

ـ الحنفي، البشير، «مسألة التّجنيس والمشاكل النّاجمة عنها»، لسان الشعب، عدد 540، ليوم 1933/9/6، ص 1.

ـ السّهيلي، يوسف بوحجر، «رسائل الاخلاص»، الزّهرة، السنة 27، عدد 2049، ليوم 1914/11/27، ص 2.

ـ سيدي عمران، «شكوى وانتقاد»، جريدة المنتظر، تونس، مطبعة العمالة، السنة الثّالثة، عدد 21، ليوم 1893/8/20، ص 3.

ـ ش.، «مآل متجنّس»، لسان الشعب، السنة 13، عدد 513 ليوم 1933/1/11 ص 3.

ـ الشّابي، علي «مصادر جديدة لدراسة تاريخ الشّابية»، المجلة التاريخية المغربية، عدد 13 ـ 14، (جانفي 1979) ص 55 ـ 81.

ـ الشّريف، محمد العربي، بلقاسم الشريف، «رسائل الاخلاص»، الزّهرة، السنة 27، عدد 2043، ليوم 1914/11/21، ص 2.

ـ الشّريف، محمد العربي، بلقاسم الشريف، «رسائل الاخلاص»، الزهرة، السنة 27، عدد 2049، ليوم 1914/11/27، ص 2.

ـ الشنّوفي، محمد المنصف، «مصادر عن رحلتيْ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده الى تونس»، حوليات الجامعة التّونسية، تونس، المطبعة الرّسمية للبلاد التونسية، عدد 3، 1966، ص 71 ـ 102.

ـ الشنّوفي، محمد المنصف «علائق رشيد رضا صاحب مجلّة المنار مع التونسيين ـ (1898ـ1935)»، حوليات الجامعة التونسية، عدد 4، 1967، ص 12 ـ 151.

ـ شيخ الطريقة التيجانية، «نداء شيخ الطريقة التيجانية لأحباب طريقته في العالم الاسلامي»، مجلة العالم الاسلامي *(R.M.M)* ، ج1، م. 29، ديسمبر 1914، ص190.

ـ الصّغير، محمد، «نداء السيد محمد الصّغير بن الشّيخ المختار شيخ الطريقة الرّحمانية في زاوية أولاد جلال»، مجلّة العالم الاسلامي (R.M.M) ج 1، م. 29، ديسمبر 1914، ص 204.

ـ العامري، محمد الهادي، «مظاهرة القيروان»، لسان الشعب، عدد 523، ليوم 1933/4/26، ص 2.

ـ العمراني، محمد الصّالح، «رسائل الاخلاص»، الزّهرة، السنة 27، عدد 2049، ليوم 1914/11/27، ص 2.

ـ القفصي، صالح كرّو «الدين والبدع»، الوزير، عدد 89، ليوم 1922/2/20، ص 2.

قلاّتي، حسن، «حول الاصلاحات التّونسية»، جريدة البرهان، تونس، المطبعة التّونسية، السنة الأولى، عدد 39، ليوم 1922/8/1، ص 1.

ـ القيزوني، محمد، «رسائل الاخلاص»، الزّهرة، السنة 27، عدد 2049، ليوم 1914/11/27، ص 2.

ـ الكافي ، عبدالرحمان، «ملزومة»، النّديم، تونس، المطبعة التونسية، عدد 77 ـ ليوم 1922/9/3، ص 4.

ـ الكافي، عبدالرحمان، «ملزومة الزّردة»، النّديم، عدد 79، ليوم 1922/9/16، ص 4.

ـ اللّوز، محمد بن الحاج، «رسائل الاخلاص»، الزّهرة، السّنة 27، عدد 2049، ليوم 1914/11/27، ص 2.

ـ المحجوبي، علي، «مقاومة السكّان التّونسيين للاحتلال الفرنسي»، **المجلة التّاريخة المغربية**، السنة 11، عدد 34/33، (جوان 1984) ص 111ـ 124.

ـ مراسل، «اعترافات خطيرة، صاحب السجّادة الكبرى يلقي بين يديْ فرنسا خطبة الاخلاص»، **مجلّة الفتح**، القاهرة، المطبعة السّلفية، عدد 257، 1930، ص 1ـ 3، و14ـ 15.

ـ المراسل المتجوّل، «المتجنّسون وجوامع المسلمين»، **لسان الشعب**، السنة 14، عدد 539، ليوم 1933/8/23، ص 3.

ـ مكاتب «التظاهر ضدّ التّجنيس بالمكنين»، **لسان الشعب**، عدد 525، ليوم 1933/5/10، ص 3.

ـ المكاتب المتجوّل، «شيخ طريقة يتكلّم»، **لسان الشعب**، عدد 541، ليوم 1933/9/13، ص 3.

ـ الميساوي، عبدالجليل، «زوايا الوسط الغربي ودورها الاجتماعي»، **مجلة الحياة الثقافية**، تونس، وزارة الشؤون الثقافية والأخبار، السنة 7، عدد21، (ماي ـ جوان 1982)، ص 55 ـ 69.

ـ ميْسوم، عبدالرحمان، «وصية السّيد ميْسوم عبدالرحمان ابن الشيخ الميسوم شيخ الطريقة الشّاذلية في زاوية قصر البخاري»، **مجلة العالم الاسلامي** *(R.M.M.)*، ج 1، م. 29، ديسمبر 1914، ص 246 ـ 248.

ـ نعمان، محمد، «الصّندوق العقّاري»، الزّهرة، السنة 46، عـدد 7960، ليوم 1933/11/28، ص 1.
ـ نعمـان، محمـد، «تأسيـس الصنـدوق العقـاري»، الزّهرة، السـنة 46، عـدد 7964، ليوم 1933/12/3، ص 1.
ـ الهـاني، عـبدالـقادر، «الدّور الاجـتـمـاعي والثقـافي للزّوايا بـجهـة سليانة»، مجلة الحياة الثقافية، السنة 8، العدد 26 ـ 27 ـ (مارس أفريل ـ ماي جوان 1983)، ص 115ـ 119.
ـ الهـمّامي، الطاهر، «العاصـمـة تقاطع شـركة التّرامـواي»، مجلّة حقائق، تونس، شركة سنيب، عدد 57، ليوم 1985/2/15، ص 16 ـ 17.
ـ «اعلان حالة الحصار بالمملكة التّونسية»، الزّهرة، السنة 26، عدد 1940، ليوم 1914/8/5، ص 2.
ـ «نسخة أمر علي»، الزّهرة، السنة 26، عدد 2021، ليوم 1914/10/27، ص 2.
ـ «خطاب ملوكي لعامّة الرّعايا التّونسيين»، الزّهرة، السنة 27، عدد 2033، ليـوم 1914/11/11، ص 1.
ـ «نشـاط الكنيسـة الكاثوليكيـة»، الزّهـرة، السـنة 42، عـدد 6863، ليـوم 1930/4/25ص 1.
ـ «تنويه الصّحافة الأجنبية بتسامح الاسلام»، الزّهرة، السنة42، عدد 6871 ليوم 1930/5/5، ص 1.
ـ «الفـلاحة التـونسيـة في خطر، نداء حار من السـيناتور برانجي»، الزّهرة، السنة 45، عدد 7657، ليوم 1932/12/1، ص 1.
ـ «مظاهـرة شـعبيـة بحمـام الأنـف»، الزّهـرة، عـدد 7772، ليـوم 1933/4/19، ص 3.
ـ «تأثير فتـوى التّجنيس بداخـل المملكـة»، الزّهـرة، عدد 7773، ليـوم 1933/4/20، ص 3.

ـ «مظاهرة أهل سوسة الواقعة صباح يوم الثلاثاء ضدّ التّجنيس والفتوى الصادرة في شأنه»، الزّهرة، عدد 7774، ليوم 1933/4/21، ص 2.

ـ «مظاهرة القيروان»، الزّهرة، عدد 7777، ليوم 1933/4/25، ص 1.

ـ «الحكم في قضية المتظاهرين بالقيروان»، الزّهرة، عدد 7781، ليوم 1933/4/30، ص 2.

ـ «مظاهرة الفلاّحين التّونسيين»، الزّهرة، السّنة 46، عدد 7842، ليوم 1933/7/12، ص 2.

ـ «الأزمة الاقتصادية»، الزّهرة،عدد 7962، ليوم 1933/11/30، ص1.

ـ «جمعية الاغاثة التونسية»، الزّهرة،السنة 46، عدد 8031، ليوم 1934/2/22، ص 2.

ـ «زيارة جناب العميد لمحلاّت الاسعاف الأهلية»، الزّهرة، السنة 46، عدد 8036، ليوم 1934/2/28، ص 2.

ـ «زيارة جناب العميد للمطابخ الشّعبية»، الزّهرة، عدد 8037، ليوم 1934/2/29، ص 2.

ـ «رواية العبّاسية لفائدة جمعية الإغاثة التّونسية»، الزّهرة، السنة 46، عدد 8039، ليوم 1934/3/4، ص 3.

ـ «جمعية الاغاثة التّونسية،» الزّهرة، السنة، 46، عدد 8040، ليوم 1934/3/5، ص 2.

ـ «نداء شاعر القيروان الى الاكتتاب الوطني لاعانة البائسين»، الزّهرة، عدد 8042، ليوم 1934/3/7، ص 3.

ـ «قصيدة الشّاعر جلال الدّين النقّاش»، الزّهرة، عدد 8048، ليوم 1934/3/14، ص 3.

ـ «حفلة خيْرية نسائية لإغاثة الجائعين»، الزّهرة، عدد 8055، ليوم 1934/3/22، ص 2.

ـ «جمعية البرّ العربي بصفاقس»، الزّهرة، السنة 47، عدد 8130، ليوم 1934/6/21، ص 3.

ـ «اشتراء الادارة للحبوب»، الزّهرة، السنة 47، عدد 8178، ليوم 1934/8/20، ص 2.

ـ «حوادث دامية بالمكنين»، الزّهرة، السّنة 47، عدد 8194، ليوم 1934/9/7 ص 2.

ـ «حول حادثة المكنين»، الزّهرة، السنة 47، عدد 8195، ليوم 1934/9/9، ص 2.

ـ «مكاتبات الجهات»، الزّهرة، السنة 47، عدد 8195، ليوم 1934/9/9، ص 3.

ـ «رجوع الهدوء في داخل الايالة»، الزّهرة، عدد 8198، ليوم 1934/9/12، ص 2.

ـ «بوادر الاصلاح الاقتصادي»، الزّهرة، السنة 47، عدد 8202 ليوم 1934/9/17، ص 1.

ـ «بلاغ»، الزّهرة، عدد 8206، ليوم 1934/9/21، ص 2.

ـ «ماذا كان تأثير البلاغ السّفيري في الأوساط التونسية؟» الزّهرة، عدد 8207، ليوم 1934/9/23، ص 1.

ـ «بعد صدور البلاغ السّفيري»، الزّهرة، عدد 8208، ليوم 1934/9/24، ص 3.

ـ «تنقّلات جناب العميد في المنطقة الخامسة»، الزّهرة، عدد 8210، ليوم 1934/9/26، ص 2.

ـ «إلغاء أداء العشر»، الزّهرة، السنة 48، عدد 8573، ليوم 1935/11/30، ص 2.

ـ «مقاومة آفة الرّبا تكتسي شكلا جديداً ناجحًا»، الزهرة، عدد 8586، ليوم 1935/12/13، ص 1.

- «الرحلة الأولى الرّسمية لجناب العميد في الجنوب» الزهرة، عدد 8734، ليوم 1936/5/12، ص 2.
- «رحلة جناب العميد الى الجنوب التّونسي»، الزّهرة، عدد 8735، ليوم 1936/5/13، ص 2.
- «رحلة جناب العميد الى الجنوب التّونسي»، الزّهرة، عدد 8736، ليوم 1936/5/14، ص 2.
- «حول زيارة جناب العميد الى بلد جمّال»، الزّهرة، عدد 8795، ليوم 1936/7/13، ص 3.
- «أشغال إسعاف البطّالين» الزّهرة، السّنة 49، عدد 8803، ليوم 1936/7/21، ص 2.
- «مظاهرة بتوزر ضدّ الأزمة الحاضرة»، الزّهرة السنة 49، عدد 8839، ليوم 1933/8/25، ص 2.
- «مظاهرة البطّالين في سوسة، وقوع بعض الحوادث»، الزّهرة، السّنة 49، عدد 8839، ليوم 1933/8/25، ص 3.
- «يوم الزّعماء بصفاقس»، الزّهرة، عدد 8866، ليوم 1936/9/21، ص 3.
- «مقاومة البطالة»، الزّهرة، عدد 8986، ليوم 1937/7/21، ص 4.
- «في أوساط الجائعين، حوادث مؤلمة بقرب الملاّسين بين الجائعين وأعوان الأمن»، الزّهرة، السنة49، عدد 9000،ليوم 1937/2/4 ص 4.
- «في أوساط الجائعين»، الزّهرة، عدد 9001، ليوم 1937/2/5، ص1 و2.
- «مقاطعة الطليان»، الصّواب، السنة 2، عدد 297، ليوم 1911/10/20، ص 4.
- «الايطاليون بتونس»، الصّواب، عدد 298، ليوم 1911/10/27 ص1.
- «السّنوسي»، الصّواب، السنة 2، عدد 298، ليوم 1911/10/27، ص 3.

ـ «صدى الكاف»، الصّواب، السنة 17، عدد 361، ليوم 1921/7/29، ص 3.

ـ «اشتداد الكرب على الفلاّحين من جراء تدهور الأسعار»، الصّواب، السنة 30، عدد 775، ليوم 1935/8/9، ص 2.

ـ «لجنة إغاثة البائسين»، الصّواب، السنة31، عدد807، ليوم 1937/1/22، ص3.

ـ «لجنة إغاثة الجائعين والعراة»، الصّواب، عدد 808، ليوم 1937/2/12، ص 3.

ـ «لجنة إغاثة الجياع والعراة»، الصّواب، عدد 810، ليوم 1937/3/26، ص 3.

ـ «جمعية مقاومة البدع والاسراف»، لسان الشعب، السنة ، عدد 44، ليوم 1921/12/27، ص 2.

ـ «حول مسألة البربر في المغرب الأقصى، هفوة يجب ان تتدارك»، لسان الشعب، السنة 11، عدد 407، ليوم 1930/9/17، ص 2.

ـ «حوادث كبرى بالمنستير»، لسان الشعب، عدد 537، ليوم 1933/8/9، ص2.

ـ «بيان حقيقة»، لسان الشعب، عدد 543، ليوم 1933/9/27، ص 3.

ـ «مقاومة البدع والاسراف»، النّديم، عدد 44، ليوم 1921/12/21، ص 2.

ـ «اعتداء على الأرض»، النّديم، عدد 74، ليوم 1922/8/16، ص 2.

ـ «مقاومة البدع والاسراف»، الوزير، السّنة 2، عدد 85، ليوم 1922/1/23، ص2.

2. المجلات والدّوريات الأجنبية مرتّبة حسب التّسلسل الأبجدي لأسماء أصحاب المقالات فيها، وعند افتقاد الاسم يقع الترتيب حسب أسماء الدّوريات نفسها مع الأخذ بالاعتبار لتاريخ صدورها.

- A.D., "Le rôle des Marabouts en Tunisie", ***Le Courrier de Tunisie***; Tunisie, 8è Année n° 2753, du 24/5/1912; p. 1.
- AYADI (T.); "La résistance Sfaxienne à l'occupation Coloniale en 1881", ***Réactions à l'Occupation Française de la Tunisie en 1881, Actes du 1er Séminaire sur l'histoire du Mouvement National (29, 30 et 31 mai 1881),*** Sidi-Bou-Saïd, Tunisie, Imprimerie Officielle de la République Tunisienne pp. 161 - 194.
- BACH HAMBA (A.), "Les responsabilités", ***le Tunisien***, Tunisie, Imp. Rapide, du 16/11/1911, p 1. (au C.D.N. dossier A-1-42).
- BUAZIZ (Y.), "Dawr Tunis fi dam harakat attahrir ald jaza iryati wa mawkifaldjzairiyina min htilaliha ama 1881", ***Réactions à l'occupation Française de la Tunisie en 1881***, Actes du 1er séminaire sur l'histoire du Mouvement National Tunisien, pp. 107 - 122.
- CHEBIL (M.), "Les grands Habous de Zaouias", ***Bulletin Economique et social de la Tunisie,*** n° 92 (Septembre 1954), pp. 36 - 42.
- CHERIF (M.H.), "Les réactions citadines à l'occupation Française de la Tunisie en 1881 et leurs limites", ***Réactions à l'occupation Française de la Tunisie en 1881***, Actes du 1er séminaire du Mouvement National Tunisien, pp. 227 - 238.
- CHERIF (M.H.), "L'Organisation des masses populaires par le Néo-destour en 1937 et au début de 1938, Les journées d'avril 1938 à Tunis", ***Mouvements Nationaux d'Indépendance et Classes Populaires aux XIXè et XXè siècles en Occident et en Orient,*** Paris, Armand Colin, 1971, pp. 264 - 294.
- DEMEERSEMAN (A.), "Formulation de l'idée de patrie en Tunisie de 1837 à 1872; interprétation psychologique", ***Revue de l'Institut des Belles Lettres Arabes (I.B.L.A),*** Tunisi, I.B.L.A, 29è Année, n°= 114 - 115, 2è/3è Trimestre, 1966, pp. 109 - 142.
- EL KHLIL, "Le Maroc ne veut pas de l'evangelisation", ***La voix du Tunisen,*** Tunis, Imp. de Tunis, 1er année, n°= 23 - 24, du 19/9/1930, p. 1 - 2.
- FALLOT (E.), "Roy Secrétaire Général du Gouvernement Tunisien", ***L'Afrique Française,*** 30è Année, n°= 1 (Janvier 1920), p. 7.
- GREEN (A.H.), "French "Islamic policy" in Tunisia, 1881 - 1918, a preliminary inquiry", ***Revue d'Histoire Maghrébine,*** Tunis, Imp. de l'U.G.T.T., n° 3 (Janvier 1975), pp. 5 - 17.
- "L'Inspecteur des Services Administratifs au R.G., le 15/2/1937", ***Revue WATHA'IQ,*** Tunis, les Imprimeries Réunies, n° 4, 1985, pp. 25 - 69.
- JULIEN (CH.A.), "Colons Français et Jeunes Tunisiens, 1882 - 1912", Extrait de ***la Revue Française d'Histoire d'Outre-Mer,*** t. 4; (1967), du n° 194 au n° 197.

- KRAIEM (M.), "Le Parti - réformiste Tunisien, 1920 - 1926", ***Revue d'Histoire Maghrébine;*** n° 4, (Juillet 1975), pp. 150 - 162.

- KRAIEM (M.), "La question de l'annexion Italienne de la Libye", ***Revue d'Histoire Maghrébine,*** n° 6, (Juillet 1976), pp. 157 - 179.

- LAUZANN (S.), "Le Centenaire de l'Algerie et le Cinquentenaire de la Tunisie", ***La Tunisie Française,*** Imp. de la Tunisie Française, 44è Année, n° 7882, du 3/1/1930, p. 1.

- LOUZON (R.), "De Mohamed Ali à Ferhat Hached, l'action ouvrière en Tunisie", ***La Révolution Prolétarienne,*** n° 72 (mai 1953), pp. 129 - 132.

- LOUZON (R.), "Les protégés des protecteurs", ***l'Avenir Social,*** Tunis, Imp. L. Rombi, 3è Année, les n° 188 du 2/6/1921, p. 1 - 2, n° 191 du 12/6/1921, p. 1; n° 200 du 31/7/1921, p. 1.

- MAHJOUBI (A.), "Les réformes de 1922 et le Mouvement National Tunisien", ***Revue Tunisienne des Sciences Sociales,*** Tunis, Imp. de l'U.G.T.T., 13è Année, n°= 45, (1976), pp. 99 - 139.

- MARTIN (B.G.), "Lees tijanis et leurs adversaires, développement récents de l'Islam au Ghana et au Togo", ***Les Ordres mystiques dans l'Islam, Cheminements et situation actuelle,*** Belgique, l'Imp. Orientaliste Leuven, (Décembre 1985), p. 283.

- MONCHICOURT (CH.), "La Steppe Tunisienne chez les Fréchiches et les Majeurs, (regions de Fériana, Kasserine, Sbeitla, Djilma)", ***Bulletin de la Direction de l'Agriculture et du Commerce,*** Tunisie, Imp. Rapide Moderne, 10è Année, n° 38, 1er Trimestre, 1906, pp. 38 - 76.

- OULED MOHAMED (H.), "Notes à propos des enquêtes Coloniales sur la religion populaire en Tunisie de 1896 à 1934"; ***Cahiers de la Méditerranée,*** publiés par le Centre de la Méditerranée Moderne et Contemporaine, n° 20/21, (Juin - Décembre 1980), pp. 81 - 99.

- PELLEGRIN (A.), "une loi Française et un Dâhir Marocain", ***Tunis Socialiste,*** n° 2563, du 28/2/1930, p. 1.

- SFAR (B.), "Les Habous en Tunisie envisagés au point de vue de l'opinion publique indigène et de l'interêt général", ***compte-rendu des travaux du Congrés de l'Afrique du Nord,*** Paris, t. 2, 1909, pp. 385 - 404.

T.F., "Le Centenaire de la Conquête d'Algérie", ***la Tunisie Française,*** n° 7913, du 3/2/1930, p. 1.

- TLILI (B.), "Les rapports Arabo-Turcs à la veille de la grande guerre (1907 - 1913)", ***Les Cahiers de Tunisie,*** Tunis, Les presses de la Société Tunisienne des Arts Graphiques, XXIII, n° 89 - 90, 1er et 2è trimestre, 1975, pp. 33 - 140.

- "L'Affaire de Kasserine-Thala devant le Tribunal de Sousse", ***La depêche Tunisienne,*** Tunisie, Imp. Rapide de Louis Nicolas et Cie, 18è Année, n° 5937, du 22/11/1906, p. 3 - 4.
- "Une grave échauffaurée à Tunis, manifestation qui tourne à l'emeute", ***La Dépêche Tunisienne,*** du 8/11/1911, p. 1.
- "Les troubles de Tunis", ***Le Courrier de Tunisie***, n°= 2563, du 17/11/1911, p.2.
- "Souscription", **Le Courrier de Tunisie**, n° 2658, du 16/2/1912, p. 2.
- "Lettre de BACH - HAMBA", ***Le Courrier de Tunisie***, n° 2715, du 14/4/1912, p. 1.
- Affaire du Djellaz", ***Le Courrier de Tunisie***, n° 2764, du 4/6/1912, p. 1 et 4.
- "Affaire du Djellaz", ***Le Courrier de Tunisie***, n° du 6/6/1912, p. 1 et 4.
- "Affaire du Djellaz", ***Le Courrier de Tunisie***, n° 2771, du 11/6/1912, p. 1 et 4.
- Affaire du Djellaz", ***Le Courrier de Tunisie***, n° 2772, du 12/6/1912, p. 1.
- "Les Indigènes se revoltent, une sanglante émeute aux portes de Tunis", ***La Tunisie Française,*** du 7/11/1911, p. 1.
- "L'Affaire du Djellaz", ***La Tunisie Française***, du 3/6/1912, pp. 5 - 7.
- "Le boycottage des Tramways", ***La Tunisie Française***, du 12/3/1912, p. 1.
- "Echos de Gafsa", ***La Voix du Tunisien***, n°= 574, du 21/4/1933, p. 2.

٧ــ دوائر المعارف والأطالس والمعاجم:

ــ ادريس، سهيل وجبّور عبدالنّور، المنهل الوسيط، قاموس فرنسي ــ عربي، بيروت، دار العلم للملايين، ط. 4، أفريل 1981.

ــ جون أفريك، أطالس «جون أفريك»، اطلس تونس، باريس، منشورات «جون افريك 1980».

ــ وجدي، محمد فريد، دائرة معارف القرن العشرين، بيروت، دار المعرفة، ط. 3، م. 3، (لات).

- HEFFENING, "Wakfou Habs", ***l'Encyclopédie de l'Islam,*** Pairs, Leyde, E.J. Brill, t. IV - 2, 1934, pp. 1154 - 1162.
- LEVI - PROVENCAL (E.), "Zawiya", ***l'Encyclopédie de l'Islam,*** t. IV- 2, p. 1289 - 1290.

- MARGOLIOUTH (D.S), "Tidjaniya", ***l'Encyclopédie de l'Islam,*** t. IV - 2, p. 784 - 785.
- MASSIGNON (L.), "Tarika", ***l'Encyclopédie de l'Islam,*** t. IV - 2, pp. 700 - 705.
- RUSTOW (D.A.), "ENWER PASHA", ***l'Encyclopédie de l'Islam***, t. 2, 1965, pp. 716 - 720.





الفهـــارس



فهـــرس الاعـــلام

ـ أ ـ

— ب —

— خ —

— د —

— ر —

— ز —

— س —

— ش —

— ص —

— ط —

— ظ —

ـ ع ـ

ـ غ ـ

ـ ف ـ

ـ ق ـ

— م —

— ن —

فهرس القبائل والجماعات والأمم

ـ أ ـ

ـ ح ـ

ـ خ ـ

ـ د ـ

— ش —

— ص —

ـ ض ـ

ـ ط ـ

ـ ع ـ

— غ —

— ف —

ـ ق ـ

ـ ك ـ

ـ ل ـ

ـ م ـ

— ن —

— و —

— ي —

فهرس الوظائف الدّينية والادارية والسّياسية وغيرها:

— د —

— ر —

— س —

— ش —

ـ ك ـ

ـ ل ـ

ـ م ـ

فهرس المؤسّسات والتنظيمات والجمعيات الدّينية والسّياسية والاجتماعية وغيرها

— ر —

— ز —

ـ ط ـ

ـ غ ـ

ـ ق ـ

ـ ك ـ

ـ م ـ

فهرس الطرق الصوفية

فهرس الأماكـــــــن

ـ أ ـ

— ب —

ــ ت ــ

ـ خ ـ

ـ د ـ

ـ ذ ـ

— ر —

— ز —

— س —

ـ ش ـ

ـ ص ـ

ـ ط ـ

ـ ع ـ

ـ غ ـ

ـ ف ـ

ـ ق ـ

— ن —

— هـ —

— و —

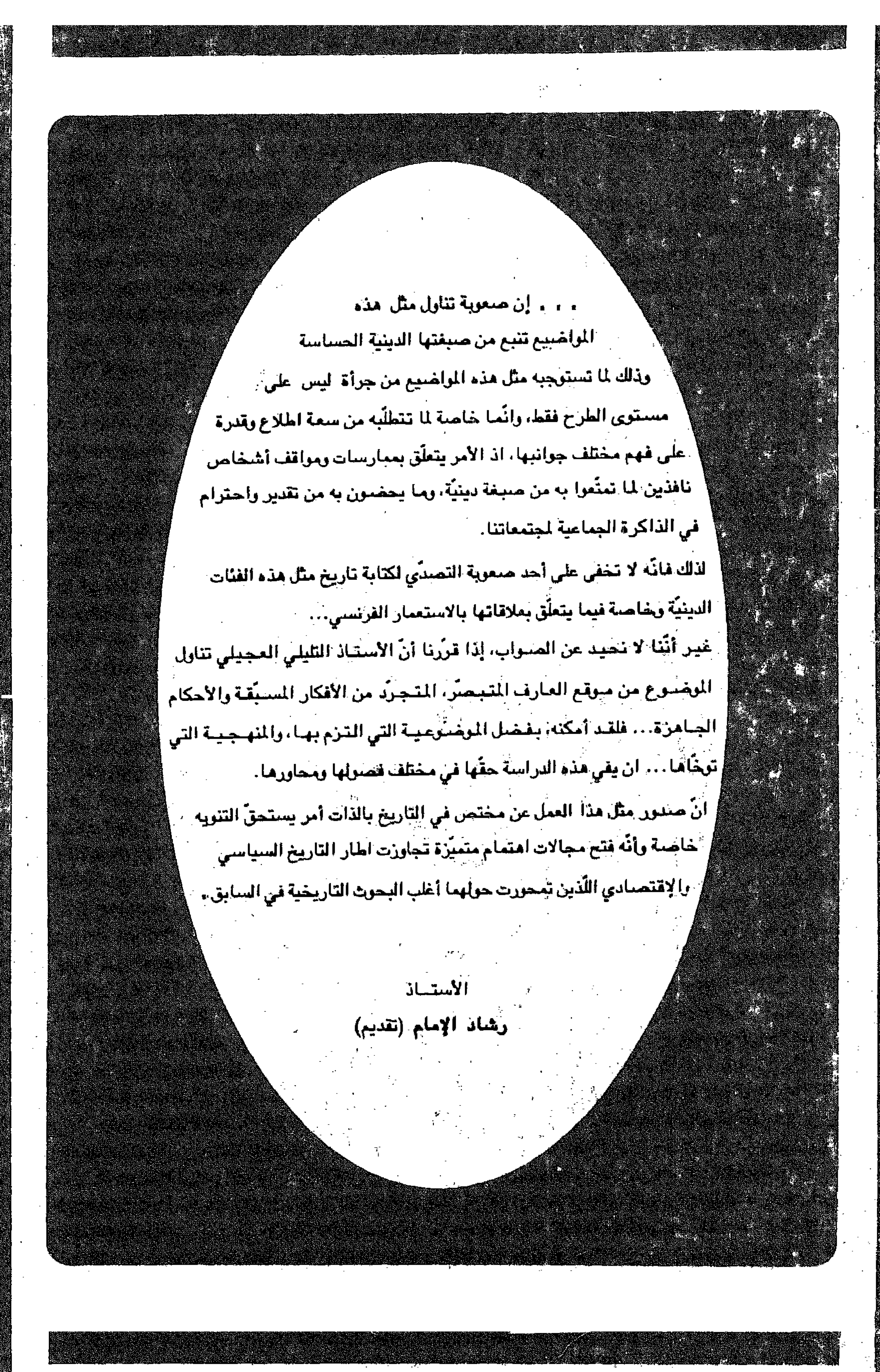
— ي —

فهرس الجداول والخرائط

1. فهرس الخرائط:

2. فهرس الجداول





. . . إن صعوبة تناول مثل هذه المواضيع تنبع من صبغتها الدينية الحساسة وذلك لما تستوجبه مثل هذه المواضيع من جرأة ليس على مستوى الطرح فقط، وانّما خاصة لما تتطلّبه من سعة اطلاع وقدرة على فهم مختلف جوانبها، اذ الأمر يتعلّق بممارسات ومواقف أشخاص نافذين لما تمتّعوا به من صبغة دينيّة، وما يحضون به من تقدير واحترام في الذاكرة الجماعية لمجتمعاتنا.

لذلك فانّه لا تخفى على أحد صعوبة التصدّي لكتابة تاريخ مثل هذه الفئات الدينيّة وخاصة فيما يتعلّق بعلاقاتها بالاستعمار الفرنسي...

غير أنّنا لا نحيد عن الصواب، إذا قرّرنا أنّ الأستاذ التليلي العجيلي تناول الموضوع من موقع العارف المتبصّر، المتجرّد من الأفكار المسبّقة والأحكام الجاهزة... فلقد أمكنه بفضل الموضوعية التي التزم بها، والمنهجية التي توخّاها... ان يفي هذه الدراسة حقّها في مختلف فصولها ومحاورها.

انّ صدور مثل هذا العمل عن مختص في التاريخ بالذات أمر يستحقّ التنويه خاصة وأنّه فتح مجالات اهتمام متميّزة تجاوزت اطار التاريخ السياسي والإقتصادي اللّذين تمحورت حولهما أغلب البحوث التاريخية في السابق.

الأستاذ

رشاد الإمام (تقديم)